كتاب

تفسير القرآن الجليل لباب التأويل في معاني التنزيل

الجزء الثالث

تأليف

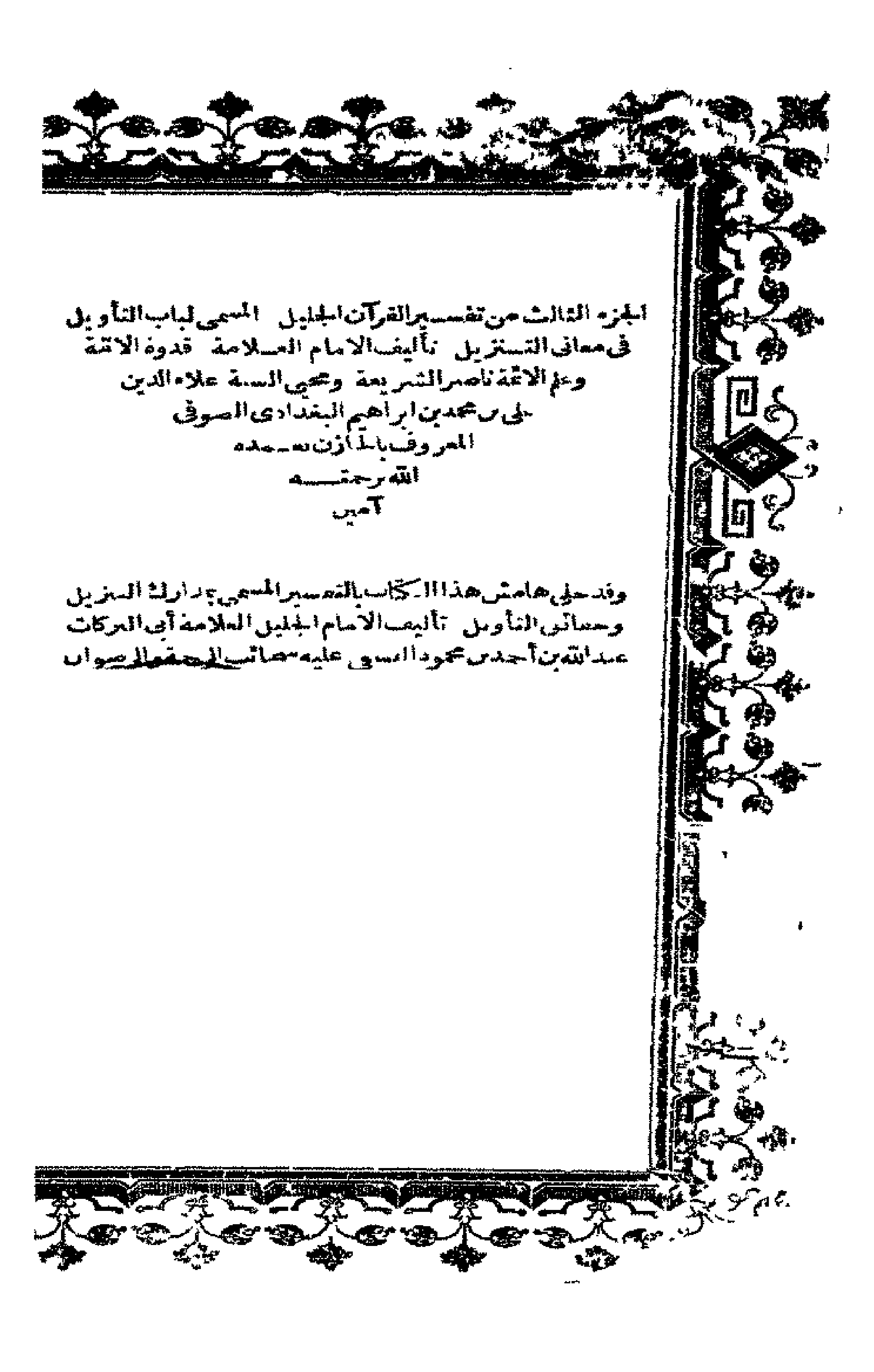
علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الصوفي

Alaa Al-Din Ali Bin Mohamed Bin Ibrahim Al-Baghdadi Al-Soufi

تعليق

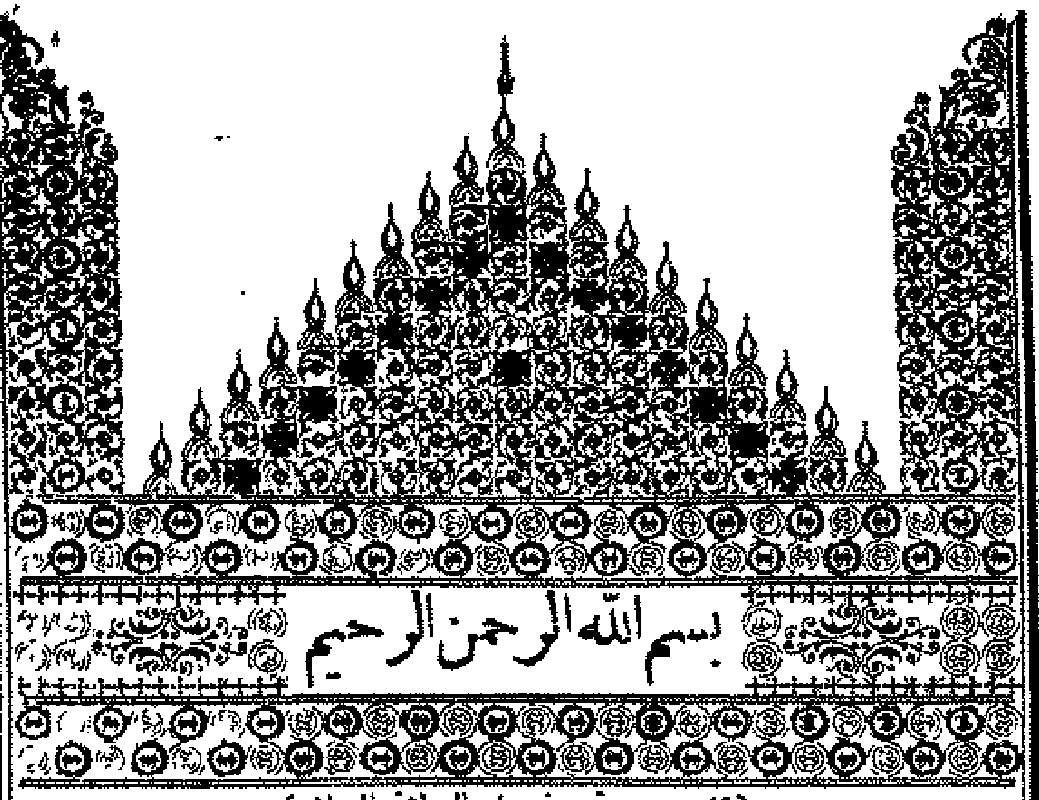
عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

Abdullah Bin Ahmed Bin Mahmoud Al-Nasfi



الجزء الثالث من تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل
في معاني التنزيل تأليف الامام العلامة قدوة الائمة
وعلم الائمة ناصر الشريعة ومحيي السنة علاء الدين
علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الصوفي
المعروف بالخازن تغمده
الله برحمته
آمين

وقد جعل بهامش هذا الكتاب التفسير المسمى بمدارك التنزيل
وحقائق التأويل تأليف الامام الجليل العلامة أبي البركات
عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي عليه سحائب الرحمة والرضوان



﴿تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام﴾

وهي مكية باجماعهم وهي مائة واحدى عشرة آية وألف وستمائة كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى وفي سبب نزولها قولان أحدهما روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى الر تلك آيات الكتاب المبين الى قوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص القول الثاني رواه الضحاك عن ابن عباس قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فأنزل الله عز وجل الر تلك آيات الكتاب المبين الآيات الكريمة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (الر) تقدم تفسيره في أول سورة يونس عليه الصلاة والسلام (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة المسماة بالر هذه (آيات الكتاب المبين) وهو القرآن أي المبين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وقال قتادة مبين بينه الله ببركته وهداه ورشده فهذا من بان أي ظهر وقال الزجاج مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل انه يبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين (انا أنزلناه) يعني هذا الكتاب (قرآنا عربيا) أي أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه وقيل لما قالت اليهود لمشركي مكة سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فأنزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه عربيا فعلى هذا القول يجوز اطلاق اسم القرآن على بعضه لانه اسم جنس يقع على الكل والبعض

﴿سورة يوسف عليه السلام وهي مائة واحدى عشرة آية شامي واثنتا عشرة مكي﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الر تلك آيات الكتاب المبين) تلك اشارة الى آيات هذه السورة والكتاب المبين السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في اعجاز العرب أو التي تبين لمن تدبرها انها من عند الله لا من عند البشر أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف عليه السلام فقد روي ان علماء اليهود قالوا للمشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام (انا أنزلناه قرآنا عربيا) أي أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف عليه السلام في حال كونه قرآنا عربيا وسمي بعض القرآن قرآنا لانه اسم جنس يقع على كله وبعضه

(لعلكم تعقلون) لكي تفهموا معانيه ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته (نحن نقص عليك أحسن القصص) نبين لك أحسن [illegible] القصة على حقيقتها عن الزجاج وقيل القصص يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص تقول قص الحديث يقصه [illegible] وبمعنى مفعول كالنقض والحسب فعلى الاول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص (بما أوحينا اليك هذا القرآن) أي بايحائنا اليك هذه السورة على أن يكون أحسن منصوباً بانتصاب المصدر لاضافته اليه والمقصوص محذوف لان بما أوحينا اليك هذا القرآن مغن عنه والمراد بأحسن الاقتصاص انه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب فانك لا ترى اقتصاصه في كتب الاولين مقارباً لاقتصاصه في القرآن وان أريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الاحاديث وانما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التي ليست في غيره والظاهر انه أحسن ما يقتص في بابه كما يقال فلان أعلم الناس أي في فنه واشتقاق القصص من قص أثره اذا تبعه لان الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ (وان كنت من قبله) الضمير يرجع الى ما أوحينا (لمن الغافلين) عنه ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية يعني وان الشأن والحديث كنت من قبل ايحائنا اليك من الجاهلين به (اذ قال) بدل اشتمال من أحسن القصص لان الوقت مشتمل على القصص أو التقدير اذكر اذ قال (يوسف) اسم عبراني لا عربي اذ لو كان عربياً لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف (لابيه) يعقوب (يا أبت) أبت شامي وهي تاء تأنيث عوضت عن ياء الاضافة لتناسبهما لان كل واحدة منهما زائدة في آخر الاسم ولهذا قلبت هاء في الوقف وجاز الحاق تاء التأنيث بالمذكر كما في رجل ربعة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ومن فتح التاء فقد حذف الالف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في يا غلام (اني رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية (أحد عشر كوكباً) أسماؤها بيان النبي عليه السلام جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين

واختلف العلماء هل يمكن أن يقال في القرآن شيء بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم أن في القرآن لساناً غير العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآناً عربياً وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لان هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب ان شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما ان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية في الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة فظهر بهذا البيان صحة القولين وأمكن الجمع بينهما (لعلكم تعقلون) يعني تفهمون أيها العرب لانه نازل بلغتكم قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) الاصل في معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً والقاص هو الذي يأتي بالخبر على وجهه وأصله في اللغة من قص الاثر اذا تتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى نحن نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام خاصة وانما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة في هذه السورة الشريفة قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها وقوله تعالى (بما أوحينا اليك) يعني بايحائنا اليك يا محمد (هذا القرآن وان كنت) أي وقد كنت (من قبله) يعني من قبل وحينا اليك (لمن الغافلين) يعني عن هذه القصة وما فيها من العجائب قال سعد بن أبي وقاص أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عز وجل ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله قوله عز وجل (اذ قال يوسف لابيه) أي اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لابيه يعقوب بن اسحق بن ابراهيم صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ويوسف اسم عبري ولذلك لا يجري فيه الصرف وقيل هو عربي سئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف أشد الحزن والاسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به (يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً

والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) معناه قال أهل التفسير رأى يوسف في منامه كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم في التأويل اخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه في قول قتادة وقال السدي القمر خالته لان أمه راحيل كانت قد ماتت وقال قتادة وابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لان الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه الصلاة والسلام ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لانه كان في ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود فان قلت ان الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل في قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله ساجدين ولم يقل ساجدات قلت لما أخبر عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقيل ان الفلاسفة والمنجمين يزعمون أن الكواكب أحياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشئ والاول أصح فان قلت قد قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم أعاد لفظ الرؤيا ثانيا فقال رأيتهم لي ساجدين فما فائدة هذا التكرار قلت معنى الرؤيا الاولى أنه رأى أجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية انه أخبر بسجودها له وقال بعضهم معناه انه لما قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له وكيف رأيت قال رأيتهم لي ساجدين وانما أفرد الشمس والقمر بالذكر وان كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال أهل التفسير ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها ان اخوته وأبويه يخضعون له فلهذا (قال) يعقوب (يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك) يعني لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) أي فيحتالوا في اهلاكك فأمره بكتمان رؤياه عن اخوته لان رؤيا الانبياء وحي يحق واللام في فيكيدوا لك كيدا تأكيد للصلة كقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك (ان الشيطان للانسان عدو مبين) يعني انه بين العداوة لان عداوته قديمة فهم ان أقدموا على الكيد كان ذلك مضافا الى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبي قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها الا من يحب واذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لن تضره (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرها ولا يذكرها لاحد فانها لن تضره (م) عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه عن أبي رزين العقيلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا أو حبيبا أخرجه الترمذي ولابي داود نحوه قال الشيخ محيي الدين

(والشمس والقمر) هما أبواه أو أبوه وخالته والكواكب اخوته قيل الواو بمعنى مع أي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر وأجريت مجرى العقلاء في (رأيتهم لي ساجدين) لانه وصفها بما هو المختص بالعقلاء وهو السجود وكررت الرؤيا لان الاولى تتعلق بالذات والثانية بالحال أو الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له كأن اباه قال له كيف رأيتها فقال رأيتهم لي ساجدين أي متواضعين وهو حال وكان ابن ثنتي عشرة سنة يومئذ وكان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة أو ثمانون (قال يا بني) بالفتح حيث كان حفص (لا تقصص رؤياك) هي بمعنى الرؤية الا انها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة وفرق بينهما بحرفي التأنيث كما في القربة والقربى (على اخوتك فيكيدوا لك) جواب النهي أي ان قصصتها عليهم كادوك عرف يعقوب عليه السلام ان الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الاخوة وانما لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني لانه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع افادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو فيحتالوا لك ألا ترى الى تأكيده بالمصدر وهو (كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد

ا و رى

النووي قال المازري ومذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا ان الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فاذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علما على أمور أخر يخلقها في ثاني الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التي يجعلها علما على ما يسر بغير حضرة الشيطان فاذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب الى الشيطان مجازا وان كان لا فعل له في الحقيقة فهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم الرؤيا من الله والحلم من الشيطان لا على أن الشيطان يفعل شيأ والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه وقال غيره اضافة الرؤيا المحبوبة الى الله تعالى اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الرجل في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثا وليتحول الى جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم قوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك) يعني يقول يعقوب ليوسف عليه الصلاة والسلام أي وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعني يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه اياه بفيض الهي تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالانبياء أو ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين (ويعلمك من تأويل الاحاديث) يعني به تعبير الرؤيا سمي تأويلا لانه يؤل أمره الى ما رأى في منامه يعني يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم وكان يوسف عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا وقال الزجاج تأويل أحاديث الانبياء والامم السالفة والكتب المنزلة وقال ابن زيد يعلمك العلم والحكمة (ويتم نعمته عليك) يعني بالنبوة قاله ابن عباس لان منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من اتمام النعمة عليهم لان جميع الخلق دونهم في الرتب والمناصب (وعلى آل يعقوب) المراد بآل يعقوب أولاده فانهم كانوا أنبياء وهو المراد من اتمام النعمة عليهم (كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق) بأن جعلهما نبيين وهو المراد من اتمام النعمة عليهما وقيل المراد من اتمام النعمة على ابراهيم صلى الله عليه وسلم بأن خلصه الله من النار واتخذه خليلا والمراد من اتمام النعمة على اسحق بأن خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول ان اسحق هو الذبيح وليس بشيء والقول الاول هو الاصح بان اتمام النعمة عليهما بالنبوة لانه لا أعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد (ان ربك عليم) يعني بمصالح خلقه (حكيم) يعني انه تعالى لا يفعل شيأ الا بحكمة وقيل انه تعالى حكم بوضع النبوة في بيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضي الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبويه واخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا اخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي أن يسجد له اخوته حتى يسجد له أبواه قوله عز وجل (لقد كان في يوسف واخوته) يعني في خبره وخبر اخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين اسم احداهما زلفة والاخرى بلهة أربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالي وجاد وآشر ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له

(وكذلك) ومثل ذلك الاجتباء الذي دلت عليه رؤياك (يجتبيك ربك) يصطفيك • والاجتباء والاصطفاء افتعال من جبيت الشيء اذا حصلته لنفسك وجبيت الماء في الحوض جمعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أي تأويل الرؤيا وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا أو تأويل أحاديث الانبياء وكتب الله وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) بان وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة أي جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى في الجنة وآل يعقوب أهله وهم نسله وغيرهم وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهيل الا انه لا يستعمل الا فيمن له خطر يقال آل النبي وآل الملك ولا يقال آل الحجام ولكن أهله وانما علم يعقوب ان يوسف يكون نبيا واخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب فلذا قال وعلى آل يعقوب (كما أتمها على أبويك من قبل) أراد الجد وأبا الجد (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك (ان ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) يضع الاشياء مواضعها (لقد كان في يوسف واخوته) أي في قصتهم وحديثهم

(آيات) علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شيء آية مكي (للسائلين) لمن سأل عن قصتهم وعرفها أو آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب وأسماؤهم يهوذا وروبين وشمعون ولاوي وزبولون ٦ ويشجر وأمهم ليا بنت ليان ودان ونفتالي وجاد وآشر من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف (اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وانما قالوا أخوه وهم اخوته أيضا لان أمهما كانت واحدة وانما قيل أحب في الاثنين لان أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث ولا بد من الفرق مع لام التعريف واذا أضيف ساغ الامران والواو في (ونحن عصبة) للحال أي انه يفضلهما في المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما (ان أبانا لفي ضلال مبين) غلط في تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا والعصبة العشرة فصاعدا (اقتلوا يوسف) من جملة ما حكي بعد قوله اذ قالوا كأنهم أطبقوا على ذلك الامر قال لا تقتلوا يوسف وقيل الآمر بالقتل شمعون   ويلغ
والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين (أو اطرحوه أرضا) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها واخلائها عن الوصف ولهذا الابهام نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم اقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم لان الرجل اذا أقبل على الشيء

يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا (آيات للسائلين) وذلك أن اليهود لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان الى أرض مصر فذكر قصة يوسف مع اخوته فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والاحبار ولم يأخذ عن أحد منهم شيئا فدل ذلك على ان ما أتى به وحي سماوي وعلم قدسي أوحاه الله اليه وشرفه به ومعنى آيات للسائلين أي عبرة للمعتبرين فان هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على اخوته وبلواه مثل القائه في الجب وبيعه عبدا وسجنه بعد ذلك وما آل اليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي اذا فكر فيها الانسان اعتبر واتعظ (اذ قالوا) يعني اخوة يوسف (ليوسف) اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف (وأخوه) يعني بنيامين وهما من أم واحدة (أحب الى أبينا منا ونحن عصبة) انما قالوا هذه المقالة حسدا منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب اليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة قال الفراء العصبة هي العشرة فما زاد وقيل هي ما بين الواحد الى العشرة وقيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقال مجاهد هي ما بين العشرة الى خمسة عشر وقيل الى الاربعين وقيل الاصل فيه أن كل جماعة يتعصب بعضهم لبعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها كالرهط والنفر (ان أبانا لفي ضلال مبين) يعني لفي خطأ بين في ايثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه واصلاح أمر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين اذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به الخطأ في أمر الدنيا وما يصلحها يقولون نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ في صرف محبته اليه لانا أكبر سنا وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الاعظم وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام ما فضل يوسف وأخاه على سائر الاخوة الا في المحبة المحضة ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها ويحتمل أن يعقوب انما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لان أمه ماتت وهو صغير ولانه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر اخوته فان قلت الذي فعله اخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم الى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضا وكل ذلك قادح في عصمة الانبياء فما الجواب عنه قلت هذه الافعال انما صدرت من اخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر في عصمة الانبياء هو وقت حصول النبوة لا قبلها وقيل كانوا وقت هذه الافعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الافعال قادحة في عصمة الانبياء قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) لما قوي الحسد

وبلغ النهاية قال اخوة يوسف فيما بينهم لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل الا باحد طريقين اما القتل مرة واحدة أو التغريب الى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الاسد والسباع أو يموت في تلك الارض البعيدة ثم ذكروا العلة في ذلك وهي قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى انه قد شغله حب يوسف عنكم فاذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته اليكم (وتكونوا من بعده) يعني من بعد قتل يوسف أو ابعاده عن أبيه (قوما صالحين) يعني تائبين فتتوبوا الى الله يعف عنكم فتكونوا قوما صالحين وذلك انهم لما علموا ان الذي عزموا عليه من الذنوب الكبائر قالوا نتوب الى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل وقال مقاتل معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم فان قلت كيف يليق أن تصدر هذه الافعال منهم وهم أنبياء قلت الجواب ما تقدم انهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت حتى تكون هذه الافعال قادحة في عصمة الانبياء وانما أقدموا على هذه الافعال قبل النبوة وقيل ان الذي أشار بقتل يوسف كان أجنبيا شاوروه في ذلك فأشار عليهم بقتله (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف) يعني قال قائل من اخوة يوسف وهو يهوذا وقال قتادة هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فيه فنهاهم عن قتله وقال القتل كبيرة عظيمة والاصح ان قائل هذه المقالة هو يهوذا لانه كان أقربهم اليه سنا (وألقوه في غيابت الجب) يعني ألقوه في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير المطوية سمي بذلك لانه جب أي قطع ولم يطو وأفاد ذكر الغيابة مع ذكر الجب ان المشير أشار بطرحه في موضع من الجب مظلم لا يراه أحد واختلفوا في مكان ذلك الجب فقال قتادة هو ببيت المقدس وقال وهب هو في أرض الاردن وقال مقاتل هو في أرض الاردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك ان هذا الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين والالتقاط أخذ الشئ من الطريق أو من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة بعض السيارة يعني يأخذه بعض المسافرين فيذهب به الى ناحية أخرى فتستريحون منه (ان كنتم فاعلين) فيه اشارة الى ترك الفعل فكأنه قال لا تفعلوا شيأ من ذلك وان عزمتم على هذا الفعل فافعلوا هذا القدر ان كنتم فاعلين ذلك قال البغوي كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء الا بعد وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له قال محمد بن اسحق اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالامانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعا وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل (قالوا) يعني قال اخوة يوسف ليعقوب (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف) بدؤا بالانكار عليه في ترك ارسال يوسف معهم كأنهم قالوا انك لتخافنا عليه اذا أرسلته معنا (وانا له لناصحون) المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة وقيل البر والعطف والمعنى وانا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته وبحفظه وقال مقاتل في الكلام تقديم وتأخير وذلك انهم قالوا لابيهم أرسله معنا فقال يعقوب اني ليحزنني ان تذهبوا به فحينئذ قالوا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون ثم قالوا (أرسله معنا غدا) يعني الى الصحراء (نرتع) الرتع هو الاتساع

أقبل بوجهه وجاز ان يراد بالوجه الذات كما قال ويبقى وجه ربك (وتكونوا) مجزوم عطفا على يخل لكم (من بعده) من بعد يوسف أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب أو من بعد قتله أو طرحه فيرجع الضمير الى مصدر اقتلوا أو اطرحوا (قوما صالحين) تائبين الى الله مما جنيتم عليه أو يصلح حالكم عند أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا (لا تقتلوا يوسف) فان القتل عظيم (وألقوه في غيابت الجب) في قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر غيابات وكذا ما بعده مدني (يلتقطه بعض السيارة) بعض الاقوام الذين يسيرون في الطريق (ان كنتم فاعلين) به شيأ (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون) أي لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم وفيه دليل على انه أحس منهم بما أوجب ان لا يأمنهم عليه (أرسله معنا غدا نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها وأصل الرتعة الخصب

(ونلعب) نتفرج بما يباح كالصيد والرمي والركض بالياء فيهما مدني وكوفي وبالنون فيهما مكي وشامي وأبو عمرو وبكسر العين حجازي من ارتعى يرتعي افتعال من الرعي (وانا له لحافظون) من ان يناله مكروه (قال انى ليحزنني أن تذهبوا به) أي يحزنني ذهابكم به واللام لام الابتداء (وأخاف أن ٨ يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) اعتذر اليهم بان ذهابهم به مما يحزنه لانه كان لا يصبر عنه ساعة وانه يخاف عليه من عدوة الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم (قالوا لئن أكله الذئب) اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن أكله الذئب والواو في (ونحن عصبة) أي فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال (انا اذا لخاسرون) جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط أي ان لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا اذا وخسرناها وأجابوا عن عذره الثاني دون الاول لان ذلك كان يغيظهم (فلما ذهبوا به وأجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب) أي عزموا على القائه في البئر وهي بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوا من الاذى فقد روى انهم لما برزوا به الى البرية اظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا فلما أرادوا القاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم ودلوه في البئر وكان وصينك فيها ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكي وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروى ان ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف فأخرجه جبريل وألبسه اياه

في الملاذ يقال رتع فلان في ماله اذا أنفقه في شهواته والاصل في الرتع أكل البهائم في الخصب زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) اللعب معروف قال الراغب يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضي الله عنه هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا فان لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والاقدام على الاقران في الحرب بدليل قوله استبق وانما سموه لعبا لانه في صورة اللعب وقيل معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط (وانا له لحافظون) يعني نجتهد في حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده اليك سالما (قال) يعني قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام (اني ليحزنني أن تذهبوا به) أي ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية انه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين أحدهما ان ذهابهم به ومفارقته اياه يحزنه لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة والثاني قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) يعني اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رأى في المنام أن ذئبا شد على يوسف عليه الصلاة والسلام فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب في أرضهم كثيرة (قالوا) يعني قال اخوة يوسف مجيبين ليعقوب (لئن أكله الذئب ونحن عصبة) أي جماعة عشرة رجال (انا اذا لخاسرون) يعني عجزة ضعفاء وقيل انهم خافوا أن يدعو عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه انا اذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن اذا خاسرون قوله عز وجل (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب) يعني وعزموا على أن يلقوه في غيابة الجب

﴿ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام﴾

قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له أما تشتاق أن تخرج معنا الى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أتسأل أباك أن يرسلك معنا قال يوسف افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ما تقول يا بني قال نعم يا أبت اني أرى من اخوتي اللين واللطف فأحب أن تأذن لي وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وأرسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء ألقوه على الارض وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادي يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لاحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا

وصيتك وجعل يبكي بكاء شديدا فأخذه روبيل وجلد به الارض ثم جثم على صدره وأراد قتله
فقال له يوسف مهلا يا أخي لا تقتلني فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام قل لرؤياك
تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله وحل بيني وبين من
يريد قتلي فأدركته رحمة الاخوة ورق له فقال يهوذا يا اخوتي ما على هذا عاهدتموني الا أدلكم
على ما هو أهون لكم وأرفق به فقالوا وما هو قال تلقونه في هذا الجب اما أن يموت أو يلتقطه
بعض السيارة فانطلقوا به الى بئر هناك على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا
يدلونه في البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا اخوتاه ردوا علي قميصي لاستتر
به في الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال اني لم أر شيئا فألقوه
فيها ثم قال لهم يا اخوتاه أتدعوني فيها فريدا وحيدا وقيل جعلوه في دلو ثم أرسلوه فيها فلما بلغ
نصفها ألقوه ارادة أن يموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت في البئر فقام
عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فأجلسه عليها وقيل انهم لما ألقوه
في الجب جعل يبكي فنادوه فظن انها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه
فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل ان يعقوب لما بعثه مع اخوته أخرج له قميص ابراهيم الذي كساه الله
اياه من الجنة حين ألقي في النار فجعله يعقوب في قصبة فضة وجعلها في عنق يوسف فألبسه الملك
اياه حين ألقي في الجب فأضاء له الجب وقال الحسن لما ألقي يوسف في الجب عذب ماؤه فكان
يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فأنس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب
فقال له انك اذا خرجت استوحشت فقال له اذا رهبت شيئا فقل يا صريخ المستصرخين ويا غوث
المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري
فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس في الجب وقال محمد بن مسلم الطائفي لما ألقي يوسف
في الجب قال يا شاهدا غير غائب ويا قريبا غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لي فرجا مما أنا فيه
فما بات فيه واختلفوا في قدر عمر يوسف يوم ألقي في الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن
اثنتا عشرة سنة وقال ابن السائب سبع عشرة سنة وقيل ثمان عشرة سنة وقيل مكث في الجب
ثلاثة أيام وكان اخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى (وأوحينا اليه
لتنبئنهم بأمرهم هذا) يعني لتخبرن اخوتك قال أكثر المفسرين ان الله أوحى اليه وحيا حقيقة
فبعث اليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره انه سينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه هذا
قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغا في ذلك الوقت أو
كان صبيا صغيرا فقال بعضهم انه كان بالغا وكان عمره خمس عشرة سنة وقال آخرون بل كان
صغيرا الا أن الله عز وجل أكمل عقله ورشده وجعله صالحا لقبول الوحي والنبوة كما قال في
حق عيسى عليه الصلاة والسلام * فان قلت كيف جعله نبيا في ذلك الوقت ولم يكن أحد يبلغه
رسالة ربه لان فائدة النبوة والرسالة تبليغها الى من أرسل اليه قلت لا يمتنع ان الله يشرفه
بالوحي ويكرمه بالنبوة والرسالة في ذلك الوقت وفائدة ذلك تطييب قلبه وازالة الهم والغم
والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة في وقتها وقيل ان المراد من قوله وأوحينا اليه
وحي الهام كما في قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل وأوحينا الى أم موسى والقول الاول أولى
وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يعني بايحائنا اليك وأنت في البئر بانك ستخبرهم بصنيعهم هذا
والفائدة في اخفاء ذلك الوحي عنهم انهم اذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له وقيل ان الله تعالى

(وأوحينا اليه) قيل أوحي
اليه في الصغر كما أوحي
الى يحيى وعيسى عليهما
السلام وقيل كان اذ
ذاك مدركا (لتنبئنهم
بأمرهم هذا) أي لتحدثن
اخوتك بما فعلوا بك (وهم
لا يشعرون) انك يوسف
لعلو شأنك وكبرياء
سلطانك وذلك أنهم حين
دخلوا عليه ممتارين فعرفهم
وهم له منكرون دعا
بالصواع فوضعه على يده ثم
نقره فطن فقال انه ليخبرني
هذا الجام انه كان لكم أخ
من أبيكم يقال له يوسف
وأنكم ألقيتموه في غيابة
الجب وقلتم لابيه أكله
الذئب وبعتموه بثمن بخس
أو يتعلق وهم لا يشعرون
بأوحينا أي آنسناه بالوحي
وأزلنا عن قلبه الوحشة
وهم لا يشعرون ذلك

(وجاؤا أباهم عشاء) للاستتار والتجسر على الاعتذار (يبكون) حال عن الاعمش لا تصدق باكية بعد اخوة يوسف فلما سمع صوتهم فزع وقال ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء قالوا لا قال فما لكم وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) أي نتسابق في العدو أو في الرمي والافتعال والتفاعل يشتركان كالارتماء والترامي وغير ذلك (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا (ولو كنا صادقين) ١٠ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا (وجاؤا على قميصه بدم كذب) ذي كذب ووصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم أن يمزقوه وروي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف حين قد من دبره ومحل على قميصه النصب على الظرف كأنه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سولت) زينت أو سهلت (لكم أنفسكم أمرا) عظيما ارتكبتموه (فصبر جميل) خبر أو مبتدأ لكونه موصوفا أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أجمل وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق (والله المستعان) أي أستعينه (على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه (وجاءت سيارة) رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران [illegible]

سيارة

أوحى إلى يوسف لتنبئن اخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون) قال المفسرون لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة اجتراء على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج إليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يا بني هل أصابكم شيء في غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) قال ابن عباس يعني ننتضل وقال الزجاج يسابق بعضنا بعضا في الرمي والأصل في السبق الرمي بالسهم وهو التناضل أيضا وسمي المتراميان بذلك يقال تسابقا واستبقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أبعد سهما وقال السدي يعني نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الأقدام ليتبين أينا أسرع عدوا وأخف حركة وقال مقاتل نتصيد والمعنى نستبق إلى الصيد (وتركنا يوسف عند متاعنا) يعني عند ثيابنا (فأكله الذئب) يعني في حال استباقنا وغفلتنا عنه (وما أنت بمؤمن لنا) يعني وما أنت بمصدق لنا (ولو كنا صادقين) يعني في قولنا والمعنى أنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولا لشدة محبتك ليوسف فإنك تتهمنا في قولنا هذا وقيل معناه أنا وإن كنا صادقين فإنك لم تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا (وجاؤا على قميصه) يعني قميص يوسف (بدم كذب) أي مكذوب فيه قال ابن عباس إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤا أباهم وفي القصة أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فقال يعقوب لهم كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك وقيل أنهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب أيها الذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي فأنطقه الله عز وجل وقال والله ما أكلته ولا رأيت ولدك قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهي قرابة لي فأخذوني وأتوا بي إليك فأطلقه يعقوب ولما ذكر اخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) يعني بل زينت لكم أنفسكم أمرا وأصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أي سولت لكم أنفسكم أمرا عظيما ارتكبتموه من يوسف وهونته في أنفسكم وأعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل رد لقولهم فأكله الذئب كأنه قال ليس الأمر كما تقولون أكله الذئب بل سولت لكم أنفسكم أمرا آخر غير ما تصفون (فصبر جميل) أي فشأني صبر جميل وقيل معناه فصبري صبر جميل والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع وقيل من الصبر أن لا تحدث بمصيبتك ولا تزكين نفسك (والله المستعان على ما تصفون) يعني من القول الكذب وقيل معناه والله المستعان على حمل ما تصفون قوله عز وجل (وجاءت سيارة) وهم القوم يسيرون سموا

سيارة لمسيرهم في الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا من الجب الذي كان فيه يوسف وكان في قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحا فلما القى يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلا من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء فذلك قوله عز وجل (فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) قال والوارد هو الذي يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء يقال أدليت الدلو اذا أرسلتها في البئر ودلوتها اذا أخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال وكان يوسف عليه السلام أحسن ما يكون من الغلمان وذكر البغوي بسند متصل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطي يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن قال محمد بن اسحق ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن وحكى الثعلبي عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه الله وصوره قبل أن يصيب الخطيئة قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كأحسن ما يكون من الغلمان (قال) يعني الوارد وهو مالك بن ذعر (يابشراي) يعني يقول الوارد لاصحابه أبشروا (هذا غلام) وقرئ يابشرى بغير اضافة ومعناه ان الوارد نادى رجلا من أصحابه اسمه بشرى كما تقول يازيد ويقال ان جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها (وأسروه بضاعة) قال مجاهد أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا انه بضاعة استبضعناه لبعض أهل المال الى مصر وانما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه وقيل ان اخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعني انهم أخفوا أمر يوسف وكونه أخا لهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدقهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل سرا من مالك بن ذعر وأصحابه والقول الاول أصح لان مالك بن ذعر هو الذي أسره بضاعة وأصحابه (والله عليم بما يعملون) يعني من ارادة اهلاك يوسف فجعل ذلك سببا لنجاته وتحقيقا لرؤياه ان يصير ملك مصر بعد ان كان عبدا قال أصحاب الاخبار ان يهوذا كان يأتي يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده في الجب فأخبر اخوته بذلك فطلبوه فاذاهم بمالك بن ذعر وأصحابه نزولا قريبا من البئر فأتوهم فاذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا أبق منا ويقال انهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم انهم باعوه منهم فذلك قوله تعالى (وشروه) أي باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشئ بمعنى بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في وشروه وفي وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شئ واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير في وشروه يعود على مالك بن ذعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه (بثمن بخس) قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدي بخس أي حرام لان ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة يعني منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس بخس أي زيوف ناقصة العيار وقال قتادة بخس أي ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه اذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبي بخس أي قليل وعلى الاقوال كلها فالبخس في اللغة هو نقص الشئ على سبيل الظلم والبخس والباخس الشئ الطفيف (دراهم معدودة) فيه اشارة الى قلة تلك الدراهم لانهم في ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من أربعين درهما انما كانوا يأخذون ما دونها

(فأرسلوا واردهم) هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم اسمه مالك بن ذعر الخزاعي (فأدلى دلوه) أرسل الدلو ليملأها فتشبث يوسف بالدلو فنزعوه (قال يابشرى) كوفي نادى البشرى كأنه يقول تعالى فهذا أوانك غيرهم بشراي على اضافتها الى نفسه أو هو اسم غلامه فناداه مضافا الى نفسه (هذا غلام) قيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به (وأسروه) الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة أو لاخوة يوسف فانهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه (بضاعة) حال أي أخفوه متاع التجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أي قطع (والله عليم بما يعملون) بما يعمل اخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع (وشروه) وباعوه (بثمن بخس) مبخوس ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا أو زيف (دراهم) بدل من ثمن (معدودة) قليلة تعد عدا ولا توزن لانهم كانوا يعدون ما دون الاربعين ويزنون الاربعين وما فوقها وكانت عشرين درهما

عددا فاذا بلغت أربعين درهما وهي أوقية وزنوها واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ أخوه من أمه وأبيه شيئا منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما فعلى هذا أخذ أخوه منها درهمين لانهم كانوا أحد عشر أخا وقال عكرمة كانت أربعين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) يعني وكان اخوة يوسف في يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا اذا لم يكن له فيه رغبة والضمير في قوله وكانوا فيه من الزاهدين ان قلنا انه يرجع الى اخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه انهم حسدوه وأرادوا ابعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وان قلنا ان قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى معنى واحد وهو ان الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه اظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل ويحتمل أن يقال ان اخوته لما قالوا انه عبدنا وقد أبق أظهر المشتري قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الاخبار ثم ان مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به الى مصر وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان بن الوليد بن نزوان وكان من العماليق وقيل ان هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حي قال ابن عباس لما دخلوا مصر لقي قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين دينارا وزوج نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذي اشتراه من مصر) يعني قطفير من أهل مصر (لامرأته) وكان اسمها راعيل وقيل زليخا (أكرمي مثواه) يعني أكرمي منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الاقامة وقيل أكرميه في المطعم والملبس والمقام (عسى أن ينفعنا) يعني ان أردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض أمورنا ومصالحنا اذا قوي وبلغ (أو نتخذه ولدا) يعني نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وابنة شعيب في موسى حيث قالت لابيها استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين وأبو بكر في عمر حيث استخلفه بعده (وكذلك مكنا ليوسف في الارض) يعني كما مننا على يوسف بان انقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه في الارض يعني أرض مصر بجعلناه على خزائنها (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أي مكناه في الارض لكي نعلمه من تأويل الاحاديث يعني عبارة الرؤيا وتفسيرها (والله غالب على أمره) قيل الكناية في أمره راجعة الى الله تعالى ومعناه والله غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لامره

(وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بالثمن الطفيف أو معنى وشروه واشتروه ويعني الرفقة من اخوته وكانوا فيه من الزاهدين أي غير راغبين لانهم اعتقدوا انه آبق وروى ان اخوته اتبعوهم وقالوا استوثقوا منه لا يأبق وفيه ليس من صلة الزاهدين أي غير راغبين لان الصلة لا تتقدم على الموصول وانما هو بيان كانه قيل في أي شيء زهدوا فقال زهدوا فيه (وقال الذي اشتراه من مصر) هو قطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان ابن الوليد وقد آمن بيوسف ومات في حياته واشتراه العزيز بزنته ورقا وحريرا ومسكا وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أكرمي مثواه) اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما أي حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربي أحسن مثواي وعن الضحاك بطيب معاشه ولين لباسه ووطء فراشه (عسى أن ينفعنا) لعله اذا تدرب وراض الامور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله (أو نتخذه ولدا) أو نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيما وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك (وكذلك) اشارة الى ما تقدم من انجائه وعطف قلب العزيز عليه والكاف منصوب ولا تقديره ومثل ذلك الانجاء والعطف (مكنا ليوسف) أي كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز كذلك مكنا له (في الارض) أي أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بامره ونهيه (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) كان ذلك الانجاء والتمكين (والله غالب على أمره) لا يمنع عما شاء أو على أمر يوسف يبلغه ما أراد له دون ما أراد اخوته

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (ولما بلغ أشده) منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة أو احدى وعشرون (آتيناه حكما وعلما) حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه أو حكما بين الناس وفقها (وكذلك نجزي المحسنين) تنبيه على انه كان محسنا في عمله متقيا في عنفوان أمره (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) أي طلبت يوسف أن يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهي عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) وكانت سبعة (وقالت هيت لك) هو اسم لتعال وأقبل وهو مبني على الفتح هيت مكي بناء على الضم هئت مدني وشامي ١٣ واللام للبيان كأنه قيل لك أقول هذا كما تقول هلم لك (قال معاذ الله) أعوذ بالله معاذا (انه) أي ان الشأن والحديث (ربي) سيدي ومالكي يريد قطفير (أحسن مثواي) حين قال لك أكرمي مثواه فما جزاؤه أن أخونه في أهله (انه لا يفلح الظالمون) الخائنون أو الزناة أو أراد بقوله انه ربي الله تعالى لانه مسبب الاسباب (ولقد همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله وهم بها هم خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بانه من عباده المخلصين وقيل وهم بها وشارف أن يهم بها يقال هم بالامر اذا قصده وعزم عليه وجواب (لولا أن رأى برهان ربه) محذوف أي لكان ما كان وقيل وهم بها جوابه ولا يصح لان جواب لولا لا يتقدم عليها لانه في حكم الشرط وله صدر الكلام والبرهان الحجة ويجوز أن يكون وهم بها داخلا في حكم القسم في قوله ولقد همت به ويجوز أن يكون خارجا ومن حق القارئ اذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه أن يقف على به ويبتدئ بقوله وهم بها وفيه أيضا اشعار بالفرق بين الهمين وفسر هم يوسف بانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهي مستلقية على قفاها وفسر البرهان بانه سمع صوتا اياك واياها مرتين فسمع ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على أنملته وهو باطل ويدل على بطلانه قوله هي راودتني عن نفسي ولو كان ذلك منه أيضا لما برأ نفسه من ذلك وقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفا عنه وقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب

ولا راد لقضائه ولا يغلبه شيء وقيل هي راجعة الى يوسف ومعناه ان الله مستول على أمر يوسف بالتدبير والاحاطة لا يكله الى أحد سواه حتى يبلغ منتهى ما علمه فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني ما هو صانع بيوسف وما يريد منه (ولما بلغ أشده) يعني منتهى شبابه وشدته وقوته قال مجاهد ثلاثة وثلاثون سنة وقال الضحاك عشرون سنة وقال السدي ثلاثون سنة وقال الكلبي الاشد ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الاشد فقال هو الحلم (آتيناه حكما وعلما) يعني آتينا يوسف بعد بلوغ الاشد نبوة وفقها في الدين وقيل حكما يعني اصابة في القول وعلما بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم ان العالم هو الذي يعلم الاشياء بحقائقها والحكيم هو الذي يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لا ينبغي والعلم هو العلم النظري (وكذلك) يعني وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك (نجزي المحسنين) قال ابن عباس يعني المؤمنين وعنه أيضا المهتدين وقال الضحاك يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) يعني ان امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته الى نفسها ليواقعها (وغلقت الابواب) أي أطبقتها وكانت سبعة لان مثل هذا الفعل لا يكون الا في ستر وخفية أو أنها أغلقتها لشدة خوفها (وقالت هيت لك) أي هلم وأقبل قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول هي لغة لاهل حوران رفعت الى الحجاز معناها تعال وقال عكرمة أيضا بالحورانية هلم وقال مجاهد وغيره هي لغة عربية وهي كلمة حث واقبال على الشيء وقيل هي بالعبرانية وأصلها هيتالج أي تعال فعربت فقيل هيت لك قال انها بغير لغة العرب يقول ان العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرئ هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك (قال) يعني يوسف (معاذ الله) أي أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ اليه فيما دعوتني اليه (انه ربي) يعني ان العزيز قطفير سيدي (أحسن مثواي) أي أكرم منزلتي فلا أخونه وقيل ان الهاء في انه ربي راجعة الى الله تعالى والمعنى يقول ان الله ربي أحسن مثواي بمعنى انه آواني ومن بلاء الجب نجاني (انه لا يفلح الظالمون) يعني ان فعلت هذا الفعل فانا ظالم ولا يفلح الظالمون وقيل معناه انه لا يسعد الزناة قوله عز وجل (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) الآية هذه الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها

والبحث عنها والكلام عليها في مقامين * الاول في ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية قال المفسرون الهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه وقيل الهم مصدر هممت بالشئ اذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فمعنى قوله ولقد همت به أي أرادته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا وقال الزمخشري هم بالامر اذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابئ البرجمي

همت ولم أفعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حلائله

وقوله ولقد همت به معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أي وهم بمخالطتها لولا ان رأى برهان ربه جوابه محذوف تقديره لولا ان رأى برهان ربه لخالطها قال البغوي وأما همه بها فروي عن ابن عباس انه قال حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وقال مجاهد حل سراويله وجعل يعالج ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك جرى الشيطان بينهما فضرب بيده الى جيد يوسف وبيده الاخرى الى جيد المرأة حتى جمع بينهما قال أبو عبيدة القاسم بن سلام وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوي والقول ماقاله قدماء هذه الامة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الانبياء من غير علم قال السدي وابن اسحق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه الى نفسها فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتثر عن جسدي قالت ما أحسن عينيك قال هي أول ما يسيل على خدي في قبري قالت ما أحسن وجهك قال هو للتراب يأكله وقيل انها قالت له ان فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتي قال اذا يذهب نصيبي من الجنة فلم تزل تطمعه وتدعوه الى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم ان الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذي ذكره وسيأتي الكلام على تفسير البرهان الذي رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ماقاله المفسرون في هذه الآية * أما المقام الثاني في تنزيه يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التي ينسب اليها قال بعض المحققين الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به مالم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ماروي عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى اذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة واذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له عشرة لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال ان الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وان هو هم بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة زاد في رواية أو محاها ولن يهلك على الله الا هالك قال القاضي عياض في كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمحدثين أن هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية في هم يوسف اذا وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فان الهم اذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما مالم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو

عنه هذا هو الحق فيكون ان شاء الله هم يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرئ نفسي الآية أي
ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكي
قبل وبرئ فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة ان يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وان
الكلام فيه تقديم وتأخير أي ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها وقال تعالى حاكيا
عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء
وقال تعالى وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل في قوله وهم بها أي
بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي همها امتناعه وقيل هم بها أي نظر اليها وقيل هم بضربها
ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن الى يوسف ميل شهوة
زليخا حتى نبأه الله فالقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه هذا آخر كلام
القاضي عياض رحمه الله وأما الامام فخر الدين فذكر في هذا المقام كلاما طويلا مبسوطا وأنا
أذكر بعضه ملخصا فاقول قال الامام فخر الدين الرازي ان يوسف عليه الصلاة والسلام كان
بريئا من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه
نذب فان الدلائل قد دلت على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت الى ما نقله بعض
المفسرين عن الائمة المتقدمين فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة
استعظموها واتبعوها باظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام في قوله
ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقال في حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب
وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيأ من ذلك في هذه الواقعة لانه لو صدر منه شئ
لاتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه في كتابه كما ذكر عن غيره من
الانبياء وحيث لم يحك عنه شيأ علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شئ كما نقله أصحاب الاخبار
ويدل على ذلك أيضا ان كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام مما
نسب اليه واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة اللاتي قطعن
أيديهن والمولود الذي شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضا
اما بيان ان يوسف ادعى براءته مما نسب اليه فقوله هي راودتني عن نفسي وقوله رب السجن
أحب الي مما يدعونني اليه وأما بيان ان المرأة اعترفت على نفسها واعترفت ببراءة يوسف
ونزاهته فقولها أنا راودته عن نفسه فاستعصم وقولها الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه
وانه لمن الصادقين وأما بيان ان زوج المرأة اعترف أيضا ببراءة يوسف فقوله انه من كيدكن ان
كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين وأما شهادة
المولود ببراءته فقوله وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك
لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه
سلطان بدليل قوله لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ويبطل بهذا قول من قال ان
الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فانه قول منكر لا يجوز لاحد
أن يقول ذلك وأما ما روي عن ابن عباس انه جلس منها مجلس الخائن فحاش ابن عباس أن يقول
مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الاخبار
وضعوه عن ابن عباس وكذلك ما روي عن مجاهد وغيره أيضا فانه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل
ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده

وأسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام * فإن قلت فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله عز وجل لولا أن رأى برهان ربه فائدة * قلت فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين أحدهما أنه تعالى أعلم يوسف أنه لو هم بدفعها لقتلته فأعلمه بالبرهان أن الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك الوجه الثاني أنه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكاد في ذلك أن يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن وإذا تمزق من خلف كانت هي الخائنة فأعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا فأثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ما ذكره المفسرون في قوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه فقال قتادة وأكثر المفسرين أن يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على أصبعه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدي نودي يا يوسف أتواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق عليه وإن مثلك إن واقعتها كمثله إذا وقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئا ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك إن واقعتها كمثله إذا مات ودخل النمل في قرنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه وقيل إنه رأى معصما بلا عضد عليه مكتوب وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون فولى هاربا ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا فولى هاربا ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي يوسف قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على أصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء وقيل إنه مسه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله قال محمد بن كعب القرظي رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فرأى كتابا في حائط فيه ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا وفي رواية عن ابن عباس أنه رأى مثل ذلك الملك وعن علي بن الحسين قال كان في البيت صنم فقامت المرأة إليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا فقالت استحييت منه أن يراني على معصية فقال لها يوسف أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيئا فأنا أحق أن أستحيي من ربي فهرب فذلك قوله لولا أن رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الأول قال جعفر بن محمد الصادق البرهان هو النبوة التي جعلها الله تعالى في قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل الثاني البرهان حجة الله عز وجل على العبد في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب الثالث أن الله عز وجل طهر نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأخلاق الذميمة والأفعال الرذيلة وجبلهم على الأخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الأخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله (كذلك) يعني كما أريناه البرهان كذلك (لنصرف عنه السوء) يعني الإثم (والفحشاء) يعني الزنا وقيل السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله (إنه) يعني يوسف (من عبادنا المخلصين) قرئ بفتح اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين أخلصناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرئ بكسر اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله عز وجل قوله تعالى (واستبقا الباب) وذلك أن يوسف

لأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام وقد سماه الله مخلصا فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظرا في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء ومحل الكاف في (كذلك) نصب أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو رفع أي الأمر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) خيانة السيد (والفحشاء) الزنا (إنه من عبادنا المخلصين) بفتح اللام حيث كان مدني وكوفي أي الذين أخلصهم الله لطاعته وبكسرها غيرهم أي الذين أخلصوا دينهم لله ومعنى من عبادنا بعض عبادنا أي هو مخلص من جملة المخلصين (واستبقا الباب) وتسابقا إلى الباب هي للطلب وهو للهرب على حذف الجار وإيصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو على تضمين استبقا معنى ابتدرا نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووحد الباب وإن كان جمعه في قوله وغلقت الأبواب لأنه أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار ولما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج

[illegible]

عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هاربا مبادرا الى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته اليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل (وقدت قميصه من دبر) يعني شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت خلفه (وألفيا سيدها لدا الباب) يعني فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالسا مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول (قالت) يعني لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) يعني الفاحشة ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت (الا أن يسجن) أي يحبس في السجن ويمنع التصرف (أو عذاب أليم) يعني الضرب بالسياط وانما بدأت بذكر السجن دون العذاب لان المحب لا يشتهي ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه (قال) يعني يوسف (هي راودتني عن نفسي) يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت وذلك ان يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال هي راودتني عن نفسي (وشهد شاهد من أهلها) يعني وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا في ذلك الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا في المهد فأنطقه الله عز وجل وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم ذكره البغوي بغير سند والذي جاء في الصحيحين الثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وابن المرأة وقصتهم مخرجة في الصحيح قيل كان هذا الصبي شاهد يوسف ابن خال المرأة وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد لم يكن صبيا ولكنه كان رجلا حكيما ذا رأي وقال السدي هو ابن عم المرأة فحكم فقال (ان كان قميصه قد من قبل) أي من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) أي من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) وانما كان هذا الشاهد من أهل المرأة ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف عليه الصلاة والسلام مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدق يوسف عليه الصلاة والسلام ونفي التهمة عنه من وجوه * منها انه كان في الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا ينبسط يده الى سيدته * ومنها انهم شاهدوا يوسف يعدو هاربا منها والطالب لا يهرب ومنها انهم رأوا المرأة قد تزينت بأكمل الوجوه فكان الحاق التهمة بها أولى ومنها انهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة فلم يروا عليه حالة تناسب اقدامه على مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أيضا (فلما رأى قميصه قد من دبر) يعني فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف عليه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام (قال) يعني قال لها زوجها قطفير (انه) يعني هذا الصنيع (من كيدكن) يعني من حيلكن ومكركن (ان كيدكن عظيم) فان قلت كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان

(وألفيا سيدها لدى الباب) وصادفا بعلها قطفير مقبلا يريد أن يدخل فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف طمعا في أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم) ما نافية أي ليس جزاؤه الا السجن أو عذاب أليم وهو الضرب بالسياط ولم ١٧ تصرح بذكر يوسف وأنه أرادها سوأ لانها قصدت العموم أي كل من أراد بأهلك سوأ فحقه أن يسجن أو يعذب لان ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف ولما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه (قال هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها (وشهد شاهد من أهلها) هو ابن عم لها وانما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وقيل كان ابن خال لها وكان صبيا في المهد وسمي قوله شهادة لانه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) والتقدير وشهد شاهد فقال ان كان قميصه وانما دل قد قميصه من قبل على أنها صادقة لانه يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه ولانه يقبل عليها وهي تدفعه عن نفسها فيتخرق القميص من قبل وأما تنكيرقبل ودبر فمعناه من جهة يقال لها قبل ومن جهة يقال لها دبر وانما جمع بين ان التي للاستقبال وبين كان لان المعنى ان يعلم انه كان قميصه (قد) (فلما رأى) قطفير (قميصه قد من دبر) وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها (قال انه) ان قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ أو ان هذا الامر وهو الاحتيال لنيل الرجال (من كيدكن) الخطاب لها ولامتها

(إن كيدكن عظيم) لأنهن ألطف كيدا وأعظم حيلة وبذلك يغلبن الرجال والقصريات منهن معهن ما ليس مع غيرهن من البوائق وعن بعض العلماء أني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لان الله تعالى قال ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال لهن ان كيدكن عظيم (يوسف) حذفه منه حرف النداء لانه منادى قريب مفاطن الحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هذا) الامر واكتمه ١٨ ولا تحدث به ثم قال لراعيل (واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب يقال خطئ اذا أذنب متعمدا وانما قال بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما قليل الغيرة حيث اقتصر على هذا القول (وقال نسوة) جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقي ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها (في المدينة) في مصر (امرأت العزيز) يردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب (تراود فتاها) غلامها يقال فتاي وفتاتي أي غلامي وجاريتي (عن نفسه) لتنال شهوتها منه (قد شغفها حبا) تمييز أي قد شغفها حبه يعني خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد والشغاف حجاب القلب أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب (انا لنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب (فلما سمعت) راعيل (بمكرهن) باغتيابهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها وسمي الاغتياب مكرا لانه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره وقيل كانت استكتمتهن سرها فافشينه عليها (أرسلت اليهن) دعتهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (واعتدت) هيأت افتعلت من العتاد (لهن متكأ) ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن أن يدهشن عند

وقتادة

ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء قلت أما كون الانسان خلق ضعيفا فهو بالنسبة الى خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والارض والجبال ونحو ذلك وأما عظم كيد النساء ومكرهن في هذا الباب فهو أعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد في اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب وقيل ان قوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم من قول الشاهد وذلك انه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام قال هذه المقالة (يوسف) يعني يا يوسف (أعرض عن هذا) يعني اترك هذا الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل معناه يا يوسف لا تكترث بهذا الامر ولا تهتم به فقد بان عذرك وبراءتك ثم التفت الى المرأة فقال لها (واستغفري لذنبك) يعني توبي الى الله مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها وقيل ان هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلي زوجك أن يصفح عنك ولا يعاقبك بسبب ذنبك (انك كنت من الخاطئين) يعني من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو بريء وانما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليبا لجنس الرجال على النساء وقيل انه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل من يعمل هذا العمل تقديره انك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين قوله عز وجل (وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه) يعني وقال جماعة من النساء وكن أربعا وقيل كن خمسا وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة في مدينة مصر وقيل هي مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صاحب سجنه وقيل نسوة من أشراف مصر امرأة العزيز يعني زليخا تراود فتاها عن نفسه يعني تراود عبدها الكنعاني عن نفسه لانها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن (قد شغفها حبا) يعني قد علقها حبا والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى ان حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل ان حبه قد أحاط بقلبها كاحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيأ سواه (انا لنراها في ضلال مبين) يعني في خطأ بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها (فلما سمعت بمكرهن) يعني فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن به وانما سمي قولهن ذلك مكرا لانهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه وقيل ان امرأة العزيز أفشت اليهن سرها واستكتمتهن فافشين ذلك عليها فلذلك سماه مكرا (أرسلت اليهن) يعني انها لما سمعت بلومهن لها على محبتها ليوسف أرادت أن تقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مائدة يعني صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها (وأعتدت لهن متكأ) يعني ووضعت لهن نمارق ومساند يتكئن عليها وقال ابن عباس وابن جبير والحسن

رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها لان المتكئ اذا بهت لشيء وقعت يده على يده (وآتت كل واحدة منهن سكينا) وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان الا بالسكاكين كفعل الاعاجم (وقالت اخرج عليهن) بكسر التاء بصري وعاصم وحمزة وبضمها غيرهم (فلما رأينه أكبرنه) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائق 19 والجمال الفائق وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء وكان اذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت اذ لا يقال النساء قد حضنه لانه لا يتعدى الى مفعول يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع
فان لحت حاضت في الخدور العواتق

(وقطعن أيديهن) وجرحنها كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد جرحتها أي أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لما رأينه فخدشن أيديهن (وقلن حاش لله) حاشا كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء تقول أساء القوم حاشا زيد وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى حاشا الله براءة الله وتنزيه الله وقراءة أبي عمرو حاشا لله نحو قولك سقيا لك كأنه قال براءة ثم قال لله لبيان من يبرئ وينزه وغيره حاش لله بحذف الالف الاخيرة والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله (ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) نفين عنه البشرية لغرابة جماله وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم لما ركز في الطباع ان

وقتادة ومجاهد متكأ يعني طعاما وسمي الطعام متكأ لان كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة يجلس ويتكئ عليها فسمي الطعام متكأ على الاستعارة ويقال اتكأنا عند فلان أي طعمنا عنده والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهي عنه في الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل المتكأ الاترج وقيل هو كل شيء يقطع بالسكين أو يحز بها يقال ان المرأة زينت البيت بألوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف (وآتت كل واحدة منهن سكينا) يعني وأعطت كل واحدة من النساء سكينا لتأكل بها وكان من عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت اخرج عليهن) يعني وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته وخبأته في مكان آخر (فلما رأينه) يعني النسوة (أكبرنه) يعني أعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي الى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال اسحق بن أبي فروة كان يوسف اذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ويقال انه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل أن يخرج من الجنة وقال أبو العالية هالهن أمره وبهتن اليه وفي رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أي حضن ونحوه عن مجاهد والضحاك قال حضن من الفرح وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول قال الزجاج هذه اللفظة ليست معروفة في اللغة والهاء في أكبرنه تمنع من هذا لانه لا يجوز أن يقال النساء قد حضنه لان حضن لا يتعدى الى مفعول قال الازهري ان صحت هذه اللفظة في اللغة فلها مخرج وذلك ان المرأة اذا حاضت أول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار الى حد الكبار فيقال لها أكبرت أي حاضت على هذا المعنى فان صحت الرواية عن ابن عباس سلمنا له وجعلنا الهاء في قوله أكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية وقيل ان المرأة اذا خافت أو فزعت فربما أسقطت ولدها أو تحيض فان كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف حين رأينه قال الامام فخر الدين الرازي وعندي أنه يحتمل وجها آخر وهو أنهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وأعظمنه ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى (وقطعن أيديهن) يعني وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم لدهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما أحسسن الا بالدم وقال قتادة أبن أيديهن حتى ألقينها والاصح أنه كان قطعا من غير ابانة قال وهب ماتت جماعة منهن (وقلن) يعني النسوة (حاش لله ما هذا بشرا) أي معاذ الله أن يكون هذا بشرا (ان هذا الا ملك كريم) يعني على الله والمقصود من هذا اثبات الحسن العظيم

[illegible] ... الا أنه من الشيطان (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه) تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن لي في أنفسكن ثم لمتنني فيه تعني انكن لم تصورنه حق صورته ولو صورتنه لعذرتنني في الافتتان به (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها وهذا بيان جلي على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان ثم قلن له أطع مولاتك فقالت راعيل (ولئن لم يفعل ما آمره) الضمير راجع الى ما وهي ٢٠ موصولة والمعنى ما آمر به فحذف الجار كما في قوله أمرتك الخير أو ما مصدرية والضمير يرجع الى يوسف أي ولئن لم يفعل أمري اياه أي موجب أمري ومقتضاه (ليسجنن) ليحبسن والالف في (وليكونا) بدل من نون التأكيد الخفيفة (من الصاغرين) مع السراق والسفاك والاباق كما سرق قلبي وأبق مني وسفك دمي بالفراق فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعني هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميرا حصل في الحصير على الحصير حسيرا فلما سمع يوسف تهديدها (قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه) أسند الدعوة اليهن لانهن قلن له ما يمنعك لو أجبت مولاتك أو افتتنت كل واحدة به فدعته الى نفسها سرا فالتجأ الى ربه قال رب السجن أحب الي من ركوب المعصية (والا تصرف عني كيدهن) فزع منه الى الله في طلب العصمة (أصب اليهن) أمل اليهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها (وأكن من الجاهلين) من الذين لا يعملون بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء أو من السفهاء فلما كان في قوله والا تصرف عني كيدهن معنى طلب الصرف والدعاء قال (فاستجاب له ربه) أي أجاب الله دعاءه (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بحاله وحالهن (ثم بدا لهم) فاعله مضمر لدلالة ما يفسره عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء أي ظهر لهم رأي والضمير في لهم للعزيز وأهله

المفرط ليوسف لانه قد ركز في النفوس ان لا شيء أحسن من الملك فلذلك وصفته بكونه ملكا وقيل لما كان الملك مطهرا من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التي تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك قوله تعالى (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه) يعني قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذي لمتنني في محبته وانما قالت ذلك لاقامة عذرها عندهن حين قلن ان امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعاني حبا وانما قالت فذلكن الخ بعد ما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به ويجوز أن يكون اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه ثم ان امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) يعني فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبته منه وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم ان امرأة العزيز قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) يعني وان لم يطاوعني فيما دعوته اليه (ليسجنن) أي ليعاقبن بالسجن والحبس (وليكونا من الصاغرين) يعني من الاذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك (قال رب) أي يا رب (السجن أحب الي مما يدعونني اليه) قيل ان الدعاء كان منها خاصة وانما أضافه اليهن جميعا خروجا من التصريح الى التعريض وقيل انهن جميعا دعونه الى أنفسهن وقيل انهن لما قلن له أطع مولاتك صحت اضافة الدعاء اليهن جميعا أو لانه كان بحضرتهن قال بعضهم لو لم يقل السجن أحب الي لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد أن يسأل الله العافية (والا تصرف عني كيدهن) يعني ما أردن مني (أصب اليهن) أي أمل اليهن يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (وأكن من الجاهلين) يعني من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة (فاستجاب له ربه) يعني فأجاب الله تعالى دعاء يوسف (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) يعني لدعاء يوسف وغيره (العليم) يعني بحاله وفي الآية دليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما ابتلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن اياه بما لا يليق بحاله لجأ الى الله وفزع الى الدعاء رغبة الى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الامر مع الاعتراف بانه ان لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على أنه لا يقدر أحد على الانصراف عن المعصية الا بعصمة الله ولطفه به قوله عز وجل (ثم بدا لهم) يعني للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك انهم أرادوا أن يقصروا من أمر يوسف على الاعراض وكتم الحال وذلك ان المرأة قالت لزوجها ان ذلك العبد العبراني

قد فضحني عند الناس يخبرهم بأني قد راودته عن نفسه فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فرأى حبسه (من بعد ما رأوا الآيات) يعني الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النسوة أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته (ليسجننه) أي ليحبسن يوسف في السجن (حتى حين) يعني إلى مدة يرون رأيهم فيها وقال عطاء إلى أن تنقطع مقالة الناس وقال عكرمة إلى سبع سنين وقال الكلبي خمس سنين فحبسه قال السدي جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن ثروان العمليقي ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما وكان السبب في ذلك أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقي اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما فحبسهما مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أعبر الأحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبراني فتراءيا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رأيا شيئا قال ابن مسعود ما رأيا شيئا إنما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا علي ما رأيتما فقصا عليه ما رأياه فذلك قوله تعالى (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (إني أراني أعصر خمرا) يعني عنبا سمي العنب خمرا باسم ما يؤول إليه يقال فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبن حتى يصير آجرا وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأني في بستان وإذا فيه أصل حبلة وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك في يدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر) وهو صاحب طعام الملك (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه) وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منها (نبئنا بتأويله) أي أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا (إنا نراك من المحسنين) يعني من العالمين بعبارة الرؤيا والإحسان هنا بمعنى العلم وسئل الضحاك ما كان إحسانه فقال كان إذا مرض إنسان في الحبس عاده وقام عليه وإذا ضاق على أحد وسع عليه وإذا احتاج أحد جمع له شيئا وكان مع هذا يجتهد في العبادة فيصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة وقيل إنه لما دخل السجن وجد فيه قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا وأبشروا فقالوا بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن أين أنت قال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل الله إبراهيم فقال له صاحب السجن يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أي بيوت السجن

(من بعد ما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الأيدي وشهادة الصبي وغير ذلك (ليسجننه) لابد له عذراً لحال بارخاء الستر على القيل والقال وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة زوجها

وكان مطواعا لها وجميلا ذلولا زمامه في يدها وقد طمعت أن يذلله السجن ويسخره لها أو خافت عليه العيون وظنت فيه الظنون فألجأها الخجل من الناس والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفي بخبره إذا منعت من نظره (حتى حين) إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه (ودخل معه السجن فتيان) عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف لأن مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الأمير تريد مصاحبا له فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له (قال أحدهما) أي شرابيه (إني أراني) أي في المنام وهي حكاية حال ماضية (أعصر خمرا) أي عنبا تسمية للعنب بما يؤول إليه أو الخمر بلغة عمان اسم العنب (وقال الآخر) أي خبازه (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله) بتأويل ما رأيناه (إنا نراك من المحسنين) من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ومن المحسنين إلى أهل السجن فإنك تداوي المريض وتعزي الحزين وتوسع على الفقير فأحسن إلينا بتأويل ما رأيناه وقيل إنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي إني رأيت كأني في بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته وقال الخباز إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منها

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) أي ببيان ماهيته وكيفيته لأن ذلك يشبه تفسير المشكل (قبل أن يأتيكما) ولما استعبراه ووصفاه بالاحسان افترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الاخبار بالغيب وأنه

ينبئهما بما يحمل اليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيكون كذلك وجعل ذلك تخلصا الى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الايمان ويزينه لهما ويقبح اليهما الشرك وفيه أن العالم اذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه لم يكن من باب التزكية (ذلكما) اشارة لهما الى التأويل أي ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمني ربي) وأوحى به الي ولم أقله عن تكهن وتنجم (اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) يجوز أن يكون كلاما مبتدأ وأن يكون تعليلا لما قبله أي علمني ذلك وأوحى به الي لأني رفضت ملة أولئك وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب) وهي الملة الحنيفية وتكرير هم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى اليه بما ذكر من اخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في اتباع قوله والمراد به ترك الابتداء لا أنه كان فيه ثم تركه (ما كان لنا) ما صح لنا معشر الأنبياء (أن نشرك بالله من شيء) أي شيء كان صنما أو غيره ثم قال

شئت وقيل ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا انا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط الا دخل علي من حبه بلاء لقد أحبتني عمتي فدخل علي من ذلك بلاء وأحبني أبي فألقيت في الجب وأحبتني امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبرها لهما حين سألاه لما علم ما في ذلك من المكروه لأحدهما وأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره من اظهار المعجزة والنبوة والدعاء الى التوحيد وقيل انه عليه السلام أراد أن يبين لهما أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدا فيه وذلك أنهما طلبا منه علم التعبير ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الاخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه واذا قدر على الاخبار عن الغيوب كان أقدر على تعبير الرؤيا بطريق الاولى وقيل انما عدل عن تعبير رؤياهما الى اظهار المعجزة لأنه علم أن أحدهما سيصلب فأراد أن يدخله في الاسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فأظهر له المعجزة لهذا السبب (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) قيل أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما الا أخبرتكما خبره في اليقظة وقيل أراد به في اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعني تطعمانه وتأكلانه الا نبأتكما بتأويله يعني أخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذي يصل اليكما فيه (قبل أن يأتيكما) يعني قبل أن يصل اليكما وأي طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم فقالا ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن ولا عراف وانما ذلك اشارة الى المعجزة والعلم الذي أخبرهما به (ذلكما مما علمني ربي) يعني أن هذا الذي أخبرتكما به وحي من الله أوحاه الي وعلم علمنيه (اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) فان قلت ظاهر قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله أنه عليه الصلاة والسلام كان داخلا في هذه الملة ثم تركها وليس الامر كذلك لأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا الى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك في قوله تركت قلت الجواب من وجهين الاول أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء والالتفات اليه بالمرة وليس من شرطه أن يكون قد كان داخلا فيه ثم تركه ورجع عنه الوجه الثاني وهو الاقرب أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والايمان الصحيح صح قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله (وهم بالآخرة هم كافرون) فتركهم وأعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم في قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة انكارهم للمعاد وقوله (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب) لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر انه من أهل بيت النبوة وان آباءه كلهم كانوا أنبياء وقيل لما كان ابراهيم واسحق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا في الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة في الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام انه من أولادهم وانه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم اليه من التوحيد (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) معناه ان الله سبحانه وتعالى لما اختارنا للنبوة واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغي لنا أن نشرك به مع

هذه الاختصاصات التي اختصصنا بها قال الواحدي لفظة من في قوله من شيء زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد وقال صاحب الكشاف ما كان لنا ما صح لنا معشر الانبياء أن نشرك بالله من شيء أي شيء كان من ملك أو جني أو انسي فضلا أن نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر (ذلك من فضل الله) يعني ذلك التوحيد وعدم الاشراك والعلم الذي رزقنا من فضل الله (علينا وعلى الناس) يعني بما نصب لهم من الادلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية اليه فكل ذلك من فضل الله على عباده (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعني أن أكثرهم لا يشكرون الله على هذه النعم التي أنعم بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما الى الاسلام فقال (يا صاحبي السجن) يريد يا صاحبي في السجن فأضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليل لان الليل مسروق فيه غير مسروق ويجوز أن يريد يا ساكني السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون) يعني آلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ووسط متباينون في الصفة وهي مع ذلك لا تضر ولا تنفع (خير أم الله الواحد القهار) يعني أن هذه الاصنام أعظم صفة في المدح واستحقاق اسم الالهية والعبادة أم الله الواحد القهار قال الخطابي الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الاجسام المؤلفة لان ذلك قد يكثر بانضمام بعضها الى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذي لا مثل له ولا يشبهه شيء من خلقه القهار قال الخطابي القهار هو الذي قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت وقال غيره القهار هو الذي قهر كل شيء وذلله فاستسلم وانقاد وذل له والمعنى ان هذه الاصنام التي تعبدونها ذليلة مقهورة اذا أراد الانسان كسرها واهانتها قدر عليه والله هو الواحد في ملكه القهار لعباده الذي لا يغلبه شيء وهو الغالب لكل شيء سبحانه وتعالى ثم بين عجز الاصنام وانها لا شيء البتة فقال (ما تعبدون من دونه) يعني من دون الله وانما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في المخاطبة لانه أراد جميع من في السجن من المشركين (الا أسماء سميتموها) يعني سميتموها آلهة وأربابا وهي حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها (أنتم وآباؤكم) يعني من قبلكم سموها آلهة (ما أنزل الله بها من سلطان) يعني انه لا حجة لكم بها ولا برهان ولا أمر الله بها وذلك انهم كانوا يقولون ان الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله ما أنزل الله بها من سلطان (ان الحكم الا لله) يعني ان الحكم والقضاء والامر والنهي لله تعالى لا شريك له في ذلك (أمر ألا تعبدوا الا اياه) لانه هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التي سميتموها آلهة (ذلك الدين القيم) يعني عبادة الله هي الدين المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فلما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام من الدعاء الى الله وعبادته رجع الى تعبير رؤياهما فقال (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا) يعني ان صاحب شراب الملك يرجع الى منزلته ويسقي الملك خمرا كما كان يسقيه أولا والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعو به الملك ويرده الى منزلته التي كان عليها (وأما الآخر فيصلب) يعني صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة أيام ثم يدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) قال ابن مسعود رضي الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه

(ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فضل الله فيشركون به ولا ينتهون (يا صاحبي السجن) يا ساكني السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون ٣٩ خير أم الله الواحد القهار) يريد التفرق في العدد والتكاثر أي أن تكون أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما أم يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الاصنام (ما تعبدون) خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر (من دونه) من دون الله (الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أي سميتم ما لا يستحق الالهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون الا أسماء لا مسميات لها ومعنى سميتموها سميتم بها يقال سميته زيدا وسميته بزيد (ما أنزل الله بها) بتسميتها (من سلطان) حجة (ان الحكم) في أمر العبادة والدين (الا لله) ثم بين ما حكم به فقال (أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم) الثابت الذي دلت عليه البراهين (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وهذا يدل على أن العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقه ثم عبر الرؤيا فقال (يا صاحبي السجن أما أحدكما) يريد الشرابي (فيسقي ربه) سيده (خمرا) أي يعود الى عمله (وأما الآخر) أي الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) روي أنه قال للاول ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فانها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت

بالصلاة والسلام قالا ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب قال يوسف (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان)
يعني فرغ من الأمر الذي سألتماني عنه ووجب حكم الله عليكما بالذي أخبرتكما به رأيتما شيئاً أم لم
تريا (وقال) يعني يوسف (للذي ظن) يعني علم وتحقق فالظن بمعنى العلم (أنه ناج منهما) يعني ساقي
الملك (اذكرني عند ربك) يعني سيدك وهو الملك الأكبر وقل له إن في السجن غلاماً محبوساً
مظلوماً طال حبسه (فأنساه الشيطان ذكر ربه) في هاء الكناية في فأنساه إلى من تعود قولان
أحدهما أنها ترجع إلى الساقي وهو قول عامة المفسرين والمعنى فأنسى الشيطان الساقي أن
يذكر يوسف عند الملك قالوا لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي حتى أنساه
ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف والقول الثاني وهو قول أكثر المفسرين أن هاء الكناية
ترجع إلى يوسف والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره
واستعان بمخلوق مثله في دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة
بالمخلوق في دفع الضرر جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب
وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذاً بهذا القدر فإن حسنات الأبرار سيئات
المقربين * فإن قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه * قلت بشغل
الخاطر وإلقاء الوسوسة فإنه قد صح في الحديث أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم
فأما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه وقوله
سبحانه وتعالى (فلبث في السجن بضع سنين) اختلفوا في قدر البضع فقال مجاهد هو ما بين الثلاث
إلى السبع وقال قتادة هو ما بين الثلاث إلى التسع وقال ابن عباس هو ما دون العشرة وأكثر
المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها في السجن خمس
سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف في
السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل له يا يوسف
اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي ذكرك كثرة البلوى
فقلت كلمة قال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في
السجن ما لبث يعني قوله اذكرني عند ربك ثم بكى الحسن وقال نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى
الناس ذكره الثعلبي مرسلاً وبغير سند وقيل إن جبريل دخل على يوسف في السجن فلما رآه
يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر ابن
الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحييت مني أن استشفعت بالآدميين
وعزتي وجلالي لألبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال
إذاً لا أبالي وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن
رزقك قال الله قال فمن حببك إلى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك
تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمي
مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي وهذه السبع سوى الخمس سنين التي كانت قبل
ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله عز وجل إخراجه من السجن رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة
هالته وذلك أنه رأى في منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقبهن سبع
بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهن ولم ير منهن شيء ولم يتبين
على العجاف منها شيء ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد

استحصدت

عليه [illegible] ما رأيت
من التأويل ثلاثة أيام ثم
تخرج فتقتل وتصلب
الطير من رأسه قال ما رأيت
شيئاً فقال يوسف (قضي
الأمر الذي فيه تستفتيان)
أي قطع وتم ما تستفتيان
فيه من أمركما وشأنكما أي
ما يجر إليه من العاقبة
وهي هلاك أحدهما ونجاة
الآخر (وقال للذي ظن
أنه ناج منهما) الظان
هو يوسف عليه السلام
إن كان تأويله بطريق
الاجتهاد وإن كان بطريق
الوحي فالظان هو الشرابي
أو يكون الظن بمعنى اليقين
(اذكرني عند ربك) صفني
عند الملك بصفتي وقص
عليه قصتي لعله يرحمني
ويخلصني من هذه الورطة
(فأنساه الشيطان) فأنسى
الشرابي (ذكر ربه) أن
يذكره لربه أو عند ربه أو
فأنسى يوسف ذكر الله حين
وكل أمره إلى غيره وفي
الحديث رحم الله أخي
يوسف لو لم يقل اذكرني
عند ربك لما لبث في السجن
سبعاً (فلبث في السجن
بضع سنين) أي سبعاً
عند الجمهور والبضع ما بين
الثلاث إلى التسع

(وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها وقيل كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا ثم كان سبب نجاته أيضا الرؤيا سمان جمع سمين وسمينة والعجاف المهازيل والعجف الهزال الذي ليس بعده سمن والسبب في وقوع عجاف جمعا لعجفاء وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على نقيضه وهو سمان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض وفي الآية دلالة على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر لأن الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله وأخر يابسات يعني وسبعا أخر (يا أيها الملأ) كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء (أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون) اللام في للرؤيا ٢٥ للبيان كقوله وكانوا فيه من الزاهدين أو لأن المعمول به إذا تقدم على الفعل لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها تقول عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت أو يكون للرؤيا خبر كان كقولك كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبرا آخر أو حال وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الأثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر (قالوا أضغاث أحلام) أي هي أضغاث أحلام أي تخاليطها

وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم من أنواع الحشيش الواحد ضغث فاستعيرت لذلك والإضافة بمعنى من أي أضغاث من أحلام وإنما جمع وهو حلم واحد تزيدا في وصف الحلم بالبطلان ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أرادوا بالأحلام المنامات الباطلة فقالوا ليس لها عندنا تأويل إنما التأويل للمنامات الصحيحة أو اعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير (وقال الذي نجا) من القتل (منهما) من صاحبي السجن (وادكر) بالدال هو الفصيح وأصله اذتكر فأبدلت التاء دالا والذال دالا وأدغمت الأولى في الثانية لتقارب المخرجين وعن الحسن واذكر ووجهه أنه قلب التاء ذالا وأدغم أي تذكر يوسف وما شاهد منه (بعد أمة) بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك (أنا أنبئكم بتأويله) أنا أخبركم به عمن عنده علمه

استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شيء فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التي رآها فذلك قوله تعالى (وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي) يعني يا أيها الأشراف أخبروني بتأويل رؤياي (إن كنتم للرؤيا تعبرون) يعني إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمي هذا العلم تعبيرا لأن المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها وهذا أخص من التأويل لأن التأويل يقال فيه وفي غيره (قالوا) يعني قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك (أضغاث أحلام) يعني أخلاط مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والأحلام جمع حلم وهو الرؤيا التي يراها الإنسان في منامه (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) لما جعل الله هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك أن الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لأنه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى قهره وغلبه فأراد أن يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى في منامه وسألهم عن تأويلها فأعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى (وقال الذي نجا منهما) يعني وقال الساقي الذي نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز (وادكر بعد أمة) يعني أنه تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك بعد أمة يعني بعد حين وهو سبع سنين ومعنى الحين من الزمان أمة لأنه جماعة الأيام والأمة الجماعة (أنا أنبئكم) يعني أخبركم (بتأويله) وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع إما أنه أراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك أن الفتى الساقي جثا بين يدي الملك وقال إن في السجن رجلا عالما يعبر الرؤيا

[illegible] فأرسلوه إلى السجن (يوسف أيها الصديق) أيها البليغ في الصدق
وإنما قال له ذلك لأنه ذاق وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن
سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس) إلى الملك وأتباعه (لعلهم يعلمون) فضلك ومكانك من
العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك (قال تزرعون سبع سنين) هو خبر في معنى الأمر كقوله تؤمنون بالله واليوم الآخر
وتجاهدون دليله قوله فذروه في سنبله ٢٦ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به فيجعل كأنه موجود

(فأرسلون) فيه اختصار تقديره فأرسلني أيها الملك فأرسله فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن في
المدينة (يوسف) أي يا يوسف (أيها الصديق) إنما سماه صديقا لأنه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق
الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في
السجن (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات)
فإن الملك رأى هذه الرؤيا (لعلي أرجع إلى الناس) يعني أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى الملك
وجماعته (لعلهم يعلمون) يعني بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك في العلم (قال) يعني
قال يوسف معبرا لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما
البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى (تزرعون) وهذا
خبر بمعنى الأمر أي ازرعوا (سبع سنين دأبا) يعني عادتكم في الزراعة والدأب العادة وقيل
ازرعوا بجد واجتهاد (فما حصدتم فذروه في سنبله) إنما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في
سنبله لئلا يفسد ويقع فيه السوس وذلك أبقى له على طول الزمان (إلا قليلا مما تأكلون) يعني
ادرسوا قليلا من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضا وهو
وقت السنين المجدبة وهو قوله (ثم يأتي من بعد ذلك) يعني من بعد السنين المخصبة (سبع شداد)
يعني سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس (يأكلن) يعني يفنين (ما قدمتم لهن) يعني يؤكل
فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام وإنما أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع
في الكلام (إلا قليلا مما تحصنون) يعني تحرزون وتدخرون للبذر والإحصان الإحراز وهو
إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتي من بعد ذلك) يعني من بعد هذه السنين
المجدبة (عام فيه يغاث الناس) أي يمطرون من الغيث الذي هو المطر وقيل هو من قولهم
استغثت بفلان فأغاثني من الغوث (وفيه يعصرون) يعني يعصرون العنب والزيتون
زيتا والسمسم دهنا أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار وقيل
يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب قوله عز وجل (وقال الملك ائتوني به)
وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بفتيا يوسف وما عبر به رؤياه استحسنه الملك وعرف
أن الذي قاله كائن لا محالة فقال ائتوني به حتى أبصر هذا الرجل الذي قد عبر رؤياي بهذه
العبارة فرجع الساقي إلى يوسف وقال له أجب الملك فذلك قوله تعالى (فلما جاءه الرسول) فأبى
أن يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولا يراه بعين النقص (قال) يعني قال يوسف للرسول (ارجع
إلى ربك) يعني إلى سيدك وهو الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) ولم يصرح
بذكر امرأة العزيز أدبا واحتراما لها (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله

فهو يخبر عنه (دأبا) بسكون
الهمزة وحفص بحركه
وهما مصدرا دأب في العمل
وهو حال من المأمورين
أي دائبين (فما حصدتم
فذروه في سنبله) كي لا يأكله
السوس (إلا قليلا مما
تأكلون) في تلك السنين
(ثم يأتي من بعد ذلك سبع
شداد يأكلن) هو من إسناد
المجاز جعل أكل أهلهن مسندا
إليهن (ما قدمتم لهن) أي
في السنين المخصبة (إلا
قليلا مما تحصنون) تحرزون
وتخبئون (ثم يأتي من بعد
ذلك عام) أي من بعد أربع
عشرة سنة عام (فيه يغاث
الناس) من الغوث أي يجاب
مستغيثهم أو من الغيث أي
يمطرون يقال غيثت البلاد
إذا مطرت (وفيه يعصرون)
العنب والزيتون والسمسم
فيتخذون الأشربة والأدهان
يعصرون حمزة فأول البقرات
السمان والسنبلات الخضر
بسنين مخاصيب والعجاف
واليابسات بسنين مجدبة
ثم بشرهم بعد الفراغ من
تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي (وقال الملك ائتوني صلى
به فلما جاءه الرسول) ليخرجه من السجن (قال ارجع إلى ربك) أي الملك (فاسأله ما بال النسوة) أي حال النسوة (اللاتي قطعن
أيديهن) إنما تثبت يوسف وتأنى في إجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما رمي به وسجن فيه لئلا يتسلق به
الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلما إلى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم
وجرم كبير وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وقال عليه السلام لقد عجبت من

صلى الله عليه وسلم لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي أخرجه الترمذي وزاد فيه ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعي رسول الملك الذي جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادرا إلى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن الطويل فلبث في السجن وراسل الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله (إن ربي بكيدهن عليم) يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن و(قال) لهن (ما خطبكن) أي ما شأنكن وأمركن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) إنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب (قلن) يعني النسوة جميعا مجيبات للملك (حاش لله) يعني معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) يعني من خيانة في شيء من الأشياء (قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق) يعني ظهر وتبين وقيل إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فعزرنها وقيل خافت أن يشهدن عليها فأقرت فقالت (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) يعني في قوله هي راودتني عن نفسي واختلفوا في قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) على قولين أحدهما أنه من قول المرأة ووجه هذا القول أن هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ثم قالت ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو في السجن ولم أكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وإن كنت قد قلت فيه ما قلت في حضرته ثم بالغت في تأكيد هذا القول فقالت (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) يعني أني لما أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أني افتضحت لأن الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين والقول الثاني أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الأكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية أنه لما بلغ يوسف قول المرأة أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أي الذي فعلت من ردي رسول الملك إليه ليعلم يعني العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب يعني في حال غيبته فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لأنه ذكر كلام إنسان ثم أتبعه بكلام إنسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى يريد أن يخرجكم من أرضكم هذا من قول الملأ فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا من

يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر إن كان لحليما ذا أناة ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن (إن ربي بكيدهن عليم) أي إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهو مجازيهن عليه فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم (قال) لهن (ما خطبكن) ما شأنكن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) هل وجدتن منه ميلا إليكن (قلن حاش لله) تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله (ما علمنا عليه من سوء) من ذنب (قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق) ظهر واستقر (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) في قوله هي راودتني عن نفسي ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قذف به ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف (ذلك) أي امتناعي من الخروج والتثبت لظهور البراءة (ليعلم) العزيز (أني لم أخنه بالغيب) بظهر الغيب في حرمته وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني أو ليعلم الملك أني لم أخن العزيز (وأن الله) أي وليعلم أن الله (لا يهدي كيد الخائنين) لا ينفذه ولا يسدده وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته فقال

ذلك إشارة إلى ما تقدم من قول ذلك الذي فعلته من ردي الرسول ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي لم أخن العزيز في حال غيبته ثم ختم هذا الكلام بقوله (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) يعني أني لو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة التي وقعت فيها لأن الله لا يهدي أي لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين واختلفوا في قوله (وما أبرئ نفسي) من قول من على قولين أحدهما أنه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال إن قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبرئ نفسي من مراودتي يوسف عن نفسه وكذبي عليه والقول الثاني وهو الأصح وعليه أكثر المفسرين أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسي وهذه رواية عن ابن عباس أيضا وهو قول الأكثرين وقال الحسن إن يوسف لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرئ نفسي لأن الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم ففي قوله وما أبرئ نفسي هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عز وجل فإن رؤية النفس في مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد إزالة ذلك عن نفسه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين (إن النفس لأمارة بالسوء) والسوء لفظ جامع لكل ما يهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية والسيئة الفعلة القبيحة واختلفوا في النفس الأمارة بالسوء ما هي فالذي عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات منها الأمارة بالسوء ومنها اللوامة ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هي صفات لنفس واحدة فإذا دعت النفس إلى شهواتها ومالت إليها فهي النفس الأمارة بالسوء فإذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة وقيل إن النفس أمارة بالسوء بطبعها فإذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة وقوله (إلا ما رحم ربي) قال ابن عباس معناه إلا من عصم ربي فتكون ما بمعنى من فهو كقوله ما طاب لكم من النساء يعني من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربي فعصمه من متابعة النفس الأمارة بالسوء (إن ربي غفور) يعني غفور لذنوب عباده (رحيم) بهم قوله تعالى (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) وذلك أنه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وعلمه طلب حضوره إليه فقال ائتوني به يعني بيوسف أستخلصه لنفسي أي أجعله خالصا لنفسي والاستخلاص طلب خلوص الشيء من جميع شوائب الاشتراك وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وإنما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده

في

ربي) إلا البعض الذي عصمه ربي بالعصمة ويجوز أن يكون ما رحم في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة أو هو استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة وقيل هو من كلام امرأة العزيز أي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين قذفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن وأودعته السجن تريد الاعتذار مما كان منها إن كل نفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (إن ربي غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت وإنما جعل من كلام يوسف ولا دليل عليه ظاهر لأن المعنى يقود إليه وقيل هذا من تقديم القرآن وتأخيره أي قوله ذلك ليعلم متصل بقوله فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) أجعله خالصا لنفسي

في يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره وإحسانه إلى أهل السجن وحسن أدبه وثباته
على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله تعالى أمراً هيأ أسبابه فألهم الملك ذلك
فقال ائتوني به أستخلصه لنفسي (فلما كلمه) فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول إلى يوسف
فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فأجابه روي أن يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لأهله
فقال اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد
فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة
الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً حسنة ثم قصد باب الملك قال وهب فلما
وقف بباب الملك قال حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا إله
غيرك ثم دخل الدار فلما أبصر الملك قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره
وشر غيره فلما نظر إليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ما هذا اللسان قال لسان عمي
إسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان أيضاً قال يوسف هذا لسان آبائي قال وهب
وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف
وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه ما رأى مع حداثة سن يوسف عليه
السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فأجلسه إلى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعني
فلما كلم الملك يوسف لأن مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبدأ بالكلام فيها وإنما يبدأ الملك فيها
بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقي أيها الملك هذا الذي علم تأويل رؤياك مع
عجز السحرة والكهنة عنها فأقبل عليه الملك و(قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) يقال اتخذ فلان
عند فلان مكانة أي منزلة وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد وقيل المكانة المنزلة والجاه
والمعنى قد عرفت أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه وقوله مكين أمين كلمة
جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا روي أن الملك قال
ليوسف عليه الصلاة والسلام أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك شفاها فقال نعم أيها الملك
رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه
تشخب أخلافهن لبناً فبينما أنت تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه
وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر متقلصات البطون ليس لهن ضروع
ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن
بالسمان فافترسن السمان كافتراس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن
ومششن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر فيهن سمن
ولا زيادة بعد أكلهن إذا سبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء وإلى جانبهن سبع
أخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء فبينما أنت تقول في نفسك أي شيء
هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن في الثرى والماء إذ هبت
ريح فذرت أوراق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن فصرن
سوداً فهذا ما رأيت أيها الملك ثم انتبهت مذعوراً فقال الملك والله ما أخطأت منها شيئاً فما شأن
هذه الرؤيا وإن كان عجباً فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى في تأويل رؤياي أيها الصديق
قال يوسف عليه الصلاة والسلام أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين
المخصبة وتجعل ما يتحصل من ذلك الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله فإنه أبقى له فيكون ذلك

ذو مكانة ومنزلة أمين مؤتمن على كل شيء روي أن الرسول جاءه ومعه سبعون حاجباً وسبعون مركباً وبعث إليه لباس الملوك فقال أجب الملك فخرج من السجن ودعا لأهله اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات وكتب على باب السجن هذه منازل البلواء وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً فلما دخل على الملك قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائي وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه وقال أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك قال رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك وقال له من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء فيأتيك الخلق من النواحي ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك قال الملك ومن

لي بهذا ومن يجمعه

حفيظ بحساب عليم بأعمالها من يأتي وقال الكلبي حفيظ بتقديره في السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك ومن أحق به مني فولاه ذلك وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة * فإن قلت كيف طلب يوسف عليه الصلاة والسلام الإمارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها مع كراهية طلبها لما صح من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها أخرجاه في الصحيحين قلت إنما يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها فإذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فأما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره وإذا كان مكلفا برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة فوجب عليه طلبها وقيل إنه لما علم أنه سيحصل قحط وشدة إما بطريق الوحي من الله أو بغيره وربما أفضى ذلك إلى هلاك معظم الخلق وكان في طلب الإمارة إيصال الخير والراحة إلى المستحقين وجب عليه طلب الإمارة لهذا السبب * فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم * قلت إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوصل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم ولما كان الملك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله إني حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضا مع كمال علمه بمصالح الدين قوله عز وجل (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) وكذلك إشارة إلى ما تقدم يعني وكما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه في عين الملك حتى قربه وأدنى منزلته كذلك مكنا له في الأرض يعني أرض مصر ومعنى التمكين هو أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وإليه الإشارة بقوله (يتبوأ منها حيث يشاء) لأنه تفسير للتمكين قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة دعاه الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سرير من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع ووضع له عليه ثلاثون فراشا وستون مرفقا وضرب له عليه كلة من إستبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الأكبر إليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه

وروي في الحديث رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة قالوا وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به وقيل كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع له (وكذلك) ومثل ذلك التمكين الظاهر (مكنا ليوسف في الأرض) أرض مصر وكانت أربعين فرسخا في أربعين والتمكين الإقدار وإعطاء المكنة (يتبوأ منها حيث يشاء) أي كل مكان أراد أن يتخذه منزلا لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه نشاء مكي

ويجعل

(نصيب برحمتنا) بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك (ولا نضيع أجر المحسنين) في الدنيا (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا) ر يه يوسف وغيره ٣١ من المؤمنين الى يوم القيامة (وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال سفيان بن عيينة المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق وتلا الآية روي أن الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك اليه أمره وعزل قطفير ثم مات بعده فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرائيم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الاولى حتى لم يبق معهم شيء منها ثم بالحلي والجواهر في الثانية ثم بالدواب في الثالثة ثم بالعبيد والاماء في الرابعة ثم بالدور والعقار في الخامسة ثم بأولادهم في السادسة ثم برقابهم في السابعة حتى استرقهم جميعا ثم أعتق أهل مصر عن آخرهم ورد عليهم أملاكهم وكان لا يبيع لأحد من الممتارين أكثر من حمل بعير وأصاب أرض كنعان نحو ما أصاب مصر فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا وذلك قوله (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم) بلا تعريف (وهم له منكرون) لتبدل الزي ولانه

وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلمها الى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذا في مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر في تلك الليالي فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لا تلمني فاني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين ذكرين افرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين المجدبة بهول وشدة لم ير الناس مثله وقيل انه دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط فهلك في السنة الاولى من أول سني القحط كل ما أعدوه في السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الاولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا أخذه منهم وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شيء وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي والانعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية الا احتوى عليها كلها وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بأيدي الناس عبد ولا أمة وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصاروا جميعهم عبيدا ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى في هؤلاء قال الملك الرأي رأيك ونحن لك تبع قال فاني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وقيل ان يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الايام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال أخاف ان شبعت أنسى الجائع وأمر يوسف طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال مجاهد ولم يزل يوسف يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء (نصيب برحمتنا من نشاء) يعني نختص بنعمتنا وهي النبوة من نشاء يعني من عبادنا (ولا نضيع أجر المحسنين) قال ابن عباس يعني الصابرين (ولأجر الآخرة) يعني ولثواب الآخرة (خير) يعني أفضل من أجر الدنيا (للذين آمنوا وكانوا يتقون) يعني يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على أن الذي أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الاجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله في الدنيا من الملك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون)

قال أهل التفسير لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام قصد
الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطي أحدا أكثر من حمل بعير وإن كان عظيما
تقسيطا لهم وتساويا بين الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه إلى مصر
للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء إخوة
يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا
أهل بادية وإبل وشياه فدعاهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال بلغني أن بمصر ملكا صالحا
يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه للشراء وامتاروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام فخرجوا حتى
قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم قال ابن عباس ومجاهد بأول نظرة نظر إليهم عرفهم
وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه وهم له منكرون يعني لم يعرفوه قال ابن عباس رضي
الله عنهما كان بين أن قذفوه في الجب وبين دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقال
عطاء إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لأنه كان قد لبس
زي ملوك مصر عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الأسباب مانع
من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه وقيل ان العرفان انما يقع في القلب بخلق الله
تعالى له فيه وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك العرفان في تلك الساعة في قلوبهم تحقيقا لما
أخبر أنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة
والسلام فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم أخبروني من أنتم وما
أمركم فإني قد أنكرت حالكم قالوا نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب
الناس فجئنا نمتار قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي قالوا لا والله ما نحن بجواسيس
إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله تعالى
قال وكم أنتم قالوا كنا اثني عشر فذهب أخ لنا معنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال
فكم أنتم الآن قالوا عشرة قال وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لأنه أخو الذي هلك لأمه فأبونا
يتسلى به قال فمن يعلم أن الذي تقولون حق قالوا أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد
قال فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين فأنا أرضى بذلك منكم قالوا إن أبانا يحزن
لفراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني به فاقترعوا فيما بينهم
فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى (ولما
جهزهم بجهازهم) يقال جهزت القوم تجهيزا إذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون
إليه في وجوههم والجهاز بفتح الجيم هي اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الأكثرون من
أهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست بجيدة قال ابن عباس حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام
وأكرمهم في النزول وأحسن ضيافتهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم (قال ائتوني بأخ
لكم من أبيكم) يعني الذي خلفتموه عنده وهو بنيامين (ألا ترون أني أوفي الكيل) يعني
أني أتمه ولا أبخس منه شيئا وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم أكرمكم بذلك (وأنا خير المنزلين)
يعني خير المضيفين لأنه كان قد أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده قال الإمام فخر الدين الرازي
هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس
ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين
وأيضا يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس

كان من وراء الحجاب ولطول
المدة وهو أربعون سنة روي
انه لما رآهم وكلموه بالعبرانية
قال لهم أخبروني من أنتم
وما شأنكم قالوا نحن قوم
من أهل الشام رعاة
أصابنا الجهد فجئنا نمتار
فقال لعلكم جئتم عيونا
تنظرون عورة بلادي
قالوا معاذ الله نحن بنو
نبي حزين لفقد ابن كان
أحبنا اليه وقد أمسك
أخاه من أمه يستأنس
به فقال ائتوني به ان صدقتم
(ولما جهزهم بجهازهم)
أعطى كل واحد منهم حمل
بعير وقرئ بكسر الجيم شاذا
(قال ائتوني بأخ لكم من
أبيكم ألا ترون أني أوفي
الكيل) أتمه (وأنا خير
المنزلين) كان قد أحسن
انزالهم وضيافتهم وحثهم بهذا
الكلام على الرجوع اليه

ويعلمون مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق ثم قال يوسف
(فإن لم تأتوني به) يعني بأخيكم الذي من أبيكم (فلا كيل لكم عندي) يعني لست أكيل لكم طعاما
(ولا تقربون) يعني ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادي وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لأنهم
كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فإذا منعهم من العود كان قد
ضيق عليهم فعند ذلك (قالوا) يعني إخوة يوسف (سنراود عنه أباه) يعني سنجتهد ونحتال حتى
ننزعه من عنده (وإنا لفاعلون) يعني ما أمرتنا به قوله عز وجل (وقال لفتيانه) يعني وقال يوسف
لفتيانه وهم غلمانه وأتباعه (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذي أعطوه
ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس أنها كانت النعال والأدم والرحال جمع
رحل وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره (لعلهم يعرفونها) يعني يعرفون بضاعتهم (إذا
انقلبوا إلى أهلهم) يعني إذا رجعوا إلى أهلهم (لعلهم يرجعون) إلينا واختلفوا في السبب الذي
من أجله رد يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم بضاعتهم فقيل إنهم إذا فتحوا متاعهم ووجدوا
بضاعتهم قد ردت إليهم علموا أن ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع إليه
سريعا وقيل إنه خاف أن لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة
وقيل إنه رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته لؤم لشدة حاجتهم إليه وقيل أراد أن يحسن
إليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم ولا عيب وقيل أراد أن يريهم بره وكرمه وإحسانه إليهم في رد
بضاعتهم ليكون ذلك أدعى إلى العود إليه وقيل إنما فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم
على رد البضاعة إليه إذا وجدوها في رحالهم لأنهم أنبياء وأولاد أنبياء وقيل أراد برد البضاعة
إليهم أن يكون ذلك عونا لأبيه ولإخوته على شدة الزمان (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا)
إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من أولاد يعقوب ما أكرمنا
كرامته فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرؤوا عليه مني السلام وقولوا له إن أبانا
يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده وأخبروه
بالقصة ثم قالوا يا أبانا (منع منا الكيل) وفيه قولان أحدهما أنهم لما أخبروا يوسف بأخيهم من
أبيهم طلب وأمسك الطعام لأبيهم وأخيهم المخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع
منا الكيل إشارة إليه وأراد بالكيل الطعام لأنه يكال والقول الثاني أنه سيمنع منا الكيل في
المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون وقال
الحسن يمنع منا الكيل إن لم تحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى إخبارا عنهم (فأرسل معنا أخانا)
يعني بنيامين (نكتل) قرئ بالياء يعني يكتل لنفسه وقرئ بالنون يعني نكتل نحن جميعا وإياه معنا
(وإنا له لحافظون) يعني نرده إليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة (قال) يعني يعقوب (هل آمنكم
عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) يعني كيف آمنكم على ولدي بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف
ما فعلتم وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف وضمنتم لي حفظه وقلتم وإنا له لحافظون
ثم فعلتم ما فعلتم فلما لم يحصل الأمان والحفظ هنالك كيف يحصل هنا ثم قال (فالله خير حفظا)

(فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) فلا أبيعكم طعاما (ولا تقربون) أي فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا فهو داخل في حكم
الجزاء مجزوم ومعطوف على محل قوله فلا كيل لكم أو هو بمعنى النهي (قالوا سنراود عنه أباه) سنخادعه عنه ونحتال حتى ننتزعه
من يده (وإنا لفاعلون) ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى قال اجعلوا بعضكم رهينة فتركوا عنده شمعون وكان أحسنهم
رأيا في يوسف (وقال لفتيانه) كوفي غير أبي بكر لفتيته غيرهم وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ وفعلة للقلة وفعلان للكثرة أي لغلمانه الكيالين (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) أوعيتهم وكانت نعالا وأدما أو ورقا وهو أليق بالدس في الرحال (لعلهم يعرفونها) يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين (إذا انقلبوا إلى أهلهم) وفرغوا ظروفهم (لعلهم يرجعون) لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا أو رعيا لا يجدون بضاعة بها يرجعون أو ما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الأمانة أو لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنا (فلما رجعوا إلى أبيهم) بالطعام وأخبروه بما فعل (قالوا يا أبانا منع منا الكيل) يريدون قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل (فأرسل معنا أخانا نكتل) نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه يكتل حمزة وعلي أي يكتل أخونا فينضم
اكتياله إلى اكتيالنا (وإنا له لحافظون) عن أن يناله مكروه (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على
أخيه من قبل) يعني أنكم قلتم في يوسف أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون كما تقولونه في أخيه ثم خنتم بضمانكم فما
يأمنني من مثل ذلك ثم قال (فالله خير حافظا) كوفي غير أبي بكر فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم وهو حال أو تمييز ومن قرأ حفظا فهو

[illegible] (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن ينعم علي بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين قال كعب لما قال فالله خير حفظا قال الله
تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي) ما للنفي أي ما نبغي
في القول ولا نتجاوز الحق أو ما نبغي شيئا وراء ما فعل بنا من الإحسان أو ما نريد منك بضاعة أخرى أو للاستفهام أي أي شيء
نطلب وراء هذا (هذه بضاعتنا ردت إلينا) جملة مستأنفة موضحة لقوله ما نبغي والجمل بعدها معطوفة عليها أي إن بضاعتنا
ردت إلينا فنستظهر بها (ونمير أهلنا) في رجوعنا إلى الملك أي نجلب لهم ميرة وهي طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا)
في ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه
شيء مما تخافه (ونزداد كيل
بعير) نزداد وسق بعير
باستصحاب أخينا (ذلك كيل
يسير) سهل عليه متيسر
لا يتعاظمه (قال لن أرسله
معكم حتى تؤتون) وبالياء
مكي (موثقا) عهدا (من
الله) والمعنى حتى تعطوني
ما أتوثق به من عند الله أي
أراد أن يحلفوا له بالله وإنما
جعل الحلف بالله موثقا
منه لأن الحلف به مما
تؤكد به العهود وقد أذن
الله في ذلك فهو إذن منه
(لتأتنني به) جواب اليمين
لأن المعنى حتى تحلفوا
لتأتنني به (إلا أن يحاط بكم)
إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا
الإتيان به فهو مفعول له
والكلام المثبت وهو قوله
لتأتنني به في تأويل النفي
أي لا تمتنعوا من الإتيان به
إلا للإحاطة بكم يعني لا تمتنعوا
منه لعلة من العلل إلا لعلة
واحدة وهي أن يحاط بكم
فهو استثناء من أعم العام
في المفعول له والاستثناء
من أعم العام لا يكون إلا في النفي فلا بد من تأويله بالنفي (فلما آتوه موثقهم) قيل حلفوا بالله رب محمد عليه قاصدين
السلام (قال) بعضهم يسكت عليه لأن المعنى قال يعقوب (الله على ما نقول) من طلب الموثق وإعطائه (وكيل) رقيب مطلع غير
أن السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لا يجوز فالأولى أن يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله (وقال يا بني
لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الجمهور على أنه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة أمرهم ولم يأمرهم بالتفرق
في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى فالعين حق عندنا وجوده بأن يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب

يعني أن حفظ الله خير من حفظكم له ففيه التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع
الأمور (وهو أرحم الراحمين) وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم وإنما أرسله معهم
وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان
بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة
القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك قوله تعالى (ولما فتحوا متاعهم) يعني الذي حملوه من
مصر فيحتمل أن يكون المراد به الطعام أو أوعية الطعام (وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) يعني أنهم
وجدوا في متاعهم ثمن الطعام الذي كانوا قد أعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس في متاعهم (قالوا
يا أبانا ما نبغي) يعني ماذا نبغي وأي شيء نطلب وذلك أنهم كانوا قد ذكروا ليعقوب إحسان ملك
مصر إليهم وحثوا يعقوب على إرسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت
إليهم قالوا أي شيء نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الإحسان والإكرام أوفى لنا الكيل
ورد علينا الثمن وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم (هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا)
يقال مار أهله يميرهم ميرا إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر إليهم والمعنى إنا نشتري لأهلنا
الطعام ونحمله إليهم (ونحفظ أخانا) يعني بنيامين مما تخاف عليه حتى نرده إليك (ونزداد كيل
بعير) يعني ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام (ذلك كيل يسير) يعني أن ذلك
الحمل الذي نزداده من الطعام هين على الملك لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك وقيل
معناه أن الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا (قال) يعني قال لهم يعقوب (لن أرسله
معكم حتى تؤتون موثقا من الله) يعني لن أرسل معكم بنيامين حتى تؤتوني عهد الله وميثاقه
والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه (لتأتنني به) دخلت اللام هنا
لأجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (إلا أن يحاط بكم) قال مجاهد إلا أن تهلكوا جميعا
فيكون لكم عذر عندي لأن العرب تقول أحيط بفلان إذا هلك أو قارب هلاكه وقال قتادة إلا
أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع (فلما آتوه موثقهم) يعني فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له
(قال الله على ما نقول وكيل) يعني قال يعقوب الله شاهد على ما نقول لأن الشاهد وكيل بمعنى أنه
موكول إليه هذا العهد وقيل وكيل بمعنى حافظ قال كعب الأحبار لما قال يعقوب فالله خير حفظا
قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما بعدما توكلت علي وفوضت أمرك إلي وذلك أنه
لما اشتد بهم الأمر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بدا من إرسال بنيامين
معهم فأرسله معهم متوكلا على الله ومفوضا أمره إليه قوله عز وجل إخبارا عن يعقوب (وقال
يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وذلك أنهم لما تجهزوا من عند يعقوب

قاصدين مصر قال لهم يابني لا تدخلوا يعني مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكانت لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب وقال السدي أراد الطرق لا الابواب يعني من طرق متفرقة وانما أمرهم بذلك لانه خاف عليهم العين لانهم كانوا قد أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم ان يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فان العين حق وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العين حق زاد البخاري ونهى عن الوشم (م) عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين واذا استغسلتم فاغتسلوا عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين أخرجه أبو داود قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى قال المازري أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم ان كل معنى يكون مخالفا في نفسه ولا يؤدي الى قلب حقيقة ولا افساد دليل فانه من مجوزات العقول واذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وانكاره وقيل لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين المثبتين للعين تأثيرا ان العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الافعى والعقرب تتصل باللديغ فيهلك وان كان غير محسوس لنا فكذا العين قال المازري وهذا غير مسلم لانا بينا في كتب علم الكلام انه لا فاعل الا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا ان المحدث لا يفعل في غيره شيئا فاذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم نقول هذا المنبعث من العين اما جوهر واما عرض فباطل أن يكون عرضا لانه لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهرا لان الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسدا لبعض بأولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الاسلام منهم أن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عز وجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله عز وجل وليست ضرورة ولا طبيعية الجأ العقل اليها قال ومذهب أهل السنة ان العين انما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بأن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصا آخر وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الامرين وانما يقطع بنفي الفعل عنها واضافته الى الله تعالى فمن قطع من أطباء الاسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه وانما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الاصول وأما ما يتعلق بعلم الفقه فان الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الامر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطأ وأما صفة وضوء العائن فمذكور في كتب شروح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله أعلم وقال وهب بن منبه في قوله لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة انه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزي عنه وقيل أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام الا أن الله تعالى لم يأذن له في اظهاره ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين الى أخيه يوسف في وقت الخلوة قبل اخوته والقول الاول

به تفصا نافيه وخالد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة وانكار الجبائي العين وهو مردود بما ذكرنا وقيل انه أحب ان لا يفطن بهم أعداؤهم فيقتالوا لاهلاكهم

(وما أغني عنكم من الله من شيء) أي ان كان الله أراد بكم سوءا لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم
لا محالة (ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) التوكل تفويض الأمر الى الله تعالى والاعتماد عليه

أصبح انه خاف عليهم من العين ثم رجع الى علمه وفوض أمره الى الله تعالى بقوله (وما أغني عنكم
من الله من شيء) يعني ان كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فان
المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر (ان الحكم الا لله) يعني وما الحكم الا لله وحده لا شريك له
فيه وهذا تفويض من يعقوب في أموره كلها الى الله تعالى (عليه توكلت) يعني عليه اعتمدت في
أموري كلها لا على غيره (وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) يعني
من الأبواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل مدينة الفرماء أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها
كلها (ما كان يغني عنهم من الله من شيء) وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال
وما أغني عنكم من الله من شيء (الا حاجة في نفس يعقوب قضاها) هذا استثناء منقطع ليس من
الأول في شيء ومعناه لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو انه أشفق عليهم اشفاق الآباء
على الأبناء وذلك انه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف أن لا يردوا عليه
فأشفق من هذا كله أو بعضه (وانه) يعني يعقوب (لذو علم) يعني صاحب علم (لما علمناه) يعني
لتعليمنا اياه ذلك العلم وقيل معناه وانه لذو علم للشيء الذي علمناه والمعنى انا لما علمناه هذه الأشياء
حصل له العلم بتلك الأشياء وقيل وانه لذو حفظ لما علمناه وقيل انه كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن
جهل وقيل انه لعامل بما علمناه قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالما (ولكن أكثر الناس
لا يعلمون) يعني لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق اصابة العلم وقال ابن عباس
لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) قال
المفسرون لما دخل اخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك
به قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ثم أنزلهم وأكرم نزلهم ثم انه
أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا
لأجلسني معه فقال لهم يوسف لقد بقي هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فأنا أجلسه معي
فأخذه فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين
منكم ينامان على فراش واحد فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندي على فراشي فنام
بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه اليه ويشم ريحه حتى أصبح فلما أصبح قال لهم
اني أرى هذا الرجل وحيدا ليس معه ثان وسأضمه الي فيكون معي في منزلي ثم انه أنزلهم وأجرى
عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا فلذلك قوله آوى اليه أخاه يعني ضمه وأنزله معه في
منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المثكل وذلك انه لما
ولد له أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل لك
من أخ لأمك قال كان لي أخ فهلك قال يوسف أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال
بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة
والسلام وقام اليه وعانقه و(قال) له (اني أنا أخوك) يعني يوسف (فلا تبتئس) يعني لا تحزن وقال
أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس
(بما كانوا يعملون) يعني فلا تحزن بشيء فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا وجمعنا من

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أي متفرقين
(ما كان يغني عنهم) دخولهم
من أبواب متفرقة (من
الله من شيء) أي شيئا قط
حيث أصابهم ما ساءهم
مع تفرقهم من اضافة
السرقة اليهم وافتضاحهم
بذلك وأخذ أخيهم بوجدان
الصواع في رحله وتضاعف
المصيبة على أبيهم (الا
حاجة) استثناء منقطع
أي ولكن حاجة (في
نفس يعقوب قضاها) وهي
شفقته عليهم (وانه لذو
علم) يعني قوله وما أغني
عنكم وعلمه بأن القدر
لا يغني عنه الحذر (لما
علمناه) لتعليمنا اياه (ولكن
أكثر الناس لا يعلمون)
ذلك (ولما دخلوا على يوسف
آوى اليه أخاه) ضم اليه
بنيامين وروي أنهم قالوا
له هذا أخونا قد جئناك
به فقال لهم أحسنتم فأنزلهم
وأكرمهم ثم أضافهم
وأجلس كل اثنين منهم
على مائدة فبقي بنيامين
وحده فبكى وقال لو كان
أخي يوسف حيا لأجلسني
معه فقال يوسف بقي
أخوكم وحيدا فأجلسه
معه على مائدته وجعل
يؤاكله وقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك الهلاك
يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم (قال) له (اني أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى
فان الله قد أحسن الينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك وروي أنه قال له فأنا لا أفارقك قال لقد علمت اغتمام والدي بي فاذا

الهلاك وجمع بينهما وقيل ان يوسف صفح عن اخوته وصفاهم فاراد ان يجعل قلب أخيه بنيامين مثل قلبه صافيا عليهم ثم قال يوسف لاخيه بنيامين لا تعلم اخوتك بشئ مما أعلمتك به ثم انه أوفى لاخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل أخيه بنيامين قال السدي وهو لا يشعر وقال كعب لما قال له يوسف اني أنا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدي علي فاذا حبستك عندي ازداد غمه ولا يمكنني هذا الا بعد أن أشهرك بامر فظيع وأنسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالي فافعل ما بدا لك فاني لا أفارقك قال فاني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) وهي المشربة التي كان الملك يشرب فيها قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجوهر جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لاناء واحد وجعلت في وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين الى بلادهم فامهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم أذن مؤذن) يعني نادى مناد وأعلم معلم والاذان في اللغة الاعلام (أيتها العير) وهي القافلة التي فيها الاحمال وقال مجاهد العير الحمير والبغال وقال أبو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهي عير وقول من قال انها الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التي تحمل عليها الاحمال سميت بذلك لانها تعير أي تذهب وتجيء وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير أراد أصحاب العير (انكم لسارقون) فقفوا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه في خفاء فان قلت هل كان هذا النداء بامر يوسف أم لا فان كان بامره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة ان يتهم أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا مع علمه ببراءتهم من ذلك وان كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التي نسبوا اليها قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة أحدها ان يوسف لما أظهر لاخيه انه أخوه قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضي به فلا يكون ذنبا الثاني ان يكون المعنى انكم لسارقون ليوسف من أبيه الا انهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب الثالث يحتمل أن يكون المنادي ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذبا الرابع ليس في القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بامر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم انهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) قال أصحاب الاخبار لما وصل الرسل الى اخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف اليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم أي عطفوا على المؤذن وأصحابه ماذا أي ما الذي تفقدون والفقدان ضد الوجود (قالوا) يعني المؤذن وأصحابه (نفقد صواع الملك) الصاع الاناء الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان (ولمن جاء به) يعني بالصواع (حمل بعير) يعني من الطعام (وأنا به زعيم) أي كفيل قال الكلبي الزعيم هو الكفيل بلسان أهل

في رحلك ثم أنادي عليك بانك سرقته ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك معهم فقال افعل (فلما جهزهم بجهازهم) هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم (جعل السقاية في رحل أخيه) السقاية هي مشربة يسقى بها وهي الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة أو ذهب (ثم أذن مؤذن) ثم نادى مناد آذنه أي اعلمه وأذن أكثر الاعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه روي انهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا ثم أمر بهم فادركوا وحبسوا ثم قيل لهم (أيتها العير) هي الابل التي عليها الاحمال لانها تعير أي تذهب وتجيء والمراد أصحاب العير (انكم لسارقون) كناية عن سرقتهم اياه من أبيه (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك) هو الصاع (ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه الى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله

اليمين وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها في قوله الجيل غارم والحميل الكفيل فان قلت كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيأ قلت لم يكونوا سراقا في الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة أو لعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان فيحمل عليه (قالوا) يعني اخوة يوسف (تالله) التاء بدل من الواو ولا تدخل الا على اسم الله في اليمين خاصة تقديره والله (لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين) قال المفسرون ان اخوة يوسف حلفوا على أمرين أحدهما انهم ما جاؤا لاجل الفساد في الارض والثاني انهم ما جاؤا سارقين وانما قالوا هذه المقالة لانه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على صدقهم وهو انهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم انهم شدوا أفواه ابلهم لئلا تؤذي زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد في حقه ممتنع وأما الثاني وهو انهم ما كانوا سارقين فلانهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلاجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة (قالوا) يعني أصحاب يوسف وهو المنادي وأصحابه (فما جزاؤه ان كنتم كاذبين) يعني فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين في قولكم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين (قالوا) يعني اخوة يوسف (جزاؤه من وجد في رحله) يعني جزاء السارق الذي وجد في رحله ان يسلم برقبته الى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان في حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق وكان هذا في شرعهم في ذلك الزمان يجري مجرى القطع في شرعنا فاراد يوسف ان يأخذ بحكم أبيه في السارق فلذلك رد الحكم اليهم والمعنى ان جزاء السارق ان يستعبد سنة بجزائه على جرمه وسرقته (فهو جزاؤه) يعني هذا الجزاء جزاؤه (كذلك نجزي الظالمين) يعني مثل هذا الجزاء وهو ان يسترق السارق سنة نجزي الظالمين ثم قيل هذا الكلام من بقية كلام اخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف فعلى هذا ان اخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزي الظالمين يعني السارقين قوله عز وجل (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) قال أهل التفسير ان اخوة يوسف لما أقروا ان جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف فأمر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لازالة التهمة فجعل يفتش أوعيتهم واحدا واحدا قال قتادة ذكر لنا انه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر وعاء الا استغفر الله تأثما مما قذفهم به حتى لم يبق الا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذ شيأ فقال اخوته والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى (ثم استخرجها من وعاء أخيه) انما أنث الكناية لانه ردها الى السقاية وقيل ان الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ماصنعت بنا فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصواع فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية ان الذي وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم قالوا فأخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فأخذوه برقبته وردوه الى يوسف (كذلك

عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم حيث دخلوا وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد من أهل السوق ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم (وما كنا سارقين) وما كنا نوصف قط بالسرقة (قالوا فما جزاؤه) الضمير للصواع أي فما جزاء سرقته (ان كنتم كاذبين) في جحودكم وادعائكم البراءة منه (قالوا جزاؤه من وجد في رحله) أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله وكان حكم السارق في آل يعقوب ان يسترق سنة فلذلك استفتوا في جزائه وقولهم (فهو جزاؤه) تقرير للحكم أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره (كذلك نجزي الظالمين) أي السراق بالاسترقاق (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال ما أظن هذا أخذ شيأ فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أي الصواع (من وعاء أخيه) ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه لان التأنيث يرجع الى السقاية أو لان الصواع يذكر ويؤنث الكاف في (كذلك) في محل النصب

أي مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) يعني علمناه إياه (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) تفسير للكيد وبيان له لأن الحكم في دين الملك أي في سيرته للسارق أن يغرم مثلي ما أخذ لا أن يستعبد (إلا أن يشاء الله) أي ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه (نرفع درجات) بالتنوين كوفي (من نشاء) أي في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه (وفوق كل ذي علم عليم) فوقه أرفع درجة منه في علمه أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وجل (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أرادوا يوسف قيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه وقيل كان في المنزل دجاجة فأعطاها السائل وقيل كانت منطقة لإبراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه فلما شب أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة إسحق فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت إنه لي سلم أفعل به ما شئت فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت وروى

كدنا ليوسف) يعني ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو إشارة إلى الحكم الذي ذكره إخوة يوسف بأن جزاء السارق أي مثل ذلك الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكمنا به ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا في حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فيقول الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف في الابتداء فعلنا بهم فالكيد من الخلق الحيلة ومن الله التدبير بالحق والمعنى كما ألهمنا إخوة يوسف بأن حكموا أن جزاء السارق أن يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع في رحل أخيه ليضمه إليه على ما حكم به إخوته وقال ابن الأعرابي الكيد التدبير بالباطل وبالحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل صنعنا ليوسف وقال ابن الأنباري كدنا وقع خبرا عن الله عز وجل على خلاف معناه في أوصاف المخلوقين فإنه إذا أخبر به عن مخلوق كان تحته احتيال وهو في موضع فعل الله معرى من المعاني المذمومة ومخلص بأنه وقع بمن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئته التي يكون من أجل أن المخلوق إذا كاد المخلوق ستر عنه ما ينويه ويضمره له من الذي يقع به من الكيد فهو من الله تعالى استراذه وما ختم الله به عاقبته والذي وقع بإخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى إليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث جرى الأمر على غير ما قدروا من إهلاكه وخلوص أبيهم لهم بعده وكل ذلك جرى بتدبير الله تعالى وخفي لطفه فسماه كيدا لأنه أشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام عائدا إلى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبير إخوته من غير أن يشعروا بذلك وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) يعني في حكم الملك وقضائه لأنه كان في حكم الملك أن السارق يضرب ويغرم ضعف قيمة المسروق يعني في حكم الملك وقضائه مانعة كي يوسف من حبس أخيه عنده في حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف ما دبره حتى وجد السبيل إلى ذلك (إلا أن يشاء الله) يعني أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره لأن ذلك كله كان إلهاما من الله ليوسف وإخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد (نرفع درجات من نشاء) يعني بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته وفي هذه الآية دلالة على أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على إخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الأمور كلها (وفوق كل ذي علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لأنه هو الغني بعلمه عن التعليم وفي الآية دليل على أن إخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الأنباري يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه في الغلبة لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه قوله تعالى (قالوا) يعني إخوة يوسف (إن يسرق) يعني بنيامين الصواع (فقد سرق أخ له من قبل) يعني يوسف ظاهر الآية يقتضي أن إخوة يوسف قالوا للملك إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان سارقا أيضا وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كانا على هذه الطريقة وهذه السيرة لأنهما من أم أخرى غير أمنا واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد بن جبير وقتادة كان لجده

أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل الذين لا زال منكم عليهم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم

أبي أمه صنم وكان يعبده فأخذه يوسف سرا وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبده وقال مجاهد ان
يوسف جاءه سائل يوما فأخذ بيضة من البيت فناولها السائل وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من
الطير الذي كان في بيت يعقوب فأعطاها سائلا وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء
وذكر محمد بن اسحق ان يوسف كان عند عمته ابنة اسحق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته
وأحبته حبا شديدا فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فأتاها فقال يا أختاه سلمي
الي يوسف فوالله ما أقدر على ان يغيب عني ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال والله ما أنا
بتاركه عندك فقالت دعه عندي أياما أنظر اليه لعل ذلك يسليني عنه ففعل ذلك فعمدت الى
منطقة كانت لاسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد اسحق فكانت عندها فشدت
المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة اسحق ففتشوا
أهل البيت فوجدوها مع يوسف فقالت انه لسلم لي يعني يوسف فقال يعقوب ان كان قد فعل ذلك
فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال اخوة يوسف ان يسرق فقد سرق أخ له من
قبل يعنون هذه السرقة قال ابن الانباري وليس في هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها
تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) في هاء الكناية
ثلاثة أقوال أحدها ان الضمير يرجع الى الكلمة التي بعدها وهي قوله تعالى (قال) يعني يوسف
(أنتم شر مكانا) روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس والثاني ان الضمير يرجع الى الكلمة التي
قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس فعلى
هذا القول يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه ولم يجبهم عليها والثالث
ان الضمير يرجع الى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فأسر يوسف الاحتجاج عليهم في ادعائهم
عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا يعني منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لانه لم يكن
من يوسف سرقة في الحقيقة وخيانتكم حقيقة (والله أعلم بما تصفون) يعني بحقيقة ما تقولون
قوله عز وجل (قالوا) يعني اخوة يوسف (يا أيها العزيز) يخاطبون بذلك الملك (ان له أبا شيخا
كبيرا) قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من
رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه الى أذنه ثم قال ان صواعي هذا ليخبرني انكم اثنا عشر رجلا لأب
واحد وانكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله
في رحلي فنقره ثم قال ان صواعي غضبان وهو يقول كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع
من كنت قالوا وغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا
غضب لم يقم لغضبه شيء وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته وكان مع هذا اذا
مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة وأشدهم وقيل كانت هذه صفة
شمعون بن يعقوب وقيل انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفوني أنتم
الاسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الاسواق فدخلوا على يوسف فقال
روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل الا وضعت ولدها
وقامت كل شعرة في جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب
هذا فمسه أو خذ بيده فأتى له فمسه فسكن غضبه فقال لاخوته من مسني منكم قالوا لم يصبك
منا أحد فقال روبيل ان هذا بذر من بذر يعقوب وقيل انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فوكزه
برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون ان لا أحد أشد

(فأسرها) أي مقالتهم انه سرق كأنه لم يسمعها (يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا) تمييز أي أنتم شر منزلة في السرق لانكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه (والله أعلم بما تصفون) تقولون أو تكذبون (قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا) في السن أو في القدر

(فخذ أحدنا مكانه) بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد فإن أباه يتسلى به عن أخيه المفقود (إنا نراك من المحسنين) إلينا فأتمم إحسانك أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها (قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أي نعوذ بالله معاذا من أن نأخذ فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من (إنا إذا لظالمون) إذا جواب لهم وجزاء لأن المعنى إن أخذنا بدله ظلما وهذا لأنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله واستعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلما في مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم (فلما استيأسوا) يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما مر في استعصم (منه) من يوسف وإجابته إياهم (خلصوا) انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نجيا) ذوي نجوى أو فوجا نجيا أي مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا أو تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته فالنجي يكون بمعنى المناجي كالسمير بمعنى المسامر وبمعنى المصدر الذي هو التناجي وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم (قال كبيرهم) في السن وهو روبيل أو في العقل والرأي وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) ما صلة أي ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم أو مصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف (فلن أبرح الأرض) فلن أفارق أرض مصر (حتى يأذن لي أبي) في الانصراف إليه (أو يحكم الله لي) بالخروج منها أو بالموت أو بقتالهم (وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بالعدل (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) وقرئ سرق أي نسب إلى السرقة

منكم ظلما أو لما نزل بهم ورأوا أن لا سبيل إلى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا يعني في السن ويحتمل أن يكون كبيرا في القدر لأنه نبي من أولاد الأنبياء (فخذ أحدنا مكانه) يعني بدلا عنه لأنه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك (إنا نراك من المحسنين) يعني في أفعالك كلها وقيل من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة إلينا وقيل إن رددت بنيامين إلينا وأخذت أحدنا مكانه كنت من المحسنين (قال معاذ الله) يعني قال يوسف أعوذ بالله معاذا (أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) لم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق (إنا إذا لظالمون) يعني إن أخذنا بريئا بذنب غيره فإن قلت كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه ما فيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة أن يرمي إخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من الإيذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها وأصحها أنه إنما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وإنما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف في خلقه بما يشاء وهو الذي أخفى خبر يوسف عن يعقوب في طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده قوله عز وجل (فلما استيأسوا منه) يعني أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه وقيل أيسوا من أخيهم أن يرده عليهم وقال أبو عبيدة استيأسوا أي استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم (خلصوا نجيا) يعني خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم (قال كبيرهم) يعني في العقل والعلم لا في السن قال ابن عباس الكبير هو يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرياسة على إخوته وقال قتادة والسدي والضحاك هو روبيل وكان أكبرهم سنا وأحسنهم أثرا في يوسف لأنه نهاهم عن قتله (ألم تعلموا أن أباكم) يعني يعقوب (قد أخذ عليكم موثقا) يعني عهدا (من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) يعني قصرتم في أمر يوسف حتى ضيعتموه (فلن أبرح الأرض) يعني الأرض التي أنا فيها وهي أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة (حتى يأذن لي أبي) يعني في الخروج من أرض مصر فيدعوني إليه (أو يحكم الله لي) برد أخي علي أو بخروجي معكم وترك أخي أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم حتى أسترد أخي (وهو خير الحاكمين) لأنه يحكم بالحق والعدل والإنصاف والمراد من هذا الكلام الالتجاء إلى الله تعالى في إقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام (ارجعوا إلى أبيكم) يعني يقول الأخ الكبير الذي عزم على الإقامة بمصر لإخوته الباقين ارجعوا إلى أبيكم يعقوب (فقولوا) له (يا أبانا إن ابنك سرق) إنما قالوا هذه المقالة ونسبوه إلى السرقة لأنهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب

على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة في ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم
لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا الا بما علمنا) يعني ولم نقل ذلك الا بعد أن رأينا اخراج
الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء الا بما علمناه
وهذه ليست بشهادة انما هو خبر عن صنيع ابنك انه سرق بزعمهم فيكون المعنى ان ابنك سرق
في زعم الملك وأصحابه لا انا شهدنا عليه بالسرقة وقرأ ابن عباس والضحاك سرق بضم السين
وكسر الراء وتشديدها أي نسب الى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج الى تأويل ومعناها
ان القوم نسبوه الى السرقة الا ان هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة
الصحيحة المشهورة هي الاولى وقوله وما شهدنا الا بما علمنا وما قلنا هذا الا بما علمنا فانا رأينا اخراج
الصواع من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء الا بما علمناه وليست هذه
شهادة وانما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم وقيل قال لهم يعقوب هب أنه سرق فما يدري هذا
الرجل ان السارق يؤخذ بسرقته الا بقولكم قالوا ما شهدنا عنده ان السارق يسترق الا بما
علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الانبياء قبله ويعقوب وبنيه وأورد على هذا القول
كيف جاز ليعقوب اخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون
ذلك الحكم كان مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا أنكر عليهم اعلام الملك بهذا
الحكم لظنه انه كافر (وما كنا للغيب حافظين) قال مجاهد وقتادة يعني ما كنا نعلم أن ابنك يسرق
ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه منه
سبيل وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه ان حقيقة الحال
غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك (واسئل
القرية التي كنا فيها) يعني واسأل أهل القرية الا انه حذف المضاف للايجاز ومثل هذا النوع
من المجاز مشهور في كلام العرب والمراد بالقرية مصر وقال ابن عباس هي قرية من قرى مصر
كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش (والعير التي أقبلنا فيها) يعني واسأل القافلة التي كنا
فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب (وانا لصادقون) يعني فيما قلناه وانما أمرهم
أخوهم الذي أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة في ازالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لانهم كانوا
متهمين عنده بسبب واقعة يوسف (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) فيه اختصار تقديره
فرجعوا الى أبيهم فأخبروه بما جرى لهم في سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وأمرهم أن
يقولوه لابيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعني بل زينت لكم أنفسكم أمرا وهو حمل
أخيكم معكم الى مصر لطلب نفع عاجل فآل أمركم الى ما آل وقيل معناه بل خيلت لكم أنفسكم
انه سرق وما سرق (فصبر جميل) تقدم تفسيره في أول السورة وقوله (عسى الله أن يأتيني بهم
جميعا) يعني بيوسف وبنيامين والاخ الثالث الذي أقام بمصر وانما قال يعقوب هذه المقالة لانه
لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على
سبيل حسن الظن بالله عز وجل لانه اذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج وقيل ان يعقوب
علم بما يجري لبنيه وعلى بنيه من أول الامر وهو رؤيا يوسف وقوله يا بني لا تقصص رؤياك على
اخوتك فيكيدوا لك كيدا فلما تناهى الامر قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعا (انه هو العليم)
يعني بحزني ووجدي عليهم (الحكيم) فيما يدبره ويقضيه قوله تعالى (وتولى عنهم) يعني وأعرض
يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فتتام حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه

(وما شهدنا) عليه بالسرقة
(الا بما علمنا) من سرقته
وتيقنا اذ الصواع استخرج
من وعائه (وما كنا
للغيب حافظين) وما علمنا انه
سيسرق حين أعطيناك
الموثق (واسئل القرية
التي كنا فيها) يعني مصر أي
ارسل الى أهلها فاسألهم
عن كنه القصة (والعير التي
أقبلنا فيها) وأصحاب العير
وكانوا قوما من كنعان من
جيران يعقوب عليه السلام
(وانا لصادقون) في قولنا
فرجعوا الى أبيهم وقالوا
له ما قال لهم أخوهم (قال
بل سولت لكم أنفسكم أمرا)
أردتموه والا فمن أدرى ذلك
الرجل أن السارق يسترق
لولا فتواكم وتعليمكم (فصبر
جميل) عسى الله أن يأتيني
بهم جميعا بيوسف وأخيه
كبيرهم (انه هو العليم)
بحالي في الحزن والاسف
(الحكيم) الذي لم يبتلني
بذلك الا لحكمة (وتولى
عنهم) وأعرض عنهم كراهة
لما جاؤا به

على

(وقال يا أسفا على يوسف) أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة الى نفسه والالف بدل من ياء الاضافة والتجانس بين الاسف ويوسف غير متكلف ونحوه اثاقلتم الى الارض أرضيتم وهم ينهون عنه وينأون ٤٣ عنه ويحسبون أنهم يحسنون صنعا من سبا بنبا وانما تأسف على يوسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين وفيه دليل على ان الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضا عنده طريا (وابيضت عيناه) اذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته الى بياض كدر وقيل قد عمي بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا (من الحزن) لان الحزن سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض أكرم على الله من يعقوب ويجوز للنبي عليه السلام أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لان الانسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الحزن فلذلك حمد صبره ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله اذ نادى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه

على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم (وقال يا أسفا على يوسف) الاسف أشد الحزن وانما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لان الحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

يقول أتبكي كل قبر رأيته ● لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له ان الاسى يبعث الاسى ● فدعني فهذا كله قبر مالك

فأجاب بان الحزن يجدد الحزن وقيل ان يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لان يوسف كان أصل المصيبة وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام في قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية واظهار جزع فلا يليق بمن تقدم صبره ذلك وليس الامر كما قال هذا الجاهل المعترض لان يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا الى الله لا منه فقوله يا أسفا على يوسف معناه يا رب ارحم أسفي على يوسف وقد ذكر ابن الانباري عن بعض اللغويين أنه قال نداء يعقوب بالاسف في اللفظ من المجاز يعني به غير المظهر في اللفظ وتلخيصه يا الهي ارحم أسفي أو أنت راء أسفي أو هذا أسفي فنادى الاسف في اللفظ والمنادى سواه في المعنى ولا مأثم اذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم لانه لم يشك الا الى ربه عز وجل فلما كان قوله يا أسفا على يوسف شكوى الى ربه كان غير ملوم في شكواه وقيل ان يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال يا أسفا على يوسف أي أشكو الى الله شدة أسفي على يوسف ولم يشكه الى أحد من الخلق بدليل قوله انما أشكو بثي وحزني الى الله (وابيضت عيناه من الحزن) أي عمي من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيأ ست سنين وقيل انه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك ان الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كأنها ابيضت من ذلك الماء الخارج من العين (فهو كظيم) أي مكظوم وهو الممتلئ من الحزن الممسك عليه لا يبثه قال قتادة وهو الذي يردد حزنه في جوفه ولم يقل الا خيرا وقال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر أبيه الى يوم التقائهما ثمانون سنة لم تجف فيها عينا يعقوب وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه وقال ثابت البناني ووهب ابن منبه والسدي ان جبريل عليه الصلاة والسلام دخل على يوسف وهو في السجن فقال هل تعرفني أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال اني رسول رب العالمين وأنا الروح الامين فقال يوسف فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يا يوسف ان الله يطهر الارض بطهر النبيين وان الارض التي يدخلونها هي أطهر الارضين وان الله قد طهر بك الارض والسجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لي باسم الصديقين وتعدني من الصالحين المخلصين الطاهرين وقد أدخلت مدخل المذنبين قال انه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الامين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلى قال فما له من الاجر يا جبريل قال أجر مائة شهيد قال أفتراني لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ما أبالي ما لقيت ان رأيته قوله عز وجل

(قالوا) يعني اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام لابيهم (تالله تفتؤا تذكر يوسف) يعني لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقال مافتئ يفعل كذا أي ما زال ولا تحذف لا في جواب القسم لانه موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرئ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا وقوله (حتى تكون حرضا) قال ابن عباس يعني دنفا وقال مجاهد الحرض مادون الموت يعني قريبا من الموت وقال ابن اسحق يعني فاسد العقل والحرض الذي فسد جسمه وعقله وقيل ذائبا من الهم وأصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعني لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والأسف (أو تكون من الهالكين) يعني من الاموات فان قلت كيف حلفوا على شيء لم يعلموا حقيقته قطعا قلت انهم بنوا الامر على الاغلب الظاهر أي نقوله ظنا منا ان الامر يصير الى ذلك (قال) يعني يعقوب عند ما رأى قولهم له وغلظتهم عليه (انما أشكو بثي وحزني الى الله) أصل البث اثارة الشيء وتفريقه وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والسر قال ابن قتيبة البث أشد الحزن وذلك لان الانسان اذا استتر الحزن وكتمه كان هما فاذا ذكره لغيره كان بثا فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى انما أشكو حزني العظيم وحزني القليل الى الله لا اليكم قال ابن الجوزي روى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وما الذي قوس ظهرك قال أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحي ان تشكو الى غيري فقال انما أشكو بثي وحزني الى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو وقيل انه دخل على يعقوب جار له فقال له يا يعقوب مالي أراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك فقال هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف فأوحى الله اليه يا يعقوب أتشكوني الى خلقي فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك اذا سئل يقول انما أشكو بثي وحزني الى الله وقيل ان الله أوحى اليه وعزتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني فعند ذلك قال انما أشكو بثي وحزني الى الله ثم قال أي رب اما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصري وقوست ظهري فاردد علي ريحانتي أشمها شمة قبل ان أموت ثم اصنع ما شئت فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدري لم وجدت عليك لانكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئا وان أحب عبادي الي الانبياء ثم المساكين اصنع طعاما وادع اليه المساكين فصنع طعاما ثم قال من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك اذا تغدى أمر مناديا ينادي من أراد الغداء فليأت آل يعقوب واذا أفطر أمر أن ينادي من أراد ان يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى الى يعقوب أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال لا يارب قال لانك شويت عناقا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل ان سبب ابتلاء يعقوب انه ذبح عجلا بين يدي أمه وهي تخور فلم يرحمها فان قلت هل في هذه الروايات ما يقدح في عصمة الانبياء قلت لا وانما عوقب يعقوب بهذا لان حسنات الابرار سيئات المقربين وانما طلب

(قالوا تالله تفتؤا) أي لا تفتأ فحذف حرف النفي لانه لا يلتبس اذ لو كان اثباتا لم يكن بد من اللام والنون ومعنى لا تفتأ لا تزال (تذكر يوسف حتى تكون حرضا) مشفيا على الهلاك مرضا (أو تكون من الهالكين قال انما أشكو بثي وحزني الى الله) البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أي ينشره أي لا أشكو الى أحد منكم ومن غيركم انما أشكو الى ربي داعيا له وملتجئا اليه فخلوني وشكايتي وروى انه أوحى الى يعقوب انما وجدت عليكم لانكم ذبحتم شاة فوقف بابكم مسكين فلم تطعموه وان أحب خلقي الي الانبياء ثم المساكين فاصنع طعاما وادع عليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت

من الانبياء من الاهوال على قدر منصبهم وشرف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من أهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من أنبيائه بمحنة فصبر وفوض أمره الى الله فابراهيم عليه الصلاة والسلام ألقى فى النار فصبر ولم يشك الى أحد واسمعيل ابتلى بالذبح فصبر وفوض أمره الى الله واسحق ابتلى بالعمى فصبر ولم يشك الى أحد ويعقوب ابتلى بفقد ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمى بعد ذلك أو ضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك الى أحد شيأ مما نزل به وانما كانت شكايته الى الله عز وجل بدليل قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل فى الدنيا والدرجات العلا فى الآخرة مع من سلف من أبويه ابراهيم واسحق عليهما الصلاة والسلام وأما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذما ولا عقوبة لأن ذلك ليس الى اختيار الانسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل ان النبى صلى الله عليه وسلم بكى على ولده ابراهيم عند موته وقال ان العين لتدمع وان القلب ليحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا فهذا القدر لا يقدر الانسان على دفعه عن نفسه فصار مباحا لا حرج فيه على أحد من الناس وقوله (وأعلم من الله ما لا تعلمون) يعنى أنه تعالى من رحمته واحسانه يأتى بالفرج من حيث لا أحتسب وفيه اشارة الى انه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وروى ان ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابنى يوسف فى الارواح فقال لا فطابت نفس يعقوب وطمع فى رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله ما لا تعلمون وقيل معناه وأعلم ان رؤيا يوسف حق وصدق وانى وأنتم سنسجد له وقال السدى لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله فى جميع أقواله وأفعاله أحست نفس يعقوب وطمع ان يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعنى يعقوب (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل ان التحسس بالحاء يكون فى الخير وبالجيم يكون فى الشر ومنه الجاسوس وهو الذى يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الانبارى يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هنا من يوسف وأخيه لانه أقيم من مقام عن قال ويجوز ان يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف وأخيه روى عن عبد الله بن يزيد عن أبى فروة أن يعقوب كتب كتابا الى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى ملك مصر أما بعد فانا أهل بيت وكل بنا البلاء أما جدى ابراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وانك حبسته وزعمت انه سرق وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته الى والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لاخوته على ما سنذكره ان شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه (ولا تيأسوا) أى ولا تقنطوا (من روح الله) يعنى من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) يعنى ان المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيرا ويحمد عند الرخاء فينال به خيرا والكافر بضد

(وأعلم من الله ما لا تعلمون) وأعلم من رحمته انه يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب وروى أنه رأى ملك الموت فى منامه فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا والله هو حى فاطلبه وعلمه هذا الدعاء يا ذا المعروف الدائم الذى لا ينقطع معروفه أبدا ولا يحصيه غيرك فرج عنى (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما وهو تفعل من الاحساس وهو المعرفة (ولا تيأسوا من روح الله) ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه (انه) ان الامر والشان (لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لان من آمن يعلم انه متقلب فى رحمة الله ونعمته وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه فى نعمته فييأس من رحمته فخرجوا من عند أبيهم راجعين الى مصر

ذلك قوله تعالى (فلما دخلوا عليه) فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعني على يوسف (قالوا يا أيها العزيز) يعنون يا أيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا الضر) أي الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) أي ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام الا بتجوز من البائع وأصل الازجاء في اللغة الدفع قليلا قليلا والتزجية دفع الشيء لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر

• وحاجة غير مزجاة من الحاج • يعني هي قليلة يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعتناء بها وانما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة اما لنقصانها أو لرداءتها أو لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذه البضاعة المزجاة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا وقيل كانت خلق الغرائر والحبال وقيل كانت من متاع الاعراب من الصوف والاقط وقال الكلبي ومقاتل كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الادم والنعال وقال الزجاج سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها وقيل انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها (فأوف لنا الكيل) يعني أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي والمعنى انا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الرديء (وتصدق علينا) يعني وتفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الانباري وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالا للانبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان ابن عيينة ان الصدقة كانت حلالا للانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم واستدل بهذه الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا ان حال الانبياء كلهم واحد في تحريم الصدقة عليهم لانهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والاخذ منهم والصدقة أوساخ الناس فلا تحل لهم لانهم مستغنون بالله عن سواه وأجيب عن قوله وتصدق علينا أنهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وايفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علينا لان الصدقة لا تكون الا ممن يبتغي الثواب وروى أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي فقال ان الله لا يتصدق انما يتصدق من يبتغي الثواب قل اللهم اعطني وتفضل علي وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعني برد أخينا علينا (ان الله يجزي المتصدقين) يعني بالثواب الجزيل وقال الضحاك لم يقولوا ان الله يجزيك لانهم لم يعلموا أنه مؤمن (قال) يعني قال يوسف لاخوته (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وقد اختلفوا في السبب الذي من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول فقال ابن اسحق ذكر لي انهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته رقة على اخوته فباح بالذي كان يكتم وقيل انه أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه ببيعه من مالك وفي آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا يا أيها الملك انه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال انكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا فكيف اذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا ان كنت فاعلا ذلك فابعث بامتعتنا الى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول وقيل ان يوسف لما

(فلما دخلوا عليه) على يوسف (قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) الهزال من الشدة والجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته اذا دفعته وطردته قيل كانت دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وقيل كانت صوفا وسمنا (فأوف لنا الكيل) الذي هو حقنا (وتصدق علينا) وتفضل علينا بالمسامحة والاغماض عن رداءة بضاعتنا أو زدنا على حقنا أو هب لنا أخانا (ان الله يجزي المتصدقين) ولما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا اليه وطلبوا منه أن يتصدق عليهم ارفضت عيناه ولم يتمالك أن عرفهم نفسه حيث قال (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف) أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف (وأخيه

قرأ كتاب أبيه اليه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وهذا الاستفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتضييع حقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الأمر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله اياهما من المكروه واعلم ان هذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فان قلت الذي فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذي فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فانهم لم يسعوا في حبسه ولا أرادوا ذلك قلت انهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف وقيل انهم قالوا له لما اتهم بأخذ الصواع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرا (اذ أنتم جاهلون) هذا يجري مجرى العذر لهم يعني انكم انما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤول اليه أمر يوسف قوله عز وجل (قالوا أئنك لأنت يوسف) قرئ على سبيل الاستفهام ووجه هذه القراءة قال ابن عباس لما قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاما أئنك لأنت يوسف وقرئ على الخبر ووجهه ما قال ابن عباس أيضا في رواية أخرى عنه ان اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له في قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولاسحق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا أنت يوسف وقيل قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى (قال أنا يوسف) قال بعض العلماء انما أظهر الاسم في قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيما لما نزل به من ظلم اخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني وقصدتم قتلي بأن ألقيتموني في الجب ثم بعتموني بأبخس الأثمان ثم صرت الى ما ترون فكان تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها ولهذا قال (وهذا أخي) وهم يعرفونه لانه قصد به أيضا وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني ثم صرت أنا وهو الى ما ترون وهو قوله (قد من الله علينا) بأن جمع بيننا وقيل من علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة وقيل من علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا (انه من يتق ويصبر) يعني يتق الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن وقيل يتق الله باداء فرائضه ويصبر عما حرم الله (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) يعني أجر من كان هذا حاله (قالوا) يعني قال اخوة يوسف معتذرين اليه مما صدر منهم في حقه (تالله لقد آثرك الله علينا) أي اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله ايثارا أي اختارك ويستعار الأثر للفضل والايثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال أبو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التي أعطاها الله عز وجل له دون اخوته وقيل فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول بأن اخوته كانوا أنبياء أيضا فليس له عليهم فضل في ذلك وأجيب عنه بأن يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لان من جمعت له النبوة والرسالة كان أفضل ممن خص بالنبوة فقط (وان كنا لخاطئين) يعني وما كنا في صنعنا بك الا خاطئين ولهذا اختير لفظ الخاطئ على المخطئ والفرق بينهما ان يقال خطئ خطأ اذا تعمد وأخطأ اذا كان غير متعمد وقيل يجوز أن يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رؤس الآي لان خاطئين أشبه بما قبلها (قال) يعني يوسف (لا تثريب عليكم) يعني لا تعيير ولا توبيخ عليكم

اذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه أو اذ أنتم في حد السفه والطيش وفعلهم بأخيه تعريضهم اياه للغم بافراده عن أخيه لأبيه وأمه وايذاؤهم له بأنواع الأذى (قالوا أئنك) بهمزتين كوفي وشامي (لأنت يوسف) اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبر ان (قال أنا يوسف وهذا أخي) وانما ذكر أخاه وهم لم يسألوه عنه لانه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه (قد من الله علينا) بالالفة بعد الفرقة وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالملامة (انه من يتق) الفحشاء (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعة (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أي أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين وقيل من يتق مولاه ويصبر على بلواه لا يضيع أجره في دنياه وعقباه (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم والتقوى والصبر والحسن (وان كنا لخاطئين) وان شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للاثم لم نتق ولم نصبر لا جرم ان الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمكين بين يديك

عليكم (اليوم) متعلق بالتثريب أو بيغفر والمعنى لا أثربكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الأيام ثم ابتدأ فقال (يغفر الله لكم) فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم يقال غفر الله لك ويغفر لك على لفظ الماضي والمضارع أو اليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ما ترون أني فاعل بكم قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس إذا أتيت رسول الله فاتل عليه قال لا تثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك وروي أن اخوته لما عرفوه أرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك فقال يوسف إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أني من حفدة إبراهيم (وهو أرحم الراحمين) أي إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور فما ظنكم بالغني الغفور ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا إنه عمي من كثرة البكاء قال (اذهبوا بقميصي هذا) قيل هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي (فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) ريح يصر بصيرا تقول جاء البناء محكما أي صار أو يأت إلي وهو بصير قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (وأتوني بأهلكم أجمعين) لينعموا بآثار ملكي كما اغتموا بأخبار هلكي (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من قومه (إني لأجد ريح يوسف) أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها أي لا يعيرها بالزنا بعد إقامة الحد عليها وفي محل قوله (اليوم) قولان أحدهما أنه يرجع إلى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى أن هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وإنا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدأ بقوله (يغفر الله لكم) والقول الثاني أن اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ويبتدأ باليوم يغفر الله لكم كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لا تثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم (وهو أرحم الراحمين) ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ما حال أبي بعدي قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فأعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصي هذا) قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة وقال مجاهد أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه وكان ذلك القميص قميص إبراهيم وذلك أنه لما جرد من ثيابه وألقي في النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك القميص عند إبراهيم فلما مات ورثه إسحق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها في عنق يوسف كالتعويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه فلما ألقي يوسف في البئر عريانا أتاه جبريل وأخرج له ذلك القميص وألبسه إياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فأمره أن يرسل هذا القميص إلى أبيه لأن فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي في الوقت فدفع ذلك القميص يوسف إلى اخوته وقال اذهبوا بقميصي هذا (فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) قال المحققون إن علم يوسف أن إلقاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان بوحي الله إليه ذلك ويمكن أن يقال إن يوسف لما علم أن أباه قد عمي من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث إليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه وينشرح صدره ويفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر يمكن معرفته من جهة العقل وقوله (وأتوني بأهلكم أجمعين) قال الكلبي كانوا نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة (ولما فصلت العير) يعني خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين إلى أرض كنعان (قال أبوهم) يعني قال يعقوب لولد ولده (إني لأجد ريح يوسف) قيل إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير وقال مجاهد أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عباس من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخا وقيل هبت ريح فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم أنه ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فعلم بذلك أنه من ريح يوسف فلذلك قال إني لأجد

(لولا أن تفندون) التفنيد النسبة الى الفند وهو الخرف وانكار العقل من هرم يقال شيخ مفند والمعنى لولا تفنيدكم اياى لصدقتمونى (قالوا) أى أسباطه (تالله انك لفى ضلالك القديم) لفى ذهابك عن الصواب قديما فى افراط محبتك ليوسف أوفى خطئك القديم من حب يوسف وكان عندهم انه قد مات (فلما أن جاء البشير) أى يهوذا (ألقاه على وجهه) طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب (فارتد) فرجع (بصيرا) يقال رده فارتد وارتده اذا ارتجعه (قال ألم أقل لكم) يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف أو قوله ولا تيأسوا من روح الله وقوله (انى أعلم من الله ما لا تعلمون) كلام مبتدأ لم يقع عليه القول أو وقع عليه والمراد قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون وروى انه سأل البشير كيف يوسف قال هو ملك مصر فقال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) أى سل الله مغفرة ما ارتكبنا فى حقك وحق ابنك انا تبنا واعترفنا بخطايانا (قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم) أخر الاستغفار الى وقت السحر أو الى ليلة الجمعة أو ليتعرف حالهم فى صدق التوبة أو الى ان يسأل يوسف هل عفا عنهم ثم ان يوسف وجه الى أبيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا

ريح يوسف (لولا أن تفندون) أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأى وقال ابن الانبارى أفند الرجل اذا خرف وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه وقال الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند فيكون المعنى لولا أن تفندونى أى تنسبونى الى الخرف وقيل تسفهونى وقيل تلوموني وقيل تجهلونى وهو قول ابن عباس وقال الضحاك تهرمونى فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله (قالوا) يعنى أولاد أولاد يعقوب وأهله الذين عنده لان أولاده لصلبه كانوا غائبين عنه (تالله انك لفى ضلالك القديم) يعنى من ذكر يوسف ولا تنساه لانه كان عندهم أن يوسف كان قد مات وهلك ويرون ان يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم يعنى من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب (فلما أن جاء البشير) وهو المبشر بخبر يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدى العير قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه هو يهوذا قال السدى قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم الى يعقوب وأخبرته ان يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره انه حى فأفرحه كما أحزنته قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج به حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا (ألقاه على وجهه) يعنى فألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب (فارتد بصيرا) يعنى فرجع بصيرا بعد ما كان قد عمى وعادت اليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن (قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون) يعنى من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا وروى ان يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة قوله تعالى (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) يعنى قال أولاد يعقوب حين وصلوا اليه وأخذوا يعتذرون اليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا أى اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله (انا كنا خاطئين) يعنى فى صنيعنا (قال سوف أستغفر لكم ربى) قال أكثر المفسرين ان يعقوب أخر الدعاء والاستغفار لهم الى وقت السحر لانه أشرف الاوقات وهو الوقت الذى يقول الله فيه هل من داع فأستجيب له فلما انتهى يعقوب الى وقت السحر قام الى الصلاة متوجها الى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه الى الله تعالى وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لاولادى ما أتوا الى أخيهم يوسف فأوحى الله اليه انى قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس انه أخر الاستغفار لهم الى ليلة الجمعة لانها أشرف الاوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفا وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار الى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبى سوف أستغفر لكم ربى قال حتى أسأل يوسف فان كان قد عفا عنكم استغفرت لكم ربى (انه هو الغفور) يعنى لذنوب عباده (الرحيم) بجميع خلقه قال عطاء الخراسانى طلب الحوائج الى الشباب أسهل منه الى الشيوخ ألا ترى الى قول يوسف لاخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربى قال أصحاب الاخبار ان يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع اخوته الى أبيه مائتى راحلة وجهازا كثيرا ليأتوه بيعقوب وجميع أهله الى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج الى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال

(فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) ضم اليه (أبويه) واختلفوا فيهما فقيل كانت أمه باقية وقيل ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كما ان العم أب ومنه قوله واله آبائك ◦ ابراهيم واسمعيل واسحق ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر أنه حين استقبلهم أنزلهم في مضرب خيمة أو قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) لهم بعد ذلك (ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) من ملوكها وكانوا لا يدخلونها الا بجواز أو من القحط ويروى انه لما لقيه قال يعقوب عليه السلام السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال له يوسف يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا فقال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) قيل لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا اليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير وخروا له يعني الاخوة الاحد عشر والابوين سجدا وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد وقال الزجاج عليه سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم وقيل ما كانت الا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدا يأباه وقيل وخروا لاجل يوسف سجدا لله شكرا وفيه نبوة أيضا واختلف في استنبائهم

مصر وقيل كانوا اثنين وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الاكبر يعني ملك مصر وعرفه بمجيء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك في أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر الى الخيل والناس قال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل انهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا وقيل ان يوسف قال لابيه يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) يعني ضم اليه (أبويه) قال أكثر المفسرين هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد وقيل ان الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه والاول أصح (وقال ادخلوا مصر) قيل المراد بالدخول الاول في قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعني البلد وقيل انه أراد بالدخول الاول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها أي ادخلوا مصر مستوطنين فيها (ان شاء الله آمنين) قيل ان هذا الاستثناء عائد الى الامن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله وقيل انه عائد الى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر وقيل ان هذا الاستثناء يرجع الى الاستغفار فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربي ان شاء الله وقيل ان الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد الا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم ان شاء الله فعلى هذا يكون قوله ان شاء الله للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع علمه انه لاحق بهم (ورفع أبويه على العرش) يعني على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل الى العلو (وخروا له سجدا) يعني يعقوب وخالته ليا واخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الارض على سبيل العبادة فان قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصبا في النبوة والشيخوخة قلت يحتمل ان الله تعالى أمره بذلك لتحقيق رؤياه ثم في معنى هذا السجود قولان أحدهما انه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا اشكال فيه والقول الثاني انه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الارض وهو مشكل لان السجود على هذه الصورة لا ينبغي أن يكون الا لله تعالى وأجيب عن هذا الاشكال بان السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وانما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وظاهر هذا يدل على انهم لما صعدوا على السرير خروا سجدا لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لان ذلك أبلغ في التواضع فان قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله رأيتهم لي ساجدين وقوله خروا له سجدا قلت الضمير يرجع الى أقرب المذكورات وهو يوسف

عليه الصلاة والسلام قلت يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجدا لأجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل ان الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي ان اخوة يوسف ربما احتملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا أن أباهم قد سجد له سجدوا له أيضا فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزا في ذلك الزمان فلما جاء الاسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (وقال) يعني وقال يوسف عند ما رأى ذلك (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) يعني هذا تصديق الرؤيا التي رأيت في حال الصغر (قد جعلها ربي حقا) يعني في اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد أربعون سنة وقال أبو صالح عن ابن عباس اثنتان وعشرون سنة وقال سعيد ابن جبير وعكرمة والسدي ست وثلاثون سنة وقال قتادة خمس وثلاثون سنة وقال عبد الله بن سودون سبعون سنة وقال الفضيل بن عياض ثمانون سنة حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزي وزاد غيره عن الحسن ان يوسف كان عمره حين ألقي في الجب سبع عشرة سنة وأقام في العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله (وقد أحسن بي) يعني أنعم علي يقال أحسن بي وإلي بمعنى واحد (إذ أخرجني من السجن) إنما ذكر إنعام الله عليه في اخراجه من السجن وان كان الجب أصعب منه استعمالا للأدب والكرم لئلا يخجل إخوته بعد أن قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولأن نعمة الله عليه في اخراجه من السجن كانت أعظم من اخراجه من الجب وسبب ذلك أن خروجه من الجب كان سببا لحصوله في العبودية والرق وخروجه من السجن كان سببا لوصوله إلى الملك وقيل ان دخوله الجب كان لحسد إخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه (وجاء بكم من البدو) يعني من البادية وأصل البدو هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعيد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) يعني أفسد ما بيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول في أمر لإفساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لأن يوسف أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب أن ينسب إليه كما في الإحسان والنعم والجواب عن هذا الاستدلال ان اسناد الفعل إلى الشيطان واضافته إليه على سبيل المجاز وان كان ظاهر اللفظ يقتضي اضافة الفعل إلى الشيطان لا على الحقيقة لأن الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى في الحقيقة قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فثبت بذلك أن الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل إلا بإلقاء الوسوسة والتحريش لإفساد ذات البين وذلك بإقدار الله إياه على ذلك (إن ربي لطيف لما يشاء) يعني انه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الأمور وخفياتها قال صاحب المفردات وقد يعبر باللطف عما لا تدركه الحاسة ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور وان يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم وقوله ان ربي لطيف لما يشاء أي حسن الاستخراج تنبيها على ما أوصل إلى يوسف حيث ألقاه إخوته في الجب وقيل ان اجتماع يوسف بأبيه وإخوته بعد طول الفرقة وحسد إخوته له وإراءه ذلك مع طيب الأنفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لأن الله تعالى إذا أراد أمرا هيأ أسبابه (إنه هو العليم) يعني بمصالح عباده (الحكيم) في جميع أفعاله قال أصحاب الأخبار

(وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها) أي الرؤيا (ربي حقا) أي صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو ثنتان وعشرون (وقد أحسن بي) يقال أحسن إليه وبه وكذلك أساء إليه وبه (إذ أخرجني من السجن) ولم يذكر الجب لقوله لا تثريب عليكم اليوم (وجاء بكم من البدو) من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواشي يتنقلون في المياه والمناجع (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) أي أفسد بيننا وأغرى (ان ربي لطيف لما يشاء) أي لطيف التدبير (انه هو العليم الحكيم) بتأخير الآمال إلى الآجال أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف

...تني من الملك) ملك مصر (وعلمتني من تأويل الاحاديث) تفسير كتب الله أو تعبير الرؤيا ومن فيهما للتبعيض إذ لم يؤت الا بعض ملك الدنيا أو بعض التأويل (فاطر السموات والارض) انتصابه على النداء (أنت وليي في الدنيا والآخرة) أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي (توفني مسلما) طلب الوفاة على حال الاسلام كقول يعقوب لولده ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ٥٣ وعن الضحاك مخلصا وعن التستري مسلما اليك أمري وفي صحبة الانبياء اقتداء به يوسف ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة لان ظواهر الانبياء لنظر الامم اليهم (وألحقني بالصالحين) من آبائي أو على العموم روي ان يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى أدخله خزانة القراطيس قال يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الي على ثماني مراحل فقال أمرني جبريل قال أوما تسأله قال أنت أبسط اليه مني فاسأله فقال جبريل الله أمرني بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني وروي ان يعقوب أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام الى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره طلبت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا ان يعملوا له صندوقا من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل الى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا حتى نقل موسى عليه السلام بعد أربعمائة سنة تابوته الى بيت المقدس وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ولم تزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه

والتواريخ أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام عند يوسف بمصر أربعا وعشرين سنة في أهنأ عيش وأنعم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى الى ابنه يوسف ان يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه اسحق في الارض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه الصلاة والسلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده في تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخي يعقوب وكانا قد ولدا في بطن واحد فدفنا في قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع الى مصر قالوا فلما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بأبيه وأخوته علم ان نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال (رب) أي يا رب (قد آتيتني من الملك) يعني من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لانه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير (وعلمتني من تأويل الاحاديث) يعني تعبير الرؤيا (فاطر السموات والارض) يعني خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير اذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه (أنت وليي) يعني معيني ومتولي أمري (في الدنيا والآخرة توفني مسلما) أي اقبضني اليك مسلما واختلفوا هل هو طلب للوفاة في الحال أم لا على قولين أحدهما انه سأل الله الوفاة في الحال قال قتادة لم يسأل نبي من الانبياء الموت الا يوسف قال أصحاب هذا القول وانه لم يأت عليه أسبوع حتى توفي والقول الثاني انه سأل الوفاة على الاسلام ولم يتمن الموت في الحال قال الحسن انه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفني اذا توفيتني على الاسلام فهو طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس في اللفظ ما يدل على انه طلب الوفاة في الحال قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لان اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه ان الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وان نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به فان تمني الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى وقوله (وألحقني بالصالحين) أراد به بدرجة آبائه وهم ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفي التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد افرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب وقيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه في النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك انه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل أهل محلة ان يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا ان يقتتلوا ثم رأوا ان يدفنوه في النيل بحيث يجري الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته الى جميعهم وقال عكرمة انه دفن في الجانب الأيمن

ذلك) اشارة الى ما سبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ (من انباء الغيب نوحيه اليك) خبران (وما كنت لديهم) لدى بني يعقوب (اذ أجمعوا أمرهم) عزموا على ما هموا به من القاء يوسف في البئر (وهم يمكرون) بيوسف ويبغون له الغوائل والمعنى أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك الا من جهة الوحي لانك لم تحضر بني يعقوب حين اتفقوا على القاء أخيهم في البئر (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أراد العموم أو أهل مكة أي وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على ايمانهم (وما تسئلهم عليه) على التبليغ أو على القرآن (من أجر) جعل (ان هو الا ذكر) ما هو الا عظة (للعالمين) وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله (وكأين من آية) من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (في السموات والارض يمرون عليها) على الآيات أو على الارض ويشاهدونها (وهم عنها) عن الآيات (معرضون) لا يعتبرون بها والمراد ما يرون من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من العبر (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) أي وما يؤمن أكثرهم في اقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والارض الا وهو مشرك بعبادة الوثن الجمهور على أنها نزلت في المشركين لانهم مقرون بان الله خالقهم ورازقهم واذا حزبهم أمر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره ومن جملة الشرك ما يقوله القدرية من اثبات قدرة التخليق للعبد والتوحيد المحض ما يقوله أهل السنة وهو انه لا خالق الا الله (أفأمنوا ان تأتيهم غاشية) عقوبة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله أو تأتيهم الساعة) القيامة (بغتة) حال أي فجأة (وهم لا يشعرون) باتيانها (قل هذه سبيلي) هذه السبيل التي هي الدعوة الى الايمان والتوحيد سبيلي والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان ثم فسر سبيله بقوله (أدعوا

الايمن من النيل فانخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فانخصب وأجدب الجانب الايمن فدفنوه في وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقي الى ان أخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الارض المقدسة قوله عز وجل (ذلك) يعني الذي ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع اخوته ثم انه صار الى الملك بعد الرق (من انباء الغيب) يعني أخبار الغيب (نوحيه اليك) يعني الذي أخبرناك به من أخبار يوسف وحي أوحيناه اليك يا محمد وفي هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان رجلا أميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر الى بلد آخر غير بلده الذي نشأ فيه صلى الله عليه وسلم وانه نشأ بين أمة أمية مثله ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن ترتيب وأبين معان وأفصح عبارة فعلم بذلك ان الذي أتى به هو وحي الهي ونور قدسي سماوي فهو معجزة له قائمة الى آخر الدهر وقوله تعالى (وما كنت لديهم) يعني وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب (اذ أجمعوا أمرهم) يعني حين عزموا على القاء يوسف عليه الصلاة والسلام في الجب (وهم يمكرون) يعني بيوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى وما أكثر الناس يا محمد ولو حرصت على ايمانهم بمؤمنين وذلك ان اليهود وقريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ما عندهم في التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقيل له انهم لا يؤمنون ولو حرصت على ايمانهم ففيه تسلية له (وما تسئلهم عليه من أجر) يعني على تبليغ الرسالة والدعاء الى الله من أجر يعني أجرا وجعلا على ذلك (ان هو) أي ما هو يعني القرآن (الا ذكر) يعني عظة وتذكيرا (للعالمين وكأين من آية) يعني وكم من آية دالة على التوحيد (في السموات والارض يمرون عليها) يعني لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها (وهم عنها معرضون) أي لا يلتفتون اليها والمعنى ليس اعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى بأعجب من اعراضهم عنك يا محمد (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) يعني ان من ايمانهم أنهم اذا سئلوا من خلق السموات والارض قالوا الله واذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الاصنام وفي رواية عن ابن عباس انهم يقرون ان الله خالقهم فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم وفي رواية أخرى عنه أيضا انها نزلت في تلبية مشركي العرب وذلك انهم كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقال عطاء هذا في الدعاء وذلك ان الكفار نسوا ربهم في الرخاء فاذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) يعني عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم وقال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعني الصواعق والقوارع (أو تأتيهم الساعة بغتة) يعني فجأة (وهم لا يشعرون) يعني بقيامها قال ابن عباس تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين (هذه سبيلي) يعني طريقتي التي (أدعوا) اليها وهي توحيد الله

... الله على بصيرة) ... أي ادعو الى ... تبينه مع حجة واضحة غير عمياء (أنا) تأكيد للمستتر في أدعو (ومن اتبعني) عطف عليه

عز وجل ودين الاسلام وسمي الدين سبيلا لانه الطريق المؤدي الى الله عز وجل والى الثواب والجنة (الى الله) يعني الى توحيد الله والايمان به (على بصيرة) يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل (أنا ومن اتبعني) يعني من آمن بي وصدق بما جئت به أيضا يدعو الى الله وهذا قول الكلبي وابن زيد قال حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو الى ما دعا اليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو الى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني يعني أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضا على بصيرة قال ابن عباس ان محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الايمان وجند الرحمن وقال ابن مسعود من كان مستنا فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الامة وأبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم وقوله (وسبحان الله) أي وقل سبحان الله يعني تنزيها لله عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء والاضداد والانداد (وما أنا من المشركين) يعني وقل يا محمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا) يعني وما أرسلنا قبلك يا محمد الا رجالا مثلك ولم يكونوا ملائكة (نوحي اليهم) هذا جواب لاهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكا والمعنى كيف تعجبوا من ارسالنا اياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك (من أهل القرى) يعني انهم من أهل الامصار والمدن لا من أهل البوادي لان أهل الامصار أفضل وأعلم وأكمل عقلا من أهل البوادي قال الحسن لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء وقيل انما لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم (أفلم يسيروا في الارض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) يعني كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) يعني فعلنا هذا بأوليائنا وأهل طاعتنا اذ أنجيناهم عند نزول العذاب بالامم المكذبة وما في الدار الآخرة خير لهم يعني الجنة لانها خير من الدنيا وانما أضاف الدار الى الآخرة وان كانت هي الآخرة لان العرب تضيف الشيء الى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه (أفلا يعقلون) يعني يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون قوله عز وجل (حتى اذا استيأس الرسل) قال صاحب الكشاف حتى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كأنه قيل وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فتراخى نصرهم حتى اذا استيأس الرسل من النصر وقال الواحدي حتى هنا حرف من حروف الابتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم (وظنوا انهم قد كذبوا) قرأ أهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدي ان معناه ظن الامم ان الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقال أهل المعاني كذبوا من قولهم كذبتك الحديث أي لم أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال أبو علي والضمير في قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل اليهم والتقدير وظن المرسل اليهم ان الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس انهم لم يؤمنوا بهم حتى نزل بهم العذاب وانما ظنوا ذلك لما شاهدوا من امهال الله اياهم ولا يمتنع حمل الضمير في وظنوا على المرسل اليهم وان لم يتقدم لهم ذكر لان ذكر الرسل يدل على ذكر

المرسل

أي ادعو الى سبيل الله أنا ويدعو اليه من اتبعني أو أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبر مقدم ومن اتبعني عطف على أنا يخبر ابتداء بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى (وسبحان الله) وأنزهه من الشركاء (وما أنا من المشركين) مع الله غيره (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا) لا ملائكة لانهم كانوا يقولون لو شاء ربنا لانزل ملائكة أو ليست فيهم امرأة (نوحي) بالنون حفص (اليهم من أهل القرى) لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء (أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة) أي ولدار الساعة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك وآمنوا به (أفلا تعقلون) وبالياء مكي وأبو عمرو وحمزة وعلي (حتى اذا استيأس الرسل) يئسوا من ايمان القوم (وظنوا انهم قد كذبوا) وأيقن الرسل ان قومهم كذبوهم وبالتخفيف كوفي أي وظن المرسل اليهم ان الرسل قد كذبوا أي أخلفوا أو وظن المرسل اليهم انهم كذبوا من جهة الرسل أي كذبتهم الرسل في انهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه

المرسل إليهم وإن شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان
عاقبة الذين من قبلهم أي مكذبي الرسل والظن هنا على معنى التوهم والحسبان وهذا معنى
ما روي عن ابن عباس انه قال حتى اذا استيأس الرسل من قومهم الاجابة وظن قومهم ان الرسل
قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم واهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقن الرسل انهم قد كذبوا في
وعد قومهم اياهم الايمان أي وعدوا ان يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم
قد كذبوا أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بانهم لا ينصرون أو رجاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء
كاذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت
عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا ان لا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير
احتساب وعن ابن عباس وظنوا حين ضعفوا وغلبوا انهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من النصر
قال وكانوا بشرا وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال صاحب
الكشاف فان صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من
شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية وأما الظن الذي هو ترجيح أحد
الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس
بربهم وانه متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدي عن ابن الانباري انه قال هذا غير معول عليه
من جهتين احداهما ان التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأوله عليه والاخرى ان
قوله جاءهم نصرنا دال على ان أهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله واستضعفوا رسل الله ونصر الله
للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأ عظيما ولا يستحقون ظفرا ولا نصرا وتبرئة
الانبياء وتطهيرهم واجب علينا اذا وجدنا الى ذلك سبيلا وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وأبو
عمرو وابن عامر وظنوا انهم قد كذبوا بالتشديد ووجهه ظاهر وهو ان معناه حتى اذا استيأس
الرسل من ايمان قومهم وظنوا يعني وأيقنوا يعني الرسل ان الامم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى
بعده ايمانهم فالظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى اذا استيأس
الرسل عن كذبهم من قومهم ان يصدقوهم وظنوا ان من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم
وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء واستبطؤا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن
بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعني وظنوا بالرسل ظن حسبان ان
ربهم قد كذبهم في وعد الظفر والنصر لابطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لا أنهم كذبوهم في
كونهم رسلا وقيل ان هذا التكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين لانه لو حصل لكان نوع كفر
ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن
هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعا فالكناية في وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير
انه سأل عائشة عن قوله تعالى حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أو كذبوا قالت بل
كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عروة أجل
لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت
فما هذه الآية قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر
عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل عمن كذبهم من قومهم وظنوا ان أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر
الله عند ذلك وفي رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال قال ابن عباس حتى اذا استيأس
الرسل وظنوا انهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب بها هناك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه

(جاءهم نصرنا) للنبيه والمؤمنين بهم بغتة من غير احتساب (فنُجِّيَ) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء شامي وعاصم على لفظ الماضي المبني للمفعول والقائم مقام الفاعل من الباقون فننجي (من نشاء) أي النبي ومن آمن به (ولا يرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) ٥٦ الكافرين (لقد كان في قصصهم) أي في قصص الانبياء واممهم أو في قصة يوسف واخوته (عبرة لأولي الألباب) حيث نقل من غاية الحب الى غاية الحسد ومن الحصير الى السرير فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ونهاية المكر وخامة وندامة (ما كان حديثا يفترى) ما كان القرآن حديثا مفترى كما زعم الكفار (ولكن تصديق الذي بين يديه) ولكن تصديق الكتب التي تقدمته (وتفصيل كل شيء) يحتاج اليه في الدين لانه القانون الذي تستند اليه السنة والاجماع والقياس (وهدى) من الضلال (ورحمة) من العذاب (لقوم يؤمنون) بالله وانبيائه وما انتصب بعد لكن معطوف على خبر كان * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فأيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة أن لا يحسد مسلما قال الشيخ أبو منصور رحمه الله في ذكر قصة يوسف عليه السلام واخوته تصبير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أذى قريش كأنه يقول ان اخوة يوسف مع موافقتهم اياه في الدين ومع الاخوة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك فأنت مع مخالفتهم اياك في الدين أحرى ان تصبر على أذاهم وقال وهب ان الله تعالى لم ينزل كتابا الا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هي في القرآن العظيم والله أعلم (سورة الرعد مكية وهي ثلاث وأربعون آية كوفي وخمس وأربعون آية شامي)

حتى نصر الله الا ان نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله رسوله من شيء قط الا علم انه كائن قبل أن يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا ان يكون معهم من قومهم من يكذبهم فكانت تقرؤها وظنوا انهم قد كذبوا مثقلة وقوله تعالى (جاءهم نصرنا) يعني جاء نصر الله النبيين (فنجي من نشاء) من عبادنا يعني عند نزول العذاب بالكافرين فنجي المؤمنين المطيعين (ولا يرد بأسنا) يعني عذابنا (عن القوم المجرمين) يعني المشركين قوله تعالى (لقد كان في قصصهم) يعني في خبر يوسف واخوته (عبرة) أي موعظة (لأولي الألباب) يعني يتعظ بها أولو الالباب والعقول الصحيحة ومعنى الاعتبار والعبرة الحالة التي يتوصل بها الانسان من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة ان الذي قدر على اخراج يوسف من الجب بعد القائه فيه واخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه واخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على اعزاز محمد صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته واظهار دينه وان الاخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الاخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل ان الله تعالى قال في أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال في آخرها لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب فدل على ان هذه القصة من أحسن القصص وان فيها عبرة لمن اعتبرها (ما كان حديثا يفترى) يعني ما كان هذا القرآن حديثا يفترى ويختلق لان الذي جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه ان يفتريه أو يختلقه لانه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء ثم انه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وانه ليس بمفتر (ولكن تصديق الذي بين يديه) يعني ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب الالهية المنزلة من السماء من التوراة والانجيل وفيه اشارة الى ان هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف (وتفصيل كل شيء) يعني ان في هذا القرآن المنزل على نبينا محمد تفصيل كل شيء تحتاج اليه من الحلال والحرام والحدود والاحكام والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك مما يحتاج اليه العباد في أمر دينهم ودنياهم (وهدى) يعني الى كل خير (ورحمة) يعني أنزلناه رحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم الذين ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الرعد﴾

قال ابن الجوزي اختلفوا في نزولها على قولين أحدهما انها مكية رواه أبو طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة وروى أبو صالح عن ابن عباس انها مكية الا آيتين احداهما قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة والاخرى قوله ويقول الذين كفروا لست مرسلا والقول الثاني انها مدنية رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس وبه قال جابر بن زيد وروي عن ابن عباس انها مدنية الا آيتين نزلتا بمكة وهما قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال الى آخر الآيتين وقال بعضهم المدني منها قوله هو الذي يريكم البرق الى قوله دعوة الحق وهي ثلاث وأر[بعون]

خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (المر) قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه أنا الله أعلم وأرى وروى عطاء عنه أنه قال ان معناه أنا الله الملك الرحمن (تلك آيات الكتاب) الاشارة بتلك الى آيات السورة المسماة بالمر والمراد بالكتاب السورة أي آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال تعالى (والذي أنزل اليك من ربك الحق) يعني من القرآن كله هو الحق الذي لا مزيد عليه وقيل المراد بالاشارة في قوله تلك الاخبار والقصص أي الاخبار والقصص التي قصصتها عليك يا محمد هي آيات التوراة والانجيل والكتب الالهية القديمة المنزلة والذي أنزل اليك يعني وهذا القرآن الذي أنزل اليك يا محمد من ربك الحق أي هو الحق فاعتصم به وقال ابن عباس وقتادة أراد بآيات الكتاب القرآن والمعنى هذه آيات الكتاب الذي هو القرآن ثم قال والذي أنزل اليك من ربك الحق يعني وهذا القرآن الذي أنزل اليك من ربك هو الحق الذي لا شك فيه ولا تناقض (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعني مشركي مكة نزلت هذه الآية في الرد عليهم حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد) جمع عمود وهي الاساطين والدعائم التي تكون تحت السقف وفي قوله (ترونها) قولان أحدهما ان الرؤية ترجع الى السماء يعني وأنتم ترون السموات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعني ليس من دونها دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها والمراد نفي العمد بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة وهذا قول الحسن وقتادة وجمهور المفسرين واحدى الروايتين عن ابن عباس والقول الثاني ان الرؤية ترجع الى العمد والمعنى ان لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الاخرى عن ابن عباس والقول الاول أصح وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره والكلام عليه في سورة الاعراف بما فيه كفاية (وسخر الشمس والقمر) يعني ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على ما يريد (كل يجري لاجل مسمى) يعني الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وقال ابن عباس أراد بالاجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعني انهما يجريان في منازلهما ودرجاتهما الى غاية ينتهيان اليها ولا يجاوزانها وتحقيقه ان الله تعالى جعل لكل واحد من الشمس والقمر سيرا خاصا الى جهة خاصة بقدر خاص من السرعة والبطء في الحركة (يدبر الامر) يعني انه تعالى يدبر أمر العالم العلوي والسفلي ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الاحوال لا يشغله شأن عن شأن وقيل يدبر الامر بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة لان جميع العالم محتاجون الى تدبيره ورحمته داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته (يفصل الآيات) يعني انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وقيل ان الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان الاول الموجودات المشاهدة وهي خلق السموات والارض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره والقسم الثاني الموجودات الحادثة في العالم وهي الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة الى غير ذلك من أحوال هذا العالم وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) يعني انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المر) أنا الله أعلم وأرى عن ابن عباس رضي الله عنهما (تلك) اشارة الى آيات السورة (آيات الكتاب) أريد بالكتاب السورة أي تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها (والذي أنزل اليك من ربك) أي القرآن كله (الحق) خبر والذي (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) فيقولون تقوله محمد ثم ذكر ما يوجب الايمان فقال (الله الذي رفع السموات) أي خلقها مرفوعة لا أن تكون موضوعة فرفعها والله مبتدأ والخبر الذي رفع السموات (بغير عمد) حال وهو جمع عماد أو عمود (ترونها) الضمير يعود الى السموات أي ترونها كذلك فلا حاجة الى البيان أو الى عمد فيكون في موضع جر على أنه صفة لعمد أي بغير عمد مرئية (ثم استوى على العرش) استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان (وسخر الشمس والقمر) لمنافع عباده ومصالح بلاده (كل يجري لاجل مسمى) وهو انقضاء الدنيا (يدبر الامر) أمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) يبين آياته في كتبه المنزلة (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع اليه

توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير اليه بعد الموت لان من قدر على ايجاد الانسان بعد عدمه قادر على ايجاده واحيائه بعد موته واليقين صفة من صفات العلم وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم قوله تعالى (وهو الذى مد الارض) لما ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وهى رفع السموات بغير عمد وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية فقال وهو الذى مد الارض أى بسطها على وجه الماء وقيل كانت الارض مجتمعة فدحاها من تحت البيت الحرام وهذا القول انما يصح اذا قيل ان الارض منبسطة كالاكف وعند أصحاب الهيئة الارض كرة ويمكن ان يقال ان الكرة اذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الارض وأنه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة (وجعل فيها) يعنى فى الارض (رواسى) يعنى جبالا ثابتة يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وأرساه غيره أثبته قال ابن عباس كان أبو قبيس أول جبل وضع على الارض (وأنهارا) يعنى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) يعنى صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا (يغشى الليل النهار) يعنى يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار (ان فى ذلك) يعنى الذى تقدم ذكره من عجائب صنعته وغرائب قدرته الداله على وحدانيته (لآيات) أى دلالات (لقوم يتفكرون) يعنى فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب فى طلب الاشياء وقال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للانسان دون الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن ان يحصل له صورة فى القلب ولهذا روى تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله اذ كان الله منزها أن يوصف بصورة وقال بعض الادباء الفكر مقلوب عن الفرك لانه يستعمل فى طلب المعانى وهو فرك الامور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها قوله عز وجل (وفى الارض قطع متجاورات) يعنى متقاربات بعضها من بعض وهى مختلفة فى الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع (وجنات) يعنى بساتين والجنة كل بستان ذى شجر من نخيل وأعناب وغير ذلك سمى جنة لانه يستر بأشجاره الارض واليه الاشارة بقوله (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهى النخلات يجمعهن أصل واحد ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعنى انهما من أصل واحد (وغير صنوان) هى النخلة المنفردة بأصلها فالصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق (يسقى بماء واحد) يعنى أشجار الجنات وزروعها والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض فى الاكل) يعنى فى الطعم ما بين الحلو والحامض والمفص وغير ذلك من الطعام عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض فى الاكل قال الدقل والفارسى والحلو والحامض أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال مجاهد هذا كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بنى آدم كانت الارض طينة واحدة فى يد الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلا قيل انما هذا من قبل الماء كذلك

وهو الذى مد الارض) بسطها (وجعل فيها رواسى) جبالا ثوابت (وأنهارا) جارية (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) أى الاسود والابيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك (يغشى الليل النهار) يلبسه مكانه فيصير أسود مظلما بعدما كان أبيض منيرا يغشى حمزة وعلى وأبو بكر (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيعلمون ان لها صانعا عليما حكيما قادرا (وفى الارض قطع متجاورات) بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة وذلك دليل على قادر مدبر مريد موقع لافعاله على وجه دون وجه (وجنات) معطوفة على قطع (من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) بالرفع مكى وبصرى وحفص عطف على قطع غيرهم بالجر بالعطف على أعناب والصنوان جمع صنو وهى النخلة لها رأسان وأصلها واحد وعن حفص بضم الصاد وهما لغتان (تسقى بماء واحد) وبالياء عاصم وشامى (ونفضل بعضها على بعض) وبالياء حمزه وعلى (فى الاكل) فى الثمر وبسكون الكاف نافع ومكى

(إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) من الحسن مثل اختلاف القلوب في آثارها وأنوارها وأسرارها باختلاف القطع في أنهارها وأزهارها وثمارها (وإن تعجب) يا محمد من قولهم في انكار البعث (فعجب قولهم) خبر ومبتدأ أي فقولهم حقيق بأن يتعجب منه لأن من قدر على انشاء ما عدد عليك كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسر فكان انكارهم أعجوبة من الأعاجيب (أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) في محل الرفع بدل من قولهم قرأ عاصم وحمزة كل واحد بهمزتين (أولئك الذين كفروا بربهم) أولئك الكافرون المتمادون في كفرهم (وأولئك الأغلال في أعناقهم) وصف لهم بالإصرار أو من جملة الوعيد (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) دل تكرار أولئك على تعظيم الأمر (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) بالنقمة قبل العافية وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره (وقد خلت من قبلهم المثلات) أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزؤا والمثلة العقوبة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة وجزاء سيئة سيئة مثلها (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ومحله الحال أي ظالمين لأنفسهم قال السدي يعني المؤمنين وهي أرجى آية في كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة فإن التوبة تزيلها وترفعها (وإن ربك لشديد العقاب) على الكافرين أو هما جميعا في المؤمنين لكنه معلق بالمشيئة فيهما أي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عنادا فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية وإحياء الموتى فقيل لرسول

الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا وقوله تعالى (إن في ذلك) يعني الذي ذكر (لآيات لقوم يعقلون) يعني فيتدبرون ويتفكرون في الآيات الدالة على وحدانيته قوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم) العجب تغيير النفس برؤية المستبعد في العادة وقيل العجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء العجب ما لا يعرف سببه ولهذا قيل العجب في حق الله محال لأنه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية والخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم ومعناه وإن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الأمين فعجب أمرهم وقيل معناه وإن تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق السموات والأرض وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب لهم به الأمثال ما رأوا فعجب قولهم وقيل وإنك إن تعجب من انكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك أن المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وهو قولهم (أئذا كنا ترابا) يعني بعد الموت (أئنا لفي خلق جديد) يعني نعاد خلقا جديدا بعد الموت كما كنا قبله ثم إن الله تعالى قال في حقهم (أولئك الذين كفروا بربهم) وفيه دليل على أن كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى لأن من أنكر البعث بعد الموت فقد أنكر القدرة وأن الله على كل شيء قدير ومن أنكر ذلك فهو كافر (وأولئك الأغلال في أعناقهم) يعني يوم القيامة والأغلال جمع غل وهو طوق من حديد يجعل في العنق وقيل أراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير ذليلا بالغل (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعني أنهم مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته والمراد بالسيئة هنا هي العقوبة وبالحسنة العافية وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلا من العافية استهزاء منهم وهو قولهم اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (وقد خلت من قبلهم المثلات) يعني وقد مضت في الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلا ليرتدع غيره به وذلك كالنكال وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ابن عباس معناه إنه لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا (وإن ربك لشديد العقاب) يعني للمصرين على الشرك الذي ماتوا عليه وقال مجاهد إنه لذو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب عنهم وإنه لشديد العقاب إذا عاقب قوله تعالى (ويقول الذين كفروا) يعني من أهل مكة (لولا) أي هلا (أنزل عليه) يعني على محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) يعني مثل عصا موسى وناقة

صلى الله عليه وسلم (انما أنت منذر) انما أنت رجل أرسلت منذرا تخوفهم من سوء العاقبة وناصحا كغيرك من الرسل
وما عليك الا الاتيان بما يصح به أنك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأى آية كانت والآيات كلها سواء فى حصول صحة الدعوى
بها (ولكل قوم هاد) من الانبياء ٦٠ يهديهم الى الدين ويدعوهم الى الله بآية تخص بها لا بما يريدون ويتحكمون (الله يعلم
ما تحمل كل أنثى وما تغيض
الارحام وما تزداد) ما فى هذه
المواضع الثلاثة موصولة
أى يعلم ما تحمله من الولد
على أى حال هو من ذكورة
وأنوثة وتمام وخداج
وحسن وقبح وطول وقصر
وغير ذلك وما تغيضه
الارحام أى وما تنقصه
يقال غاض الماء وغضته
أنا وما تزداده والمراد عدد
الولد فانها تشتمل على واحد
واثنين وثلاثة وأربعة
أو جسد الولد فانه يكون
تاما ومخدجا أو مدة الولادة
فانها تكون أقل من
تسعة أشهر وأزيد عليها الى
سنتين عندنا والى أربع
عند الشافعى والى خمس
عند مالك أو مصدرية أى
يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض
الارحام وازديادها (وكل
شىء عنده بمقدار) بقدر
وحد لا يجاوزه ولا ينقص
عنه لقوله انا كل شىء خلقناه
بقدر (عالم الغيب) ما غاب
عن الخلق (والشهادة)
ما شاهدوه (الكبير)
العظيم الشأن الذى كل شىء
دونه (المتعال) المستعلى
على كل شىء بقدرته أو الذى
كبر عن صفات المخلوقين
وتعالى عنها وبالياء فى الحالين مكى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى فى علمه (ومن هو
مستخف بالليل) متوار (وسارب بالنهار) ذاهب فى سربه أى فى طريقه ووجهه يقال سرب فى الارض سروبا وسارب عطف على
من هو مستخف لا على مستخف أو على مستخف غير أن من فى معنى الاثنين والضمير فى

صالح وذلك لانهم لم يقتنعوا بما رأوا من الآيات التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم (انما أنت
منذر) أى ليس عليك الا مجرد الانذار والتخويف وليس لك من الآيات شىء (ولكل قوم هاد)
قال ابن عباس الهادى هو الله وهذا قول سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعى
والمعنى انما عليك الانذار يا محمد والهادى هو الله يهدى من يشاء وقال عكرمة فى رواية أخرى عنه
وأبو الضحى الهادى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى انما أنت منذر وأنت هاد وقال
الحسن وقتادة وابن زيد يعنى ولكل قوم نبى يهديهم وقال أبو العالية الهادى هو العمل الصالح
وقال أبو صالح الهادى هو القائد الى الخير لا الى الشر قوله عز وجل (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) لما
سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله عز وجل عن عظيم قدرته وكمال علمه وانه
عالم بما تحمل كل أنثى يعنى من ذكر أو أنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحدا أو اثنين أو أكثر
(وما تغيض) يعنى وما تنقص (الارحام وما تزداد) قال أهل التفسير غيض الارحام الحيض على
الحمل فاذا حاضت الحامل كان ذلك نقصانا فى الولد لان دم الحيض هو غذاء الولد فى الرحم فاذا
خرج الدم نقص الغذاء فنقص الولد واذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد
بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقيل اذا حاضت المرأة فى وقت حملها ينقص
الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فان رأت خمسة أيام دما وضعت
لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان فى الغذاء زيادة فى مدة الحمل وقيل النقصان السقط والزيادة
تمام الخلق وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر وأقل
مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش واختلفوا فى أكثره فقال قوم أكثر مدة الحمل
سنتان وهو قول عائشة وبه قال أبو حنيفة وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وقال جماعة أكثرها
أربع سنين واليه ذهب الشافعى وقال حماد بن أبى سلمة انما سمى هرم بن حيان هرما لانه بقى فى
بطن أمه أربع سنين وعند مالك ان أكثر مدة الحمل خمس سنين (وكل شىء عنده بمقدار) يعنى
بتقدير وحد لا يجاوزه ولا ينقص منه وقيل انه تعالى يعلم كمية كل شىء وكيفيته على أكمل الوجوه
وقيل معناه وانه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته
الازلية وارادته وتقديره الذى لا يقدر عليه غيره (عالم الغيب والشهادة) يعنى أنه تعالى يعلم ما غاب
عن خلقه وما يشاهدونه وقيل الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن
الحس والشاهد ما حضر فى الحس (الكبير) أى العظيم الذى يصغر كل كبير بالاضافة الى
عظمته وكبريائه فهو يعود الى معنى كبر قدرته وانه تعالى المستحق لصفات الكمال (المتعال) يعنى
المنزه عن صفات النقص المتعالى عن الخلق وفيه دليل على انه تعالى موصوف بالعلم الكامل
والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص قوله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر
به) أى مستو منكم من أخفى القول وكتمه ومن أظهره وأعلنه والمعنى انه قد استوى فى علم الله
تعالى السر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف بالليل) أى مستتر بظلمته (وسارب بالنهار)
أى ذاهب بالنهار فى سربه ظاهرا والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال القتيبى

السارب المتصرف في حوائجه قال ابن عباس في هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم وقيل مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا كتمته وسارب بالنهار أي متوار داخل في السرب مستخفيا ومعنى الآية سواء ما أضمرت به القلوب أو نطقت به الألسن وسواء من أقدم على القبائح مستترا في ظلمات الليل أو أتى بها ظاهرا في النهار فإن علمه تعالى محيط بالكل (له معقبات) يعني لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فإذا صعدت ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وإنما ذكر معقبات بلفظ التأنيث وإن كان الملائكة ذكورا لأن واحدها معقب وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون وقيل إن مع كل واحد من بني آدم ملكين ملك عن يمينه وهو صاحب الحسنات وملك عن شماله وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين أكتبها عليه فيقول أنظره لعله يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فإن هو تاب منها وإلا قال اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فإذا تواضع العبد لله عز وجل رفعه بها وإن تجبر على الله عز وجل وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الأذى وملك موكل بفيه لا يدعه يدخل في فيه شيء من الهوام يؤذيه هؤلاء خمسة أملاك موكلون بالعبد في ليله وخمسة غيرهم في نهاره فانظر إلى عظمة الله تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك أيها العبد المسكين وهو قوله تعالى (من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) يعني يحفظون العبد من بين يديه ومن وراء ظهره ومعنى من أمر الله بأمر الله وإذنه ما لم يجئ القدر فإذا جاء خلوا عنه وقيل معناه أنهم يحفظونه بما أمر الله به من الحفظ له قال مجاهد ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه يؤذيه إلا قال له الملك وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه وقال كعب الأحبار لولا أن الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيئات وهذا على قول من يقول إن الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات وقال عكرمة الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم والضمير في قوله له راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس في معنى هذه الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار وقال عبد الرحمن بن زيد نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد وكانت قصتهما على ما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان من أجمل الناس وكان أعور فقال رجل يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك فقال دعه فإن يرد الله به خيرا يهده فأقبل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا محمد ما لي إن أسلمت قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين قال تجعل

(له) مردود على من كأنه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب (معقبات) جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه والأصل معتقبات فأدغمت التاء في القاف أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه لأن بعضهم يعقب بعضا أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه (من بين يديه ومن خلفه) أي قدامه ووراءه (يحفظونه من أمر الله) هما صفتان جميعا وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له معقبات من أمر الله أو يحفظونه من أجل أمر الله أي من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له

(إن الله لا يغير ما بقوم) من العافية والنعمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الحال الجميلة بكثرة المعاصي (وإذا أراد الله
بقوم سوءا) عذابا (فلا مرد
له) فلا يدفعه شيء (وما لهم
من دونه من وال) من دون
الله ممن يلي أمرهم ويدفع
عنهم (هو الذي يريكم
البرق خوفا وطمعا) انتصبا
على الحال من البرق كأنه
في نفسه خوف وطمع
أو على ذا خوف وذا طمع
أو من المخاطبين أي خائفين
وطامعين والمعنى يخاف
من وقوع الصواعق عند
لمع البرق ويطمع في الغيث
قال أبو الطيب
فتى كالسحاب الجون يخشى
ويرتجى
يرجى الحيا منه وتخشى
الصواعق
أو يخاف المطر من له فيه
ضرر كالمسافر ومن له بيت
يكف ومن البلاد ما لا
ينتفع أهله بالمطر كأهل
مصر ويطمع فيه من له
نفع فيه (وينشئ السحاب)
هو اسم جنس والواحدة
سحابة (الثقال) بالماء وهو
جمع ثقيلة تقول سحابة
ثقيلة وسحاب ثقال (ويسبح
الرعد بحمده) قيل يسبح
سامعو الرعد من العباد
الراجين للمطر أي يصيحون
سبحان الله والحمد لله وعن
النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال الرعد ملك موكل
بالسحاب معه مخاريق
من نار يسوق بها السحاب
والصوت الذي يسمع زجره السحاب حتى ينتهي إلى حيث أمر

الأمر لي بعدك قال ليس ذلك لك إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء قال فتجعلني على الوبر
وأنت على المدر قال لا قال فما تجعل لي قال أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها قال أوليس ذلك لي
اليوم قم معي أكلمك فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عامر قد أوصى إلى أربد بن
ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ويراجعه ودار أربد من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فاخترط شبرا من
سيفه ثم حبسه الله تعالى عليه فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئ إليه فالتفت رسول الله صلى الله
عليه وسلم فرأى أربد وما صنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة
في يوم صحو قائظ فأحرقته فولى عامر هاربا وقال يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنها
عليك خيلا جردا وشبابا مردا فقال النبي صلى الله عليه وسلم يمنعني الله من ذلك وابنا قيلة يريد
الأوس والخزرج فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم إليه سلاحه فخرج له خراج في
أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه فقال غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ثم ركب
فرسه وجعل يركض في الصحراء ويقول ادن يا ملك الموت وجعل يقول الشعر ويقول لئن
أبصرت محمدا وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذنهما برمحي فأرسل الله إليه ملكا فلطمه فأرداه في
التراب ثم عاد فركب جواده حتى مات على ظهره وأجاب الله عز وجل دعاء رسول الله صلى الله
عليه وسلم في عامر بن الطفيل فمات بالطعن وأربد بن ربيعة مات بالصاعقة وأنزل الله عز وجل
في شأن هذه القصة سواء منكم من أسر القول ومن جهر به إلى قوله له معقبات من بين يديه
ومن خلفه يعني لرسول الله صلى الله عليه وسلم معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر
الله أي بأمر الله وقيل إن تلك المعقبات من أمر الله وفيه تقديم وتأخير تقديره له معقبات من
أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وقوله (إن الله لا يغير ما بقوم) خطاب لهذين عامر بن
الطفيل وأربد بن ربيعة يعني لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة التي أنعم بها عليهم (حتى يغيروا ما
بأنفسهم) يعني من الحالة الجميلة فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم
وهو قوله تعالى (وإذا أراد الله بقوم سوءا) يعني هلاكا أو عذابا (فلا مرد له) يعني لا يقدر أحد أن
يرد ما أنزل الله بهم من قضائه وقدره (وما لهم من دونه من وال) يعني وليس لهم من دون الله
من وال يلي أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم قوله عز وجل (هو الذي يريكم البرق خوفا
وطمعا) لما خوف الله عز وجل عباده بقوله وإذا أراد الله بقوم سوءا ذكر في هذه الآية من عظيم
قدرته ما يشبه النعم من وجه ويشبه العذاب من وجه فقال تعالى هو الذي يعني هو الله الذي
يريكم البرق والبرق معروف وهو لمعان يظهر من خلال السحاب وفي كونه خوفا وطمعا وجوه
الأول أن عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ويطمع في نزول المطر الثاني أنه يخاف من البرق
من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ويطمع
فيه من له في نزول المطر نفع كالزراع ونحوه الثالث أن المطر يخاف منه إذا كان في غير مكانه
وزمانه ويطمع فيه إذا كان في مكانه وزمانه فإن من البلاد ما إذا أمطرت قحطت وإذا لم تمطر
أخصبت (وينشئ السحاب الثقال) يعني بالمطر يقال أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت
والسحاب جمع سحابة والسحاب غربال الماء قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقيل السحاب
الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء ولهذا قيل سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر
وسمي السحاب سحابا إما لجر الريح له أو لجره الماء أو لانجراره في سيره (ويسبح الرعد بحمده)

أكثر

أكثر المفسرين على ان الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه وأورد على هذا القول ما عطف عليه وهو قوله (والملائكة من خيفته) واذا كان المعطوف مغاير المعطوف عليه وجب أن يكون غيره وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسما لملك من الملائكة وانما أفرده بالذكر تشريفا له على غيره من الملائكة فهو كقوله وملائكته وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت قالوا صدقت أخرجه الترمذي مع زيادة فيه المخاريق جمع مخراق وهو في الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب وقد جاء تفسيره في حديث آخر وهو صوت من نور تزجر الملائكة به السحاب قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فان أصابته صاعقة فعلى ديته وكان عبد الله بن الزبير اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وكان يقول ان الوعيد لاهل الارض شديد وفي بعض الاخبار ان الله تعالى يقول لو ان عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل واطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس انه قال الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه الى حيث يؤمر وانه يحوز الماء في نقرة ابهامه وانه يسبح الله فاذا سبح لا يبقى ملك في السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وقيل ان الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب ومع ذلك فان صوت الرعد يسبح الله عز وجل لان التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه الله عز وجل عن جميع النقائص ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص وان لم يكن ذلك في الحقيقة تسبيحا ومنه قوله وان من شيء الا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد ان من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبيح اليه وقوله والملائكة من خيفته يعني ويسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وهيبته وخشيته وقيل المراد بهذه الملائكة أعوان السحاب جعل الله عز وجل مع الملك الموكل بالسحاب أعوانا من الملائكة وهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهي العذاب النازل من البرق فيحرق من تصيبه وقيل هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد وهذه الاشياء الثلاثة تنشأ منها (فيصيب بها) يعني بالصواعق (من يشاء) يعني فيهلكه بها كما أصاب أربد بن ربيعة قال محمد الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم يجادلون في الله) يعني يخاصمون في الله وقيل المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل اذا أحكمت فتله نزلت في شأن أربد بن ربيعة حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم مم ربك أمن در أم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته وسئل الحسن عن قوله ويرسل الصواعق الآية فقال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه يدعونه الى الله والى رسوله فقال لهم أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعوني اليه هل هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال ارجعوا اليه

(والملائكة من خيفته) ويسبح الملائكة من هيبته واجلاله (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) الصاعقة نار تسقط من السماء لما ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيته قال (وهم يجادلون في الله) يعني الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلون في الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث واعادة الخلائق بقولهم من يحيي العظام وهي رميم ويردون الوحدانية باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعض الاجسام بقولهم الملائكة بنات الله والواو للحال أي فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم وذلك ان أربد أخا لبيد ابن ربيعة العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامرا بغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية وأرسل على أربد صاعقة فقتله أخبرني عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد

(شديد المحال) أي المماحلة وهي شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا اذا تكلف لاستعمال الحيلة واجتهد فيه ومحل بفلان اذا كاده وسعى به الى السلطان والمعنى انه شديد المكر والكيد لاعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون (له دعوة الحق) أضيفت الى الحق الذي هو ضد الباطل للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بأنه يوجه اليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه واتصال شديد المحال وله دعوة الحق بما قبله على قصة أربد ظاهر لان اصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله اللهم اخسفهما بما شئت فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق وعلى الاول وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم واجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ان دعا عليهم (والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دونه) من دون الله (لا يستجيبون لهم بشيء) من طلباتهم (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه) الاستثناء من المصدر أي من الاستجابة التي دل عليها لا يستجيبون لان الفعل بحروفه يدل على المصدر وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان [illegible] منه والحال بخار استثناء كل منها من الفعل فصار التقدير لا يستجيبون استجابة الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء أي كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ولا يقدر أن يجيب

فرجعوا اليه فلم يزدهم على مقالته الاولى شيأ بل قال أأجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى شيأ بل قال أخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبيناهم عنده يدعونه وينازعونه وهو لا يزيدهم على مقالته شيأ اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رجعوا استقبلهم نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم ذلك قالوا لقد أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله واختلفوا في هذه الواو فقيل واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء في حال جداله في الله وذلك ان أربد لما جادل في الله أهلكه الله بالصاعقة وقيل انها واو الاستئناف فيكون المعنى انه تعالى لما تمم ذكر الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون في الله (وهو شديد المحال) أي شديد الاخذ بالعقوبة من قولهم تمحل بفلان اذا أراد به سوأ وقيل هو من قولهم محل به اذا سعى به الى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل اذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فيكون المعنى انه سبحانه وتعالى شديد المحال بأعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يتوقعونه وقيل المحل من الحول وهو الحيلة والميم زائدة ثم اختلفت عبارات المفسرين في معنى قوله شديد المحال فقال الحسن معناه شديد النقمة وقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال ابن عباس شديد الحول وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال وذلك انه لما أخبر عنهم أنهم يجادلون في الله أخبر أنه أشد جدالا منهم قوله تعالى (له دعوة الحق) يعني لله دعوة الصدق قال علي دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيه وجهان أحدهما أن تضاف الدعوة الى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة اليه في قولك كلمة الحق للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق مختصة به وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله ان كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بأن يوجه اليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا نفع فيه ولا جدوى في دعائه الثاني أن تضاف الى الحق الذي هو الله على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب وعن الحسن الله هو الحق وكل دعاء اليه دعوة الحق فان قلت ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما قلت اما على قصة أربد فظاهر لان اصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق واما على قوله وهم يجادلون في الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجابة دعائه ان دعا عليهم وقيل في معنى الآية الدعاء بالاخلاص والدعاء الخالص لا يكون الا لله تعالى (والذين يدعون من دونه) يعني والذين يدعونهم آلهة من دون الله وهي الاصنام التي يعبدونها (لا يستجيبون لهم بشيء) يعني لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر ان دعوهم (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) يعني الا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب

منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم وقيل شبههم في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيده ليشرب به فيبسطهما ناشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيأ ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل ان القابض على الماء ناشرا أصابعه لا يكون في يده منه شئ ولا يبلغ الى فيه منه شئ كذلك الذي يدعو الاصنام لانهم لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شئ وقيل شبهه بالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد ببينيه فهو يشير بكفيه الى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبدا هذا معنى قول مجاهد وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يده الى البئر فلا هو يبلغ الى قعر البئر ليخرج الماء ولا الماء يرتفع اليه فلا ينفعه بسطه الكف الى الماء ودعاؤه له ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الاصنام لا ينفعهم ذلك وقال ابن عباس كالعطشان اذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسط كفيه وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الاصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذا بقوله (وما دعاء الكافرين) يعني أصنامهم (الا في ضلال) يعني يضل عنهم اذا احتاجوا اليه قال ابن عباس في هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى قوله عز وجل (ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها) في معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الارض ثم على هذا القول ففي معنى الآية وجهان أحدهما ان اللفظ وان كان عاما الا ان المراد منه الخصوص فقوله ولله يسجد من في السموات يعني الملائكة ومن في الارض من الانس يعني المؤمنين طوعا وكرها يعني من المؤمنين من يسجد لله طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة وكرها يعني المنافقين الداخلين في المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم لانهم لا يرجون على سجودهم ثوابا ولا يخافون على تركه عقابا بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين الوجه الثاني هو حمل اللفظ على العموم وعلى هذا ففي اللفظ اشكال وهو ان جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والانس يسجدون لله طوعا ومنهم من يسجد له كرها كما تقدم واما الكفار من الجن والانس فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه الاشكال والجواب عنه ان المعنى انه يجب على كل من في السموات ومن في الارض أن يسجد لله فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول وجواب آخر وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من في السموات من ملك ومن في الارض من انس وجن فانهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والقول الثاني في معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل فهم خاضعون منقادون له وقوله تعالى (وظلالهم بالغدو والآصال) الغدوة والغداة أول النهار وقيل الى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والآصال جمع أصل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس قال المفسرون ان ظل كل شخص يسجد لله سواء ظل المؤمن والكافر وقال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره وقال الزجاج جاء في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانباري ولا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال أفهاما حتى سبحت لله مع داود

دعاءه و يبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم واللام في ليبلغ متعلق بباسط كفيه (وما هو ببالغه) وما الماء ببالغ فاه (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) في ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الاصنام لم تستطع اجابتهم (ولله يسجد من في السموات والارض) سجود تعبد وانقياد (طوعا) حال يعني الملائكة والمؤمنين (وكرها) يعني المنافقين والكافرين في حال الشدة والضيق (وظلالهم) معطوف على من جمع ظل (بالغدو) جمع غداة كقنى وقناة (والآصال) جمع أصل جمع أصيل قيل ظل كل شئ يسجد لله بالغدو والآصال وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره وظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع

(وظلالهم بالغدو والآصال) (قل من رب السموات والأرض قل الله) حكاية لاعترافهم لأنه إذا قال لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله دليله قراءة ابن مسعود وأبي قالوا الله أو هو تلقين أي فإن لم يجيبوا فلقنهم فإنه لا جواب إلا هذا (قل أفاتخذتم من دونه أولياء) أبعد أن علمتموه ٦٦ رب السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة (لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضرا عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم (قل هل يستوي الأعمى والبصير) أي الكافر والمؤمن أو من لا يبصر شيئا ومن لا يخفى عليه شيء (أم هل تستوي الظلمات والنور) ملل الكفر والإيمان يستوي كوفي غير حفص (أم جعلوا لله شركاء) بل أجعلوا ومعنى الهمزة الإنكار (خلقوا كخلقه) خلقوا مثل خلقه وهو صفة لشركاء أي أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله (فتشابه الخلق عليهم) فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق (قل الله خالق كل شيء) أي خالق الأجسام والأعراض لا خالق غير الله ولا يستقيم أن يكون بالظلمات له شريك في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة ومن قال إن الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فقد تشابه الخلق على قولهم (وهو الواحد) المتوحد بالربوبية (القهار) لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور (أنزل) أي الواحد القهار وهو الله سبحانه (من السماء) من السحاب (ماء) مطرا

وقيل المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال تعظم وتكثر في هذين الوقتين وقيل لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما

(فصل) وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم قوله تعالى (قل من رب السموات والأرض) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله من رب السموات والأرض يعني من مالك السموات والأرض ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون الله لأنهم مقرون بأن الله خالق السموات وما فيها والأرض وما فيها فإذا أجابوك بذلك فقل أنت يا محمد الله رب السموات والأرض وقيل لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله أن يجيبهم بقوله (قل الله) أي قل يا محمد الله وقيل إنما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضا ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله (قل) أي قل يا محمد للمشركين (أفاتخذتم من دونه) يعني من دون الله (أولياء) يعني الأصنام والولي الناصر والمعنى توليتم غير رب السموات والأرض واتخذتموهم أنصارا يعني الأصنام (لا يملكون) يعني وهم لا يملكون (لأنفسهم نفعا ولا ضرا) فكيف لغيرهم ثم ضرب الله مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوي الأعمى والبصير) قال ابن عباس يعني المشرك والمؤمن (أم هل تستوي الظلمات والنور) يعني الشرك والإيمان والمعنى كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن وكما لا تستوي الظلمات والنور كذلك لا يستوي الكفر والإيمان وإنما شبه الكافر بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي سبيلا كذلك الكافر لا يهتدي سبيلا (أم جعلوا لله شركاء) هذا استفهام إنكار يعني جعلوا لله شركاء (خلقوا كخلقه) يعني خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وإنسا (فتشابه الخلق عليهم) من هذا الوجه والمعنى هل رأوا غير الله خلق شيئا فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره وقيل إنه تعالى وبخهم بقوله أم جعلوا لله شركاء خلقوا خلقا مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا استفهام إنكاري أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء والشركاء مخلوقون له أيضا لا يخلقون شيئا حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء وإذا كان الأمر كذلك فقد لزمتهم الحجة وهو قوله تعالى (قل الله خالق كل شيء) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقا وقوله الله خالق كل شيء من العموم الذي يراد به الخصوص لأن الله تعالى خالق كل شيء وهو غير مخلوق (وهو الواحد) يعني والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الأشياء كلها (القهار) لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وإرادته وقوله عز وجل (أنزل من السماء ماء) لما شبه الله عز وجل الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر

بالظلمات والايمان بالنور ضرب الله تعالى مثلا فقال تعالى أنزل من السماء ماء يعني المطر (فسالت أودية بقدرها) أودية جمع واد وهو المفرج بين الجبلين يسيل فيه الماء وقوله فسالت أودية فيه اتساع وحذف تقديره فسال في الوادي فهو كما يقال جرى النهر والمراد جري الماء في النهر فحذف في لدلالة الكلام عليه بقدرها قال مجاهد بملئها وقال ابن جريج الصغير بقدره والكبير بقدره وقيل بمقدار مائها وانما نكر أودية لان المطر اذا نزل لا يعم جميع الارض ولا يسيل في كل الاودية بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون واد فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير وقال ابن عباس أنزل من السماء ماء يعني قرآنا وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت أودية بقدرها يريد بالاودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور والبيان بنزول المطر لان المطر اذا نزل عم نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالاودية لان الاودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الايمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها وهذا خاص بالمؤمنين لانهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله وغيره في معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فبالهمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش وأما قوله وكان منها أجادب فبالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا في الصحيحين وهي الارض التي لا تنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه أجدب والجدب ضد الخصب وقال الخطابي هي التي تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفي رواية الهروي اخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع اخاذة وهي الغدر التي يمسك الماء وقوله ورعوا كذا هو في صحيح مسلم من الرعي ووقع في صحيح البخاري وزرعوا بزيادة زاي من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوي من الارض وقوله فذلك مثل من فقه في دين الله روي بضم القاف وهو المشهور وروي بكسرها ومعناه فهم الاحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لما جاء به من الهدى والعلم بالارض التي أصابها المطر قال العلماء والارض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لانهم منها خلقوا فالنوع الاول من أنواع الارض الطيبة التي تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب والرعي وغير ذلك وكذلك النوع الاول من الناس من يبلغه الهدى وغير ذلك من العلم فيعيه بقلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالاخاذات لان قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم النوع الثاني من أنواع الارض أرض لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة لغيرها وهي امساك الماء لغيرها فينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليس لهم أفهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجيء المحتاج اليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره النوع الثالث من أنواع الارض أرض سبخة لا تنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة ولا أفهام ثاقبة فاذا بلغهم شيء من العلم لا ينتفعون به في أنفسهم ولا ينفعون به غيرهم والله أعلم

(فسالت أودية) جمع واد وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة وانما نكر لان المطر لا يأتي الا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الارض دون بعض (بقدرها) بمقدارها الذي علم الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار

(فاحتمل السيل) أي رفع (زبدا) هو ما علا على وجه الماء من الرغوة والمعنى علاه زبد (رابيا) منتفخا مرتفعا على وجه السيل (ومما توقدون عليه) والباء كوفي غير أبي بكر ومن لابتداء الغاية أي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء أو للتبعيض أي وبعضه زبد (في النار) حال من الضمير في عليه أي ومما توقدون عليه ثابتا في النار (ابتغاء حلية) مبتغين حلية فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في توقدون (أو متاع) من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الاواني وما يتمتع به في الحضر والسفر وهو معطوف على حلية أي زينة من الذهب والفضة (زبد) خبث وهو مبتدأ (مثله) نعته ومما توقدون خبره أي من هذه الفلزات اذا أغليت زبد مثل زبد الماء (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أي مثل الحق والباطل (فأما الزبد فيذهب جفاء) حال أي متلاشيا وهو ما تقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمي وجفوت الرجل صرعته (وأما ما ينفع الناس) من الماء والحلي والاواني (فيمكث في الارض) فيثبت الماء في العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى في الارض مدة طويلة (كذلك يضرب الله الامثال) ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الاواني والآلات المختلفات وذلك ماكث في الارض باق بقاء ظاهرا يثبت الماء في منابعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله وتلاشيه بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه اذا أذيب قال الجمهور وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للابدان والاودية القلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان والماء الصافي المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للاحوال السنية والاخلاق الزكية وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للاعمال الممدة بالاخلاص المعدة للخلاص فان الاعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما ان تلك الجواهر بعضها أداة النعم للكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل والالام في

وقوله تعالى (فاحتمل السيل زبدا) الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبدا (رابيا) يعني عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه وههنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى (ومما توقدون عليه في النار) الايقاد جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشيء ليذوب (ابتغاء حلية) يعني لطلب زينة والضمير في قوله عليه يعود على الذهب والفضة وان لم يكونا مذكورين لان الحلية لا تطلب الا منهما (أو متاع) يعني أو لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الاواني وغيرها مما ينتفع به والمتاع كل ما يتمتع به ويقال لكل ما ينتفع به في البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الاواني متاع (زبد مثله) يعني ان ذلك الذي يوقد عليه في النار اذا أذيب له أيضا زبد مثل زبد الماء فالصافي من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي ينتفع به وهو مثل الحق والزبد من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي لا ينتفع به وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى (كذلك يضرب الله الحق والباطل) فالحق هو الجوهر الصافي الثابت والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به وهو قوله (فأما الزبد فيذهب جفاء) يعني ضائعا باطلا والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد الى جوانبه وقيل الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم اذا فرقته والمعنى ان الباطل وان علا في وقت فانه يضمحل ويذهب (وأما ما ينفع الناس) يعني الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الاجسام التي تذاب (فيمكث في الارض) يعني يثبت ويبقى ولا يذهب (كذلك يضرب الله الامثال) قال أهل التفسير والمعاني هذا مثل ضربه الله للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق في بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل فالباطل وان علا في وقت فانه يذهب هو وأهله والحق يظهر هو وأهله وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للنور الذي يحصل في قلوب العباد على ما قسم لها في الازل لان الوادي اذا سال كنس كل شيء فيه من النجاسات والمستقذرات كذلك اذا سال وادي قلب العبد بالنور

(للذين استجابوا) أي أجابوا متعلقة بيضرب أي كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا (لربهم الحسنى) وهي صفة لمصدر استجابوا أي استجابوا الاستجابة الحسنى (والذين لم يستجيبوا له) أي وللكافرين الذين لم يستجيبوا أي هما مثلا الفريقين وقوله (لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به) كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين أي لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليفتدوا عن أنفسهم عذاب الله والوجه أن الكلام قد تم على الأمثال وما بعده كلام مستأنف والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا والمعنى لهم المثوبة الحسنى وهي الجنة والذين ٦٩ لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما في حيزه (أولئك لهم سوء الحساب) المناقشة فيه في الحديث من نوقش الحساب عذب (ومأواهم جهنم) ومرجعهم بعد المحاسبة النار (وبئس المهاد) المكان الممهد والمذموم محذوف أي جهنم دخلت همزة الانكار على الفاء في (أفمن يعلم) لانكار أن تقع شبهة ما بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم (أنما أنزل إليك من ربك الحق) فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب وهو المراد بقوله (كمن هو أعمى) كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز (إنما يتذكر أولو الألباب) أي الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا (الذين يوفون بعهد الله) مبتدأ والخبر أولئك لهم عقبى الدار كقوله والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة وقيل هو صفة لأولي الألباب والأول أوجه وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى (ولا ينقضون الميثاق) ما أوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الأرحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان إنما المؤمنون إخوة بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وإفشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر

الذي قسم له على قدر إيمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض يعني يذهب البواطل وهي الأخلاق المذمومة وتبقى الحقائق وهي الأخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الأمثال وقوله تعالى (للذين استجابوا لربهم الحسنى) قيل اللام في للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا لربهم يعني أجابوه إلى ما دعاهم إليه من توحيده والإيمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الأمثال للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى قال ابن عباس وجمهور المفسرين يعني الجنة وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع (والذين لم يستجيبوا له) يعني الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه (لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به) يعني لبذلوا ذلك كله فداء لأنفسهم من عذاب النار يوم القيامة (أولئك) يعني الذين لم يستجيبوا لربهم (لهم سوء الحساب) قال إبراهيم النخعي سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء (ومأواهم) يعني في الآخرة (جهنم وبئس المهاد) يعني وبئس ما مهد لهم في الآخرة وقيل المهاد الفراش يعني وبئس الفراش يفرش لهم في جهنم قوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق) يعني فيؤمن به ويعمل بما فيه (كمن هو أعمى) يعني أعمى البصيرة لا أعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل بن هشام وقيل نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل فالأول هو حمزة أو عمار والثاني هو أبو جهل وحمل الآية على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة (إنما يتذكر أولو الألباب) يعني إنما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والأذكار قوله عز وجل (الذين يوفون بعهد الله) يعني الذي عاهدهم عليه وهو القيام بما أمرهم به وفرضه عليهم وأصل العهد حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال وقيل أراد بالعهد ما أخذه على أولاد آدم حين أخرجهم من صلبه وأخذ عليهم العهد والميثاق (ولا ينقضون الميثاق) بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) قال ابن عباس يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل يعني يصلون بينهم بالإيمان ولا يفرق

بين أحدهم والأكثرون على أن المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن بن عوف قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم
وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته أخرجه أبو داود
والترمذي (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة
بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه صلة
الرحم مبرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم وضده القطع قوله وأن ينسأ له في أثره الأثر هنا
الأجل وسمي الأجل أثرا لأنه تابع للحياة وسابقها ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الأجل
وهو على وجهين أحدهما أن يبارك الله في عمره فكأنما قد زاد فيه والثاني أن يزيد في عمره
زيادة حقيقية والله يفعل ما يشاء (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لا يدخل الجنة قاطع زاد في رواية قال سفيان يعني قاطع رحم (خ) عن عبد الله بن عمرو بن
العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ الواصل من
إذا قطعت رحمه وصلها عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا
من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل ومثراة في المال ومنسأة في الأثر
أخرجه الترمذي وقوله تعالى (ويخشون ربهم) يعني أنهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام
بما أمر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك
عن علم بما يخشى منه (ويخافون سوء الحساب) تقدم معناه (والذين صبروا) يعني على طاعة الله
وقال ابن عباس على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن
المعاصي وقيل حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر
العبادات والطاعات وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصي
من الحسد والحقد والغيبة وغير ذلك من المنهيات ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع
الشهوات والصبر على ما نزل به من الأمراض والمصائب وأصل الصبر حبس النفس عما تقتضيه
العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكرنا وإنما
قيد الصبر بقوله (ابتغاء وجه ربهم) لأن الصبر ينقسم إلى نوعين الأول الصبر المذموم وهو أن
الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما نزل به من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب
على الجزع وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر فليس
ذلك داخلا تحت قوله ابتغاء وجه ربهم لأنه لغير الله تعالى النوع الثاني الصبر المحمود وهو
أن يكون الإنسان صابرا لله تعالى راضيا بما نزل به من الله طالبا في ذلك الصبر ثواب الله محتسبا
أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعني صبروا على ما نزل بهم
تعظيما لله وطلب رضوانه (وأقاموا الصلوة) يعني الصلاة المفروضة وقيل حمله على العموم
أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد بإقامتها الإتمام أركانها وهيئاتها (وأنفقوا مما
رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى
أن يؤديها سرا وإن كان متهما بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها علانية وقيل إن المراد
بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه إلى الإمام وقيل المراد بالسر صدقة
التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله على العموم أولى (ويدرءون بالحسنة السيئة)

(ويخشون ربهم) أي
وعيده كله (ويخافون
سوء الحساب) خصوصا
فيحاسبون أنفسهم قبل
أن يحاسبوا (والذين
صبروا) مطلق فيما يصبر عليه
من المصائب في النفوس
والأموال ومشاق التكاليف
(ابتغاء وجه ربهم) لا ليقال
ما أصبره وأحمله للنوازل
وأوقره عند الزلازل ولا
لئلا يعاب في الجزع
(وأقاموا الصلوة) داوموا
على إقامتها (وأنفقوا مما
رزقناهم) أي من الحلال
وإن كان الحرام رزقا عندنا
(سرا وعلانية) يتناول
النوافل لأنها في السر
أفضل والفرائض لأن
المجاهرة بها أفضل نفيا
للتهمة (ويدرءون بالحسنة
السيئة) ويدفعون بالحسن
من الكلام ما يرد عليهم
من سيء غيرهم أو إذا حرموا
أعطوا وإذا ظلموا عفوا
وإذا قطعوا وصلوا وإذا
أذنبوا تابوا وإذا هربوا أنابوا
وإذا رأوا منكرا أمروا
بتغييره فهذه ثمانية أعمال
تشير إلى ثمانية أبواب الجنة

قال ابن عباس يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء وهو معنى قوله ان الحسنات يذهبن السيآت ويدل على صحة هذا التأويل ما جاء في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال واذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وروى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل الذي يعمل السيآت ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى خرج الى الارض وقال ابن كيسان يدفعون الذنب بالتوبة وقيل لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبي معناه اذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة وقال قتادة ردوا عليهم ردا معروفا وقال الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا قال عبد الله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة الى أبواب الجنة الثمانية قلت انما هي تسع خلال فيحتمل أنه عد خلتين بواحدة ولما ذكر الله عز وجل هذه الخلال من أعمال البر ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى (أولئك) يعني من أتى بهذه الاعمال (لهم عقبى الدار) يعني الجنة والمعنى ان عاقبتهم دار الثواب (جنات عدن) بدل من عقبى الدار يعني بساتين اقامة يقال عدن بالمكان اذا أقام به (يدخلونها) يعني الدار التي تقدم وصفها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) يعني ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به وان لم يعمل بأعمالهم قاله ابن عباس وقال الزجاج ان الانسان لا ينفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس معنى صلح صدق وآمن ووحد وعلى قول الزجاج معناه أصلح في عمله قال الواحدي والصحيح ما قاله ابن عباس لان الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بما يراه في أهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء فدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتي بالاعمال الصالحة ولو كان دخولهم الجنة بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به اذ كل من كان صالحا في عمله فهو يدخل الجنة قال الامام فخر الدين الرازي قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وروي انه لما كبرت سودة أراد النبي صلى الله عليه وسلم طلاقها فسألته أن لا يفعل ووهبت يومها لعائشة فأمسكها رجاء ان تحشر في جملة أزواجه فهو كالدليل على ما ذكرناه وقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) يعني من أبواب الجنة وقيل من أبواب القصور قال ابن عباس يريد به التحية من الله والتحف والهدايا (سلام عليكم) يعني يقولون سلام عليكم وأضمر القول ههنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) يعني يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونها في الدنيا وأدخلكم بما صبرتم في دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة وقيل ان السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعني سلمكم الله بما صبرتم قال مقاتل ان الملائكة يدخلون عليهم في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون سلام عليكم بما صبرتم وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة موقوفا عليه قال ان المؤمن ليكون متكئا على أريكته اذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم الى الباب فاذا بالملك يستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم الى المؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح

(أولئك لهم عقبى الدار) عاقبة الدنيا وهي الجنة لانها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها (جنات عدن) بدل من عقبى الدار (يدخلونها ومن صلح) أي آمن (من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) وقرئ صلح والفتح أفصح ومن في محل الرفع بالعطف على الضمير في يدخلونها وساغ ذلك وان لم يؤكد لان ضمير المفعول صار فاصلا وأجاز الزجاج أن يكون مفعولا معه ووصفهم بالصلاح ليعلم ان الانساب لا تنفع بنفسها والمراد أبوا كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشارات الرضا (سلام عليكم) في موضع الحال اذ المعنى قائلين سلام عليكم أو مسلمين (بما صبرتم) متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أي هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات أو على أمر الله أو بسلام أي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والاول أوجه

(ثم عقبى الدار) الجنات (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول (ويقطعون
ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون ٧٢ في الارض) بالكفر والظلم (أولئك لهم اللعنة) الابعاد من الرحمة (ولهم سوء الدار)
يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا لانه في مقابلة عقبى الدار وأن يراد بالدار جهنم وبسوئها عذابها (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي ويضيق لمن يشاء والمعنى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره (وفرحوا بالحيوة الدنيا) بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وانعامه عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا في الآخرة الا متاع) وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس الا شيأ نزرا يتمتع به كعجالة الراكب وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أي الآية المقترحة (قل ان الله يضل من يشاء) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ويهدي اليه من أناب) ويرشد الى دينه من رجع اليه بقلبه (الذين آمنوا) هم الذين أو محله النصب بدل من من (وتطمئن قلوبهم) تسكن (بذكر الله) على الدوام أو بالقرآن أو بوعده (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ (طوبى لهم) خبره وهو مصدر من طاب كبشرى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن والقراءة في

له فيدخل فيسلم ثم ينصرف (فنعم عقبى الدار) يعني فنعم العقبى عقبى الدار وقيل معناه فنعم عقبى الدار ما أنتم فيه (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الاشقياء وما لهم من العقوبات فقال تعالى والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ونقض العهد ضد الوفاء به وهذا من صفة الكفار لانهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعني ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة (ويفسدون في الارض) يعني بالكفر والمعاصي (أولئك) يعني من هذه صفته (لهم اللعنة) يعني الطرد عن رحمة الله يوم القيامة (ولهم سوء الدار) يعني النار لان منقلب الناس في العرف الى دورهم ومنازلهم فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهي الجنة والكفار لهم سوء الدار وهي النار قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعني يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه من فضله ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه وهذا أمر اقتضته حكمة الله (وفرحوا بالحيوة الدنيا) يعني مشركي مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المشتهى وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا والركون اليها حرام (وما الحيوة الدنيا في الآخرة) يعني بالنسبة الى الآخرة (الا متاع) أي قليل ذاهب قال الكلبي المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها في الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة الدنيا الا انها ذاهبة لا بقاء لها (ويقول الذين كفروا) يعني من أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعني هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى (قل) أي قل لهم يا محمد (ان الله يضل من يشاء) فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وهو قوله (ويهدي اليه من أناب) يعني ويرشد الى دينه والايمان به من أناب بقلبه ورجع اليه بكليته (الذين آمنوا) بدل من قوله من أناب (وتطمئن قلوبهم) يعني وتسكن قلوبهم (بذكر الله) قال مقاتل بالقرآن لانه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون انما تكون بقوة اليقين والاضطراب انما يكون بالشك (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) يعني بذكره تسكن قلوب المؤمنين ويستقر اليقين بها وقال ابن عباس هذا في الحلف وذلك ان المسلم اذا حلف بالله على شئ سكنت قلوب المؤمنين اليه فان قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى في أول سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل استشعار الخوف وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحد قلت انما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة انما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل اذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن اذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه واحسانه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) اختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة أعين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وفي رواية أخرى عنه ان هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أي أصبت خيرا وقال ابراهيم النخعي خير لهم وكرامة وقال الزجاج طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه

هؤلاء

هؤلاء في الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم قال الأزهري تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية وروي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء ان طوبى اسم شجرة في الجنة تظلل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة في الجنة منها غصن لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح وروي عن أبي سعيد الخدري ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طوبى فقال هي شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه قال طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة هكذا ذكر البغوي هذين الحديثين بغير سند وروي بسنده موقوفا عن أبي هريرة قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو ان رجلا ركب فرسا أو حقة أو جذعة ثم دار بأرض تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرما ان الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وان أفنانها لمن وراء سور الجنة وما في الجنة نهر الا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة قال البغوي وبهذا الاسناد عن عبد الله بن المبارك عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتفتق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وعن الثياب (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (ق) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها (ق) وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة زاد البخاري في روايته واقرؤا ان شئتم وظل ممدود وقوله تعالى (وحسن مآب) يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون ويرجعون اليه في الآخرة وهي الجنة قوله عز وجل (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم) يعني كما أرسلناك يا محمد الى هذه الأمة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك الى أمم قد خلت ومضت (لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك) يعني لتقرأ على أمتك الذي أوحينا اليك من القرآن وشرائع الدين (وهم يكفرون بالرحمن) قال قتادة ومقاتل وابن جريج هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما نكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعني أنهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه يا الله يا رحمن فرجع أبو جهل الى المشركين وقال ان محمدا يدعو الهين يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى وروى الضحاك عن

(وحسن مآب) مرجع بالرفع والنصب تلاث على عليها (كذلك أرسلناك) مثل ذلك الارسال أرسلناك ارسالا له شأن وفضل على سائر الارسالات ثم فسر كيف أرسله فقال (في أمة قد خلت من قبلها أمم) أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء (لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك) لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا اليك (وهم يكفرون) وحال هؤلاء انهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء

ابن عباس انها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فقال الله تعالى (قل) أى قل يا محمد ان الرحمن الذى أنكرتم معرفته (هو ربى لا إله الا هو عليه توكلت) يعنى عليه اعتمدت فى أمورى كلها (واليه متاب) يعنى واليه توبتى ورجوعى قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية نزلت فى نفر من مشركى قريش منهم أبو جهل ابن هشام وعبد الله بن أبى أمية جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبى صلى الله عليه وسلم فأتاهم وقيل انه مر بهم وهم جلوس فدعاهم الى الله عز وجل فقال له عبد الله بن أبى أمية ان سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فأذهبها عنا حتى تنفسح فانها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الأشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها الى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع فى يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان أو أحى لنا جدك قصيا أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أو باطل فان عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله من عيسى فأنزل الله هذه الآية ولو أن قرآنا سيرت به الجبال فأذهبت عن وجه الأرض (أو قطعت به الأرض) يعنى شققت فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) فأحياها واختلفوا فى جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف وانما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو أن قرآنا فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر

فأقسم لو شئ أتانا رسوله * سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد لو شئ أتانا رسوله سواك لرددناه وهذا معنى قول قتادة فانه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون جواب لو متقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا به لما سبق فى علمنا فيهم كما قال ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا ثم قال تعالى (بل لله الأمر جميعا) يعنى فى هذه الأشياء وفى غيرها ان شاء فعل وان شاء لم يفعل (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أكثر المفسرين معناه أفلم يعلم قال الكلبى هذه لغة النخع وقيل هى لغة هوازن واختلف أهل اللغة فى هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيدة ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر

أقول لهم بالشعب اذ ييسروننى * ألم تيأسوا انى ابن فارس زهدم

يعنى ألم تعلموا واستدلوا عليه أيضا بقول شاعر آخر

ألم ييأس الأقوام انى أنا ابنه * وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

يعنى ألم يعلم الأقوام قال قطرب يئس بمعنى علم لغة للعرب قالوا ووجه هذه اللغة انه انما وقع اليأس فى مكان العلم لأن علمك بالشئ وتيقنك به ييئسك من غيره وقيل لم يرد ان اليأس فى موضع كلام العرب للعلم وانما قصد ان يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضى ان يحصل العلم بانتفائه فاذا معنى يأسهم يقتضى حصول العلم وقال الكسائى ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف فى القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك ان المشركين لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات اشرأب المسلمون لذلك وأرادوا ان يظهر لهم آية ليجتمعوا على الايمان فقال الله تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء ويعلموا علما يقينا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) يعنى من غير ظهور آية وقال الزجاج القول عندى ان معناه أفلم ييأس

(واليه متاب) مرجعى فيثيبنى على مصابرتكم ومجاهدتكم ويعاقبكم على عتابى وعنادى وما ينالنى منكم (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) عن مقارها (أو قطعت به الأرض) حتى تتصدع وتتزايل قطعا (أو كلم به الموتى) فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية فى التذكير ونهاية فى الانذار والتخويف فجواب لو محذوف أو معناه ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة الآية (بل لله الأمر جميعا) بل لله القدرة على كل شئ وهو قادر على الآيات التى اقترحوها (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم وهو لغة قوم من النخع وقيل انما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لأن اليائس عن الشئ عالم بأنه لا يكون كما استعمل النسيان فى معنى الترك لتضمن ذلك دليله قراءة على رضى الله عنه أفلم يتبين وقيل انما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السنات وهذه والله فرية ما فيها مرية (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا)

الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعا وحاصله أن في معنى الآية قولين أحدهما أن ييأس بمعنى علم والقول الثاني أنه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) يعني من الكفر والأعمال الخبيثة (قارعة) أي نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا أحيانا مرة بالجدب ومرة بالسلب ومرة بالقتل والأسر وقال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (أو تحل) يعني السرايا أو البلية (قريبا من دارهم) وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم (حتى يأتي وعد الله) يعني النصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقيل أراد وعد الله يوم القيامة لأن الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم (إن الله لا يخلف الميعاد) والغرض منه تشجيع قلب النبي صلى الله عليه وسلم وإزالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) وذلك أن كفار مكة لما سألوا هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء أنزل الله هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى أنهم إنما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء وكذلك قد استهزئ برسل من قبلك (فأمليت للذين كفروا) يعني فأمهلتهم وأطلت لهم المدة (ثم أخذتهم) يعني بالعذاب بعد الإمهال فعذبتهم في الدنيا بالقحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار (فكيف كان عقاب) يعني فكيف كان عقابي لهم (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) يعني أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير أو شر ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت ويعاقبها إن أساءت وجوابه محذوف وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزا عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع (وجعلوا لله شركاء) يعني وهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي جعلوها لله شركاء (قل سموهم) يعني له وقيل صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد (أم تنبئونه) يعني أم تخبرون الله (بما لا يعلم في الأرض) يعني أنه لا يعلم أن لنفسه شريكا من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكا للخالق وهو العالم بما في السموات والأرض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفي العلم بأن يكون له شريك (أم بظاهر من القول) يعني أنهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له وقيل معناه بل بباطن من القول لا يعلمون حقيقته (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان الكفر وإنما سمى المكر بالكفر لأن مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر منهم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو الفاعل المختار على الإطلاق لا يقدر أحد أن يتصرف في الوجود إلا بإذنه فتزيين الشيطان إلقاء الوسوسة فقط ولا يقدر على إضلال أحد وهدايته إلا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله ومن يضلل الله فما له من هاد وقوله (وصدوا عن السبيل) قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد المانع لهم هو الله تعالى وقرئ وصدوا بفتح الصاد

ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من كفرهم وسوء أعمالهم (قارعة) داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم (أو تحل) القارعة (قريبا من دارهم) فيفزعون ويتطاير عليهم شررها ويتعدى اليهم شرورها (حتى يأتي وعد الله) أي موتهم أو ٧٥ القيامة أو ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة لأن جيش رسول الله يغير حول مكة ويختطف منهم أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتي وعد الله أي فتح مكة (إن الله لا يخلف الميعاد) أي لا خلف في موعده (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا) الإملاء الإمهال وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به وتسلية له (أفمن هو قائم) احتجاج عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو رقيب (على كل نفس) صالحة أو طالحة (بما كسبت) يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك ثم استأنف فقال (وجعلوا لله شركاء) أي الأصنام (قل سموهم) أي سموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم ثم قال (أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض) على أم المنقطعة أي بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء والمراد نفي أن يكون له شركاء (أم بظاهر من القول) بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله ذلك قولهم بأفواههم ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها (بل زين للذين كفروا مكرهم) كيدهم للإسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) عن سبيل الله بضم الصاد كوفي ويعقوب وبفتحها غيرهم ومعناه وصدوا المسلمين عن سبيل الله

ومعناه انهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أي عن الايمان (ومن يضلل الله فما له من هاد) الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء في قراءة أكثر القراء (لهم عذاب في الحياة الدنيا) يعني بالقتل والاسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) يعني أشد وأغلظ لان المشقة غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع (وما لهم من الله) يعني من عذاب الله (من واق) يعني من مانع يمنعهم من عذابه قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون) أي صفة الجنة التي وعد المتقون (تجري من تحتها الانهار أكلها دائم) لا ينقطع أبدا (وظلها) يعني انه دائم ابدا لا ينقطع وليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول وفي الآية رد على جهم وأصحابه فانهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى وينقطع وفي الآية دليل على ان حركات أهل الجنة لا تنتهي الى سكون دائم كما يقول أبو الهذيل واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على ان الجنة لم تخلق بعد قال ووجه الدليل انها لو كانت مخلوقة لوجب ان تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة لقوله أكلها دائم يعني لا ينقطع قال ولا ينكر أن تكون في السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على ما روي الا ان الذي نذهب اليه ان جنة الخلد لم تخلق بعد والجواب عن هذا ان حاصل دليلهم مركب من آيتين احداهما قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه والاخرى قوله أكلها دائم وظلها فاذا أدخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على ان الجنة مخلوقة منها قوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين وقوله تعالى (تلك عقبى الذين اتقوا) يعني ان عاقبة أهل التقوى هي الجنة (وعقبى الكافرين النار) يعني في الآخرة قوله عز وجل (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك) في المراد بالكتاب هنا قولان أحدهما انه القرآن والذي أوتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انهم يفرحون بما يتجدد من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن (ومن الاحزاب) يعني الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار واليهود والنصارى (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة فان قلت ان الاحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه قلت ان الاحزاب لا ينكرون القرآن بجملته لانه قد ورد فيه آيات دالات على توحيد الله واثبات قدرته وعلمه وحكمته وهم لا ينكرون ذلك أبدا والقول الثاني ان المراد بالكتاب التوراة والانجيل والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه ومن الاحزاب يعني بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه وقيل كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله ابن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن في القرآن فرحوا بذلك فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب يعني مشركي مكة من ينكر بعضه وذلك لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله وهم

عذاب الآخرة أشق) أشد لدوامه (وما لهم من الله من واق) من حافظ من عذابه (مثل الجنة التي وعد المتقون) صفتها التي هي في غرابة المثل وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الجنة أو الخبر (تجري من تحتها الانهار) كما تقول صفة زيد أسمر (أكلها دائم) ثمرها دائم الوجود لا ينقطع (وظلها) دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس (تلك عقبى الذين اتقوا) أي الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعني منتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار والذين آتيناهم الكتاب) يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه ومن النصارى بأرض الحبشة (يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب) أي ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الاشرف وأصحابه والسيد والعاقب واشياعهما (من ينكر بعضه) لانهم كانوا لا ينكرون الاقاصيص وبعض الاحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم وكانوا ينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) هو جواب للمنكرين أي قل إنما أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله ولا أشرك به فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به (إليه أدعوا) خصوصا لا أدعو إلى غيره (وإليه) لا إلى غيره (مآب) مرجعي وأنتم تقولون مثل ٧٢ ذلك فلا معنى لإنكاركم (وكذلك أنزلناه) ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأمورا فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء (حكما عربيا) حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور يشاركهم فيها فقيل (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم) أي بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة (ما لك من الله من ولي ولا واق) أي لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الثبات بمكان وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) أي ليس في وسعه إتيان الآيات على ما يقترحه قومه وإنما ذلك إلى الله (لكل أجل كتاب) لكل وقت حكم يكتب على العباد أي يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته (يمحو الله ما يشاء) ينسخ ما يشاء نسخه (ويثبت) بدله ما يشاء أو يتركه غير منسوخ أو يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء ويثبت غيره أو يمحو كفر التائبين ويثبت إيمانهم أو يميت من حان أجله وعكسه ويثبت مدني وشامي وحمزة وعلي

يكفرون بالرحمن قل هو ربي وإنما قال ومن الأحزاب من ينكر بعضه لأنهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمن (قل) أي قل يا محمد (إنما أمرت أن أعبد الله) يعني وحده (ولا أشرك به) شيئا (إليه أدعو) أي إلى الله وإلى الإيمان به أدعو الناس (وإليه مآب) يعني مرجعي يوم القيامة (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب وهو القرآن عربيا بلسانك ولسان قومك وإنما سمي القرآن حكما لأن فيه جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام والنقض والإبرام فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وقيل إن الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكما لذلك المعنى (ولئن اتبعت أهواءهم) قال جمهور المفسرين إن المشركين دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم في ذلك وقال ابن السائب المراد به متابعة آبائهم في الصلاة لبيت المقدس (بعد ما جاءك من العلم) يعني بأنك على الحق وأن قبلتك الكعبة هي الحق وقيل ظاهر الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره وقيل هو حث للنبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى مرتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى (ما لك من الله من ولي ولا واق) يعني من ناصر ولا حافظ قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روي أن اليهود وقيل المشركين قالوا إن هذا الرجل يعني النبي صلى الله عليه وسلم ليس له همة إلا في النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم أنه رسول الله لكان مشتغلا بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة وعما عابوه به بقوله عز وجل ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد (وجعلنا لهم أزواجا وذرية) فإنه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لأبيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضا في نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك ويجعلونه قادحا في نبوتك والمعنى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) هذا جواب لعبد الله بن أبي أمية وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات واقترحوا عليه أن يريهم المعجزات وتقرير هذا الجواب أن المعجزة الواحدة كافية في إثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر فما لهم أن يقترحوا عليه شيئا وإتيان الرسول بالمعجزات ليس إليه بل هو مفوض إلى مشيئة الله عز وجل فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها (لكل أجل كتاب) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطؤا ذلك وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله عز وجل أن لكل قضاء قضاه كتابا قد كتبه فيه ووقتا يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر والمعنى أن لكل أجل أجله الله كتابا قد أثبته فيه وقيل في الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى أن الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه (يمحو الله ما يشاء ويثبت) وذلك أنهم لما اعترضوا على

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غدا وما يقول ذلك الا انه يقوله من تلقاء نفسه أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت قال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ولا يبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء فيكتب الملك ثم يقول يارب أجله فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على أمر ولا ينقص أخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فان قلت هذا الحديث والذي قبله صريح بان الآجال والارزاق مقدرة وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه في الازل فيستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل ان ينقلب السعيد شقيا والشقي سعيدا وقد صح في فضل صلة الرحم أن صلة الرحم تزيد في العمر فكيف الجمع بين هذه الاحاديث وبين قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت قلت قد تقرر بالدلائل القطعية ان الله عالم بالآجال والارزاق وغيرها وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فاذا علم الله أن زيدا يموت في وقت معين استحال ان يموت قبله أو بعده وهو قوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فدل ذلك على ان الآجال لا تزيد ولا تنقص وأجاب العلماء عما ورد في الحديث في فضل صلة الرحم من أنها تزيد في العمر بأجوبة الصحيح منها أن هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك والجواب الثاني منها انها بالنسبة الى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ ان عمر زيد مثلا ستون سنة الا أن يصل رحمه فان وصلها زيد له أربعون سنة وقد علم الله في الازل ما سيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت أي بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة وأما انقلاب الشقي سعيدا والسعيد شقيا فيتصور في الظاهر أيضا لان الكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة الى السعادة وكذا العاصي ونحوه وقد يتوب فينقلب من الشقاوة الى السعادة وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة الى الشقاوة والاصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الازلي الذي لا يتغير ولا يتبدل والله أعلم وأصل المراد ذهاب أثر الكتابة وضده الاثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة في كل شيء يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله ما يشاء في الرزق والاجل وكذا القول في السعادة والشقاوة والايمان بالله والكفر ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فانهما قالا يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والاجل ويثبت ما يشاء وروى

عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم ان كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني
فيها وان كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني منها وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو
ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروى مثله عن ابن مسعود وقد ورد في بعض الآثار ان
الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد الى ثلاثين سنة هكذا ذكره البغوي بغير
سند وروى بسنده عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل الله تبارك وتعالى
في ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في الساعة الاولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد
غيره فيمحو مايشاء ويثبت ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص في بعض الاشياء
دون بعض فقال المراد بالمحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر عوضا عن الحكم
المتقدم وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله مايشاء من ديوان
الحفظة مما ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قول القائل أكلت شربت دخلت خرجت ونحو ذلك
من الكلام وهو صادق فيه ويثبت مافيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك وقال الكلبي يكتب
القول كله حتى اذا كان يوم الخميس طرح منه شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب وقال ابن عباس هو
الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذي يمحو والذي يثبت هو
الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو في طاعته فهو الذي يثبت وقال الحسن يمحو الله مايشاء يعني
من جاء أجله فيذهب به ويثبت من لم يجئ أجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله مايشاء من ذنوب
عباده فيغفرها ويثبت مايشاء منها فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله مايشاء من الذنوب بالتوبة
ويثبت بدل الذنوب حسنات وقال السدي يمحو الله مايشاء يعني القمر ويثبت الشمس وقال
الربيع هذا في الارواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته
ورده الى صاحبه وقيل ان الله يثبت في أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما
آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل هو في المحن والمصائب فهي
مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة وقيل ان الله يمحو مايشاء ويثبت مايشاء لا اعتراض
لاحد عليه يفعل مايشاء ويحكم مايريد فان قلت مذهب أهل السنة ان المقادير سابقة وقد جف
القلم بما هو كائن الى يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو والاثبات قلت المحو والاثبات مما
جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيأ ولا يثبت شيأ الا ماسبق به علمه في الازل وعليه يترتب
القضاء والقدر ﴿مسئلة﴾ استدلت الرافضة على مذهبهم في البداء بهذه الآية قالوا ان
البداء جائز على الله وهو أن يعتقد شيأ ثم يظهر له خلاف مااعتقده وتمسكوا بقوله يمحو الله مايشاء
ويثبت والجواب عن هذه المسئلة أن هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لان علم الله قديم أزلي وهو
من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالا كذا ذكره
الامام فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآية وقوله تعالى (وعنده أم الكتاب) يعني أصل
الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل وسمي اللوح المحفوظ أم الكتاب لان جميع
الاشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب المنزلة وقيل ان العلوم كلها تنسب اليه وتتولد منه قال ابن
عباس هما كتابان كتاب يمحو الله منه مايشاء ويثبت مايشاء وأم الكتاب الذي لا يغير شيء منها
وروى عطية عن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان
من ياقوتة لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل
ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ماهو خالق وما خلقه وماهم عاملون (واما نرينك)

(وعنده أم الكتاب) أي
أصل كل كتاب وهو
اللوح المحفوظ لان كل كائن
مكتوب فيه (واما نرينك)

يعني يا محمد (بعض الذي نعدهم) يعني من العذاب (أو نتوفينك) يعني قبل أن نريك ذلك (فإنما عليك البلاغ) يعني ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ (وعلينا الحساب) يعني وعلينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم قوله عز وجل (أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) يعني أولم ير كفار مكة الذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم الآيات أنا نأتي الأرض يعني أرض الشرك ننقصها من أطرافها قال أكثر المفسرين المراد منه فتح دار الشرك فإن ما زاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك والمعنى أولم يروا أنا نأتي الأرض فنفتحها لمحمد صلى الله عليه وسلم أرضا بعد أرض حوالي أرضهم أفلا يعتبرون فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين وذلك أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار قهرا وعنوة كان ذلك نقصانا في ديارهم وزيادة في دار المسلمين وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه وينجز له ما وعده وقيل هو خراب الأرض والمعنى أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك وقال مجاهد هو خراب الأرض وقبض أهلها وعن عكرمة والشعبي نحوه وهذا القول قريب من الأول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس وفي رواية ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا قال الحسن قال عبد الله بن مسعود موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار وقال عبد الله أيضا عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال سليمان لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر فإذا هلك الأول ولم يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم وعلى هذا القول فالمراد بالأطراف العلماء والأشراف من الناس حكى الجوهري عن ثعلب قال الأطراف الأشراف واستدل الواحدي لهذه اللغة بقول الفرزدق

واسأل بنا وبكم إذا وردت منى ... أطراف كل قبيلة من يتبع

قال يريد أشراف كل قبيلة قال الواحدي والأصح على القول الأول أولى لأن هذا وإن صح فلا يليق بهذا الموضع قال الإمام فخر الدين الرازي ويمكن أن يقال إن هذا الوجه لا يليق بهذا الموضع وتقديره أن يقال أولم يروا أنا نحدث في الدنيا من الاختلافات خرابا بعد عمارة وموتا بعد حياة وذلا بعد عز ونقصا بعد كمال وإذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا عزيزين ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه أيضا [illegible] وقوله تعالى (والله يحكم لا معقب لحكمه) يعني لا راد لحكمه ولا ناقض لقضائه والمعقب هو الذي يعقب غيره بالرد والإبطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى والله يحكم نافذا حكمه خاليا من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب حكمه أحد بتغيير ولا نقض (وهو سريع الحساب) قال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعني حسابه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب إليهم وقد تقدم بسط الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا (وقد مكر الذين من قبلهم) يعني من قبل مشركي

أو نتوفينك قبل ذلك (فإنما عليك البلاغ) فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب (وعلينا الحساب) وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم (أولم يروا أنا نأتي الأرض) أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة والمعنى عليك بالبلاغ الذي حملته ولا تهتم بما وراءه فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من النصرة والظفر (والله يحكم لا معقب لحكمه) لا راد لحكمه والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يعقبه أي يقفيه بالرد والإبطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس ومحل لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسرا

(وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا (وقد مكر الذين من قبلهم) أي كفار الأمم الخالية بأنبيائهم والمكر إرادة المكروه في خفية ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال [illegible]

(فلله المكر جميعا) ثم فسر ذلك بقوله (يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) يعني العاقبة المحمودة لأن

مكة من الامم الماضية الذين مكروا بأنبيائهم والمكر ايصال المكروه الى الانسان من حيث
لا يشعر مثل ما مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى (فلله المكر جميعا) يعني عند
الله جزاء مكرهم وقال الواحدي يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وارادته
فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر والمعنى ان المكر لا يضر الا باذنه
وارادته وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم كأنه قيل قد فعل من كان قبلهم
من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم فلم يضروا الا من أراد الله ضره واذا كان الامر
كذلك وجب أن لا يكون الخوف الا من الله لا من أحد من المخلوقين (يعلم ما تكسب كل نفس)
يعني ان جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله وهو خالقها وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع
واذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع
واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله ولا يحصل ضرر الا باذنه
وارادته وفيه وعيد للكفار الماكرين (وسيعلم الكافر) على التوحيد وقرئ وسيعلم الكفار على
الجمع قال ابن عباس يعني أبا جهل وقيل أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة (لمن عقبى
الدار) والمعنى أنهم وان كانوا جهالا بالعواقب فسيعلمون ان العاقبة المحمودة للمؤمنين ولهم
العاقبة المذمومة في الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى (ويقول
الذين كفروا لست مرسلا) لما أنكر الكفار كون محمد رسولا من عند الله أمره الله بقوله (قل) أي
قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك (كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) المراد بشهادة الله
على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات
الدالة على صدقه وكونه نبيا مرسلا من عند الله (ومن عنده علم الكتاب) يعني ومن عنده علم
الكتاب أيضا يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها واختلفوا في الذي عنده علم الكتاب من هو فروى
العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى والمعنى ان كل من كان عالما من اليهود
بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم ان محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من الله لما يجد من
الدلائل الدالة على نبوته فيهم ما شهد بذلك من شهد وأنكره من أنكره منهم وقيل انهم مؤمنو
أهل الكتاب يشهدون أيضا على نبوته قال قتادة هو عبد الله بن سلام وأنكر الشعبي هذا وقال
هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن
عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام فقال كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية
وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وعلى هذا القول يكون المعنى كفى
بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ الا هو شهيدا بيني وبينكم قال
الزجاج الاشبه ان الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره وهذا قول مشكل لان عطف الصفة على
الموصوف وان كان جائزا الا أنه خلاف الاصل فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد بهذا
زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال
وهي قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه
القراءة قوله وعلمناه من لدنا علما وقيل معناه ان من علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر
وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علم
بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

من علم ما تكسب كل نفس
وأعد لها جزاءها فهو المكر
كله لانه يأتيهم من حيث
لا يعلمون وهم في غفلة عما
يراد بهم الكافر على ارادة
الجنس حجازي وأبو عمرو
(ويقول الذين كفروا لست
مرسلا) المراد بهم كعب
ابن الاشرف ورؤساء
اليهود قالوا لست مرسلا
ولهذا قال عطاء هي مكية
الا هذه الآية (قل كفى
بالله شهيدا بيني وبينكم)
بما أظهر من الادلة على
رسالتي والباء دخلت على
الفاعل وشهيدا تمييز (ومن
عنده علم الكتاب) قيل هو
الله عز وجل والكتاب
اللوح المحفوظ دليله قراءة
من قرأ ومن عنده علم
الكتاب أي ومن لدنه علم
الكتاب لان علم من علمه من
فضله ولطفه وقيل ومن
هو من علماء أهل الكتاب
الذين أسلموا لانهم يشهدون
بنعته في كتبهم وقال ابن
سلام في نزلت هذه الآية
وقيل هو جبريل عليه
السلام ومن في موضع الجر
بالعطف على لفظ الله أو في
موضع الرفع بالعطف على
محل الجار والمجرور اذ
التقدير كفى الله وعلم الكتاب
يرتفع بالمقدر في الظرف
فيكون فاعلا لان الظرف
صلة لمن ومن هنا بمعنى الذي

١١ جازله ث والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب وهذا لان الظرف اذا وقع صلة يعمل عمل الفعل
نحو مررت بالذي في الدار أخوه فأخوه فاعل كما تقول بالذي استقر في الدار أخوه وفي القراءة بكسر ميم من يرتفع العلم بالابتداء

﴿سورة إبراهيم عليه السلام مكية إلا ... اثنتان وخمسون آية﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الر) الله أعلم بمراده بذلك هذا (كتاب) هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب يعني السورة والجملة التي هي (أنزلناه إليك) في موضع الرفع صفة للنكرة (لتخرج الناس) بدعائك إياهم (من الظلمات إلى النور) من الضلالة إلى الهدى (بإذن ربهم) بتيسيره وتسهيله مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنحهم من التوفيق (إلى صراط) بدل من إلى النور بتكرير العامل (العزيز) الغالب بالانتقام (الحميد) المحمود على الإنعام (الله) بالرفع مدني وشامي على هو الله وبالجر غيرهما على أنه عطف بيان للعزيز الحميد (الذي له ما في السموات وما في الأرض) خلقا وملكا ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو اسم معنى الهلاك فقال (وويل للكافرين من عذاب شديد) وهو مبتدأ وخبر وصفة (الذين يستحبون) يختارون ويؤثرون (الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) عن دينه (ويبغونها عوجا) يطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجا والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الذين مبتدأ خبره (أولئك في ضلال بعيد) عن الحق ووصف الضلال بالبعد من الإسناد المجازي والبعد في الحقيقة للضال لأنه هو الذي يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده أو مجرور صفة للكافرين أو منصوب على الذم أو مرفوع على أعني الذين أو هم الذين (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) لا متكلما بلغتهم (ليبين لهم) ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون لم نفهم ما خوطبنا به فإن قلت إن رسولنا صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس جميعا بقوله قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة قلت لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فبقي أن ينزل بلسان واحد وكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم أقرب إليه ولأنه أبعد من التحريف والتبديل

﴿تفسير سورة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام﴾

وهي مكية سوى آيتين وهما قوله سبحانه وتعالى ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا إلى آخر الآيتين وهي إحدى وقيل اثنتان وخمسون آية وثمانمائة وإحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (الر كتاب أنزلناه إليك) يعني هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) يعني بهذا القرآن والمراد من الظلمات ظلمات الكفر والضلالة والجهل والمراد بالنور الإيمان قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله وفيه دليل على أن طرق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس إلا واحدا لأنه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات إلى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الكفر والجهل كثيرة وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا واحدا (بإذن ربهم) يعني بأمر ربهم وقيل بعلم ربهم (إلى صراط العزيز الحميد) يعني إلى دين الإسلام وهو دينه الذي أمر به عباده والعزيز هو الغالب الذي لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد (الله) قرئ بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرئ بالجر نعتا للعزيز الحميد وقال أبو عمرو قراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد (الذي له ما في السموات وما في الأرض) يعني ملكا وما فيهما عبيده (وويل للكافرين) يعني الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الأرض وعبدوا من لا يملك شيئا البتة بل هو مملوك لله لأنه من جملة خلق الله تعالى ومن جملة ما في السموات وما في الأرض (من عذاب شديد) يعني معد لهم في الآخرة ثم وصفهم فقال تعالى (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) يعني يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة (ويصدون عن سبيل الله) أي ويمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها عوجا) يعني ويطلبونها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل وقيل معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء في ويبغونها راجعة إلى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل إلى الحرام (أولئك) يعني من هذه صفته (في ضلال بعيد) يعني عن الحق وقيل يجوز أن يراد في ضلال بعيد ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال يبعد عن الطريق قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) يعني بلغة قومه ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه وهو قوله تعالى (ليبين لهم) يعني ما يأتون وما يذرون فإن قلت لم يبعث رسول الله

صلى الله عليه وسلم الى العرب وحدهم وانما بعث الى الناس جميعا بدليل قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل هو مبعوث الى الثقلين الجن والانس وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضى بظاهره أنه مبعوث الى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع قلت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثا الى جميع الخلق لانهم تبع للعرب ثم انه يبعث الرسل الى الاطراف فيترجمون لهم بألسنتهم ويدعونهم الى الله تعالى بلغاتهم وقيل يحتمل انه أراد بقومه أهل بلده وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم فى عموم الدعوى وقيل ان الرسول اذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم فى ذلك فاذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج الى ذلك ممن هو من غير أهله واذا كان الكتاب بلسان واحد مع اختلاف الامم وتباين اللغات كان ذلك أبلغ فى اجتهاد المجتهدين فى تعلم معانيه وتفهم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) يعنى ان الرسول ليس عليه الا التبليغ والتبيين والله هو الهادى المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) يعنى الذى يغلب ولا يغلب (الحكيم) فى جميع أفعاله قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المراد بالآيات المعجزات التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) أى أن أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر الى نور الايمان (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد وقتادة يعنى بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الامم السالفة يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم وانما أراد بما كان فى أيام الله من النعمة والنقمة فاجتزأ بذكر الايام عن ذلك لان ذلك كان معلوما عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد ان يذكرهم بما أنعم الله عليهم به من النعمة وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الايام والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله وقيل بأيام الله فى حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) الصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر وانما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وان كان فيها عبرة للكافة لانهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله وهدى للمتقين ولان الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام ان يذكر قومه بأيام الله امتثل ذلك الامر وذكرهم بأيام الله فقال اذكروا نعمة الله عليكم (اذ أنجاكم من آل فرعون) اى اذكروا انعام الله عليكم فى ذلك الوقت الذى أنجاكم فيه من آل فرعون (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم) فان قلت قال فى سورة البقرة يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق قلت انما حذفت الواو فى سورة البقرة لان قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءنى القوم زيد وعمرو اذا أردت تفسير

(فيضل الله من يشاء) من آثر سبب الضلالة (ويهدى من يشاء) من آثر سبب الاهتداء (وهو العزيز) فلا يغالب على مشيئته (الحكيم) فلا يخذل الا أهل الخذلان (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع (أن أخرج قومك) بان أخرج أو أى أخرج لان الارسال فيه معنى القول كانه قيل أرسلناه وقلنا له أخرج قومك (من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الامم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها أو بأيام الانعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر (ان فى ذلك لآيات لكل صبار) على البلايا (شكور) على العطايا كانه قال لكل مؤمن اذ الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) اذ ظرف للنعمة بمعنى الانعام أى انعامه عليكم ذلك الوقت أو بدل اشتمال من نعمة الله أى اذكروا وقت انجائكم (ويذبحون أبناءكم) ذكر فى البقرة يذبحون وفى الاعراف يقتلون بلا واو وهنا مع الواو والحاصل ان التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث انه زاد على جنس العذاب كانه جنس آخر

(و) يستحيون نساءكم (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) الاشارة الى العذاب والبلاء المحنة أو الى الانجاء والبلاء النعمة ونبلوكم بالشر
والخير فتنة (واذ تأذن ربكم) أي آذن ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل واذ
آذن ربكم ايذانا بليغا ينتفي عنده الشكوك والشبه وهو من جملة ما قال موسى لقومه وانتصابه بالعطف على نعمة
الله عليكم كأنه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يا بني اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء وغيرها (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقيل اذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهبت للمزيد وقال ابن عباس رضي الله عنهما لئن شكرتم بالجد في الطاعة لأزيدنكم بالجد في المثوبة (ولئن كفرتم) ما أنعمت به عليكم (ان عذابي لشديد) لمن كفر نعمتي أما في الدنيا فسلب النعمة وأما في العقبى فتوالي النقم (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يا بني اسرائيل (ومن في الارض جميعا) والناس كلهم (فان الله لغني) عن شكركم (حميد) وان لم يحمده الحامدون وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) من كلام موسى لقومه أو ابتداء خطاب
لأهل عصر محمد عليه السلام (والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله) جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضا كذب
أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولا يعلمهم الا الله اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله وعن ابن
عباس رضي الله عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وروي أنه عليه السلام قال عند نزول هذه الآية كذب النسابون

القوم وأما دخول الواو هنا في هذه السورة فلأن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب
غير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لا أنه تفسير للعذاب
(ويستحيون نساءكم) يعني يتركونهن أحياء (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) فان قلت كيف
كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم قلت تمكينهم وامهالهم حتى فعلوا ما فعلوا بلاء من الله ووجه
آخر وهو أن ذلكم اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم لأن البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة
جميعا ومنه قوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا الوجه أولى لأنه موافق لأول الآية وهو قوله
اذكروا نعمة الله عليكم فان قلت هب أن تذبيح الابناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه
بلاء قلت كانوا يستخدمونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك بلاء (واذ تأذن ربكم)
هذا من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم
ومعنى تأذن آذن أي أعلم ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل وآذن ربكم ايذانا
بليغا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يعني يا بني
اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح
(لأزيدنكم) يعني نعمة الى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود
وقيل لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب وأصل الشكر تصور النعمة واظهارها وحقيقته
الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة وههنا دقيقة وهي أن
العبد اذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عز وجل عليه وأنواع فضله وكرمه واحسانه اليه اشتغل
بشكر تلك النعمة وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله عز وجل وهو مقام شريف
ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات الى النعم وهذا مقام الصديقين نسأل
الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه وانعامه وقوله (ولئن
كفرتم) المراد بالكفر هنا كفران النعمة وهو جحودها لأنه مذكور في مقابلة الشكر (ان
عذابي لشديد) يعني ان كفر نعمتي ولا يشكرها (وقال موسى ان تكفروا) يعني يا بني اسرائيل
(أنتم ومن في الارض جميعا) يعني والناس كلهم جميعا فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها
الخير كله (فان الله لغني) يعني عن جميع خلقه (حميد) أي محمود في جميع أفعاله لأنه متفضل وعادل
(ألم يأتكم نبأ) يعني خبر (الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) قال بعض المفسرين يحتمل أن
يكون هذا خطابا من موسى لقومه والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم بمثل هلاك
من تقدم من الامم ويحتمل أن يكون خطابا من الله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام
لقومه والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بذلك أمر القرون الماضية والامم
الخالية والمقصود منه حصول العبرة بأحوال من تقدم وهلاكهم (والذين من بعدهم) يعني
من بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) يعني لا يعلم كنه مقاديرهم وعددهم الا الله لأن علمه
محيط بكل شيء ألا يعلم من خلق وقيل المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله أقوام وأمم
ما بلغنا خبرهم أصلا ومنه قوله وقرونا بين ذلك كثيرا وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول

كذب النسابون يعني انهم يدعون علم النسب الى آدم وقد نفى الله علم ذلك عن العباد وعن عبد الله بن عباس انه قال بين ابراهيم وعدنان ثلاثون قرنا لا يعلمهم الا الله وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الانسان نفسه أبا أبا الى آدم لانه لا يعلم أولئك الآباء الا الله وقوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات (فردوا أيديهم في أفواههم) وفي معنى الايدي والافواه قولان أحدهما ان المراد بهما اليدان الجارحتان المعلومتان ثم في معنى ذلك وجوه قال ابن مسعود عضوا أيديهم غيظا وقال ابن عباس لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم الى أفواههم وقال مجاهد وقتادة كذبوا الرسل وردوا ما جاؤا به يقال رددت قول فلان في فيه أي كذبته وقال الكلبي يعني ان الامم ردوا أيديهم الى أفواه أنفسهم يعني انهم وضعوا الايدي على الافواه اشارة منهم الى الرسل ان اسكتوا وقال مقاتل ردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل ان الامم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل الذي غلبه الضحك القول الثاني ان المراد بالايدي والافواه غير الجارحتين فقيل المراد بالايدي النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندي يد أي نعمة والمراد بالافواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بأفواههم وردوا قولهم وقيل انهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده الى فيه اذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لانهم قد أجابوا بالتكذيب وهو أن الامم ردوا على رسلهم (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) يعني انا كفرنا بما زعمتم ان الله أرسلكم به لانهم لم يقروا بأنهم أرسلوا اليهم لانهم لو أقروا بأن الرسل أرسلوا اليهم لكانوا مؤمنين (وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) يعني يوجب الريبة أو يوقع في الريبة والتهمة والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن الى الامر الذي يشك فيه فان قلت انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر أو داخل فيه قلت انهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا ان لم ندع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في ذلك (قالت رسلهم) يعني مجيبين لاممهم (أفي الله شك) يعني هل تشكون في الله وهو استفهام انكار ونفي لما اعتقدوه (فاطر السموات والارض) يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات والارض وخالق جميع ما فيهما (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) يعني ليغفر لكم ذنوبكم اذا آمنتم وصدقتم وحرف من صلة وقيل انها أصل ليست بصلة وعلى هذا انه يغفر لهم ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد (ويؤخركم الى أجل مسمى) يعني الى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب (قالوا) يعني الامم مجيبين للرسل (ان أنتم) يعني ما أنتم (الا بشر مثلنا) يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا بسلطان مبين) يعني بحجة بينة واضحة على صحة دعواكم (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) يعني ان الكفار لما قالوا لرسلهم ان أنتم الا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم هب ان الامر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لا ننكر ذلك (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من

(جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فردوا أيديهم في أفواههم) الضميران يعودان الى الكفرة أي أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجبا أو عضوا عليها تغيظا أو الثاني يعود الى الانبياء أي رد القوم أيديهم في أفواه الرسل ٨٥ كيلا يتكلموا بما أرسلوا به (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد (مريب) موقع في الريبة (قالت رسلهم أفي الله شك) أدخلت همزة الانكار على الظرف لان الكلام ليس في الشك انما هو في المشكوك فيه وانه لا يحتمل الشك لظهور الادلة وهو جواب قولهم وانا لفي شك (فاطر السموات والارض يدعوكم) الى الايمان (ليغفر لكم من ذنوبكم) اذا آمنتم ولم يجئ مع الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين هل أدلكم على تجارة الى أن قال يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت قد سماه وبين مقداره (قالوا) أي القوم (ان أنتم) ما أنتم (الا بشر مثلنا) لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني الاصنام (فأتونا بسلطان مبين) بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وانما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتا ولجاجا (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) تسليم لقولهم انهم بشر مثلهم (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالايمان والنبوة كما من علينا

(وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) جواب لقولهم فأتونا بسلطان مبين والمعنى أن الاتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس الينا ولا في استطاعتنا وانما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا كأنهم قالوا ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وايذائكم ألا ترى الى قوله (وما لنا أن لا نتوكل على الله) ومعناه وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله ٨٦ الذي يجب عليه سلوكه في الدين قال أبو تراب التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء (ولنصبرن على ما آذيتمونا) جواب قسم مضمر أي حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أي فليثبت المتوكلون على توكلهم حتى لا يكون تكرارا (وقال الذين كفروا لرسلهم) سكن السين أبو عمرو (لنخرجنكم من أرضنا) من ديارنا (أو لتعودن في ملتنا) أي ليكونن أحد الامرين اخراجكم أو عودكم وحلفوا على ذلك والعود بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) القول مضمر أو أجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض من بعدهم) أي أرض الظالمين وديارهم في الحديث من آذى جاره ورثه الله داره (ذلك) الاهلاك والاسكان اي ذلك الامر حق (لمن خاف مقامي) موقفي وهو موقف الحساب أو المقام مقحم أو خاف قيامي عليه بالعلم كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى ان ذلك حق للمتقين (وخاف وعيد) عذابي وبالياء يعقوب (واستفتحوا) واستنصروا الله على أعدائهم وهو معطوف على أوحى اليهم (وخاب كل جبار) وخسر كل متكبر بطر (عنيد) مجانب للحق ومعناه فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهو قومهم وقيل الضمير للكفار ومعناه واستفتح الكفار على الرسل ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه ومحاسبه

يشاء من عباده بهذا المنصب العظيم الشريف (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) يعني وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا الا باذن الله لنا في ذلك (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعني في دفع شرور أعدائهم عنهم (وما لنا أن لا نتوكل على الله) يعني ان الانبياء قالوا أيضا قد عرفنا انه لا يصيبنا شيء الا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم عنا (وقد هدانا سبلنا) يعني وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد (ولنصبرن) اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن (على ما آذيتمونا) يعني به من قول أو فعل (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قلت كيف كرر الامر بالتوكل وهل من فرق بين التوكلين قلت نعم التوكل الاول فيه اشارة الى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه اشارة الى السعي في التثبيت على ما استحدثوا من توكلهم وابقائه وادامته فحصل الفرق بين التوكلين قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) يعني ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا واما عودكم في ملتنا فان قلت هذا يوهم بظاهره انهم كانوا على ملتهم في أول الامر حتى يعودوا فيها قلت معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب وفيه وجه آخر وهو ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم فلما أرسلوا اليهم أظهروا مخالفتهم ودعوهم الى الله فقالوا لهم لتعودن في ملتنا ظنا منهم انهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم واجماع الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره (فأوحى اليهم ربهم) يعني ان الله تعالى أوحى الى رسله وأنبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات (لنهلكن الظالمين) يعني ان عاقبة أمرهم الى الهلاك فلا تخافوهم (ولنسكننكم الارض من بعدهم) يعني من بعد هلاكهم (ذلك) يعني ذلك الاسكان (لمن خاف مقامي) يعني خاف مقامه بين يدي يوم القيامة فأضاف قيام العبد الى نفسه لان العرب قد تضيف أفعالها الى أنفسها كقولهم ندمت على ضربي اياك وندمت على ضربك مثله (وخاف وعيد) أي وخاف عذابي قوله عز وجل (واستفتحوا) يعني واستنصروا قال ابن عباس يعني الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة واستفتح الرسل على أممهم وذلك انهم لما أيسوا من ايمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب (وخاب) يعني وخسر وقيل هلك (كل جبار عنيد) والجبار في صفة الانسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الانسان وقيل الجبار الذي لا يرى فوقه أحدا وقيل الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق

وجاء أنبه قاله مجاهد وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله وقيل العنيد هو المعجب بما عنده وقيل العنيد الذي يعاند ويخالف (من ورائه جهنم) يعني من أمامه وهو صائر إليها قال أبو عبيدة هو من الأضداد يعني أنه يقال وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الأخفش هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يعني أنه سيأتيك (ويسقى) يعني في جهنم (من ماء صديد) وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب القرظي هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله (يتجرعه) أي يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أي لا يقدر على ابتلاعه يقال ساغ الشراب في الحلق إذا سهل انحداره فيه قال بعض المفسرين أن يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف دخلت يكاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه أي يسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول ما كدت أقوم أي قمت بعد إبطاء فعلى هذا كاد على أصلها وليست بصلة وقال ابن عباس معناه لا يجيزه وقيل معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله وقعت فروة رأسه أي جلدة رأسه وإنما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها وقوله تعالى (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) يعني أن الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه وقال إبراهيم التيمي حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت فيستريح وقال ابن جريج تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة (ومن ورائه) يعني أمامه (عذاب غليظ) أي شديد قيل هو الخلود في النار قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة وقوله أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد وقال المفسرون والفراء مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتمادا على ما ذكره بعد المضاف إليه وقيل يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك في صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد احراقه بالنار اشتدت به الريح يعني فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئا في يوم عاصف وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح لأن الريح تكون فيه كقولك يوم بارد وحار وليلة ماطرة لأن البرد والحر والمطر توجد فيهما وقيل معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال

(من ورائه) من بين يديه (جهنم) وهذا وصف حاله وهو في الدنيا لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف (ويسقى) معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى (من ماء صديد) ما يسيل من جلود أهل النار وصديد عطف بيان لماء لأنه مبهم فبين بقوله صديد (يتجرعه) يشربه جرعة جرعة (ولا يكاد يسيغه) ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة كقوله لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (ويأتيه الموت من كل مكان) أي أسباب الموت من كل جهة أو من كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكا (وما هو بميت) لأنه لو مات لاستراح (ومن ورائه) ومن بين يديه (عذاب غليظ) أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله وأغلظ وعن الفضيل هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد (مثل الذين) مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم مثل الذين (كفروا بربهم) والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله (أعمالهم كرماد) جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد (اشتدت به الريح) الرياح مدني (في يوم عاصف) جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح كقولك يوم ماطر وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأسرى وعقر الإبل للأضياف وغير ذلك شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس وهو الإيمان بالله تعالى برماد طيرته الريح العاصف

لا يقدرون) يوم القيامة (مما كسبوا) من أعمالهم (على شيء) أي لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء (ذلك هو الضلال البعيد) إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب (ألم تر) ألم تعلم الخطاب لكل أحد (أن الله خلق السموات والأرض) خالق حمزة وعلي (بالحق) بالحكمة والأمر العظيم ولم يخلقها عبثاً (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم إعلاماً بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم (وما ذلك على الله بعزيز) بممتنع (وبرزوا لله جميعاً) ويبرزون يوم القيامة وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد ونحوه ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب النار وغير ذلك ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه (فقال الضعفاء) في الرأي وهم السفلة والأتباع وكتب الضعفوا بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو (للذين استكبروا) وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء واتباعهم (إنا كنا لكم تبعاً) تابعين جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب أو ذوي تبع والتبع الاتباع يقال تبعه تبعاً (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب علما الله من شيء) فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه ومن الأولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله أو هما للتبعيض أي فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخاً لهم وعتاباً على استتباعهم لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم (قالوا) لهم مجيبين معتذرين (لو هدانا الله لهديناكم) أي لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه أي لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة (سواء

الكفار التي لم ينتفعوا بها ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منه شيء وكذلك أعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شيء ثم اختلفوا في هذه الأعمال ما هي فقيل هي ما عملوه من أعمال الخير في حال الكفر كالصدقة وصلة الأرحام وفك الأسير وقرى الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك من أعمال البر والصلاح فهذه الأعمال وإن كانت أعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لأن كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل المراد بالأعمال عبادتهم الأصنام التي ظنوا أنها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم في الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم وقيل أراد بالأعمال الأعمال التي عملوها في الدنيا وأشركوا فيها غير الله فإنها لا تنفعهم لأنها صارت كالرماد الذي ذرته الرياح وصار هباء لا ينتفع به وهو قوله تعالى (لا يقدرون مما كسبوا) يعني في الدنيا (على شيء) يعني من تلك الأعمال والمعنى أنهم لا يجدون ثواب أعمالهم في الآخرة (ذلك هو الضلال البعيد) يعني ذلك الخسران الكبير لأن أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذي لا يرجى عوده (ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق) يعني لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً وإنما خلقهما لأمر عظيم وغرض صحيح (إن يشأ يذهبكم) يعني أيها الناس (ويأت بخلق جديد) يعني سواكم أطوع لله منكم والمعنى أن الذي قدر على خلق السموات والأرض قادر على إفناء قوم وإماتتهم وإيجاد خلق آخر سواهم لأن القادر لا يصعب عليه شيء وقيل هذا خطاب لكفار مكة يريد أميتكم يا معشر الكفار وأخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع (وما ذلك على الله بعزيز) يعني بممتنع لأن الأشياء كلها سهلة على الله وإن جلت وعظمت قوله عز وجل (وبرزوا لله جميعاً) يعني وخرجوا من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء وبرز حصل في البراز وذلك أن يظهر بذاته كلها والمعنى وخرجوا من قبورهم وظهروا إلى الفضاء وأورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود (فقال الضعفاء) يعني الأتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والرؤساء (إنا كنا لكم تبعاً) يعني في الدين والاعتقاد (فهل أنتم) يعني في هذا اليوم (مغنون عنا) يعني دافعون عنا (من عذاب الله من شيء) من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذي حل بنا (قالوا) يعني الرؤساء والقادة والمتبوعون للتابعين (لو هدانا الله لهديناكم) يعني لو أرشدنا الله لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة (سواء

عليناأجزعناأم صبرنا) مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية وروى انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر ثم يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ولو اتصاله بما قبله من حيث ان عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه فقالوا لهم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم واياهم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين فيها يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة فى الجزع كما لا فائدة فى الصبر (ما لنا من محيص) منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا (وقال الشيطان لما قضى الامر) حكم بالجنة والنار لاهلهما وفرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وروى ان الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا على منبر من نار فيقول لاهل النار (ان الله وعدكم ٨٩ وعد الحق) وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم (ووعدتكم) بان لا بعث ولا حساب ولا جزاء (فاخلفتكم) كذبتكم (وما كان لى عليكم من سلطان) من تسلط واقتدار (الا أن دعوتكم) لكنى دعوتكم الى الضلالة بوسوستى وتزيينى والاستثناء منقطع لان الدعاء ليس من جنس السلطان (فاستجبتم لى) فاسرعتم اجابتى (فلا تلومونى) لان من تجرد للعداوة لا يلام اذا دعا الى أمر قبيح مع ان الرحمن قد قال لكم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة (ولوموا أنفسكم) حيث اتبعتمونى بلا حجة ولا برهان وقول المعتزلة هذا دليل على ان الانسان هو الذى يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله الا التمكين ولا من الشيطان الا التزيين باطل لقوله لو هدانا الله أى الى الايمان لهديناكم كما مر (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه والاصراخ الاغاثة بمصرخى حمزة اتباعا للصاد غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة والياآن بعد كسرتين وهو جمع مصرخ فالياء الاولى ياء الجمع والثانية ضمير المتكلم (انى كفرت بما أشركتمون) وبالياء بصرى وما مصدرية (من قبل) متعلق باشركتمونى أى كفرت اليوم باشراككم اياى مع الله من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا كقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم أو من قبل متعلق بكفرت وما موصولة أى كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله عز وجل تقول أشركنى فلان أى جعلنى له شريكا ومعنى اشراكهم الشيطان بالله طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الاوثان وهذا آخر قول الشيطان وقوله

علينا أجزعنا أم صبرنا) يعنى مستويان علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (ما لنا من محيص) يعنى من مهرب ولا منجاة مما نحن فيه من العذاب قال مقاتل يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى ان أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا فلم ينفعهم فعند ذلك قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص قوله تعالى (وقال الشيطان) يعنى ابليس (لما قضى الامر) يعنى لما فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بأخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر فى النار فيجتمع عليه أهل النار يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله عنه بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) فيه اضمار تقديره فصدق فى وعده (ووعدتكم فأخلفتكم) يعنى الوعد وقيل يقول لهم انى قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار (وما كان لى عليكم من سلطان) يعنى من ولاية وقهر وقيل لم آتكم بحجة فيما وعدتكم به (الا أن دعوتكم) هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) يعنى ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل (ما أنا بمصرخكم) يعنى بمغيثكم ولا منقذكم (وما أنتم بمصرخى) يعنى بمغيثى ولا منقذى مما أنا فيه (انى كفرت بما أشركتمون من قبل) يعنى كفرت

(ان الظالمين لهم عذاب أليم) تمّ كلام الله عز وجل وقيل هو من تمام كلام ابليس وانما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين (وأدخل ٩٠ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) عطف على

بسبب طاعتكم اياي شريكا لله في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى ان ابليس جحد ما يعتقده الكفار فيه من كونه شريكا لله وتبرأ من ذلك (ان الظالمين لهم عذاب أليم) روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة وذكر الحديث الى قوله فيأتوني فيأذن الله لي ان أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر رأسي الى ظفر قدمي ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير ابليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فانك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية وقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) لما شرح الله عز وجل حال الكفار الأشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة شرح أحوال المؤمنين السعداء وما أعد لهم في الآخرة من الثواب العظيم والأجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار وكونها دائمة أشير اليه بقوله (خالدين فيها) والتعظيم حصل من وجهين أحدهما قوله (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله بانعامه الثاني قوله (تحيتهم فيها سلام) يحتمل ان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم بها ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لان السلام مشتق من السلامة قوله عز وجل (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) لما شرح الله عز وجل أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ضرب مثلا فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى ألم تر أي بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامي اياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس فيكون المعنى ألم تر أيها الانسان كيف ضرب الله مثلا يعني بين شبها والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور وقيل هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر (كلمة طيبة) هي قول لا اله الا الله في قول ابن عباس وجمهور المفسرين (كشجرة طيبة) يعني كشجرة طيبة الثمر قال ابن عباس هي النخلة وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبروني عن شجرة تشبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين قال ابن عمر فوقع في نفسي انها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت ان أتكلم فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي النخلة قال فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي انها النخلة فقال ما منعك أن تكلم قال لم أركم تتكلمون فكرهت ان أتكلم أو أقول شيئا فقال عمر لأن تكون قلتها أحب الي من كذا وكذا وفي رواية ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المسلم فحدثوني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله بن عمر ووقع في نفسي انها النخلة فاستحييت ان أتكلم ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله قال هي النخلة وفي رواية عن ابن عباس انها شجرة في الجنة وفي رواية أخرى عنه انها المؤمن وقوله (أصلها ثابت) يعني في الأرض (وفرعها) يعني أعلاها (في السماء)

برزوا (باذن ربهم) متعلق بأدخل أي أدخلتهم الملائكة الجنة باذن الله وأمره (تحيتهم فيها سلام) هو تسليم بعضهم على بعض في الجنة أو تسليم الملائكة عليهم (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أي وصفه وبينه (كلمة طيبة) نصب بضرب أي جعل كلمة طيبة (كشجرة طيبة) وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا نحو شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس أو انتصب مثلا وكلمة بضرب أي ضرب كلمة طيبة مثلا يعني جعلها مثلا ثم قال كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة طيبة (أصلها ثابت) أي في الأرض ضارب بعروقه فيها (وفرعها) وأعلاها ورأسها (في السماء) والكلمة الطيبة كلمة التوحيد أصلها تصديق بالجنان وفرعها اقرار باللسان وأكلها عمل الأركان وكما أن الشجرة شجرة وان لم تكن حاملا فالمؤمن مؤمن وان لم يكن عاملا ولكن الأشجار لا تراد الا للثمار فما أقوات النار الا من الأشجار اذا اعتادت الاخفار في عهد الاثمار والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب ونحو ذلك والجمهور على انها النخلة عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبيا فوقع في قلبي أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم فقال يعني

يعني ذاهبة في السماء (تؤتي أكلها) يعني ثمرها (كل حين بإذن ربها) يعني بأمر ربها والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره ههنا فقال مجاهد وعكرمة الحين ههنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة واحدة وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن ستة أشهر يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها وروي ذلك عن ابن عباس أيضا وقال علي بن أبي طالب ثمانية أشهر يعني أن مدة حملها باطنا وظاهرا ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران يعني من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها وقال الربيع بن أنس كل حين يعني غدوة وعشية لأن ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الاخلاص وأصل الايمان بالنخلة حاصل من أوجه أحدها أن كلمة الاخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الارض الوجه الثاني أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء كما قال تعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء الوجه الثالث أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الاعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها الوجه الرابع أن النخلة شبيهة بالانسان في غالب الامر لأنها خلقت من فضلة طينة آدم وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فإنه إذا قطع نبت وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر الوجه الخامس في وجه الحكمة في تمثيل الايمان بالشجر على الاطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم وكذلك الايمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان وقوله سبحانه وتعالى (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) يعني أن في ضرب الامثال زيادة في الافهام وتصويرا للمعاني وتذكيرا ومواعظ لمن تذكر واتعظ قوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة) وهو الشرك (كشجرة خبيثة) يعني الحنظل قاله أنس ابن مالك ومجاهد وفي رواية عن ابن عباس أنها الكشوث وعنه أيضا أنها الثوم وعنه أيضا أنها الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد إلى السماء (اجتثت) يعني استؤصلت وقطعت (من فوق الارض ما لها من قرار) يعني ما لهذه الشجرة من ثبات في الارض لأنها ليس لها أصل ثابت في الارض ولا فرع صاعد إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة عن أنس قال أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع عليه رطب فقال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار قال هي الحنظلة أخرجه الترمذي مرفوعا وموقوفا وقال الموقوف أصح قوله سبحانه وتعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) لما وصف الله الكلمة الطيبة في الآية المتقدمة أخبر في هذه الآية أنه يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت والقول الثابت هي الكلمة الطيبة وهي شهادة أن لا إله إلا الله في قول جمهور المفسرين ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال في هذه الآية ويضل الله الظالمين يعني بالكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك في قول جميع المفسرين وقوله (في الحياة الدنيا) يعني

رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إنها النخلة فقال عمر لابني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم (تؤتي أكلها كل حين) تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها (بإذن ربها) بتيسير خالقها وتكوينه (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) لأن في ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعاني (ومثل كلمة خبيثة) هي كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هي كل شجرة لا يطيب ثمرها وفي الحديث أنها شجرة الحنظل (اجتثت من فوق الارض) استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وهو في مقابلة أصلها ثابت (ما لها من قرار) أي استقرار يقال قر الشيء قرارا كقولك ثبت ثباتا شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت (يثبت الله الذين آمنوا) أي يديمهم عليه (بالقول الثابت) هو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله (في الحياة الدنيا) حتى إذا فتنوا في دينهم لم يزالوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الاخدود وغير ذلك

في القبر عند السؤال (وفي الآخرة) يعني يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح ويدل عليه ما روي عن البراء بن عازب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المسلم اذا سئل في القبر يشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة قال نزلت في عذاب القبر زاد في رواية يقال له من ربك فيقول ربي الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وانه ليسمع قرع نعالهم اذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد فأما المؤمن فيقول أشهد انه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا انه يفسح له في قبره ثم رجع الى حديث أنس وأما المنافق وفي رواية وأما الكافر فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين لفظ البخاري ولمسلم بمعناه زاد في رواية انه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا الى يوم يبعثون وأخرجه أبو داود عن أنس قال وهذا لفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا وضع في قبره أتاه ملك فيقول ما كنت تعبد فان هداه الله قال كنت أعبد الله فيقول له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسئل عن شيء بعدها فينطلق به الى بيت كان له في النار فيقال له هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فأبدلك به بيتا في الجنة فيراه فيقول دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي فيقال له اسكن وان الكافر والمنافق اذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهره فيقول ما كنت تعبد فيقول لا أدري فيقال له لا دريت ولا تليت فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين وأخرجه النسائي أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قبر الميت أو قال اذا قبر أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم انك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع الى أهلي فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذي لا يوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك وان كان منافقا فيقول سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثلهم لا أدري فيقولان قد كنا نعلم انك كنت تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك أخرجه الترمذي عن البراء ابن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا الى القبر ولما يلحد بعد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رؤسنا الطير وبيده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا زاد في رواية وقال ان الميت ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك وفي رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول الله ربي فيقولان له وما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان وما يدريك فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت زاد

(وفي الآخرة) الجمهور على ان المراد به في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب فعن البراء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن قال ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ثم يقول الملكان عشت سعيدا ومت حميدا نم نومة العروس

في رواية فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ثم اتفقا
قال فينادي مناد من السماء ان صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيأتيه
من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره وان كان الكافر فذكر موته قال فتعاد روحه
في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان
ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه
لا أدري فينادي مناد من السماء ان قد كذب عبدي فافرشوا له من النار وألبسوه من النار
وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه
زاد في رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا
فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب الا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح أخرجه
أبو داود عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت
وقف عليه وقال استغفروا لأخيكم واسألوا الله التثبيت فانه الآن يسئل أخرجه أبو داود عن
عبد الرحمن بن شماسة المهري قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى بكاء طويلا
وحول وجهه الى الجدار وجعل ابنه يقول ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه
وسلم بكذا وكذا فاقبل بوجهه وقال ان أفضل ما نعد شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله
وذكر الحديث بطوله وفيه فاذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار فاذا دفنتموني فشنوا علي التراب
شنا ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به
رسل ربي أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو ان الله تعالى
انما يثبتهم في القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق في الحياة الدنيا وحبهم لها فمن كانت
مواظبته على شهادة الاخلاص أكثر كان رسوخها في قلبه أعظم فينبغي للعبد المسلم ان يكثر من
قول لا اله الا الله محمد رسول الله في جميع حالاته من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته
وسكناته فلعل الله عز وجل أن يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الاخلاص التثبيت في القبر
ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة نسأل الله التثبيت في القبر
وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه واحسانه انه على كل شيء قدير وقوله تعالى
(ويضل الله الظالمين) يعني ان الله تعالى لا يهدي المشركين الى الجواب بالصواب في القبر
(ويفعل الله ما يشاء) يعني من التوفيق والخذلان والهداية والاضلال والتثبيت وتركه
لا اعتراض عليه في جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون قوله عز وجل (ألم تر الى الذين
بدلوا نعمت الله كفرا) (خ) عن ابن عباس في قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا قال هم
كفار مكة وفي رواية قال هم والله كفار قريش قال عمرو هم قريش ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه
وسلم (وأحلوا قومهم دار البوار) قال النار يوم بدر وعن علي رضي الله عنه قال هم كفار قريش
نحروا يوم بدر وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما
بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فقد متعوا الى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفرا
معناه ان الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم فأرسله اليهم وأنزل عليه كتابه
ليخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان اختاروا الكفر على الايمان وغيروا نعمة الله
عليهم وقيل يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفرا لانهم لما وجب عليهم الشكر بسبب
هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم يعني من تبعهم

(ويضل الله الظالمين) فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء وهم في الآخرة أضل وأزل (ويفعل الله ما يشاء) فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين واضلال الظالمين (ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله) أي شكر نعمة الله (كفرا) لان شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر الى الكفر وبدلوه تبديلا وهم أهل مكة أكرمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر (وأحلوا قومهم) الذين تابعوهم على الكفر (دار البوار) دار الهلاك

على دينهم وكفرهم دار البوار يعني دار الهلاك ثم فسرها بقوله تعالى (جهنم يصلونها وبئس القرار) يعني المستقر (وجعلوا لله أندادا) يعني أمثالا وأشباها من الاصنام وليس لله تعالى ند ولا شبيه ولا مثيل تعالى الله عن الند والشبيه والمثيل علوا كبيرا (ليضلوا عن سبيله) يعني ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق (قل تمتعوا) أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا في الدنيا أياما قلائل (فان مصيركم الى النار) يعني في الآخرة قوله تعالى (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلوة) يعني أقيموا أو ليقيموا الصلاة الواجبة وإقامتها إتمام أركانها (وينفقوا مما رزقناهم) قيل أراد بهذا الانفاق اخراج الزكاة الواجبة وقيل أراد به جميع الانفاق في جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه اخراج الزكاة والانفاق في جميع وجوه البر (سرا وعلانية) يعني ينفقون أموالهم في حال السر وحال العلانية وقيل أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) قال أبو عبيدة البيع هنا الفداء يعني لا فداء في ذلك اليوم (ولا خلال) يعني ولا خلة وهي المودة والصداقة التي تكون بين اثنين وقال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة انما هي الاعمال اما أن يثاب بها أو يعاقب عليها فان قلت كيف نفي الخلة في هذه الآية وفي الآية التي في سورة البقرة وأثبتها في قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قلت الآية الدالة على نفي الخلة محمولة على نفي الخلة الحاصلة بسبب ميل الطبيعة ورعونة النفس والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله الا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل ان ليوم القيامة أحوالا مختلفة ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفي بعضها يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله في محبته قوله عز وجل (الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) اعلم انه تقدم تفسير هذه الآية في مواضع كثيرة ونذكر ههنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذي لا يعجزه شيء أراده فقوله تعالى الله الذي خلق السموات والارض انما بدأ بذكر خلق السموات والارض لانهما أعظم المخلوقات المشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعني من السحاب سمي السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو وهو الارتفاع وقيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض فأخرج به أي بذلك الماء من الثمرات رزقا لكم والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع أيضا بدليل قوله كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقا هو الثمرات (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) لما ذكر الله سبحانه وتعالى انعامه بانزال المطر واخراج الثمر لاجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء لاجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد آخر فهي من تمام نعمة الله على عباده (وسخر لكم الانهار) يعني ذللها لكم تجرونها حيث شئتم ولما كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزرع والثمرات ولا في الشراب أيضا ذكر نعمته على عباده في تسخير الانهار وتفجير العيون لاجل

فشيئ) فطلب صالة (يصلونها) يدخلونها (وبئس القرار) وبئس المقر جهنم (وجعلوا لله أندادا) أمثالا في العبادة أو في التسمية (ليضلوا عن سبيله) وبفتح الياء مكي وأبو عمرو (قل تمتعوا) في الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية وقال ذو النون التمتع أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته (فان مصيركم الى النار) مرجعكم اليها (قل لعبادي الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تشريفا وبسكون الياء شامي وحمزة وعلي والاعشى (يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) المقول محذوف لان قل تقتضي مقولا وهو أقيموا وتقديره قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا وينفقوا وقيل انه أمر وهو المقول والتقدير ليقيموا الصلاة ولينفقوا فحذف اللام لدلالة قل عليه ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز (سرا وعلانية) انتصبا على الحال أي ذوي سر وعلانية يعني مسرين ومعلنين أو على الظرف أي وقتي سر وعلانية أو على المصدر أي انفاق سر وانفاق علانية والمعنى اخفاء التطوع واعلان الواجب (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال) أي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة والخلال المخالة وانما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله بفتحهما مكي وبصري والباقون بالرفع والتنوين (الله) مبتدأ (الذي خلق السموات والارض) خبره (وأنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقا هو ثمرات أو من الثمرات مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار) هذه

(وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) دائبين وهو حال من الشمس والقمر أي يدأبان في سيرهما وانارتهما ودرئهما الظلمات واصلاحهما ما يصلحان من الارض والابدان والنبات (وسخر لكم الليل والنهار) ٩٥ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم (وآتاكم من كل ما سألتموه) من للتبعيض أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه أو وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه فما موصولة والجملة صفة لها وحذفت الجملة الثانية لان الباقي يدل على المحذوف كقوله سرابيل تقيكم الحر من كل من أبي عمرو وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه أو ما موصولة أي وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال وأما التفصيل فلا يعلمه الا الله (ان الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها (كفار) شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والانسان للجنس فيتناول الاخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه (واذ قال ابراهيم) واذكر اذ قال ابراهيم (رب اجعل هذا البلد) أي البلد الحرام (آمنا) ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما في البقرة انه قد سأل فيها ان يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها وفي الثاني ان يخرجه من صفة الخوف الى الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبني) وبعدني أي ثبتني وأدمني على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك أي ثبتنا على الاسلام (وبني) أراد بنيه من صلبه (أن نعبد الاصنام) من ان نعبد الاصنام

هذه الحاجة فهو من أعظم نعم الله على عباده (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب في السير داوم عليه والمعنى ان الله سخر الشمس والقمر يجريان دائما فيما يعود الى مصالح العباد لا يفتران الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها قال ابن عباس دؤبهما في طاعة الله عز وجل وقال بعضهم معناه يدأبان في طاعة الله أي في مسيرهما وتأثيرهما في ازالة الظلمة واصلاح النبات والحيوان لان الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده وتسخيره لهم (وسخر لكم الليل والنهار) يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة وذلك من انعام الله على عباده وتسخيره لهم (وآتاكم من كل ما سألتموه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك انه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر والمعنى وآتاكم من كل ما سألتموه شيأ فحذف شيأ اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض وقيل هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه لان نعمه علينا أكثر من أن تحصى (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) يعني ان نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها (ان الانسان) قال ابن عباس يريد أبا جهل وقال الزجاج هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر (لظلوم كفار) يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه وقيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع قوله سبحانه وتعالى (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) يعني ذا أمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة فان قلت أي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا قلت الفرق بينهما انه سأل في الاول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبني وبني أن نعبد الاصنام) يعني أبعدني وبني أن نعبد الاصنام فان قلت قد توجه على هذه الآية اشكالات وهي من وجوه الاول ان ابراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم ان جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها الوجه الثاني ان الانبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الاصنام واذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه أيضا ان يجنب بنيه عن عبادة الاصنام وقد وجد كثير من بنيه عبد الاصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينتسب الى ابراهيم عليه السلام قلت الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه فالجواب عن الوجه الاول من وجهين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة أخرجاه في الصحيحين وأجيب عنه بان قوله اجعل هذا البلد آمنا يعني الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل هو عام

بخصوص بهذه الدعوة فلا تعارض بين النصين الوجه الثاني أن يكون المراد أن يجعل
أهل هذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد
اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله ويتخطف الناس من
حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك وحتى
ان الوحوش اذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فاذا دخلت الحرم أمنت واستأنست
لعلمها انه لا يهيجها أحد في الحرم وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب
عن الوجه الثاني فمن وجوه أيضا الوجه الأول ان دعاء ابراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة
والتثبيت فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك الوجه الثاني ان ابراهيم عليه السلام وان كان يعلم
ان الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام الا انه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس واظهارا للعجز
والحاجة والفاقة الى فضل الله تعالى ورحمته وان أحدا لا يقدر على نفع نفسه بشيء لم ينفعه
الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الاشكالات
فالجواب عنه من وجوه الأول أن ابراهيم دعا لبنيه من صلبه ولم يعبد أحد منهم صنما قط الوجه
الثاني انه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك ان ابراهيم عليه السلام
قد أجيب فيهم الوجه الثالث قال الواحدي دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال وبني الذين
أذنت لي في الدعاء لهم لأن دعاء الأنبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا
الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص الوجه الرابع ان هذا مختص بالمؤمنين من أولاده
والدليل عليه انه قال في آخر الآية فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس
منه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقوله تعالى (رب انهن) يعني الأصنام (أضللن كثيرا من الناس)
وهذا مجاز لأن الأصنام جمادات وحجارة لا تعقل شيئا حتى تضل من عبدها الا انه لما حصل
الاضلال بعبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما افتتنوا بها واغتروا بسببها
(فمن تبعني فانه مني) يعني فمن تبعني على ديني واعتقادي فانه مني يعني المتدين بديني المتمسك
بحبلي كما قال الشاعر

اذا حاولت في أسد فجورا * فاني لست منك ولست مني

أراد ولست من المتمسكين بحبلي وفعلي [illegible] في القرب
والاختصاص (ومن عصاني) يعني في غير الدين (فانك غفور رحيم) قال السدي ومن عصاني
ثم تاب فانك غفور رحيم وقال مقاتل ومن عصاني فيما دون الشرك فانك غفور رحيم وقال
أبو بكر بن الأنباري هذا اسأل ومن عصاني فخالفني في بعض الشرائع وعقائد التوحيد فانك غفور
رحيم ان شئت ان تغفر له غفرت اذا كان مسلما وذكر وجهين آخرين أحدهما ان هذا كان قبل
ان يعلمه الله انه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبويه وهو يقول ان الله غير [illegible]
غير مغفور لهما [illegible] والوجه الآخر ومن عصاني باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعني
انك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه الى الصواب
قوله عز وجل اخبارا عن ابراهيم (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم)
(خ) عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها
على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسمعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق
زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا

(رب انهن أضللن كثيرا من
الناس) جعلها مضلات على
طريق التسبيب لان الناس
ضلوا بسببهن فكأنهن
أضللنهم (فمن تبعني) على
ملتي وكان حنيفا مسلما
مثلي (فانه مني) أي هو
بعضي لفرط اختصاصه بي
(ومن عصاني) فيما دون
الشرك (فانك غفور رحيم)
أو ومن عصاني عصيان
شرك فانك غفور رحيم
ان تاب وآمن (ربنا اني
أسكنت من ذريتي) بعض
أولادي وهم اسمعيل
ومن ولد منه (بواد) هو
وادي مكة (غير ذي زرع)
لا يكون فيه شيء من زرع قط
(عند بيتك المحرم) هو بيت
الله سمي به لان الله تعالى
حرم التعرض له والتهاون به
وجعل ما حوله حرما لمكانه
أو لانه لم يزل ممتنعا يهابه
كل جبار أو لانه محترم عظيم
الحرمة لا يحل انتهاكها
أو لانه حرم على الطوفان أي
منع منه كما سمي عتيقا لانه
أعتق منه

فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم الى أين تذهب
وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها
فقالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم فدعا بهذه الدعوات
فرفع يديه فقال رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم
اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها
وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب
جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت
منه حتى اذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي
ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن
عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت
صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتا أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك
غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت
تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف وفي
رواية بقدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت
زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها
الملك لا تخافي الضيعة فان ههنا بيتا لله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان
البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك
حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل
مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا
جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا
ان ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه
وسلم فألفى ذلك أم اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا
كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك
زوجوه بامرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسمعيل يطالع تركته أخرجه
البخاري بأطول من هذا وقد تقدم الحديث بطوله في تفسير سورة البقرة وأما تفسير الآية
فقوله ربنا اني أسكنت من ذريتي من للتبعيض أي بعض ذريتي وهو اسمعيل عليه السلام بواد
غير ذي زرع يعني ليس فيه زرع لانه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد وهو وادي
مكة عند بيتك المحرم سماه محرما لانه يحترم عنده ما لا يحترم عند غيره وقيل لان الله حرمه على
الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به وبحرمته وجعل ما حوله محرما لمكانه
وشرفه وقيل لانه حرم على الطوفان يعني امتنع منه وقيل سمي محرما لان الزائرين له يحرمون
على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمي عتيقا أيضا لانه أعتق من الجبابرة أو من
الطوفان فان قلت كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك البيت حينئذ وانما بناه ابراهيم بعد
ذلك قلت يحتمل ان الله عز وجل أوحى اليه وأعلمه ان له هناك بيتا قد كان في سالف الزمان وانه
سيعمر فلذلك قال عند بيتك المحرم وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي كان ثم رفع عند
الطوفان وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا

المكان (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام في ليقيموا متعلقة بأسكنت يعني أسكنت قوما من ذريتي وهم اسمعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا أي لأجل أن يقيموا أو لكي يقيموا الصلاة (فاجعل أفئدة من الناس) قال البغوي جمع الوفد (تهوي اليهم) تحن وتشتاق اليهم قال السدي رحمه الله أمل قلوبهم الى هذا الموضع وقال ابن الجوزي أفئدة من الناس أي قلوب جماعة من الناس فعلى هذا يحتمل جمع فؤاد قال ابن الانباري وانما عبر عن القلوب بالافئدة لقرب القلب من الفؤاد يفصل القلب والفؤاد جارحتين وقال الجوهري الفؤاد القلب والجمع أفئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من في قوله من الناس للتبعيض قال مجاهد لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون تهوي اليهم قال الاصمعي يقال هوى يهوي هويا اذا سقط من علو الى سفل وقال الفراء تهوي اليهم تريدهم كما تقول رأيت فلانا يهوي نحوك معناه يريدك وقال أيضا تهوي تسرع اليهم وقال ابن الانباري معناه تنحط اليهم وتنحدر وتنزل هذا قول أهل اللغة في هذا الحرف وأما أقوال المفسرين فقال ابن عباس يريد يحن اليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع اليهم وفي هذا بيان أن حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم عليه السلام في هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته (وارزقهم من الثمرات) يعني كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة وهو كقوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شيء وقوله تعالى (لعلهم يشكرون) يعني لعلهم يشكرون هذه النعم التي أنعمت بها عليهم وقيل معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا انما هو ليستعان بها على أداء العبادات واقامة الطاعات (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن) يعني انك تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه والمعنى انك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا الى الدعاء والطلب انما ندعوك اظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك وتذللا لعزتك وافتقارا الى ما عندك وقيل معناه تعلم ما نخفي من الوجد بفرقة اسمعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع وما نعلن يعني من البكاء وقيل ما نخفي يعني من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يعني ما جرى بينه وبينها عند الوداع حين قالت لابراهيم عليه السلام الى من تكلنا قال الى الله قالت اذا لا يضيعنا (وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) قيل هذا من تمام قول ابراهيم يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان وقال الأكثرون انه من قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال فهو كقوله وكذلك يفعلون (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق) قال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وقال سعيد بن جبير بشر ابراهيم باسحق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة ومعنى قوله على الكبر مع الكبر لان هبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لانه سن اليأس من الولد فلهذا

اللام متعلقة بأسكنت أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع الا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك (فاجعل أفئدة من الناس) أفئدة من أفئدة الناس ومن للتبعيض لما روي عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند أو للابتداء كقولك القلب مني سقيم تريد قلبي فكأنه قيل أفئدة ناس ونكرت المضاف اليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الافئدة (تهوي اليهم) تسرع اليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقا (وارزقهم من الثمرات) مع سكناهم واديا ما فيه شيء منها بأن تجلب اليهم من البلاد الشاسعة (لعلهم يشكرون) النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات في واد ليس فيه شجر ولا ماء (ربنا) النداء المكرر دليل التضرع واللجأ الى الله (انك تعلم ما نخفي وما نعلن) تعلم السر كما تعلم العلن (وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) من كلام الله عز وجل تصديقا لابراهيم عليه السلام أو من كلام ابراهيم ومن للاستغراق كأنه قيل وما يخفى على الله شيء ما (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر) على بمعنى مع وهو في موضع الحال أي وهب لي وأنا كبير (اسمعيل واسحق) روي أن اسمعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وروي أنه ولد له اسمعيل لاربع وستين واسحق لتسعين وانما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم لأنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لابراهيم

(ان ربى لسميع الدعاء) لمجيب الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا تلقاه بالاجابة والقبول ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال رب هب لى من الصالحين فشكر لله ما أكرمه به من اجابته واضافة السميع الى الدعاء من اضافة الصفة الى مفعولها وأصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلا فى جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك هذا رحيم أباه (رب اجعلنى مقيم الصلوة ومن ذريتى) وبعض ذريتى عطفا على المنصوب فى اجعلنى وانما بعض لانه علم باعلام الله انه يكون فى ذريته كفار عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يزال من ولد ابراهيم ناس على الفطرة الى أن تقوم الساعة (ربنا وتقبل دعاء) بالياء فى الوصل والوقف مكى وافقه أبو عمرو وحمزة فى الوصل الباقون بلا ياء أى استجب دعائى أو عبادتى واعتزلكم وما تدعون من دون الله (ربنا اغفر لى ولوالدى) أى آدم وحواء أو قاله قبل النهى واليأس عن ايمان أبويه (وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى يثبت أو أسند الى الحساب قيام أهله اسنادا مجازيا مثل واسأل القرية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تسلية للمظلوم وتهديد للظالم والخطاب لغير الرسول عليه السلام وان كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكما جاء فى الامر يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وقيل المراد به الايذان بانه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شئ وانه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله والله بما تعملون عليم

شكر الله على هذه المنة فقال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق فان قلت كيف جمع بين اسمعيل واسحق فى الدعاء فى وقت واحد وانما بشر باسحق بعد اسمعيل بزمان طويل قلت يحتمل أن ابراهيم عليه السلام انما أتى بهذا الدعاء عندما بشر باسحق وذلك انه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ولا يرد على هذا ما ورد فى الحديث انه عليه السلام قدم عند مفارقة اسمعيل وأمه لان الذى صح فى الحديث انه دعا بقوله ربنا انى أسكنت من ذريتى الى قوله لعلهم يشكرون اذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق فى وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال (ان ربى لسميع الدعاء) كان ابراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله رب هب لى من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من اجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان اذا اعتد به وقبله (رب اجعلنى مقيم الصلاة) يعنى ممن يقيم الصلوة بأركانها ويحافظ عليها فى أوقاتها (ومن ذريتى) أى واجعل من ذريتى من يقيم الصلاة وانما أدخل لفظة من التى هى للتبعيض فى قوله ومن ذريتى لانه علم باعلام الله اياه انه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتى وأراد بهم المؤمنين من ذريته (ربنا وتقبل دعاء) سأل ابراهيم عليه السلام ربه أن يتقبل دعاءه فاستجاب الله لابراهيم وقبل دعاءه بفضله ومنه وكرمه (ربنا اغفر لى) فان قلت طلب المغفرة من الله انما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبتت عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له قلت المقصود منه الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شئ الا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته (ولوالدى) فان قلت كيف استغفر ابراهيم لأبويه وكانا كافرين قلت أراد انهما ان أسلما وتابا وقيل انما قال ذلك قبل أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل ان أمه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء (وللمؤمنين) يعنى واغفر للمؤمنين كلهم (يوم يقوم الحساب) يعنى يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذلك أى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة قوله سبحانه وتعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله محال فلا بد من تأويل الآية فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بان لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا قال سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فان قلت تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم غافلا وهو أعلم الناس به أنه لم يكن غافلا حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قلت اذا كان المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان أحدهما التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا وهو

(إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أي أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى (مهطعين) مسرعين إلى الداعي (مقنعي رؤوسهم) رافعيها (لا يرتد إليهم طرفهم) لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم (وأفئدتهم هواء) صفر من العقل لا تعي شيئاً من الخوف والهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام فوصفه به فقيل قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة وقيل جوف لا عقول لهم (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) أي يوم القيامة ويوم مفعول ثان لأنذر لا ظرف إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم (فيقول الذين ظلموا) أي الكفار (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) أي ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم (أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) أي حلفتم في الدنيا أنكم إذا متم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون إلى دار أخرى يعني كفرتم بالبعث كقوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وما لكم جواب القسم وإنما جاء بلفظ الخطاب كقوله أقسمتم ولو حكى لفظ المقسمين لقيل ما لنا من زوال وأريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فإنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب يقال سكن الدار وسكن فيها ومنه (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر لأن السكنى من السكون وهو اللبث والأصل تعديته بفي نحو قرّ في الدار وأقام فيها ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل سكن الدار كما قيل تبوأها ويجوز أن يكون سكن من السكون أي قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا (وتبين لكم) بالإخبار والمشاهدة وفاعل تبين مضمر دل عليه الكلام أي تبين لكم حالهم و(كيف) ليس بفاعل لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإنما انتصب كيف بقوله (فعلنا بهم) أي أهلكناهم وانتقمنا منهم

كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلهاً آخر وكقوله سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان. الوجه الثاني أن المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً الإعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شيء وأنه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وإن كان الخطاب لغير النبي صلى الله عليه وسلم فلا إشكال فيه ولا سؤال لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز أن يحسبه غافلاً فلجهله بصفاته (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) يقال شخص بصر الرجل إذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى في ذلك اليوم (مهطعين) قال قتادة مسرعين وهذا قول أبي عبيدة وعلى هذا المعنى أن الغالب من حال من بقي بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً فبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن أحوال أهل الموقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتاد فأخبر سبحانه وتعالى أنهم مع شخوص الأبصار يكونون مهطعين يعني مسرعين نحو الداعي وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت (مقنعي رؤوسهم) الإقناع رفع الرأس إلى فوق فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤوسهم إلى السماء وهذا بخلاف المعتاد لأن من يتوقع البلاء فإنه يطرق ببصره إلى الأرض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد وقوله تعالى (لا يرتد إليهم طرفهم) أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة الخوف فهي شاخصة لا ترتد إليهم قد شغلهم ما بين أيديهم (وأفئدتهم هواء) أي خالية قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت في حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها ومعنى الآية أن أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً ولا تعقل من شدة الخوف وقال سعيد بن جبير وأفئدتهم هواء أي مترددة تهوي في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ومعنى الآية أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته (وأنذر الناس) يعني خوف الناس يا محمد يوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى (يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا) يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي (ربنا أخرنا إلى أجل قريب) يعني أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم طلبوا الرجوع إلى الدنيا حتى يؤمنوا ويصدقوا الرسل وهو قوله تعالى (نجب دعوتك ونتبع الرسل) فأجيبوا بقوله (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) يعني في دار الدنيا (ما لكم من زوال) يعني ما لكم عنها انتقال ولا نعيد ولا نشور (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) يعني بالكفر والمعاصي يعني كان قبلكم من كفار الأمم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم (وتبين لكم كيف

فعلنا

(وضربنا لكم الامثال) أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهي في الغرابة كالامثال المضروبة لكل ظالم (وقد مكروا مكرهم) أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وبطلان ١٠١ الاسلام (وعند الله مكرهم) وهو مضاف الى الفاعل كالاول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه أو الى المفعول أي وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) بكسر اللام الاولى ونصب الثانية والتقدير وان وقع مكرهم لزوال أمر النبي صلى الله عليه وسلم فعبر عن أمر النبي عليه السلام بالجبال لعظم شأنه وكان تامة أو ان نافية واللام مؤكدة لها كقوله وما كان الله ليعذبهم والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لانها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا دليله قراءة ابن مسعود وما كان مكرهم وبفتح اللام الاولى ورفع الثانية علي أي وان كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها فان مخففة من الثقيلة واللام مؤكدة (ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعني قوله انا لننصر رسلنا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي مخلف مفعول ثان لتحسبن وأضاف مخلف الى وعده وهو المفعول الثاني له والاول رسله والتقدير مخلف رسله وعده وانما قدم المفعول الثاني على الاول ليعلم انه لا يخلف الوعد أصلا كقوله ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليؤذن انه اذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته

ظلمناهم) يعني وقد عرفتم كيف كانت عقوبتنا اياهم (وضربنا لكم الامثال) يعني الامثال التي ضربها الله عز وجل في القرآن ليتدبروها ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الامم الخالية والقرون الماضية وعلم ما جرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم ويعمل في خلاص نفسه من العقاب والهلاك قوله سبحانه وتعالى (وقد مكروا مكرهم) اختلفوا في الضمير الى من يعود في قوله وقد مكروا فقيل يعود الى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول صحيح لان الضمير يجب عوده الى أقرب مذكور وقيل ان المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ومكرهم ما ذكره الله تعالى بقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الآية والمعنى وأنذر الناس يا محمد يوم يأتيهم العذاب يعني بسبب مكرهم بك وقوله تعالى (وعند الله مكرهم) يعني جزاء مكرهم وقيل ان مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) يعني وان كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال وقيل معناه ان مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قولا آخر وهو انها نزلت في نمرود الجبار الذي حاج ابراهيم في ربه فقال نمرود ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا أنتهي حتى أصعد الى السماء فأعلم ما فيها فعمد الى أربعة أفراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت واتخذ تابوتا من خشب وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعا في أطراف التابوت وجعل على رؤس تلك الخشبات لحما أحمر وقعد هو في التابوت وأقعد معه رجلا آخر وأمر بالنسور فربطت في أطراف التابوت من أسفل فحملت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه وطارت اليه فطارت النسور يوما أجمع حتى بعدت في الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى وانظر الى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له ان السماء كهيئتها فقال له افتح الباب الاسفل فانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى ففعل فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغي أين تريد قال عكرمة وكان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس ورمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بدم سمكة قذفت بنفسها في بحر في الهواء وقيل ان طائرا أصابه السهم فلما رجع اليه السهم ملطخا بالدم قال كفيت اله السماء ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات الى أسفل وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت وظنت انه قد حدث حدث من السماء وان الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد بعض العلماء هذه الحكاية وقال ان الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الامر العظيم وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعني فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعده به رسله من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين فانه ناصر رسله

وأوليائه ومهلك أعدائه وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده (ان الله
عزيز) أي غالب (ذو انتقام) يعني من أعدائه لأوليائه قوله عز وجل (يوم تبدل الارض غير الارض
والسموات) ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما انه تبدل صفة الارض والسماء
لا ذاتهما فأما تبديل الارض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى
وهادها وأوديتها وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شئ
الا ذهب وتمد مد الاديم وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها
ويكوران وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء ويدل على
صحة هذا القول ما روى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم
القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لاحد أخرجاه في الصحيحين العفراء
بالعين المهملة وهي البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض الفائق
المائل الى حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها الى الحمرة وقوله ليس بها علم لاحد يعني ليس فيها
علامة لاحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به والقول الثاني هو
تبديل ذوات الارض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال
ابن مسعود في معنى هذه الآية قال تبدل الارض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ولم
يعمل عليها خطيئة وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الارض من فضة والسماء من ذهب
وقال أبي بن كعب في معنى التبديل أن تصير الارض نيرانا والسماء جنانا وقال أبو هريرة وسعيد
ابن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه عن أبي
سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون الارض يوم القيامة خبزة واحدة
يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلا لاهل الجنة أخرجاه في الصحيحين
بزيادة فيه قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح هذا الحديث اما النزل فبضم النون والزاي
ويجوز اسكان الزاي وهو ما يعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء وقال أهل اللغة هي
الظلمة التي توضع في الملة يتكفؤها بالهمزة بيده أي يميلها من يد الى يد حتى تجتمع وتستوي لانها
ليست منبسطة كالرقاقة وقد حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع
القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شئ ومعنى الحديث ان الله سبحانه وتعالى يجعل
الارض كالظلمة أي الرغيف العظيم وتكون طعاما نزلا لاهل الجنة والله على كل شئ قدير فان
قلت اذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها
وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها قلت وجه الجمع بين الآيتين ان الارض تبدل أولا صفتها مع بقاء
ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلا ثانيا وهو أن تبدل ذاتها بغيرها
كما تقدم أيضا ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فأين يكون الناس يومئذ
يا رسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله
صلى الله عليه وسلم أين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم في الظلمة دون الجسر
ذكره البغوي بغير سند ففي هذين الحديثين دليل على ان تبديل الارض ثاني مرة يكون بعد
الحساب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقوله تعالى (وبرزوا) يعني وخرجوا من قبورهم (لله)
يعني لحكم الله والوقوف بين يديه للحساب (الواحد القهار) صفتان لله تعالى فالواحد الذي

لا ثاني

(ان الله عزيز) غالب لا يماكر (ذو انتقام) لاوليائه من أعدائه وانتصاب (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات)
على الظرف للانتقام أو
على اضمار اذكر والمعنى
يوم تبدل هذه الارض
التي تعرفونها أرضا أخرى
غير هذه المعروفة
وتبدل السموات غير
السموات وانما حذف
لدلالة ما قبله عليه والتبديل
التغيير وقد يكون في الذوات
كقولك بدلت الدراهم
دنانير وفي الاوصاف كقولك
بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها
وسويتها خاتما فنقلتها من
شكل الى شكل واختلف
في تبديل الارض والسموات
فقيل تبدل أوصافها
وتسير عن الارض جبالها
وتفجر بحارها وتسوى فلا
ترى فيها عوجا ولا أمتا
وعن ابن عباس رضي الله
عنهما هي تلك الارض
وانما تغير وتبدل السماء
بانتثار كواكبها وكسوف
شمسها وخسوف قمرها
وانشقاقها وكونها
أبوابا وقيل تخلق بدلها
أرض وسموات أخر وعن
ابن مسعود رضي الله عنه
يحشر الناس على أرض
بيضاء لم يخطئ عليها أحد
خطيئة وعن علي رضي
الله عنه تبدل أرضا من
فضة وسموات من ذهب
(وبرزوا) وخرجوا من
قبورهم (لله الواحد القهار)
هو كقوله لمن الملك اليوم لله
الواحد القهار لان الملك اذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لاحد الى غيره كان الامر في غاية الشدة

(وترى المجرمين) الكافرين (يومئذ) يوم القيامة (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم الى أرجلهم مغللين (في الاصفاد) متعلق بمقرنين أي يقرنون في الاصفاد أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين والاصفاد القيود أو الاغلال (سرابيلهم) قمصهم (من قطران) هو ما يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره وكأنه ما عندنا منه إلا الاسامي والمسميات ثمة نعوذ بالله من سخطه وعذابه من قطرآن زيد عن يعقوب نحاس مذاب بالغ حره أناه و(تغشى وجوههم النار) تعلوها باشتعالها وخص الوجه لانه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ولذا قال تطلع على الافئدة (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) أي يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ما كسبت أو كل نفس مجرمة أو مطيعة لانه اذا عاقب المجرمين لاجرامهم علم أنه يثيب المؤمنين لطاعتهم (ان الله سريع الحساب) يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر (هذا) أي ما وصفه في قوله ولا تحسبن الى قوله سريع الحساب (بلاغ للناس) كفاية في التذكير والموعظة (ولينذروا به) بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا (وليعلموا أنما هو إله واحد) لانهم اذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة الى النظر حتى يتوصلوا الى التوحيد فان الخشية أم الخير كله (وليذكر أولوا الالباب) ذووا العقول ﴿سورة الحجر تسع وتسعون آية مكية﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب والقرآن المبين السورة وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابا وأي قرآن مبين كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان

لا ثاني له ولا شريك معه المنزه عن الشبيه والضد والند القهار الغالب الذي يقهر عباده على ما يريد ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قوله تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرنين) يعني مشدودين بعضهم الى بعض يقال قرنت الشيء بالشيء اذا شددته معه في رباط واحد (في الاصفاد) يعني في القيود والاغلال قال ابن عباس يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة وقال أبو زيد تقرن أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاصفاد وهي القيود وقال ابن قتيبة يقرن بعضهم الى بعض (سرابيلهم) يعني قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل ما لبس (من قطران) القطران دهن يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج وانما جعل لهم القطران سرابيل لانه يبالغ في اشتعال النار في الجلود ولو أراد الله المبالغة في احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون وقرأ عكرمة ويعقوب من قطرآن على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب والآن الذي انتهى حره (وتغشى وجوههم النار) يعني تعلوها وتجللها (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) يعني من خير أو شر (ان الله سريع الحساب) يعني اذا حاسب عباده يوم القيامة (هذا بلاغ للناس) يعني هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس (ولينذروا به) يعني وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره (وليعلموا أنما هو إله واحد) يعني وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى (وليذكر أولوا الالباب) يعني وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ أولو العقول والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الحجر﴾

مكية باجماعهم وهي تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله سبحانه وتعالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين الكتاب الذي وعد الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والتعظيم والمعنى تلك آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتابا وفي كونه قرآنا وأي قرآن كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان وقيل أراد بالكتاب التوراة والانجيل لانه عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوي لانه لم يجر للتوراة والانجيل ذكر حتى يشار اليهما وقيل المراد بالكتاب القرآن وانما جمع ما بوصفين وان كان الموصوف واحدا لما في ذلك من الفائدة وهي التفخيم والتعظيم والمبين

الذي يبين الحلال من الحرام والحق من الباطل (ربما) قرئ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير وانما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءني وربما جاءني زيد وان شئت جعلت ما بمنزلة شيء كانك قلت رب شيء ليكون المعنى رب شيء (يود الذين كفروا) وقيل ما في ربما بمعنى حين أي رب حين يود يعني يتمنى الذين كفروا والتمني هو تشهي حصول ما يوده واختلف المفسرون في الوقت الذي يتمنى الذين كفروا (لو كانوا مسلمين) على قولين أحدهما ان ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر انه كان على الضلال فيتمنى لو كان مسلما وذلك حين لا ينفعه ذلك التمني قال الضحاك هو عند حالة المعاينة والقول الثاني ان هذا التمني يكون في الآخرة وذلك حين يعاينون أهوال يوم القيامة وشدائده وما يصيرون اليه من العذاب فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال الزجاج ان الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما وقيل اذا رأى الكافر أن الله تعالى يرحم المسلمين ويشفع بعضهم في بعض حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور ان ذلك التمني حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وأنتم معنا في النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذكره البغوي بغير سند وكذا ذكره ابن الجوزي وقال واليه ذهب ابن عباس في رواية عنه وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وابراهيم يعني النخعي فان قلت رب انما وضعت للتقليل وتمني الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قلت قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك وربما ندم الانسان على فعله ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لان العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال غيره ان هذا القليل أبلغ في التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره وقيل ان شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة انما يخطر ذلك ببالهم فان قلت رب لا تدخل الا على الماضي فكيف قال ربما يود وهو في المستقبل قلت لان المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه كأنه قال ربما ود قوله سبحانه وتعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) يعني دع يا محمد هؤلاء الكفار يأكلوا في دنياهم ويتمتعوا بلذاتها (ويلههم الامل) يعني ويشغلهم طول الامل عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى (فسوف يعلمون) يعني اذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لان أخذ بحظه من الدنيا ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل قال بعض أهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال وفي الآية دليل على ان ايثار التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدي الى طول الامل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين قال علي بن أبي طالب انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان

(ربما) بالتخفيف مدني وعاصم وبالتشديد غيرهما وما هي الكافة لانها حرف يجر ما بعده ويختص بالاسم النكرة فاذا كفت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم وانما جاز (يود الذين كفروا) لان المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ودوا وودادتهم تكون عند النزع أو يوم القيامة اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين أو اذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلما كذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما (لو كانوا مسلمين) حكاية ودادتهم وانما جيء بها على لفظ الغيبة لانهم مخبر عنهم كقولك حلف بالله ليفعلن ولو قيل حلف بالله لافعلن ولو كنا مسلمين لكان حسنا وانما قلل برب لان أهوال القيامة تشغلهم عن التمني فاذا أفاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين وقول من قال ان رب يعني بها الكثرة سهو لانه ضد ما يعرفه أهل اللغة لانها وضعت للتقليل (ذرهم) أمر اهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم فيه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم (ويلههم الامل) ويشغلهم أملهم وامانيهم عن الايمان (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم وفيه تنبيه على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدي اليه طول الامل ليس من أخلاق المؤمنين

طول

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) ولها كتاب جملة واقعة صفة لقرية والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف إذ الصفة متصلة بالموصوف بلا واو فجيء بالواو تأكيداً لذلك والوجه أن تكون هذه الجملة حالاً لقرية لكونها في حكم الموصوفة كأنه قيل وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفاً وقوله كتاب معلوم أي مكتوب معلوم وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ وبين ألا ترى إلى قوله (ما تسبق من أمة أجلها) في موضع كتابها (وما يستأخرون) أي عنه وحذف لأنه معلوم وأنث الأمة أولاً ثم ذكرها آخراً حملاً على اللفظ والمعنى (وقالوا) أي الكفار (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) أي القرآن (إنك لمجنون) يعنون محمداً عليه السلام وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ ومنه فبشرهم بعذاب أليم إنك لأنت الحليم الرشيد والمعنى إنك لتقول قول المجانين حيث تدعي أن الله نزل عليك الذكر (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) لو ركبت مع لا وما لامتناع الشيء لوجود غيره أو للتحضيض وهل ركبت مع لا للتحضيض فحسب والمعنى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً (ما ننزل الملائكة) كوفي غير أبي بكر تنزل الملائكة أبو بكر تنزل الملائكة أي تتنزل غيرهم (إلا بالحق) إلا تنزيلاً ملتبساً بالحكمة (وما كانوا إذاً منظرين) إذاً جواب لهم وجزاء الشرط مقدر تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين إذاً وما أخر عذابهم (إنا نحن نزلنا الذكر) القرآن (وإنا له لحافظون) وهو رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر ولذلك قال إنا نحن فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع وأنه هو الذي نزله محفوظاً من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فوقع التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه وقد جعل قوله وإنا له لحافظون دليلاً على أنه منزل من عنده آية إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه أو الضمير في له لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله والله يعصمك

طول الأمل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق (وما أهلكنا من قرية) يعني من أهل قرية وأراد هلاك الاستئصال (إلا ولها كتاب معلوم) أي أجل مضروب ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم إلا في الوقت الذي حد لهم في اللوح المحفوظ (ما تسبق من أمة أجلها) من زائدة في قوله من أمة كقولك ما جاءني من أحد يعني أحد وقيل هي على أصلها لأنها تفيد التبعيض إلى هذا الحكم فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد ومعنى الآية أن الأجل المضروب لهم وهو وقت الموت أو نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى (وما يستأخرون) وإنما أدخل الهاء في أجلها لإرادة الأمة وأخرجها من قوله وما يستأخرون لإرادة الرجال قوله عز وجل (وقالوا) يعني مشركي مكة (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) يعني القرآن وأرادوا به محمداً صلى الله عليه وسلم (إنك لمجنون) إنما نسبوه إلى الجنون لأنه صلى الله عليه وسلم كان يظهر عند نزول الوحي عليه ما يشبه الغشي فظنوا أن ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه إلى الجنون وقيل إن الرجل إذا سمع كلاماً مستغرباً من غيره فربما نسبه إلى الجنون ولما كانوا يستبعدون كونه رسولاً من عند الله وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه إلى الجنون وإنما قالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل معناه يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه واعتقاده واعتقاد أصحابه وأتباعه إنك لمجنون في ادعائك الرسالة (لوما) قال الزجاج والفراء لوما ولولا لغتان ومعناهما هلا يعني هلا (تأتينا بالملائكة) يعني يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقاً (إن كنت من الصادقين) يعني في قولك وادعائك الرسالة (ما ننزل الملائكة إلا بالحق) يعني بالعذاب أو وقت الموت وهو قوله تعالى (وما كانوا إذاً منظرين) يعني لو نزلت الملائكة إليهم لهلكوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك أن كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله عز وجل بهذا والمعنى لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال إن لم يؤمنوا ويصدقوا (إنا نحن نزلنا الذكر) يعني القرآن أنزلناه عليك يا محمد وإنما قال سبحانه وتعالى إنا نحن نزلنا الذكر جواباً لقولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر فأخبر الله عز وجل أنه هو الذي نزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم (وإنا له لحافظون) الضمير في له يرجع إلى الذكر يعني وإنا للذكر الذي أنزلناه على محمد لحافظون يعني

من الزيادة فيه والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفا واحدا أو كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقي مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وقال ابن السائب ومقاتل الكناية في له راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم يعني وانا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحسن صرف الكناية اليه لكونه أمرا معلوما الا ان القول الاول أصح وأشهر وهو قول الاكثرين لانه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية الى أقرب مذكور أولى وهو الذكر واذا قلنا ان الكناية عائدة الى القرآن وهو الاصح فاختلفوا في كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم حفظه بأن جعله معجزا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه لانهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغير نظمه وظهر ذلك لكل عاقل وعلموا ضرورة أن ذلك ليس بقرآن وقال آخرون ان الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق ان يعارضه وقال آخرون بل أعجز الله الخلق عن ابطاله وافساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لان دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على ابطاله وافساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الاولين) لما تجرأ كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم انك لمجنون وأساؤا الادب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان عادة الكفار في قديم الزمان مع أنبيائهم كذلك فلك يا محمد اسوة في الصبر على أذى قومك بجميع الانبياء ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وفي الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى في شيع الاولين الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل أتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان وقوله في شيع الاولين من باب اضافة الصفة الى الموصوف (وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) السلوك النفاذ في الطريق والدخول فيه والسلك ادخال الشيء في الشيء كادخال الخيط في المخيط ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الاولين كذلك نسلكه أي ندخله في قلوب المجرمين يعني مشركي مكة وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين آية في ثبوت القدر لمن اذعن للحق ولم يعاند قال الواحدي قال أصحابنا أضاف الله سبحانه وتعالى الى نفسه ادخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه وقال الامام فخر الدين الرازي احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب الكفار وقالوا قوله كذلك نسلكه أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائدا اليه وأجيب عنه بانه سبحانه وتعالى قال وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد اليه والاستهزاء بالانبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا ان المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين انه الكفر والضلال وقوله تعالى (لا يؤمنون به) يعني بمحمد

(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الاولين) أي ولقد أرسلنا من قبلك رسلا في الفرق الاولين والشيعة الفرقة اذا اتفقوا على مذهب وطريقة (وما يأتيهم) حكاية حال ماضية لان ما لا تدخل على مضارع الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال (من رسول الا كانوا به يستهزؤن) يعزي نبيه عليه السلام (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) اي كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء في شيع الاولين نسلكه أي الكفر والاستهزاء في قلوب المجرمين من أمتك من اختيار ذلك يقال سلكت الخيط في الابرة وأسلكته اذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة في الاصلح وخلق الافعال (لا يؤمنون به) بالله أو بالذكر وهو حال

صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن (وقد خلت سنة الاولين) فيه وعيد وتهديد لكفار مكة يخوفهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة للرسل والمعنى وقد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل من الامم الماضية فاحذروا يا أهل مكة أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) يعني ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا لو ما تأتينا بالملائكة بابا من السماء فظلوا يقال ظل فلان يفعل كذا اذا فعله بالنهار كما يقال بات يفعل كذا اذا فعله بالليل فيه يعني في ذلك الباب يعرجون يعني يصعدون والمعارج المصاعد وفي المشار اليه بقوله فظلوا فيه يعرجون قولان أحدهما أنهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك والمعنى لو كشف عن أبصار هؤلاء الكفار فرأوا بابا من السماء مفتوحا والملائكة تصعد فيه لما آمنوا والقول الثاني انهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ولقالوا انا سحرنا وهو قوله تعالى (لقالوا انما سكرت أبصارنا) قال ابن عباس سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر اذا حبس ومنع من الجري وقيل هو من سكر الشراب والمعنى ان أبصارهم حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من تغير العقل وفساد النظر وقيل سكرت يعني غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر وأصله من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر (بل نحن قوم مسحورون) يعني سحرنا محمد وعمل فينا سحره وحاصل الآية ان الكفار لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم الملائكة فيروهم عيانا ويشهدوا بصدقه أخبر الله سبحانه وتعالى انه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عيانا لما آمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم في الازل من الشقاوة قوله سبحانه وتعالى (ولقد جعلنا في السماء بروجا) البروج التي تنزلها الشمس في مسيرها واحدها برج وهي بروج الفلك الاثنا عشر برجا وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل وقد تقدم ذكر منازل القمر في تفسير سورة يونس وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس في هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال ابن عطية هي قصور في السماء عليها الحرس وقال الحسن ومجاهد وقتادة هي النجوم العظام قال أبو اسحق يريدون نجوم هذه البروج وهي نجوم على ماصور وشبه وسميت وأصل هذا كله من الظهور (وزيناها) يعني السماء بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) يعني المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها وهو الله الذي أوجد كل شئ وخلقه وصوره (وحفظناها) يعني السماء (من كل شيطان رجيم) أي مرجوم فعيل بمعنى مفعول وقيل ملعون مطرود من رحمة الله قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون من السموات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها الى الكهنة فيلقونها اليهم فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع الا رمي بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث في الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث (الا من استرق السمع) هذا استثناء منقطع معناه لكن

(وقد خلت سنة الأولين) مضت طريقتهم التي سنها الله في اهلاكهم حين كذبوا رسله وهو وعيد لاهل مكة على تكذيبهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء (فظلوا فيه يعرجون) يصعدون (لقالوا انما سكرت أبصارنا) حيرت أو حبست من الابصار من السكر أو من السكر وسكرت مكي أي حبست كما يحبس النهر من الجري والمعنى ان هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه اليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا هو شئ نتخايله لا حقيقة له ولقالوا (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد بذلك أو الضمير للملائكة أي لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانا لقالوا ذلك وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون وقال انما ليدل على أنهم يبتون القول بان ذلك ليس الا تسكيرا للابصار (ولقد جعلنا في السماء) خلقنا فيها (بروجا) نجوما أو قصورا فيها الحرس أو منازل النجوم (وزيناها) أي السماء (للناظرين وحفظناها) أي السماء (من كل شيطان رجيم) ملعون أو مرمي بالنجوم (الا من استرق السمع) أي المسموع ومن في محل النصب على الاستثناء

من استرق السمع (فأتبعه) أي لحقه (شهاب مبين) والشهاب شعلة من نار ساطع سمي الكوكب شهابا لاجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار قال ابن عباس في قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس في البوادي (خ) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له أليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء

﴿فصل﴾ اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا على قولين أحدهما انها لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما ظهر ذلك في بدء أمره فكان ذلك أساسا لنبوته صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب أخرجاه في الصحيحين فظاهر هذا الحديث يدل على ان هذا الرمي بالشهب لم يكن قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما بعث حدث هذا الرمي ويعضده ما روي أن يعقوب بن المغيرة بن الاخنس ابن شريق قال أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف وانهم جاؤا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أهدى العرب فقالوا له ألم تر ما حدث في السماء من القذف بالنجوم فقال بلى ولكن انظروا فان كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الانواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وان كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا الامر أراده الله من الخلق قال الزجاج ويدل على انها كانت بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أن شعراء العرب الذين ذكروا البرق والاشياء المسرعة لم يوجد في شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فلما حدثت بعد مولده صلى الله عليه وسلم استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة

كأنه كوكب في اثر عفرية ❊ مسوم في سواد الليل منقضب

والقول الثاني ان ذلك كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم قال معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أفرأيت قوله وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الانصار أنهم بينا هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ رمي بنجم واستنار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون في الجاهلية اذا رمي بمثل هذا قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانها لا يرمى بها لموت

(فأتبعه شهاب) نجم ينقض فيعود (مبين) ظاهر للبصر ين قيل كانوا لا يحجبون عن السموات كلها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها

أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه اذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح الى أهل هذه السماء ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال فيستخبر بعض أهل السماء بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفونه الى أوليائهم ويرمون فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه ولكن لم يكن في شدة الحراسة مثل بعد مبعثه قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبي حازم وهو جاهلي

فالعير يرهقها الغبار وجحشها • ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي

فانقض كالدري يتبعه • نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين ان الرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صونا لأخبار الغيوب والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (والارض مددناها) يعني بسطناها على وجه الماء كما يقال انها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير وزعم أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء وبعضها خارج عن الماء وهو الجزء المعمور منها واعتذروا عن قوله تعالى والارض مددناها بأن الكرة اذا كانت عظيمة كان كل جزء منها كالسطح العظيم فثبت بهذا الامر أن الارض ممدودة مبسوطة وانها كرة ورد هذا أصحاب التفسير بان الله أخبر في كتابه بانها ممدودة وانها مبسوطة ولو كانت كرة لاخبر بذلك والله أعلم بمراده وكيف مد الارض (وألقينا فيها رواسي) يعني جبالا ثوابت وذلك ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الارض على الماء مادت ورجفت فأثبتها بالجبال (وأنبتنا فيها) أي في الارض لان أنواع النبات المنتفع به تكون في الارض وقيل الضمير يرجع الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى (من كل شيء موزون) وانما يوزن ما تولد في الجبال من المعادن وقال ابن عباس وسعيد بن جبير موزون أي معلوم وقال مجاهد وعكرمة أي مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لان الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذي يحتاج اليه الناس في معايشهم وأرزاقهم فيكون اطلاق الوزن عليه مجازا لان الناس لا يعرفون مقادير الاشياء الا بالوزن وقال الحسن وعكرمة وابن زيد انه عني به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن لان هذه الاشياء كلها توزن وقيل معنى موزون متناسب في الحسن والهيئة والشكل تقول العرب فلان موزون الحركات اذا كانت حركاته متناسبة حسنة وكلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا من الخطا والسخف وقيل ان جميع ما ينبت في الارض والجبال نوعان أحدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني النبات وبعضه موزون أيضا وبعضه مكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك (ومن لستم له برازقين) يعني الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وتكون من في قوله تعالى ومن لستم بمعنى ما لان من لمن يعقل وما لمن لا يعقل وقيل يجوز اطلاق لفظة

(والارض مددناها) بسطناها من تحت الكعبة والجمهور على انه تعالى مدها على وجه الماء (وألقينا فيها رواسي) في الارض جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان أوله وزن وقدر في أبواب المنفعة والنعمة أو ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن (وجعلنا لكم فيها) في الارض (معايش) ما يعاش به من المطاعم جمع معيشة وهي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ (ومن لستم له برازقين) من في محل النصب بالعطف على معايش أو على محل لكم كانه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون انهم يرزقونهم ويخطؤن فان الله هو الرزاق يرزقهم واياهم ويدخل فيه الانعام والدواب ونحو ذلك ولا يجوز أن يكون محل من جرا بالعطف على الضمير المجرور في لكم لانه لا يعطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار

من على من لا يعقل كقوله تعالى فمنهم من يمشي على بطنه وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها أو يدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) الخزائن جمع خزانة وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء المحفوظ يقال خزنت الشيء إذا أحرزته فقيل أراد به مفاتيح الخزائن وقيل أراد بالخزائن المطر لأنه سبب الأرزاق والمعايش لبني آدم والدواب والوحش والطير ويعني عندنا أنه في حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم) يعني بقدر الكفاية وقيل إن لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا تنزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله تعالى وقيل إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوما ويحرم آخرين وقيل إذا أراد الله بقوم خيرا أنزل عليهم المطر والرحمة وإذا أراد بقوم شرا صرف المطر عنهم إلى حيث لا ينتفع به كالبراري والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده أنه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تأويل قوله وإن من شيء إلا عندنا خزائنه (وأرسلنا الرياح لواقح) قال ابن عباس يعني للشجر وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى إليها الماء فحملت فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود في تفسير هذه الآية يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فيدر كما تدر اللقحة وقال عبيد بن عمير يرسل الله الريح المبشرة فتقم الأرض قما ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاما ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والأظهر في هذه الآية إلقاحها السحاب لقوله بعده فأنزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وقال أبو عبيد لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت إلى الأصل وقال الزجاج يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألقحت غيرها لأن معناها النسبة كما يقال درهم وازن أي ذو وزن واعترض الواحدي على هذا فقال هذا ليس بشيء لأنه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين وأجاب الرازي عنه بأن قال هذا ليس بشيء لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة إلى اللقحة وقال صاحب المفردات لواقح أي ذات لقاح وقيل إن الريح في نفسها لاقح لأنها حاملة السحاب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى حتى إذا أقلت سحابا ثقالا أي حملت فعلى هذا تكون الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب وقال الزجاج ويجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بخير وورد في بعض الأخبار أن الملقح الرياح الجنوب وفي بعض الآثار ما هبت رياح الجنوب إلا وأنبعت عينا غدقة (ق) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عصفت الريح قال اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وروى البغوي بسنده إلى الشافعي إلى ابن عباس قال ما هبت ريح قط إلا جثا النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا قال ابن عباس في كتاب الله عز وجل إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فأرسلنا عليهم الريح العقيم وقال وأرسلنا الرياح لواقح وقال يرسل الرياح مبشرات وقوله سبحانه وتعالى (فأنزلنا من السماء ماء) يعني المطر (فأسقيناكموه) أي جعلنا المطر لكم سقيا يقال أسقى فلان فلانا إذا جعل له سقيا وسقاه إذا أعطاه ما يشرب

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به وما نعطيه إلا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور (وأرسلنا الرياح لواقح) جمع لاقحة أي وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل السحاب في جوفها كأنها لاقحة بها من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم الريح جزره (فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) فجعلناه لكم سقيا

وتقول العرب سقيت الرجل ماء ولبنا اذا كان لسقيه فاذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته يقال أسقيناه (وما أنتم له) يعني المطر (بخازنين) يعني ان المطر في خزائننا لا في خزائنكم وقيل وما أنتم له بمانعين (وانا لنحن نحيي ونميت) يعني بيدنا احياء الخلق واماتتهم لا يقدر على ذلك أحد الا الله سبحانه وتعالى لان قوله تعالى وانا لنحن يفيد الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا (ونحن الوارثون) وذلك بأن نميت جميع الخلق فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم في الحياة الدنيا لان وجود الخلق وما آتاهم كان ابتداء منه تعالى فاذا فني جميع الخلائق رجع الذي كانوا يملكونه في الدنيا على المجاز الى مالكه على الحقيقة وهو الله تعالى وقيل مصير الخلق اليه قوله عز وجل (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون في الصف الاول لئلا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فاذا ركع نظر من تحت ابطيه فأنزل الله عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين أخرجه النسائي وأخرجه الترمذي وقال فيه وقد روي عن ابن الجوزي نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون أصح قال البغوي وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من في قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها أخرجه مسلم عن أبي هريرة وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله بعد وقال مجاهد المستقدمون القرون الاولى والمستأخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن المستقدمون يعني في الطاعة والخير والمستأخرون يعني فيهما وقال الاوزاعي أراد بالمتقدمين المصلين في أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها الى آخره وقال مقاتل أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال وقال ابن عيينة أراد من يسلم أولا ومن يسلم آخرا وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم كانت بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ونشتري دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف [illegible] فنزلت هذه الآية ومعناها انما تجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون [illegible] الاول المستقدم للتقوى والمستأخر لانظر وعلى القول الاخير [illegible] المتأخر للعذر ومعنى الآية ان علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع [illegible] فانهم وعاصيهم لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه (وان ربك هو [illegible] على ما علم منهم وقيل ان الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الاولين [illegible] ماتوا عليه (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث [illegible] سبحانه وتعالى (ولقد خلقنا الانسان) يعني آدم عليه السلام في قول [illegible] الظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسي (من [illegible]) [illegible] اليابس الذي اذا نقرته سمعت له صلصلة يعني صوتا وقال ابن [illegible] الذي اذا انصب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو [illegible]

(وما أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله وان من شيء الا عندنا خزائنه كأنه قال نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وانزاله منها وما أنتم عليه بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم (وانا لنحن نحيي ونميت) أي نحيي بالايجاد ونميت بالافناء أو نميت عند انقضاء الآجال ونحيي لجزاء الاعمال على التقدم والتأخير اذ الواو للجمع المطلق (ونحن الوارثون) الباقون بعد هلاك الخلق كلهم وقيل للباقي وارث استعارة من وارث الميت لانه يبقى بعد فنائه (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم في الاسلام أو في الطاعة أو في صف الجماعة أو صف الحرب ومن تأخر (وان ربك هو يحشرهم) أي هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم (انه حكيم عليم) باهر الحكمة واسع العلم (ولقد خلقنا الانسان) أي آدم (من صلصال) طين يابس غير مطبوخ

وقال هو من صل اللحم إذا أنتن (من حمأ) يعني من الطين الأسود (مسنون) أي متغير قال مجاهد وقتادة هو المنتن المتغير وقال أبو عبيدة هو المصبوب تقول العرب سننت الماء إذا صببته قال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار والجمع بين هذه الأقاويل على ما ذكره بعضهم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الأرض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتن ريحها وتغيرت وإليه الإشارة بقوله إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء وخمره حتى اسود وأنتن ريحه وتغير وإليه الإشارة بقوله من حمأ مسنون ثم ذلك الطين الأسود المتغير صوره صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعني صوتا وإليه الإشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس إذا نقر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا قوله تعالى (والجان خلقناه من قبل) يعني من قبل آدم عليه السلام قال ابن عباس الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر وقال قتادة هو إبليس وقيل الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين وفي الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس وقال وهب إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الأعين من قولهم جن الليل إذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر (من نار السموم) يعني من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله ويقال للريح الحارة التي تكون بالنهار السموم وللريح الحارة التي تكون بالليل الحرور وقال أبو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء والحجاب فإذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة أن الكرة الرابعة تسمى كرة النار وقيل من نار السموم يعني من نار جهنم وقال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق منها الجان وتلا هذه الآية وقال ابن عباس كان إبليس من حي من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور قوله عز وجل (وإذ قال ربك للملائكة) أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة (إني خالق بشرا) سمي الآدمي بشرا لأنه جسم كثيف ظاهر والبشرة ظاهر الجلد (من صلصال من حمأ مسنون) تقدم تفسيره (فإذا سويته) يعني عدلت صورته وأتممت خلقه (ونفخت فيه من روحي) النفخ عبارة عن إجراء الريح في تجاويف جسم آخر ومنه نفخ الروح في النشأة الأولى وهو المراد من قوله ونفخت فيه من روحي وأضاف الله عز وجل روح آدم إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم له كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتي الكلام على الروح في تفسير سورة الإسراء عند قوله ويسألونك عن الروح إن شاء الله تعالى (فقعوا له ساجدين) الخطاب للملائكة الذين قال الله لهم إني خالق بشرا أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين وكان السجود سجود تحية لا سجود عبادة (فسجد الملائكة كلهم) يعني الذين أمروا بالسجود لآدم (أجمعون) قال سيبويه هذا توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم إزالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا أنهم سجدوا بأسرهم ثم عند هذا

(من حمأ) صفة لصلصال أي شكله من صلصال كائن من حمأ أي طين أسود متغير (مسنون) مصور وفي الأول كان ترابا فعجن بالماء فصار طينا فمكث فصار حمأ فخلص فصار سلالة فصور ويبس فصار صلصالا فلا تناقض (والجان) أبا الجن كآدم للناس أو هو إبليس وهو منصوب بفعل مضمر يفسره (خلقناه من قبل) من قبل آدم (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ في المسام قيل هذه السموم جزء من سبعين جزءا من سموم النار التي خلق الله منها الجان (وإذ قال ربك) واذكر وقت قوله (للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون (فإذا سويته) أتممت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها (ونفخت فيه من روحي) وجعلت فيه الروح وأحييته وليس ثمة نفخ وإنما هو تمثيل والإضافة للتخصيص (فقعوا له ساجدين) هو أمر من وقع يقع أي اسقطوا على الأرض يعني اسجدوا له ودخل الفاء لأنه جواب إذا وهو دليل على أنه يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله كلهم وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله أجمعون

(إلا إبليس) ظاهر الاستثناء يدل على أنه كان من الملائكة لأن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه وعن الحسن ان الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة قلنا غير المأمور ولا يسمى بالترك ملوما وقال في الكشاف كان بينهم مأمورا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب كقولك رأيتهم الا هندا (أبى أن يكون مع الساجدين) امتنع أن يكون معهم وأبى استئناف على تقدير قول قائل يقول هلا سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه وقيل معناه ولكن ابليس أبى (قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين) حرف الجر مع أن محذوف تقديره مالك في أن لا تكون مع الساجدين أي أي غرض لك في إبائك السجود (قال لم أكن لأسجد) اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني أن أسجد (لبشر خلقته ١١٣ من صلصال من حمإ مسنون قال

بقي احتمال آخر وهو انهم سجدوا في أوقات متفرقة أو في دفعة واحدة فلما قال أجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال وقول الخليل وسيبويه أجود لأن أجمعين معرفة فلا تكون حالا وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم قال لجماعة أخرى اسجدوا لآدم فسجدوا (إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين) يعني مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فسجدوا (قال) يعني قال الله (يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال) يعني ابليس (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون) أراد ابليس انه أفضل من آدم لأن آدم طيني الأصل وابليس ناري الأصل والنار أفضل من الطين فيكون ابليس في نفسه أفضل من آدم ولم يدر الخبيث ان الفضل فيما فضله الله تعالى (قال فاخرج منها) يعني من الجنة وقيل من السماء (فإنك رجيم) أي طريد (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) قيل ان أهل السموات يلعنون ابليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون في السماء والأرض فإن قلت ان حرف الى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذي هو يوم القيامة قلت لا بل يزداد عذابا الى اللعنة التي عليه كأنه قال تعالى وإن عليك اللعنة فقط الى يوم الدين ثم تزداد معها بعد ذلك عذابا دائما مستمرا لا انقطاع له (قال رب فأنظرني) يعني أخرني (إلى يوم يبعثون) يعني يوم القيامة وأراد بهذا السؤال انه لا يموت أبدا لأنه اذا أمهل الى يوم القيامة ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك انه لا يموت أبدا فلهذا السبب سأل الانظار الى يوم يبعثون فأجابه الله سبحانه وتعالى بقوله (قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الأولى فيقال ان مدة موت ابليس أربعون سنة وهو ما بين النفختين ولم تكن اجابة الله تعالى اياه في الامهال اكراما له بل كان ذلك الامهال زيادة له في بلائه وشقائه وعذابه وانما سمي يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم لأن ذلك اليوم لا يعلمه أحد الا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل لأن جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل ابليس الانظار الى يوم يبعثون أجابه الله بقوله فإنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم يعني اليوم الذي عينت وسألت الانظار اليه (قال رب بما أغويتني) الباء للقسم في قوله بما وما مصدرية وجواب القسم (لأزينن) والمعنى بما أغويتك اياي لأزينن لهم في الأرض وقيل هي باء السبب يعني بسبب كوني غاويا لأزينن (لهم

فاخرج منها) من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة (فإنك رجيم) مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون لأن اللعنة هو الطرد من الرحمة والابعاد منها (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) ضرب يوم الدين حد اللعنة لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به انك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض الى يوم الدين من غير أن تعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه (قال رب فأنظرني) فأخرني (إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة وقيل انما سأل الانظار الى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب الى ذلك وأنظر الى آخر أيام التكليف

(قال رب بما أغويتني) الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم والمعنى أقسم بإغوائك اياي (لأزينن لهم) المعاصي ونحو قوله بما أغويتني لأزينن لهم فبعزتك لأغوينهم في انه اقسام الا ان أحدهما اقسام بصفة الذات والثاني بصفة الفعل وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين والأصح ان الأيمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا وما لا فلا والآية حجة على المعتزلة في خلق الأعمال وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر

(في الارض) يعني لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك (ولأغوينهم أجمعين) يعني بالقاء الوسوسة في قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر واغوائهم ثم استثنى فقال (الا عبادك منهم المخلصين) يعني المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى الامن أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الاخلاص فعل الشئ خالصا لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلا يخلو اما أن يكون مراده بتلك الطاعة وجه الله فقط أو غير الله أو مجموع الامرين أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول وأما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود وأما من كان مراده مجموع الامرين فان ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجين وان ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لان المثل يقابله المثل فبقي القدر الزائد فالى أي الجانبين ترجح أخذ به (قال) يعني قال الله تبارك وتعالى (هذا صراط على مستقيم) قال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج الى شئ وقال الاخفش معناه على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائي هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أي لا تنفلت مني وقيل معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية وقيل هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق على والى يؤدي الى كرامتي ورضواني (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) أي قوة وقدرة وذلك ان ابليس لما قال لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم بهذا الكلام ان له سلطانا على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى انه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين أو لم يكن من المخلصين قال أهل المعاني ليس لك سلطان على قلوبهم وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان ان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم واجتباهم من عباده (الا من اتبعك من الغاوين) يعني الا من اتبع ابليس من الغاوين فان له عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به (وان جهنم لموعدهم أجمعين) يعني موعد ابليس وأشياعه وأتباعه (لها) يعني لجهنم (سبعة أبواب) يعني سبع طبقات قال علي بن أبي طالب تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أي سبعة أبواب بعضها فوق بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم جزء مقسوم) يعني لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشئ وجزأته جعلته أجزاء والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يجزئ اتباع ابليس سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم دركة من النار والسبب فيه ان مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار قال الضحاك في الدركة الاولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها وفي الثانية النصارى وفي الثالثة اليهود وفي الرابعة الصابئون وفي الخامسة المجوس وفي السادسة أهل الشرك وفي السابعة المنافقون فذلك قوله سبحانه وتعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله سبحانه وتعالى (ان المتقين في جنات وعيون)

(في الأرض) في الدنيا التي هي دار الغرور وأراد اني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الاكل من الشجرة وهو في السماء فأنا على التزيين لاولاده في الارض أقدر (ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وبكسر اللام بصري ومكي وشامي استثنى المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه (قال هذا صراط على مستقيم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) أي هذا طريق حق على أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي الا من اختار اتباعك منهم لغوايته وقيل معنى على الى على يعقوب من علو الشرف والفضل (وان جهنم لموعدهم أجمعين) الضمير للغاوين (لها سبعة أبواب لكل باب منهم) من أتباع ابليس (جزء مقسوم) نصيب معلوم مفرز قيل أبواب النار أطباقها وادراكها فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين (ان المتقين في جنات وعيون) وبضم العين مدني وبصري وحفص المتقي على الاطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه وقال في الشرح ان دخل أهل الكبائر في قوله لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر والا فالمراد به الذين اتقوا الشرك

المراد

المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك في قول جمهور المفسرين وقيل هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والجنات البساتين والعيون الانهار الجارية في الجنات وقيل يحتمل أن تكون هذه العيون غير الانهار الكبار التي في الجنة وعلى هذا فهل يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون أو تجري هذه العيون من بعضهم الى بعض وكلا الامرين محتمل فيحتمل ان كل واحد من أهل الجنة يختص بعيون تجري في جناته وقصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ويحتمل انها تجري من جنات بعضهم الى جنات بعض لانهم قد طهروا من الحسد والحقد (ادخلوها) أي يقال لهم ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته (بسلام آمنين) يعني ادخلوا الجنة مع السلامة والامن من الموت ومن جميع الآفات (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الغل الحقد الكامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد وكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لانها كامنة في القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد (اخوانا) يعني في المحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه اخوة النسب (على سرر) جمع سرير قال بعض أهل المعاني السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور وقال ابن عباس على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء الى الجابية (متقابلين) يعني يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه وفي بعض الاخبار ان المؤمن في الجنة اذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما الى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان (لا يمسهم فيها) يعني في الجنة (نصب) أي تعب ولا اعياء (وما هم منها) يعني من الجنة (بمخرجين) هذا نص من الله في كتابه على خلود أهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان قوله سبحانه وتعالى (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم) قال ابن عباس يعني لمن تاب منهم وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال يقول لك ربك يا محمد لم تقنط عبادي ذكره البغوي بغير سند (وأن عذابي هو العذاب الأليم) قال قتادة بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه يعني لقتل نفسه (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأدخل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار وفي الآية لطائف منها انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادي وهذا تشريف وتعظيم لهم ألا ترى انه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحان الذي أسرى بعبده ليلا فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل في هذا التشريف العظيم ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها قوله أني وثانيها أنا وثالثها ادخال الالف واللام في الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولما ذكر العذاب لم يقل اني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابي هو العذاب الأليم على سبيل الاخبار ومنها انه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة قوله سبحانه وتعالى

(ادخلوها) أي يقال لهم ادخلوها (بسلام) حال أي سالمين أو مسلما عليكم تسلم عليكم الملائكة (آمنين) من الخروج منها والآفات فيها وهو حال أخرى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) وهو الحقد الكامن في القلب أي ان كان لاحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن علي رضي الله عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم وقيل معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحابب (اخوانا) حال (على سرر متقابلين) كذلك قيل تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضا (لا يمسهم فيها نصب) في الجنة تعب (وما هم منها بمخرجين) فتمام النعمة بالخلود ولما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) تقريرا لما ذكر وتمكينا له في النفوس قال عليه السلام لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه في العبادة ولما أقدم على ذنب وعطف

[illegible] مبادى ليعتبروا بما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين
[illegible] عذابه هو العذاب الاليم (عن ضيف ابراهيم) أى أضيافه وهم جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكا
والضيف يجىء واحدا وجمعا لانه مصدر ضافه (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما أو سلمنا سلاما (قال) أى ابراهيم
(انا منكم وجلون) خائفون لامتناعهم من الاكل أو لدخولهم بغير اذن وبغير وقت (قالوا لا توجل) لا تخف (انا نبشرك)
استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل أى انك مبشر آمن فلا توجل وبالتخفيف وفتح النون حمزة (بغلام عليم) هو اسحق
لقوله فى سورة هود فبشرناها باسحق (قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر) أى أبشرتمونى مع مس الكبر بان يولد لى أى ان
الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر ١١٦ (فبم تبشرون) هى ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قيل فبأى أعجوبة
تبشرون وبكسر النون والتشديد مكى والاصل تبشروننى فادغم نون الجمع فى نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلا عليها تبشرون بالتخفيف نافع والاصل تبشروننى فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين الباقون بفتح النون وحذف المفعول والنون نون الجمع (قالوا بشرناك بالحق) باليقين الذى لا لبس فيه (فلا تكن من القانطين) من الآيسين من ذلك (قال) ابراهيم (ومن يقنط) وبكسر النون بصرى وعلى (من رحمة ربه الا الضالون) الا المخطئون طريق الصواب أو الا الكافرون كقوله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون أى لم
استنكر ذلك قنوطا من رحمته ولكن استبعادا له فى العادة التى أجراها (قال فما خطبكم) فما شأنكم الا
(أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) أى قوم لوط (الا آل لوط) يريد أهله المؤمنين والاستثناء منقطع لان القوم
موصوفون بالاجرام والمستثنى ليس كذلك أو متصل فيكون استثناء من الضمير فى مجرمين كأنه قيل الى قوم قد أجرموا كلهم الا
آل لوط وحدهم والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين لان آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الارسال يعنى انهم أرسلوا
الى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا الى آل لوط أصلا ومعنى ارسالهم الى القوم المجرمين كارسال السهم الى المرمى فى انه فى معنى
التعذيب والاهلاك كأنه قيل انا أهلكنا قوما مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم وأما فى المتصل فهم داخلون فى حكم الارسال
يعنى ان الملائكة أرسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء واذا انقطع الاستثناء جرى (انا لمنجوهم أجمعين) مجرى خبر
لكن فى الاتصال بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجون واذا اتصل كان كلاما مستأنفا كأن ابراهيم عليه السلام قال

(ونبئهم عن ضيف ابراهيم) هذا معطوف على ما قبله أى وأخبر يا محمد عبادى عن ضيف ابراهيم
وأصل الضيف الميل يقال ضفت الى كذا اذا أملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت
الضيافة متعارفة فى القرى وأصل الضيف مصدر ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامة
كلامهم وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف ابراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم
الله سبحانه وتعالى ليبشروا ابراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط (اذ دخلوا عليه) يعنى اذ دخل
الاضياف على ابراهيم عليه السلام (فقالوا سلاما) أى نسلم سلاما (قال) يعنى ابراهيم (انا منكم
وجلون) أى خائفون وانما خاف ابراهيم منهم لانهم لم يأكلوا طعامه (قالوا لا توجل) يعنى لا تخف
(انا نبشرك بغلام عليم) يعنى أنهم بشروه بولد ذكر غلام فى صغره عليم فى كبره وقيل عليم بالاحكام
والشرائع والمراد به اسحق عليه السلام فلما بشروه بالولد تعجب ابراهيم من كبره وكبر امرأته
(قال أبشرتمونى) يعنى بالولد (على ان مسنى الكبر) يعنى على حالة الكبر قاله على طريق التعجب
(فبم تبشرون) يعنى فبأى شئ تبشرون وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد
على الكبر (قالوا بشرناك بالحق) يعنى بالصدق الذى قضاه الله بان يخرج منك ولدا ذكرا تكثر
ذريته وهو اسحق (فلا تكن من القانطين) يعنى فلا تكن من الآيسين من الخير والقنوط
هو الاياس من الخير (قال) يعنى ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) يعنى من
ييأس من رحمة ربه الا المكذبون وفيه دليل على ان ابراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين
ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة ان به قنوطا فنفى ذلك عن نفسه وأخبر
ان القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لان القنوط من رحمة الله كبيرة كالامن من
مكر الله ولا يحصل الا عند من يجهل كون الله تعالى قادرا على ما يريد ومن يجهل كونه سبحانه
وتعالى عالما بجميع المعلومات فكل هذه الامور سبب للضلالة (قال) يعنى ابراهيم (فما
خطبكم) يعنى فما شأنكم وما الامر الذى جئتم فيه (أيها المرسلون) والمعنى ما الامر الذى
جئتم به سوى ما بشرتمونى به من الولد (قالوا) يعنى الملائكة (انا أرسلنا الى قوم مجرمين) يعنى
لهلاك قوم مجرمين (الا آل لوط) يعنى أشياعه وأتباعه من أهل دينه (انا لمنجوهم أجمعين

لمهلكما إلا آل لوط فقالوا إنا لمنجوهم (إلا امرأته) مستثنى من الضمير المجرور في لمنجوهم وليس باستثناء من الاستثناء لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه بأن يقول أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته وهنا قد اختلف الحكمان لأن إلا آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين وإلا امرأته متعلق بمنجوهم فكيف يكون استثناء من استثناء لمنجوهم بالتخفيف حمزة وعلي (قدرنا) وبالتخفيف أبو بكر (إنها لمن الغابرين) الباقين في العذاب قيل لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح أن لأنه مع اسمه وخبره مفعول قدرنا ولكنه كقوله ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون وإنما أسند ١٧ ١ الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك (فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون) أي لا أعرفكم أي ليس عليكم زي السفر ولا أنتم من أهل الحضر فأخاف أن تطرقوني بشر (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه سرورك وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه أي يشكون ويكذبونك (وأتيناك بالحق) باليقين من عذابهم (وإنا لصادقون) في الإخبار بنزوله بهم (فأسر بأهلك بقطع من الليل) في آخر الليل أو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل (واتبع أدبارهم) وسر خلفهم لتكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة (وامضوا حيث تؤمرون) حيث أمركم الله بالمضي إليه وهو الشام أو مصر (وقضينا إليه ذلك الأمر) عدى قضينا بإلى لأنه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل وأوحينا إليه مقضيا مبتوتا وفسر ذلك الأمر بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر ودابرهم آخرهم أي يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد (مصبحين) وقت دخولهم في الصبح وهو حال من هؤلاء (وجاء أهل المدينة) سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور (يستبشرون) بالملائكة طمعا منهم في ركوب الفاحشة (قال) لوط (إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون) بفضيحة ضيفي لأن من أساء إلى ضيفي فقد أساء إلى

الا امرأته) يعني امرأة لوط (قدرنا) يعني قضينا وإنما أسند الملائكة القدر إلى أنفسهم وإن كان ذلك لله عز وجل لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ونحن فعلنا وإن كان قد فعلوه بأمر الملك (إنها لمن الغابرين) يعني لمن الباقين في العذاب والاستثناء من النفي إثبات ومن الإثبات نفي فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين (فلما جاء آل لوط المرسلون) وذلك أن الملائكة عليهم السلام لما بشروا إبراهيم بالولد وفرغوا مما أرسلوا به ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط (قال إنكم قوم منكرون) وإنما قال هذه المقالة لوط لأنهم دخلوا عليه وهم في زي شباب مرد حسان الوجوه فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة وقيل إن النكرة ضد المعرفة فقوله إنكم قوم منكرون يعني لا أعرفكم ولا أعرف من أي الأقوام أنتم ولا لأي غرض دخلتم علي فعند ذلك (قالوا) يعني الملائكة (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعني جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه (وأتيناك بالحق) يعني باليقين الذي لا شك فيه (وإنا لصادقون) يعني فيما أخبرناك به من إهلاكهم (فأسر بأهلك بقطع من الليل) يعني آخر الليل والقطع القطعة من الشيء وبعضه (واتبع أدبارهم) يعني واتبع آثار أهلك وسر خلفهم (ولا يلتفت منكم أحد) يعني حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع لذلك وقيل المراد الإسراع في السير وترك الالتفات إلى ورائه والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شيء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب (وامضوا حيث تؤمرون) قال ابن عباس يعني إلى الشام وقيل الأردن وقيل إلى حيث يأمركم جبريل وذلك أن جبريل أمرهم أن يسيروا إلى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط (وقضينا إليه ذلك الأمر) يعني وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر الذي حكمنا به على قومه وفرغنا منه ثم إنه سبحانه وتعالى فسر ذلك الأمر الذي قضاه بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) يعني أن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولا وفسره ثانيا تفخيما له وتعظيما لشأنه (وجاء أهل المدينة) يعني مدينة سدوم وهي مدينة قوم لوط (يستبشرون) يعني يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط والاستبشار إظهار الفرح والسرور وذلك أن الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم في المدينة وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك وكانوا شبانا مردا في غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط إلى داره طمعا منهم في ركوب الفاحشة (قال) يعني قال لوط لقومه (إن هؤلاء ضيفي) وحق على الرجل إكرام ضيفه (فلا تفضحون) يعني فيهم يقال فضحه يفضحه إذا أظهر

(واتقوا الله ولا تخزون) أي ولا تذلون بإذلال ضيفي من الخزي وهو الهوان وبالياء فيهما يعقوب (قالوا أولم ننهك عن العالمين) عن أن تجير منهم أحدا أو تدفع عنهم فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فأوعدوه وقالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين أو عن ضيافة الغرباء (قال هؤلاء بناتي) فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزا ولا تتعرضوا لهم (إن كنتم فاعلين) إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم فقالت الملائكة للوط عليه السلام (لعمرك إنهم لفي سكرتهم) أي في غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات (يعمهون) يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط تعظيما له والعمر والعمر واحد وهو البقاء إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح إيثارا للأخف لكثرة دوره على ألسنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمي (فأخذتهم الصيحة) صيحة جبريل عليه السلام (مشرقين) داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس (فجعلنا عاليها سافلها) رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء ثم قلبها والضمير للقرى قوم لوط (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين) للمتفرسين المتأملين كأنهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة (وإنها) وإن هذه القرى يعني آثارها (لبسبيل مقيم) ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل (إن في ذلك لآية للمؤمنين) لأنهم المنتفعون بذلك (وإن كان أصحاب الأيكة) وإن الأمر والشأن كان أصحاب الأيكة أي الغيضة (لظالمين) لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام

من أمره ما يلزمه العار بسببه (واتقوا الله) يعني خافوا الله في أمرهم (ولا تخزون) يعني ولا تخجلون (قالوا) يعني قوم لوط الذين جاؤوا إليه (أولم ننهك عن العالمين) يعني أولم ننهك عن أن تضيف أحدا من العالمين وقيل معناه أولم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك فإنا نريد أن نركب منهم الفاحشة وقيل معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين إذا قصدناه بالفاحشة (قال) يعني قال لوط لقومه الذين قصدوا أضيافه (هؤلاء بناتي) أزوجكم إياهن إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته (إن كنتم فاعلين) يعني ما آمركم به (لعمرك) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس معناه وحياتك يا محمد وقال ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته والعمر والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته قال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمي فحذف الخبر لأن في الكلام دلالة عليه (إنهم لفي سكرتهم) يعني في حيرتهم وضلالتهم وقيل في غفلتهم (يعمهون) يعني يترددون متحيرين وقال قتادة يلعبون (فأخذتهم الصيحة مشرقين) يعني حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذي نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) تقدم تفسيره في سورة هود (إن في ذلك) يعني الذي نزل بهم من العذاب (لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين وقال مجاهد للمتفرسين ويعضد هذا التأويل ما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ إن في ذلك لآيات للمتوسمين أخرجه الترمذي وقال حديث غريب الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست في فلان الخير وهو على نوعين أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات وإصابة الحدس والنظر والظن والتثبت والنوع الثاني ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والأخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضا وللناس في علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة قال الزجاج حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتين في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر في سمة الدلائل تقول توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته (وإنها) يعني قرى قوم لوط (لبسبيل مقيم) يعني بطريق واضح قال مجاهد بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل والمعنى أن آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدرس ولم يخف والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره (إن في ذلك) يعني الذي ذكر من عذاب قوم لوط وما نزل بهم (لآية للمؤمنين) يعني المصدقين بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) يعني كان أصحاب الأيكة وهي الغيضة واللام في قوله لظالمين للتأكيد

فانتقمنا منهم) فاهلكناهم لما كذبوا شعيبا (وانهما) يعني قرى قوم لوط والايكة (لبامام مبين) لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به فسمي به الطريق ومطامر البناء لانهما مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين يعني بتكذيبهم صالحا لان كل رسول كان يدعو الى الايمان بالرسل جميعا فمن كذب واحدا منهم فكأنما كذبهم جميعا او اراد صالحا ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون في ابن الزبير واصحابه (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) اي اعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا) اي ينقبون ١١٩ في الجبال بيوتا او يبنون من الحجارة (آمنين) لوثاقة البيوت واستحكامها من ان تنهدم ومن نقب اللصوص والاعداء او آمنين من عذاب الله يحسبون ان الجبال تحميهم منه (فأخذتهم الصيحة) العذاب (مصبحين) في اليوم الرابع وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الاموال النفيسة (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) الا خلقا ملتبسا بالحق لا باطلا وعبثا او بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الاعمال (وان الساعة) اي القيامة لتوقعها كل ساعة (لآتية) وان الله ينتقم لك فيها من اعدائك ويجازيك واياهم على حسناتك وسيآتهم فانه ما خلق السموات والارض وما بينهما الا لذلك (فاصفح الصفح الجميل) فاعرض عنهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء قيل هو منسوخ بآية السيف وان اريد به المخالقة فلا يكون منسوخا (ان ربك هو الخلاق) الذي خلقك وخلقهم (العليم) بحالك وحالهم فلا يخفى عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم (ولقد آتيناك سبعا) اي سبع آيات وهي الفاتحة او سبع سور وهي الطوال واختلف في السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما وقيل سورة يونس او اسباع القرآن (من المثاني) هي من التثنية وهي التكرير لان الفاتحة مما يتكرر في الصلاة او من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله الواحدة مثناة او مثنية صفة للآية واما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كأنها تثني على الله واذا جعلت السبع مثاني فمن للتبيين واذا جعلت القرآن مثاني فمن للتبعيض (والقرآن العظيم) هذا ليس بعطف

لنا كيدوهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوما كافرين فبعث الله عز وجل اليهم شعيبا رسولا فكذبوه فأهلكهم الله فهو قوله تعالى (فانتقمنا منهم) يعني بالعذاب وذلك ان الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة ايام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فالتجؤا اليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم جميعا (وانهما) يعني مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الايكة (لبامام مبين) يعني بطريق واضح مستبين ان مر بهما وقيل الضمير راجع الى الايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما وانما سمي الطريق اماما لانه يؤم ويتبع ولان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذي يريده قوله عز وجل (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز واهل الحجاز الى الشام واراد بالمرسلين صالحا وحده وانما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم اولانهم كذبوه وكذبوا من قبله من الرسل (وآتيناهم آياتنا) يعني الناقة وولدها والآيات التي كانت في الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها وانما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) يعني عن الآيات (معرضين) يعني تاركين لها غير ملتفتين اليها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) يعني خوفا من الخراب أو أن يقع عليهم الجبل أو السقف (فأخذتهم الصيحة) يعني العذاب (مصبحين) يعني وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) يعني من الشرك والاعمال الخبيثة (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ان يصيبكم ما أصابهم الا ان تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي قوله سبحانه وتعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) يعني لاظهار الحق والعدل وهو أن يثاب المؤمن والمصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب (وان الساعة لآتية) يعني وان القيامة لتأتي ليجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته (فاصفح الصفح الجميل) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي فأعرض عنهم يا محمد واعف عنهم عفوا حسنا واحتمل ما تلقى من أذى قومك وهذا الصفح والاعراض منسوخ بآية القتال وقيل فيه بعد لان الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يظهر الخلق الحسن وان يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف (ان ربك هو الخلاق العليم) يعني انه سبحانه وتعالى خلق خلقه وعلم ما هم فاعلوه وما يصلحهم قوله عز وجل (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) قال ابن الجوزي سبب نزولها

ان سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله هذه الآية وقال قد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله لا تمدن عينيك الآية قاله الحسين بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف أولا يصح لان هذه السورة مكية باجماع أهل التفسير وليس فيها من المدني شيء ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة وكيف يصح أن يقال ان سبع قوافل جاءت في يوم واحد فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية وأخبرهم ان هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل والله أعلم وفي المراد بالسبع المثاني أقوال أحدها انها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وفي رواية عنه وابن عباس وفي رواية الاكثرين عنه وأبي هريرة والحسن وسعيد بن جبير وفي رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة في آخرين ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن أبي سعيد بن المعلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته أخرجه البخاري وفيه زيادة أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني فلأنها سبع آيات باجماع أهل العلم واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني فقال ابن عباس والحسن وقتادة لانها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة وقيل لانها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين فنصفها الاول ثناء على الله ونصفها الثاني دعاء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين الحديث مذكور في فضل الفاتحة وقيل سميت مثاني لان كلماتها مثناة مثل قوله الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين فكل هذه ألفاظ مثناة وقال الحسين بن الفضل لانها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك وقال مجاهد لان الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الامة فلم يعطها لغيرهم وقال أبو زيد البلخي لانها تثني أهل الشر عن الشر من قول العرب ثنيت عناني وقال ابن الزجاج سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه واذا ثبت كون الفاتحة هي السبع المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وانها من أفضل سور القرآن لان افرادها بالذكر في قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم مع انها جزء من أجزاء القرآن واحدى سوره لا بد وان يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة القول الثاني في تفسير قوله سبعا من المثاني انها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وابن مسعود في رواية عنه وابن عباس وفي رواية عنه وسعيد بن جبير وفي رواية عنه السبع الطوال هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف واختلفوا في السابعة فقيل الانفال مع براءة لانهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وقيل السابعة هي سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الانجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني وفضلني ربي بالمفصل أخرجه البغوي باسناد الثعلبي قال ابن عباس انما سميت السبع الطوال مثاني لان الفرائض والحدود والامثال والخبر والعبر ثنيت فيها وأورد على هذا

الشيء على نفسه لانه اذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لانه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعني سورة يوسف واذا أريد به الاسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم أي الجامع لهذين النعتين وهو التثنية أو الثناء والعظم ثم قال لرسوله

القول ان هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهي مكية وأجيب عن هذا الايراد بأن الله سبحانه وتعالى حكم في سابق علمه بانزال هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم واذا كان الامر كذلك صح ان تفسر هذه الآية بهذه السور القول الثالث ان السبع المثاني هي السور التي هي دون الطوال وفوق المفصل وهي المئين وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطاني مكان الزبور المثاني والقول الرابع ان السبع المثاني هي القرآن كله وهذا قول طاوس وحجة هذا القول ان الله سبحانه وتعالى قال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني وسمى القرآن كله مثاني لان الاخبار والقصص والامثال تثنت فيه فان قلت كيف يصح عطف القرآن في قوله والقرآن العظيم على قوله سبعا من المثاني وهل هو الا عطف الشيء على نفسه قلت اذا عني بالسبع المثاني فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لان القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى الى قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعني سورة يوسف عليه السلام واذا عني بالسبع المثاني القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعا من المثاني وهي القرآن العظيم وانما سمي القرآن عظيما لانه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم قوله (لا تمدن عينيك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي لا تمدن عينيك يا محمد (الى ما متعنا به أزواجا) يعني أصنافا (منهم) يعني من الكفار متمنيا لها نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها والمعنى انك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات الى الدنيا والرغبة فيها روي ان سفيان بن عيينة تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن يعني لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية وقيل انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا أدام النظر اليه مستحسنا له فيحصل له من ذلك تمني ذلك الشيء المستحسن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى شيء من متاع الدنيا ولا يلتفت اليه ولا يستحسنه (ولا تحزن عليهم) يعني ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل ولا تحزن على ايمانهم اذا لم يؤمنوا ففيه النهي عن الالتفات الى أموال الكفار والالتفات اليهم أيضا وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغبطن فاجرا بنعمته فانك لا تدري ما هو لاق بعد موته ان له عند الله قاتلا لا يموت قيل لابن أبي مريم ما قاتلا لا يموت قال النار (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر الى أسفل منه لفظ البخاري ولمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم قال عوف ابن عبد الله بن عتبة كنت أصحب الاغنياء فما كان أحد أكثر هما مني كنت أرى دابة خيرا من دابتي وثوبا خيرا من ثوبي فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت وقوله سبحانه وتعالى (واخفض جناحك) يعني لين جانبك (للمؤمنين) وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات الى الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين (وقل) أي وقل لهم يا محمد (اني أنا النذير المبين) لما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به اليهم والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى اني أنا النذير بالعقاب ان عصاني المبين النذارة (كما أنزلنا على المقتسمين) يعني أنذركم عذابا كعذاب أنزلناه بالمقتسمين قال ابن عباس أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى وهو

(لا تمدن عينيك) أي لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له (الى ما متعنا به أزواجا منهم) أصنافا من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعني قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وان عظمت فهي اليها حقيرة وهي القرآن العظيم فعليك ان تستغني به ولا تمدن عينيك الى متاع الدنيا وفي الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وحديث أبي بكر من أوتي القرآن فرأى ان أحدا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا (ولا تحزن عليهم) أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم انهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الاسلام والمسلمون (واخفض جناحك للمؤمنين) وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطب نفسا عن ايمان الاغنياء (وقل) لهم (اني أنا النذير المبين) أنذركم ببيان وبرهان ان عذاب الله نازل بكم (كما أنزلنا) متعلق بقوله ولقد آتيناك أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا (على المقتسمين) وهم أهل الكتاب

قول الحسن ومجاهد وقتادة سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة إنهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لي وقال آخر هذه السورة لي وإنما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد إنهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفروا ببعضها وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم وقال قتادة وابن السائب أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت في القرآن فقال بعضهم إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين فقال لهم انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم إنه كاهن وليقل بعضكم إنه شاعر وليقل بعضكم إنه ساحر فإذا ما جاؤا إلى صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب لا تغتروا بهذا الخارج الذي يدعي النبوة منا فإنه مجنون كاهن وشاعر وقعد الوليد ابن المغيرة على باب المسجد الحرام فإذا جاؤا وسألوه عما قال أولئك المقتسمون قال صدقوا وقوله سبحانه وتعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين قال هم اليهود والنصارى جزؤه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض قيل هو جمع عضة من قولهم عضيت الشيء إذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك لأنهم جعلوا القرآن أجزاء مفرقة فقال بعضهم هو سحر وقال بعضهم هو كهانة وقال بعضهم هو أساطير الأولين وقيل هو جمع عضة وهو الكذب والبهتان وقيل المراد به العضه وهو السحر يعني أنهم جعلوا القرآن سحرا (فوربك لنسألنهم أجمعين) أقسم الله بنفسه أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين (عما كانوا يعملون) يعني عما كانوا يقولونه في القرآن وقيل عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي وقيل يرجع الضمير في لنسألنهم إلى جميع الخلق المؤمن والكافر لأن اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من أهل العلم عن لا إله إلا الله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن قول لا إله إلا الله أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقال أبو العالية يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين فإن قلت كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان قلت قال ابن عباس لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم به منهم ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمده قطرب فقال السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان يعني سؤال استعلام وقوله لنسألنهم أجمعين سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر وهو مروي عن ابن عباس أيضا أنه قال في الآيتين إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى هذا يوم لا ينطقون وقال تعالى في آية أخرى ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قوله سبحانه وتعالى (فاصدع بما تؤمر) قال ابن

(الذين جعلوا القرآن عضين) أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء حيث قالوا بعناد منهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه وقيل كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول الآخر سورة آل عمران لي أو أريد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم وقد اقتسموه اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوبا بالنذير أي أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر ويقول الآخر كذاب والآخر شاعر فأهلكهم الله ولا تمدن عينيك على الوجه الأول اعتراض بينهما لأنه لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الأمر بأن يقبل بكليته على المؤمنين (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحدا واحدا من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في القرآن أو في كتب الله (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به وأظهره يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا من الصديع وهو الفجر أو فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو الإبانة بما تؤمر والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ابن عباس أظهره وروي عنه أمضه وقال الضحاك أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أي افرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة وتبليغ الرسالة الى من أرسل اليهم قال عبد الله بن عبيدة مازال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (وأعرض عن المشركين) أي اكفف عنهم ولا تلتفت الى لومهم على اظهار دينك وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم وهو قوله سبحانه وتعالى (انا كفيناك المستهزئين) أكثر المفسرين على أن هذا الاعراض منسوخ بآية القتال وقال بعضهم ما للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا يكون منسوخا وقوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحدا غيري فاني أنا كافيك وحافظك ممن عاداك فانا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش كانوا يستهزؤن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهم الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والاسود بن المطلب بن الحرث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال اللهم أعم بصره وأثكله ولده والاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحرث بن قيس بن الطلاطلة كذا ذكره البغوي وقال ابن الجوزي الحرث بن قيس بن عيطلة وقال الزهري عيطلة أمه وقيس أبوه فهو منسوب الى أبيه وأمه قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستهزؤن يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال قد كفيته وأومأ الى ساق الوليد فمر الوليد برجل من خزاعة نبال يريش نبالا له وعليه بردان وهو يجر ازاره فتعلقت شظية من النبل بازار الوليد فمنعه الكبر أن يطاطئ رأسه فينزعها وجعلت تضرب في ساقه فخدشته فمرض منها فمات ومر بهما العاص بن وائل السهمي فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله فأشار جبريل الى أخمص قدمه وقال قد كفيته فخرج العاص على راحلته يتنزه ومعه ابناه فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطئ شبرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيأ وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ومر بهما الاسود بن المطلب فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأشار جبريل بيده الى عينيه وقال قد كفيته فعمي قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وفي رواية الكلبي قال أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال له غلامه ما أرى أحدا يصنع بك شيأ غيرك فمات وهو يقول قتلني رب محمد ومر بهما الاسود بن عبد يغوث فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله على أنه خالي فقال جبريل قد كفيته وأشار الى بطنه فاستسقى بطنه فمات وفي رواية الكلبي انه خرج من أهله فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب فمات وهو يقول قتلني رب محمد ومر بهما الحرث بن قيس فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأومأ جبريل الى رأسه وقال قد كفيته فامتخط قيحا فقتله وقال ابن عباس انه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انقد بطنه فمات فذلك قوله تعالى

(وأعرض عن المشركين) هو أمر استهانة بهم (انا كفيناك المستهزئين) الجمهور على انها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم الوليد بن المغيرة مر بنبال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات والعاص ابن وائل دخل في أخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات والاسود بن عبد المطلب عمي والاسود بن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات والحرث بن قيس امتخط قيحا ومات

(إنا كفيناك المستهزئين) يعني بك وبالقرآن (الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون) يعني إذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد قوله سبحانه وتعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) يعني بسبب ما يقولون وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله (فسبح بحمد ربك) قال ابن عباس فصل بأمر ربك (وكن من الساجدين) يعني من المتواضعين لله وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة قال بعض العارفين من المحققين إن السبب في زوال الحزن عن القلب إذا أتى العبد بهذه العبادات أنه يتنور باطنه ويشرق قلبه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها ولا يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه وقال بعض العلماء إذا نزل بالعبد مكروه ففزع إلى الصلاة فكأنه يقول يا رب إنما يجب علي عبادتك سواء أعطيتني ما أحب أو كلفتني ما أكره فأنا عبدك وبين يديك فافعل بي ما تشاء قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) يعني الموت الموقن به الذي لا يشك فيه أحد والمعنى واعبد ربك في جميع أوقاتك ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً روى البغوي بسنده عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وعن عمر قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون ذكره البغوي بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة النحل﴾

مكية إلا قوله تعالى وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به إلى آخر السورة فإنها نزلت بالمدينة في قتل حمزة قاله ابن عباس وفي رواية أخرى عنه أنها مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إلى قوله يعملون وقال قتادة هي مكية إلا خمس آيات وهي قوله والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا وقوله ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله تعالى وإن عاقبتم إلى آخر السورة زاد مقاتل وقوله من كفر بالله من بعد إيمانه الآية وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة الآية وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها وهي مائة وثمان وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (أتى أمر الله) يعني جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع المجيء بعد ما أتى ومعنى الآية أتى أمر الله وعداً (فلا تستعجلوه) يعني وقوعاً والمراد به مجيء القيامة قال ابن عباس لما نزل قوله سبحانه وتعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار بعضهم لبعض إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم

تعملون

(الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم يوم القيامة (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) فيك أو في القرآن أو في الله (فسبح بحمد ربك) وكن من الساجدين) فافزع فيما نابك إلى الله والفزع إلى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم (واعبد ربك) ودم على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) أي الموت يعني ما دمت حياً فاشتغل بالعبادة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة

﴿سورة النحل مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيباً بالوعد فقيل لهم (أتى أمر الله) أي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه (فلا تستعجلوه)

تعملون حتى ننظر ما هو كائن قالوا أو انه لا ينزل شيء قالوا ما نرى شيئاً فنزل قوله تعالى اقترب للناس
حسابهم فأشفقوا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب
النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه
فاطمأنوا والاستعجال طلب مجيء الشيء قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه
وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير باصبعيه يمدهما أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن
سعد (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل
احداهما على الاخرى وضم السبابة الى الوسطى وفي رواية بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل
هذه على الاخرى قال ابن عباس كان مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ولما مر
جبريل بأهل السموات مبعوثاً الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وقال
قوم المراد بالامر هنا عقوبة المكذبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك ان النضر بن الحرث
قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم
فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية وقتل النضر يوم بدر صبراً (سبحانه وتعالى عما يشركون)
يعني تنزه الله وتعاظم بالاوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون قوله سبحانه وتعالى (ينزل
الملائكة بالروح) يعني بالوحي (من أمره) وانما سماه روحاً لانه تحيا به القلوب من موت
الجهالات وقال عطاء بالنبوة وقال قتادة بالرحمة وقيل الروح هو جبريل والباء بمعنى مع يعني ينزل
الملائكة مع الروح وهو جبريل (على من يشاء من عباده) يعني على من يصطفيه من عباده
للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي الى الخلق (أن أنذروا) يعني بأن اعلموا (أنه لا اله الا أنا فاتقون)
أي فخافون وقيل معناه مروا بقول لا اله الا الله منذرين يعني مخوفين بالقرآن (خلق السموات
والارض بالحق تعالى عما يشركون) تقدم تفسيره (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم
مبين) يعني انه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت في أبي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء
بعظم رميم الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتزعم ان الله يحيي هذا العظم بعد ما رم فنزلت فيه
هذه الآية ونزل فيه أيضاً قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم والصحيح ان الآية عامة
في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى وفيها بيان القدرة وان
الله خلق الانسان من نطفة قذرة فصار جباراً كثير الخصومة وفيها كشف قبيح ما فعله الكفار
من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم قوله عز وجل (والانعام خلقها) لما ذكر الله سبحانه
وتعالى أنه خلق السموات والارض ثم أتبعه بذكر خلق الانسان ذكر بعده ما ينتفع به في سائر
ضروراته ولما كان أعظم ضرورات الانسان الى الاكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن
الانسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك وهو الانعام فقال تعالى والانعام خلقها وهي
الابل والبقر والغنم قال الواحدي تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال تعالى
(لكم فيها دفء) قال ويجوز أيضاً أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها

سبحانه وتعالى عما يشركون) تبرأ جل وعز من أن يكون له شريك وعن اشراكهم فما موصولة أو مصدرية واتصال هذا
باستعجالهم من حيث ان استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك (ينزل الملائكة) وبالتخفيف مكي وأبو عمرو (بالروح)
بالوحي أو بالقرآن لأن كلا منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد أو يحيي القلوب الميتة بالجهل (من أمره على
من يشاء من عباده أن أنذروا) أن مفسرة لان تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى أنذروا (أنه لا اله الا أنا فاتقون) اعلموا بأن الامر ذلك من نذرت بكذا اذا علمته والمعنى أعلموا الناس قولي لا اله الا أنا فاتقون فخافون وبالياء يعقوب ثم دل على وحدانيته وأنه لا اله الا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والارض وهو قوله (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) وبالتاء في الموضعين حمزة وعلي وخلق الانسان وما يكون منه وهو قوله (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) أي فاذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح لخصومه مبين لحجته بعد ما كان نطفة لا حس به ولا حركة أو فاذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيي العظام وهي رميم وهو وصف للانسان بالوقاحة والتمادي في
كفران النعمة وخلق ما لا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته وهو قوله (والانعام خلقها
لكم) هي الازواج الثمانية وأكثر ما تقع على الابل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر قدرناه منازل أو
بالعطف على الانسان أي خلق الانسان والانعام ثم قال خلقها لكم أي ما خلقها الا لكم يا جنس الانسان (فيها دفء) هو
اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر

(ومنافع) يعني نسلها ودرها (ومنها تأكلون) قدم الظرف وهو يؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها لان الاكل منها هو الاصل الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه (ولكم ١٢٦ فيها جمال حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) ترسلونها بالغداة الى مسارحها من الله تعالى بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها لانه من اغراض أصحاب المواشي لان الرعيان اذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الافنية وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس وانما قدمت الاراحة على التسريح لان الجمال في الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع (وتحمل أثقالكم) احمالكم (الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس) وبفتح الشين أبو جعفر وهما لغتان في معنى المشقة وقيل المفتوح مصدر شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذي هو الصدع وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد والمعنى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تخلق الابل الا بجهد ومشقة فضلا أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم أو معناه لم تكونوا بالغيه بها الا بشق الانفس وقيل أثقالكم أبدانكم ومنه الثقلان للجن والانس ومنه وأخرجت الارض أثقالها أي بني آدم (ان ربكم لرؤف رحيم) حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح

يعلقه

دفء قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدأ بقوله لكم فيها دفء والدليل عليه أنه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال ولما كانت منافع هذه الانعام منها ضرورية ومنها غير ضرورية بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية فقال تعالى لكم فيها دفء وهو ما يستدفأ به من اللباس والاكسية وغيرها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار الحاصلة من النعم (ومنافع) يعني النسل والدر والركوب والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام (ومنها تأكلون) يعني من لحومها فان قلت قوله تعالى ومنها تأكلون يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها قلت الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فغير معتد به في الاغلب وأكله يجري مجرى التفكه بمفرج ومنها تأكلون مخرج الاغلب في الاكل من هذه الانعام فان قلت منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الاكل وقدم منفعة اللباس قلت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الاكل فلهذا قدم على الاكل وقوله سبحانه وتعالى (ولكم فيها) أي في الانعام (جمال) أي زينة (حين تريحون وحين تسرحون) الاراحة رد الابل بالعشي الى مراحها حيث تأوي اليه بالليل ويقال سرح القوم ابلهم تسريحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى قال أهل اللغة وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما تكون النعم في ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لانه من اغراض أصحاب المواشي بل هو من معظمها لان الرعاة اذا سرحوا النعم بالغداة الى المرعى وروحوها بالعشي الى الافنية والبيوت يسمع للابل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا فعند ذلك يفرح أربابها وتتجمل بها الافنية والبيوت ويعظم وقعها عند الناس فان قلت لم قدمت الاراحة على التسريح قلت لان الجمال في الاراحة وهو رجوعها الى البيوت أكثر منه وقت التسريح لان النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية فثبت بهذا البيان ان التجمل في الاراحة أكثر منه في التسريح فوجب تقديمه وقوله سبحانه وتعالى (وتحمل أثقالكم) الاثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج اليه من آلات السفر (الى بلد) يعني غير بلدكم قال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشام وانما قال ابن عباس هذا القول لانه خطاب لاهل مكة وأكثر تجاراتهم وأسفارهم الى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لانه خطاب عام فدخول الكافة به أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين (لم تكونوا بالغيه) يعني بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه (الا بشق الانفس) يعني بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشيء والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها (ان ربكم لرؤف رحيم) يعني

بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع قوله سبحانه وتعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) هذه الآية عطف على ما قبلها والمعنى وخلق هذه الحيوانات لأجل أن تركبوها والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط والنساء (وزينة) يعني وجعلها زينة مع المنافع التي فيها

﴿فصل﴾ احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال هذه للركوب واليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله واستدلوا أيضا بأن منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر لأن الله سبحانه وتعالى خص الانعام بالاكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للاكل وذهب جماعة من أهل العلم الى اباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأحمد واسحق واحتجوا على اباحة لحوم الخيل بما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه وفي رواية قالت ذبحنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فأكلناه أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وفي رواية قال أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم وفي رواية أبي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك وانما خص هاتان المنفعتان بالذكر لانهما معظم المقصود قالوا ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله في الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من هذا تحريم حمل الاثقال على الخيل وقال البغوي ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضي أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه دار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير فأخذنا بها جمعا بين النصين والله أعلم وقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التي ينتفع بها الانسان في جميع حالاته ضرورياته على سبيل التفصيل ذكر بعدها ما لا ينتفع به الانسان في الغالب على سبيل الاجمال لأن مخلوقات الله عز وجل في البر والبحر والسموات أكثر من أن تحصى أو يحيط بها عقل أحد أو وهمه فلهذا ذكرها على الاجمال وقال بعضهم ويخلق ما لا تعلمون يعني ما أعد الله لاهل الجنة في الجنة ولاهل النار في النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة في قوله ويخلق ما لا تعلمون يعني السوس في النبات والدود في الفواكه قوله سبحانه وتعالى (وعلى الله قصد السبيل) القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا أداك الى مطلوبك وفي الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين (ومنها جائر) يعني ومن السبيل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) عطف على الانعام أي وخلق هذه للركوب والزينة وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله على حرمة أكل لحم الخيل لانه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الاكل بعدما ذكره في الانعام ومنفعة الاكل أقوى والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنة أدنى النعمتين ويترك أعلاهما وانتصاب زينة على المفعول له عطفا على محل لتركبوها (ويخلق ما لا تعلمون) من أصناف خلائقه وهو قوله ويخلق ما لا تعلمون ومن هذا وصفه يتعالى عن أن يشرك به غيره (وعلى الله قصد السبيل) المراد به الجنس ولذا قال (ومنها جائر) والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه ومعناه ان هداية الطريق الموصل الى الحق عليه كقوله ان علينا للهدى وليس ذلك للوجوب اذ لا يجب على الله شيء ولكن يفعل ذلك تفضلا وقيل معناه والى الله وقال الزجاج معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء اليه بالحجج ومنها جائر أو من السبيل مائل عن الاستقامة

هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر وقال جابر بن عبد الله قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله قصد السبيل السنة ومنها جائر الاهواء والبدع (ولو شاء لهداكم أجمعين) فيه دليل على أن الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فقوله ولو شاء لهداكم أجمعين معناه ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم قوله عز وجل (هو الذي أنزل من السماء ماء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر من السماء وهو من أعظم النعم على العباد فقال وهو الذي أنزل من السماء يعني والله الذي خلق جميع الاشياء هو الذي أنزل من السماء ماء يعني المطر (لكم منه) يعني من ذلك الماء (شراب) يعني تشربونه (ومنه) يعني ومن ذلك الماء (شجر) الشجر في اللغة ماله ساق من نبات الارض ونقل الواحدي عن أهل اللغة انهم قالوا الشجر أصناف ما جل وعظم وهو الذي يبقى على الشتاء ومادق وهو صنفان أحدهما تبقى له أدومة في الشتاء وينبت في الربيع ومنها ما لا يبقى له ساق في الشتاء كالبقول وقال أبو اسحق كل ما ينبت على وجه الارض فهو شجر وأنشد * نطعمها اللحم اذا عز الشجر * أراد أنهم يسقون الخيل اللبن اذا أجدبت الارض وقال ابن قتيبة في هذه الآية يعني الكلأ ومعنى الآية انه ينبت بالماء الذي أنزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لان الابل ترعى كل الشجر (فيه) يعني في الشجر (تسيمون) يعني ترعون مواشيكم يقال أسمت السائمة اذا خليتها ترعى وسامت هي اذا رعت حيث شاءت (ينبت لكم) أي ينبت الله لكم وقرئ ننبت على التعظيم لكم (به) أي بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) لما ذكر الله في الحيوان تفصيلا وأجمل الاذكر في الثمار تفصيلا وأجمل الا فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما لان به قوام بدن الانسان وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لان ثمرتها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانها شبه النخلة في المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر سائر الثمرات اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمه على عباده ثم قال تعالى (ان في ذلك) يعني الذي ذكر من أنواع الثمار (لآية) يعني علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا (لقوم يتفكرون) يعني فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم) تقدم تفسيره في سورة الاعراف (مسخرات) يعني مذللات مقهورات تحت قهره وارادته وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فأخبر الله تعالى ان هذه النجوم مسخرات في نفسها مذللات (بأمره) يعني بأمر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء ويختار وانه ليس لها تصرف في نفسها فضلا عن غيرها ولما ذكر الله سبحانه وتعالى انه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) يعني ان كل من كان له عقل صحيح سليم علم أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال المختار وان جميع الخلق تحت قدرته وقهره وتسخيره لما أراد منهم (وما ذرأ لكم في الارض) يعني وما خلق لكم في الارض وسخر لاجلكم من الدواب والانعام والاشجار والثمار (مختلفا ألوانه) يعني في الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف ألوان المخلوقات مع

ماء لكم منه شراب) لكم متعلق بأنزل أو خبر لشراب وهو ما يشرب (ومنه شجر) يعني الشجر الذي ترعاه المواشي (فيه تسيمون) من سامت الماشية اذا رعت فهي سائمة وأسامها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة لانها تؤثر بالرعي علامات في الارض (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) ولم يقل كل الثمرات لان كلها لا تكون الا في الجنة وانما أنبت في الارض بعض من كلها للتذكرة (ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته والآية الدلالة الواضحة (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) بنصب الكل على وجعل النجوم مسخرات والنجوم مسخرات شامي بعض والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامي على الابتداء والخبر (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) جمع الآية وذكر العقل لان الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة (وما ذرأ لكم في الارض) معطوف على الليل والنهار أي ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك (مختلفا) حال (ألوانه

كثرتها

مع كثرتها حتى لا يشبه بعضها بعضا من كل الوجوه فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى (ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) يعني فيعتبرون بذلك قوله سبحانه وتعالى (وهو الذي سخر) لكم (البحر) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته من خلق السموات والارض وخلق الانسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته وعجائب صنعته وذكر انعامه في ذلك على عباده ذكر بعد ذلك انعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله عليهم ومعنى تسخير الله البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به اما بالركوب عليه أو بالغوص فيه أو الصيد منه فذكر هذه الثلاثة الاقسام من أنواع الانتفاع به فقال تعالى وهو الذي سخر البحر (لتأكلوا منه لحما طريا) فبدأ بذكر الاكل لانه أعظم المقصود لان به قوام البدن وفي ذكر الطري مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى وذلك ان السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الطري الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه انما حدث بقدرة الله وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله قادر على اخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) يعني اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لان زينة النساء بالحلي وانما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) يعني السفن (مواخر فيه) يعني جواري فيه قال قتادة مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر تجريان بريح واحدة وأصل المخر في اللغة الشق يقال مخرت السفينة مخرا اذا شقت الماء بجؤجؤها وقال مجاهد تمخر الرياح السفن يعني أنها اذا جرت يسمع لها صوت قال أبو عبيدة يعني صوائخ والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن مواخر يعني مواقر أي مملوءة متاعا (ولتبتغوا من فضله) يعني الارباح بالتجارة في البحر (ولعلكم تشكرون) يعني انعام الله عليكم اذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم (وألقى في الارض رواسي) يعني جبالا ثقالا (أن تميد بكم) يعني لئلا تميل وتضطرب بكم والميد هو اضطراب الشيء العظيم كالارض وقال وهب لما خلق الله سبحانه وتعالى الارض جعلت تمور وتضطرب فقالت الملائكة ان هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فاصبحوا وقد ارسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال (وأنهارا) يعني وجعل فيها انهارا لان في ألقى معنى الجعل فقوله سبحانه وتعالى وأنهارا معطوف على وألقى ولما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الانهار لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (وسبلا) يعني وجعل فيها طرقا مختلفة تسلكونها في أسفاركم والتردد في حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان (لعلكم تهتدون) يعني بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون (وعلامات) يعني وجعل فيها علامات تهتدون بها في أسفاركم قال بعضهم تم الكلام عند قوله وعلامات ثم ابتدأ (وبالنجم هم يهتدون) وقال محمد بن كعب والكلبي أراد بالعلامات الجبال والنجوم فالجبال

ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) يتعظون (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك ووصفه بالطراوة لان الفساد يسرع اليه فيؤكل سريعا طريا خيفة الفساد وانما لا يحنث باكله اذا حلف لا يأكل لحما لان مبنى الايمان على العرف ومن قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار ١٢٩ (وتستخرجوا منه حلية) هي اللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن انما يتزين بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم (وترى الفلك مواخر) جواري تجري جريا وتشق الماء شقا والمخر شق الماء بحيزومها (فيه) في البحر (ولتبتغوا من فضله) هو عطف على محذوف أي لتعتبروا ولتبتغوا وابتغاء الفضل التجارة (ولعلكم تشكرون) الله على ما أنعم عليكم به (وألقى في الارض رواسي) جبالا ثوابت (أن تميد بكم) كراهية أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم لكن حذف المضاف أكثر قيل خلق الله الارض فجعلت تميد فقالت الملائكة ما هي بمقر أحد على ظهرها فاصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت (وأنهارا) وجعل فيها أنهارا لان ألقى فيه معنى جعل (وسبلا) طرقا (لعلكم تهتدون) الى مقاصدكم أو الى توحيد ربكم (وعلامات) هي معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك (وبالنجم هم يهتدون) المراد بالنجم الجنس أو هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي فان قلت وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد بهم قلت كأنه أراد قريشا كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ولهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا

علامات النهار والنجوم علامات الليل وقال مجاهد أراد بالكل النجوم فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدى به وقال السدي أراد بالنجم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدي فهذه يهتدى بها الى الطريق والقبلة وقال قتادة انما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به قوله سبحانه وتعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) لما ذكر الله عز وجل من عجائب قدرته وغرائب صنعته وبديع خلقه ما ذكر على الوجه الاحسن والترتيب الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وانه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعا قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء أفمن يخلق يعني هذه الاشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق لها كمن لا يخلق يعني هذه الاصنام العاجزة التي لا تخلق شيأ البتة لانها جمادات لا تقدر على شيء فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها أو يترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الاشياء كلها ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله (أفلا تذكرون) يعني أن هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكره وفي الآية سؤالان الاول قوله كمن لا يخلق المراد به الاصنام وهي جمادات لا تعقل فكيف عبر عنها بلفظة من وهي لمن يعقل والجواب عنه ان الكفار لما سموا هذه الاصنام آلهة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل في زعمهم ألا ترى الى قوله بعد هذا والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيأ فخاطبهم على قدر زعمهم وعقولهم السؤال الثاني قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه الزام الحجة على من عبد الاصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لا يخلق والجواب عنه انه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه ان من خلق الاشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية والعبادة وكيف يليق بالعاقل ان يترك عبادة من يستحق العبادة لانه خالق هذه الاشياء الظاهرة كلها ويشتغل بعبادة جمادات لا تخلق شيأ البتة والله أعلم وقوله تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعني ان نعم الله على العبد فيما خلق فيه من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم والسمع الذي يفهم به الاشياء وبطش اليدين وسعي الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليه في نفسه وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج اليه من أمر الدين والدنيا لا تحصى حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمه العظام التي لا يمكن الوصول الى حصرها لجميع الخلق فذلك قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها يعني ولو اجتهدتم في ذلك وأتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه (ان الله لغفور) يعني لتقصيركم في القيام بشكر نعمه كما يجب عليكم (رحيم) يعني بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) يعني أن الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون يعني وما يظهرون من أذاه فأخبرهم الله عز وجل انه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا تخفى عليه خافية وان دقت وخفيت وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية ان الاله الذي يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وعلانيتها

(أفمن يخلق) أي الله تعالى (كمن لا يخلق) أي الاصنام وجيء بمن الذي هو لاولي العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم أو لان المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده وانما لم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره اياه لكونه الزاما للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله لانهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فأنكر عليهم ذلك بقوله أفمن يخلق كمن لا يخلق وهو حجة على المعتزلة في خلق الافعال (أفلا تذكرون) فتعرفون فساد ما أنتم عليه (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر وأتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيها على أن ما وراءها لا ينحصر ولا يعد (ان الله لغفور رحيم) يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتفريطكم (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) من أقوالكم وأفعالكم وهو وعيد

وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف الله هذه الاصنام بصفات فقال تعالى (والذين تدعون من دون الله) يعني الاصنام التي تدعونها آلهة من دون الله (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) فان قلت قوله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيأ فقوله سبحانه وتعالى لا يخلقون شيأ وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار قلت فائدته ان المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيأ فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيأ وأنهم مخلوقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار (أموات) أي جمادات ميتة لا حياة فيها (غير أحياء) يعني كغيرها والمعنى لو كانت هذه الاصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت لان الاله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت وهذه أموات غير أحياء فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها وقوله (وما يشعرون) يعني هذه الاصنام (أيان يبعثون) يعني متى يبعثون وفيه دليل على أن الاصنام تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها وقيل معناه ما يدري الكفار الذين عبدوا الاصنام متى يبعثون قوله سبحانه وتعالى (الهكم اله واحد) يعني ان الذي يستحق العبادة هو اله واحد وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) يعني جاحدة لهذا المعنى (وهم مستكبرون) يعني عن اتباع الحق لان الحق اذا تبين كان تركه تكبرا (لا جرم) يعني حقا (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين) يعني عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس قوله بطر الحق هو أن يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا وهذا على قول من جعل أصل البطر من الباطل ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماع الحق فلا يقبله ولا يجعله حقا وقيل البطر التكبر يعني أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله وقوله وغمط الناس يقال غمطت حق فلان اذا احتقرته ولم تره شيأ وكذا معنى غمصته أي انتقصته وازدريته قوله عز وجل (واذا قيل لهم) يعني لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها وطرقها اذا سألهم الحاج الذين يقدمون عليهم (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين) يعني أحاديثهم وأباطيلهم (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) اللام في ليحملوا لام العاقبة وذلك انهم لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعني ذنوب أنفسهم وانما قال سبحانه وتعالى كاملة لان البلايا التي أصابتهم في الدنيا وأعمال البر التي عملوها في الدنيا لا تكفر عنهم شيأ يوم القيامة بل يعاقبون بكل أوزارهم قال الامام فخر الدين الرازي وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا

(والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دون الله) وبالتاء عير عاصم (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون أموات) أي هم أموات (غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) نفي عنهم خصائص الالهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث وأثبت لهم صفات الخلق بانهم مخلوقون أموات جاهلون بالبعث ومعنى أموات ١٣١ غير أحياء انهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي غير جائز عليها الموت وأمرهم بالعكس من ذلك والضمير في يبعثون للداعين أي لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وان آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم وفيه دلالة على أنه لا بد من البعث (الهكم اله واحد) أي ثبت بما مر ان الالهية لا تكون لغير الله وان معبودكم واحد (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) للوحدانية (وهم مستكبرون) عنها وعن الاقرار بها (لا جرم) حقا (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أي سرهم وعلانيتهم فيجازيهم وهو وعيد (انه لا يحب المستكبرين) عن التوحيد يعني المشركين (واذا قيل لهم) لهؤلاء الكفار (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين) ماذا منصوب بأنزل أي أي شئ أنزل ربكم أو مرفوع على الابتداء أي أي شئ أنزله ربكم وأساطير خبر مبتدا محذوف قيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أساطير الاولين أي أحاديث الاولين وأباطيلهم واحدتها أسطورة واذا رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونهم بصدقه وانه نبي فهم الذين قالوا خيرا (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة

ومن أوزار الذين يضلونهم) أي قالوا ذلك اضلالا للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة وبعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الاضلال لان المضل والضال شريكان واللام للتعليل (بغير علم) حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال (ألا ساء ما يزرون) محل ما رفع (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد) أي من جهة القواعد وهي الاساطين وهذا تمثيل يعني أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى البنيان من الاساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا والجمهور على أن المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا اوأتى الله أي أمره بالاستئصال (فخر عليهم السقف من فوقهم

لتكميل فائدة وقوله [illegible]

الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع والسبب فيه ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس أو الكبير اذا سن سنة حسنة أو سنة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساويا للكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة وليس المراد ان الله تعالى يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه الاتباع الى الرؤساء لان ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى قال الواحدي ولفظة من في قوله ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ليست للتبعيض لانها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ ولكنها للجنس أي ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقوله بغير علم يعني ان الرؤساء انما يقدمون على اضلال غيرهم بغير علم بما يستحقونه من العقاب على ذلك الاضلال بل يقدمون على ذلك جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد (ألا ساء ما يزرون) يعني ألا بئس ما يحملون ففيه وعيد وتهديد لهم قوله سبحانه وتعالى (قد مكر الذين من قبلهم) يعني من قبل كفار قريش وهو نمرود بن كنعان الجبار وكان أكبر ملوك الارض في زمن ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان من مكره أنه بنى صرحا ببابل ليصعد الى السماء ويقاتل أهلها في زعمه قال ابن عباس وكان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصفته وألقت رأسه في البحر وخر عليهم الباقي فأهلكهم وهم تحته ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذي نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكانت قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا في قدم الزمان بالعربية ويدل على صحة هذا قوله ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى والله أعلم وقيل حمل قوله قد مكر الذين من قبلهم على العموم أولى فتكون الآية عامة في جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون الحاق الضرر والمكر بالغير وقوله سبحانه وتعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) يعني قصد تخريب بنيانهم من أصوله وذلك بأن أتاهم بريح فقصفت بنيانهم من أعلاه وأتاهم بزلزلة فقلعت بنيانهم من قواعده وأساسه هذا اذا حملنا تفسير الآية على القول الاول وهو ظاهر اللفظ وان حملنا تفسير الآية على القول الثاني وهو حملها على العموم كان المعنى أنهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر بئرا لاخيه أوقعه الله فيه وقوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) يعني سقط عليهم السقف فأهلكهم وقوله من فوقهم للتأكيد لان السقف لا يخر الا من

(وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون (ثم يوم القيامة يخزيهم) يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا (ويقول أين شركائي) على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم تشاقون نافع أي تشاقونني فيهم لأن مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله (قال الذين أوتوا العلم) أي الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم فلا يلتفتون إليهم ويشاقونهم يقولون ذلك شماتة بهم أو هم الملائكة (إن الخزي اليوم) الفضيحة (والسوء) العذاب (على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة) وبالياء حمزة وكذا ما بعده (ظالمي أنفسهم) بالكفر بالله (فألقوا السلم) أي الصلح والاستسلام أي أخبتوا وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) وجحدوا ما وجد منهم من الكفران والعداوة فرد عليهم أولو العلم وقالوا (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أيضا من الشماتة وكذلك (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) جهنم (وقيل للذين اتقوا) الشرك (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وإنما نصب هذا ورفع أساطير لأن التقدير هنا أنزل خيرا فأطبقوا الجواب على السؤال وثمة التقدير هو أساطير الأولين فعدلوا بالجواب عن السؤال (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) أي آمنوا وعملوا الصالحات أو قالوا لا إله إلا الله (حسنة) بالرفع أي ثواب وأمن وغنيمة وهو بدل من خيرا حكاية لقول الذين اتقوا أي قالوا هذا القول

فوقهم وقيل هذا على التمثيل والمعنى أنهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه فلما قال من فوقهم علم أنهم كانوا تحته وأنه لما خر عليهم أهلكوا وماتوا تحته (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعني في مأمنهم وذلك أنهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم (ثم يوم القيامة يخزيهم) يعني يهينهم بالعذاب وفيه إشعار بأن العذاب يحصل لهم في الدنيا والآخرة لأن الخزي هو العذاب مع الهوان (ويقول) يعني ويقول الله لهم يوم القيامة (أين شركائي) يعني في زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون فيهم) يعني كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم في شأنهم لأن المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه والمعنى ما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان (قال الذين أوتوا العلم) يعني المؤمنين وقيل الملائكة (إن الخزي) يعني الهوان (اليوم) يعني في هذا اليوم وهو يوم القيامة (والسوء) يعني العذاب (على الكافرين) وإنما يقول المؤمنون هذا يوم القيامة لأن الكفار كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا وينكرون عليهم أحوالهم فإذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق وأكرموا بأنواع الكرامات وأهين أهل الباطل وعذبوا بأنواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول إظهار الشماتة بهم فيكون أعظم في الهوان والخزي قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) تقبض أرواحهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه (ظالمي أنفسهم) يعني بالكفر (فألقوا السلم) يعني أنهم استسلموا وانقادوا لأمر الله الذي نزل بهم وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) يعني شركا وإنما قالوا ذلك من شدة الخوف (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) يعني فلا فائدة لكم في إنكاركم قال عكرمة عني بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر (فادخلوا) أي فقال لهم ادخلوا (أبواب جهنم خالدين فيها) يعني مقيمين فيها لا يخرجون منها وإنما قال ذلك لهم ليكون أعظم في الغم والحزن وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض (فلبئس مثوى المتكبرين) يعني عن الإيمان قوله عز وجل (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون إلى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار فيقولون هو ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون وإذا لم تلقه خير لك فيقول الوافد أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي من دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه وأمانته وأنه نبي مبعوث من الله عز وجل فذلك قوله سبحانه وتعالى وقيل للذين اتقوا يعني اتقوا الشرك وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا يعني أنزل خيرا فإن قلت لم رفع الأول وهو قوله أساطير الأولين ونصب الثاني وهو قوله قالوا خيرا قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد وجواب المقر المؤمن وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الأولين وليس هو من الإنزال في شيء لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال فقالوا خيرا أي أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) يعني للذين أتوا بالأعمال الصالحة

الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة وقال
الضحاك هي النصر والفتح وقال مجاهد هي الرزق الحسن فعلى هذا يكون معنى الآية للذين
أحسنوا ثواب احسانهم في هذه الدنيا حسنة وهي النصر والفتح والرزق الحسن وغير ذلك مما
أنعم الله به على عباده في الدنيا ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (ولدار الآخرة خير) يعني
ما لهم في الآخرة مما أعد الله لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا (ولنعم دار المتقين) يعني
الجنة وقال الحسن هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها الى الآخرة والقول الأول أولى
وهو قول جمهور المفسرين لأن الله فسر هذه الدار بقوله (جنات عدن) يعني بساتين اقامة من
قولهم عدن بالمكان أي أقام به (يدخلونها) يعني تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها
(تجري من تحتها الأنهار) يعني تجري الأنهار في هذه الجنان من تحت دورها وقصورها
ومساكنهم (لهم فيها) يعني في الجنات (ما يشاؤن) يعني ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين مع زيادات
غير ذلك وهذه الحالة لا تحصل لأحد الا في الجنة لأن قوله لهم فيها ما يشاؤن لا يفيد الحصر
وذلك يدل على أن الانسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا (كذلك يجزي الله المتقين) أي هكذا يكون
جزاء المتقين ثم عاد الى وصف المتقين فقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) يعني مؤمنين
طاهرين من الشرك قال مجاهد زاكية أقوالهم وأفعالهم وقيل ان قوله طيبين كلمة جامعة لكل
معنى حسن فيدخل فيه أنهم أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل
ما نهوا عنه من المكروهات والمحرمات مع الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من
الأخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه ان أوقاتهم تكون طيبة سهلة
لأنهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح
والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة (يقولون)
يعني الملائكة لهم (سلام عليكم) يعني تسلم عليهم الملائكة أو تبلغهم السلام من الله (ادخلوا الجنة
بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من الأعمال الصالحة فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا
الجنة بما كنتم تعملون وبين قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا ولا
أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته أخرجاه في الصحيحين من حديث
أبي هريرة قلت قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في شرح مسلم اعلم أن مذهب أهل السنة
أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا ايجاب ولا تحريم ولا غير ذلك من أنواع التكليف ولا تثبت
هذه الأشياء كلها ولا غيرها الا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضا أن الله سبحانه وتعالى لا يجب
عليه شيء بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين
والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان ذلك عدلا منه واذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو
فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلا ولكنه سبحانه وتعالى أخبر
وخبره صادق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين
ويدخلهم النار عدلا منه وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل ويوجبون ثواب الأعمال
ويوجبون الأصلح في خبط طويل لهم تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع
وفي ظاهر هذا الحديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته وأما قوله
سبحانه وتعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون
ونحوهما من الآيات التي تدل على أن الأعمال الصالحة يدخل بها الجنة فلا تعارض بينها وبين

هذا

فقدم عليه تسمية خيرا ثم
حكاه أو هو كلام مستأنف
عدة للقائلين وجعل قولهم
من جملة احسانهم (ولدار
الآخرة خير) أي لهم
في الآخرة ما هو خير
منها كقوله فآتاهم الله
ثواب الدنيا وحسن ثواب
الآخرة (ولنعم دار المتقين)
دار الآخرة فحذف
المخصوص بالمدح لتقدم
ذكره (جنات عدن)
خبر مبتدأ محذوف أو هو
مخصوص بالمدح (يدخلونها)
حال (تجري من تحتها الأنهار
لهم فيها ما يشاؤن كذلك
يجزي الله المتقين الذين
تتوفاهم الملائكة طيبين)
طاهرين من ظلم أنفسهم
بالكفر لأنه في مقابلة ظالمي
أنفسهم (يقولون سلام
عليكم) قيل اذا أشرف العبد
المؤمن على الموت جاءه
ملك فقال السلام عليك
ولي الله الله يقرأ عليك
السلام ويبشره بالجنة
ويقال لهم في الآخرة
(ادخلوا الجنة بما كنتم
تعملون) بعملكم

هذا الحديث بل معنى الآيات ان دخول الجنة بسبب الاعمال والتوفيق للاخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بالاعمال أي بسببها وهي من الرحمة والفضل والمنة والله أعلم بمراده قوله تعالى (هل ينظرون) يعني هؤلاء الذين أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يا محمد (الا أن تأتيهم الملائكة) يعني لقبض أرواحهم (أو يأتي أمر ربك) يعني بالعذاب في الدنيا وهو عذاب الاستئصال وقيل المراد به يوم القيامة (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعني من الكفر والتكذيب (وما ظلمهم الله) يعني بتعذيبه اياهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعني باكتسابهم المعاصي والكفر والاعمال القبيحة الخبيثة (فأصابهم سيآت ما عملوا) يعني فأصابهم عقوبات ما اكتسبوا من الاعمال الخبيثة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا) يعني ان مشركي مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء والحاصل أنهم تمسكوا بهذا القول في انكار النبوة فقالوا لو شاء الله منا الايمان لحصل جئت أو لم تجيء ولو شاء الله منا الكفر لحصل جئت أو لم تجيء واذا كان كذلك فالكل من الله فلا فائدة في بعثة الرسل الى الامم والجواب عن هذا أنهم لما قالوا ان الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثا كان هذا اعتراضا على الله تعالى وهو جار مجرى طلب العلة في أحكام الله وفي أفعاله وهو باطل لان الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا اعتراض لاحد عليه في أحكامه وأفعاله ولا يجوز لاحد أن يقول له لم فعلت هذا ولم لم تفعل هذا وكان في حكم الله وسنته في عباده ارسال الرسل اليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى وينهوهم عن عبادة غيره وان الهداية والاضلال اليه فمن هداه فهو المهتدي ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله في عباده أنه يأمر الكل بالايمان به وينهاهم عن الكفر ثم انه سبحانه وتعالى يهدي من يشاء الى الايمان ويضل من يشاء فلا اعتراض لاحد عليه ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل الى الامم الكافرة المكذبة كان قول هؤلاء لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا جهلا منهم لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد باطل فلا جرم استحقوا عليه الذم والوعيد وأما قوله تعالى (ولا حرمنا من دونه من شيء) يعني الوصيلة والسائبة والحام والمعنى فلولا أن الله رضيها لنا لغير ذلك ولهدانا الى غيره (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعني ان من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما في الامم الخالية (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) يعني ليس اليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) يعني كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) يعني ان الرسل كانوا يأمرونهم بأن يعبدوا الله وان يجتنبوا عبادة الطاغوت وهو اسم كل معبود من دون الله (فمنهم) يعني في الامم الذين جاءتهم الرسل (من هدى الله) يعني هداه الله الى الايمان به وتصديق رسله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) يعني ومن الامم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق في الازل حتى مات على الكفر والضلال وفي هذه الآية أبين دليل على أن الهادي والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لاحد عليه فيما حكم به في سابق علمه (فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) يعني فسيروا في الارض معتبرين متفكرين

(هل ينظرون) ما ينتظر هؤلاء الكفار (الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم ٣٥ وبالياء علي وحمزة (أو يأتي أمر ربك) أي العذاب المستأصل أو القيامة (كذلك) مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب (فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله) بتدميرهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير (فأصابهم سيآت ما عملوا) جزاء سيئات أعمالهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) وأحاط بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا) هذا كلام صدر منهم استهزاء ولو قالوه اعتقادا لكان صوابا (ولا حرمنا من دونه من شيء) يعني البحيرة والسائبة ونحوها (كذلك فعل الذين من قبلهم) أي كذبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل قولهم استهزاء (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) الا أن يبلغوا الحق ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) بأن وحدوه (واجتنبوا الطاغوت) الشيطان يعني طاعته (فمنهم من هدى الله) لاختيارهم الهدى (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي لزمته لاختياره اياها (فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ايمانهم وأعلمه انهم من قسم من حقت عليه الضلالة فقال

(إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) بفتح الياء وكسر الدال كوفي الباقون بضم الياء وفتح الدال والوجه فيه أن من يضل مبتدأ ولا يهدي خبره (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذي أعد لهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) ١٣٦ معطوف على وقال الذين أشركوا (لا يبعث الله من يموت بلى) هو إثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم (وعدا عليه حقا) وهو مصدر مؤكد لما دل عليه بلى لأن يبعث موعد من الله وبين أن الوفاء بهذا الوعد حق (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن وعده حق أو أنهم يبعثون (ليبين لهم) متعلق بما دل عليه بلى أي يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو يشمل المؤمنين والكافرين (الذي يختلفون فيه) هو الحق (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) في قولهم لا يبعث الله من يموت (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أي فهو يكون وبالنصب شامي وعلي على جواب كن قولنا مبتدأ وأن نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أي إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف وهذه عبارة عن سرعة الإيجاد يبين أن مراده لا يمتنع عليه وأن وجوده عند إرادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل ولا قول ثم والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع وأعتقه عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات (والذين هاجروا في الله) في حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) هم رسول الله وأصحابه ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين ومنهم من هاجر إلى المدينة

لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم إن أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم قوله سبحانه وتعالى (إن تحرص على هداهم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني إن تحرص يا محمد على هدى هؤلاء وإيمانهم وتجتهد كل الاجتهاد (فإن الله لا يهدي من يضل) قرئ بفتح الياء وكسر الدال يعني لا يهدي الله من أضله وقيل معناه لا يهتدي من أضله الله وقرئ بضم الياء وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادي له (وما لهم من ناصرين) أي مانعين يمنعونهم من العذاب (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قال ابن الجوزي سبب نزولها أن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به المسلم والذي أرجوه بعد الموت فقال المشرك إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله أبو العالية وتقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في إنكار البعث بعد الموت أن الإنسان ليس هو إلا هذه البنية المخصوصة فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلي امتنع عوده بعينه لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم في إنكار البعث بعد الموت فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) فرد الله عليهم ذلك وكذبهم في قولهم فقال تعالى (بلى) يعني بلى يبعثهم بعد الموت لأن لفظة بلى إثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يك شيئا فالذي أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على إيجاده بعد إعدامه لأن النشأة الثانية أهون من الأولى (وعدا عليه حقا) يعني أن الذي وعده من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني لا يفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) يعني من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذي لا خلاف فيه (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) يعني في قولهم لا بعث بعد الموت (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) يعني أن الله سبحانه وتعالى قادر إذا أراد أن يحيي الموتى ويبعثهم للحساب والجزاء ولا تعب عليه في إحيائهم وبعثهم إنما يقول لشيء أراده كن فيكون على ما أراد لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء أراده (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ويكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولدا وأما تكذيبه إياي فقوله ليس يعيدني كما بدأني وفي رواية كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقوله تعالى (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا) يعني أوذوا وعذبوا نزلت في بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وأبي جندل بن سهيل أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام إلى الكفر وهم المستضعفون فأما بلال فكان أصحابه يخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر الصديق

وأعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين وأما صهيب فقال لهم اني رجل كبير ان كنت معكم فلن أنفعكم وان كنت عليكم فلا أضركم فاشترى نفسه بماله فلما ومنه فمر به أبو بكر الصديق فقال يا صهيب ربح البيع وأما باقيهم فأعطوهم بعض ما يريدون فخلوا عنهم وقال قتادة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة فهاجروا اليها وجعل لهم أنصارا من المؤمنين فآووهم ونصروهم وواسوهم وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين وفضل الهجرة وفيه دليل على أن الهجرة اذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى آخر ومنه حديث الاعمال بالنيات وفيه فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه الحديث أخرجاه في الصحيحين من رواية عمر بن الخطاب وقوله تعالى (لنبوئنهم في الدنيا حسنة) يعني لنبوئنهم تبوئة حسنة وهو انه تعالى أنزلهم المدينة وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوئنهم في الدنيا دارا حسنة أو بلدة حسنة وهي المدينة روي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ثم يقول هذه الآية وقيل معناه لنحسنن اليهم في الدنيا بأن يفتح لهم مكة ويمكنهم من أهل الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة في الدنيا التوفيق والهداية في الدين (ولأجر الآخرة أكبر) يعني أعظم وأفضل وأشرف مما أعطاهم في الدنيا (لو كانوا يعلمون) قيل الضمير يرجع الى الكفار لان المؤمنين يعلمون ما لهم في الآخرة والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن أجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لرغبوا فيه وقيل انه راجع الى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم في الآخرة لزادوا في الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين (الذين صبروا) يعني في الله على ما نالهم من الاذى والمكروه فهو صفة مدح يعني صبروا على العذاب ومفارقة الوطن وعلى الجهاد وبذل الانفس والاموال في سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) يعني في أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكل في هذه الآية وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات والمحرمات والصبر على المصائب وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق تعالى بالكلية فالاول هو مبدأ السلوك الى الله تعالى والثاني هو آخر الطريق ومنتهاه (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم) نزلت هذه الآية جوابا لمشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل من أن يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا فأجابهم الله عز وجل بقوله وما أرسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا يعني مثلك نوحي اليهم والمعنى ان عادة الله عز وجل جارية من أول مبدا الخلق أنه لم يبعث الا رسولا من البشر فهذه عادة مستمرة وسنة جارية قديمة (فاسألوا أهل الذكر) يعني أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل الله اليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلا بد أن يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم (ان

(لنبوئنهم في الدنيا حسنة) صفة للمصدر أي تبوئة حسنة أو لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم (ولأجر الآخرة أكبر) الوقف لازم عليه لان جواب (لو كانوا يعلمون) محذوف والضمير للكفار أي لو علموا ذلك لرغبوا في الدين أو للمهاجرين أي لو كانوا يعلمون لزادوا في اجتهادهم وصبرهم (الذين صبروا) أي هم الذين صبروا أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي صبروا على مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم وعلى المجاهدة وبذل الارواح في سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) أي يفوضون الامر الى ربهم ويرضون بما أصابهم في دين الله ولما قالت قريش الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا نزل (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم) على ألسنة الملائكة نوحي حفص (فاسألوا أهل الذكر) أهل الكتاب ليعلموكم ان الله لم يبعث الى الامم السالفة الا بشرا وقيل للكتاب الذكر لانه موعظة وتنبيه للغافلين (ان

كنتم لا تعلمون) الخطاب لأهل مكة يعني ان كنتم يا أهل مكة لا تعلمون ذلك (بالبينات والزبر) اختلفوا في المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى وما أرسلنا من قبلك إلا بالبينات والزبر إلا رجالا يوحي اليهم أرسلناهم بالبينات والزبر وقيل الذكر بمعنى العلم في قوله فاسألوا أهل الذكر يعني أهل العلم والمعنى فاسألوا أهل الذكر الذي هو العلم بالبينات والزبر ان كنتم لا تعلمون أنتم ذلك والبينات والزبر اسم جامع لكل ما يتكامل به أمر الرسالة لان مدار أمر الرسول على المعجزات الدالة على صدقه وهي بالبينات وعلى بيان الشرائع والتكاليف وهي المراد بالزبر يعني الكتب المنزلة على الرسل من الله عز وجل (وأنزلنا اليك الذكر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وأنزلنا عليك يا محمد الذكر الذي هو القرآن وانما سماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيها للغافلين (لتبين للناس ما نزل اليهم) يعني ما أجمل اليك من أحكام القرآن وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال بعضهم متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم ومنه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل ويطلب بيانه من السنة فقوله تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر (ولعلهم يتفكرون) يعني فيما أنزل اليهم فيعملوا به (أفأمن الذين مكروا السيئات) فيه حذف تقديره المكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه وبالغوا في أذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الاخفاء وقيل المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم والصحيح أن المراد بهذا المكر السعي في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل المراد بالذين مكروا السيئات نمرود ومن هو مثله والصحيح ان المراد بهم كفار مكة (أن يخسف الله بهم الارض) يعني كما خسف بقارون من قبلهم (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعني ان العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما أهلك قوم لوط وغيرهم (أو يأخذهم في تقلبهم) يعني في تصرفهم في الاسفار فانه سبحانه وتعالى قادر على اهلاكهم في السفر كما هو قادر على اهلاكهم في الحضر وقال ابن عباس يأخذهم في اختلافهم وقال ابن جريج في اقبالهم وادبارهم يعني انه تعالى قادر على ان يأخذهم في ليلهم ونهارهم وفي جميع أحوالهم (فما هم بمعجزين) يعني بسابقين الله أو يفوتونه بل هو قادر عليهم (أو يأخذهم على تخوف) قال ابن عباس ومجاهد يعني على تنقص قال ابن قتيبة التخوف التنقص ومثله التخون يقال تخوفه الدهر وتخونه اذا انتقصه وأخذ ماله وحشمه ويقال هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به انه ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم وقيل هو على أصله من الخوف فيحتمل انه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال الضحاك والكلبي هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم وانما حسن انه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل في الارض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات تحدث قليلا قليلا الى ان يأتي الهلاك على آخرهم ثم انه سبحانه وتعالى ختم الآية بقوله (فان ربكم رؤف رحيم) يعني انه سبحانه وتعالى لا يعجل بالعقوبة والعذاب قوله سبحانه وتعالى (أولم يروا) قرئ بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة (الى ما خلق الله من شيء) يعني من جسم قائم

يعلمون لا تعلمون فقيل بالبينات والزبر) أي بالمعجزات والكتب والباء تتعلق برجالا صفة له أي رجالا ملتبسين بالبينات أو بأرسلنا مضمرا كأنه قيل بم أرسل الرسل فقيل بالبينات أو بيوحي أي يوحى اليهم بالبينات أو بلا تعلمون وقوله فاسألوا أهل الذكر اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله (وأنزلنا اليك الذكر) القرآن (لتبين للناس ما نزل اليهم) في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا به وأوعدوا (ولعلهم يتفكرون) في تنبيهاته فيتنبهوا (أفأمن الذين مكروا السيئات) أي المكرات السيئات وهم أهل مكة وما مكروا به رسول الله عليه السلام (أن يخسف الله بهم الارض) كما فعل بمن تقدمهم (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) أي بغتة (أو يأخذهم في تقلبهم) متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف) متخوفين وهو أن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون وهو خلاف قوله من حيث لا يشعرون (فان ربكم رؤف رحيم) حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم والمعنى انه اذا لم يأخذكم مع ما فيكم فانما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم (أولم يروا) وبالتاء حمزة وعلي وأبو بكر (الى ما خلق الله) ما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه (من شيء)

تتفيؤ ظلاله) أي يرجع من موضع الى موضع وبالتاء بصري (عن اليمين) أي الايمان ۶۴ (والشمائل) جمع شمال (سجدا لله) حال من الظلال عن مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شيء (وهم داخرون) صاغرون وهو حال من الضمير في ظلاله لانه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل وجمع بالواو والنون لان الدخور من أوصاف العقلاء أولان في جملة ذلك من يعقل فغلب والمعنى أولم يروا الى ما خلق الله من الاجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ والاجرام في أنفسها داخرة أيضا صاغرة منقادة لافعال الله فيها غير ممتنعة (ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة) من بيان لما في السموات وما في الارض جميعا على ان في السموات خلقا يدبون فيها كما يدب الاناسي في الارض أو بيان لما في الارض وحده والمراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله (والملائكة) ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم وقيل المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقيادهم لارادة الله ومعنى الانقياد يجمعهما فلم تختلفا فلذا جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد وجيء بما لانه صالح للعقلاء وغيرهم ولو جيء بمن لتناول العقلاء خاصة

له ظل وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد منها الاعتبار والاعتبار لا يكون الا بنفس الرؤية التي يكون معها النظر الى الشيء ليتأمل أحواله ويتفكر فيه فيعتبر به (تتفيؤ ظلاله) يعني تميل وتدور من جانب الى جانب فهي من أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود في آخر النهار الى حالة أخرى ويقال الظل بالعشي فيء لانه من فاء يفيء اذا رجع من المغرب الى المشرق والفيء الرجوع قال الازهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس والظل يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وانما أضاف الظلال وهو جمع الى مفرد وهو قوله من شيء لانه يراد به الكثرة ومعناه الاضافة الى ذوي الظلال (عن اليمين والشمائل) قال العلماء اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا ارتفعت الشمس واستوت في وسط السماء كان ظلك خلفك فاذا مالت الشمس الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال الضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار وانما وحد اليمين وان كان المراد به الجمع للايجاز والاختصار في اللفظ وقيل اليمين راجع الى لفظ الشيء وهو واحد والشمائل راجع الى المعنى لان لفظ الشيء يراد به الجمع (سجدا لله) في معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد به الاستسلام والانقياد والخضوع يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل والمعنى ان جميع الاشياء التي لها ظلال فهي منقادة لله تعالى مستسلمة لامره غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شيء لله والقول الثاني في معنى هذا السجود ان الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها كالساجد على الارض فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وقيل ظل كل شيء ساجد لله سواء كان ذلك الشيء يسجد لله أولا ويقال ان ظل الكافر ساجد لله وهو غير ساجد لله (وهم داخرون) أي صاغرون أذلاء والداخر الصاغر الذي يفعل ما تأمره به شاء أم أبى وذلك ان جميع الاشياء منقادة لامر الله تعالى فان قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنها بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون قلت لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل وجاز جمعها بالواو والنون وهو جمع العقلاء قوله عز وجل (ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة) قال العلماء السجود على نوعين سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة يحتمل النوعين لان سجود كل شيء بحسبه فسجود المسلمين والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع وأتى بلفظ ما في قوله ما في السموات وما في الارض للتغليب لان ما لا يعقل أكثر من يعقل في العدد والحكم للاغلب كتغليب المذكر على المؤنث ولانه لو أتى بمن التي هي للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناوله للعقلاء خاصة فأتى بلفظة ما ليشمل الكل ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسماني يتحرك ويدب فيدخل فيه الانسان لانه مما يدب على الارض ولهذا أفرد الملائكة في قوله (والملائكة) لانهم أولوا أجنحة يطيرون بها وأفردهم بالذكر وان كانوا من جملة من في السموات لشرفهم وقيل أراد ولله يسجد ما في السموات من الملائكة وما في الارض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة

(يخافون ربهم) هو حال من الضمير في لا يستكبرون أي لا يستكبرون خائفين (من فوقهم) ان علقته بيخافون فمعناه يخافونه ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم وان علقته بربهم حالا منه فمعناه يخافون ربهم غالبا لهم قاهرا كقوله وهو القاهر فوق عباده ١٣٠ (ويفعلون ما يؤمرون) وفيه دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهي وانهم بين الخوف والرجاء (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) فان قلت انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى ان يقال رجل واحد ورجلان اثنان قلت الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا اريدت الدلالة على ان المعني به منهما هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل انك تثبت الالهية لا الوحدانية (فاياي فارهبون) نقل الكلام عن الغيبة الى التكلم وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فارهبون يعقوب (وله ما في السموات والارض وله الدين) أي الطاعة (واصبا) واجبا ثابتا لان كل نعمة منه ولما فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه وهو حال عمل فيه الظرف أو وله الجزاء دائما يعني الثواب والعقاب (أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة) وأي شيء اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب (فمن الله) فهو من الله

وسجود غيرهم تذليلها وتسخيرها لما خلقت له وسجود ما لا يعقل وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى فيدعو الغافلين الى السجود لله عند التأمل والتدبر (وهم لا يستكبرون) يعني الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) هو كقوله وهو القاهر فوق عباده وقد تقدم تفسيره (ويفعلون ما يؤمرون) عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى قال أبو ذر لوددت اني كنت شجرة تعضد أخرجه الترمذي وقال من أبي ذر موقوفا

﴿فصل﴾ وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها قوله سبحانه وتعالى (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين) لما أخبر الله عز وجل في الآية المتقدمة ان كل ما في السموات والارض خاضعون لله منقادون لامره عابدون له وانهم في ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى في هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ الهين اثنين فقال وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين قال الزجاج ذكر الاثنين توكيد لقوله الهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لا تتخذوا اثنين الهين يعني ان الاثنين لا يكون كل واحد منهما الها ولكن اتخذوا الها واحدا وهو قوله تبارك وتعالى (انما هو اله واحد) لان الالهين لا يكونان الا متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والارادة فصارت الاثنينية منافية للالهية وذلك قوله تعالى انما هو اله واحد يعني لا يجوز أن يكون في الوجود الهان اثنان انما هو اله واحد (فاياي فارهبون) يعني تخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى الحضور وهو من طريق الالتفات لانه أبلغ في الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فاياي فارهبون يفيد الحصر وهو أن لا يرهب الخلق الا منه ولا يرهبون الا اليه والى كرمه وفضله واحسانه (وله ما في السموات والارض) لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لا شريك له في الالهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيدا له وفي ملكه وتصرفه وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله ما في السموات والارض يعني عبيدا وملكا (وله الدين واصبا) يعني وله العبادة والطاعة واخلاص العمل دائما ثابتا والواصب الدائم قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائمة أبدا (أفغير الله تتقون) يعني انكم عرفتم ان الله واحد لا شريك له في ملكه وعرفتم ان كل ما سواه محتاج اليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الانكار قوله عز وجل (وما بكم من نعمة فمن الله) يعني من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد فكل ذلك من الله تعالى انما هو المتفضل به على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه

(ثم اذا مسكم الضر) المرض والفقر والجدب (فاليه تجأرون) فما تتضرعون الا اليه والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة
ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون) الخطاب في وما بكم من ١٣١ نعمة ان كان عاما فالمراد بالفريق
الكفرة وان كان الخطاب للمشركين فقوله منكم للبيان لا للتبعيض كأنه قال فاذا فريق كافر وهم انتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ثم أوعدهم فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) هو عدول الى الخطاب على التهديد (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أي لآلهتهم ومعنى لا يعلمون انهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها انها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لانها جماد لا تضر ولا تنفع أو الضمير في لا يعلمون للآلهة أي لاشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر أجعلوا لها نصيبا في أنعامهم وزروعهم أم لا وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا اليهم (تالله لتسئلن) وعيد (عما كنتم تفترون) انها آلهة وانها اهل للتقرب اليها (ويجعلون لله البنات) كانت خزاعة
وكنانة تقول الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه لذاته من نسبة الولد اليه أو تعجب من قولهم (ولهم ما يشتهون) يعني البنين
ويجوز في ما الرفع على الابتداء ولهم الخبر والنصب على العطف على البنات وسبحانه اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه
أي وجعلوا لانفسهم ما يشتهون من الذكور (واذا بشر أحدهم بالانثى

ولما بين في الآية المتقدمة انه يجب على جميع العباد أن لا يخافوا الا الله تعالى بين في هذه الآية ان جميع النعم منه فلا يشكر عليها الا اياه لانه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها (ثم اذا مسكم الضر) أي الشدة والامراض والاسقام (فاليه تجأرون) يعني اليه تستغيثون وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم ما نزل بكم من الضر والشدة وأصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البقر والمعنى ان النعم لما كانت كلها ابتداء منه فان حصل شدة وضر في بعض الاوقات فلا يلجأ الا اليه ولا يدعى الا اياه ليكشفها فانه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى (ثم اذا كشف الضر عنكم) يعني ثم اذا أزال الشدة والبلاء عنكم (اذا فريق منكم) يعني طائفة وجماعة منكم (بربهم يشركون) يعني انهم يضيفون كشف الضر الى العوائد والاسباب ولا يضيفونه الى الله عز وجل فهذا من جملة شركهم الذي كانوا عليه وانما قسمهم فريقين لان فريق المؤمنين لا يرون كشف الضر الا من الله تعالى ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) قيل ان هذه اللام لام كي ويكون المعنى على هذا انهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر عنهم وقيل انها لام العاقبة والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء (فتمتعوا) لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد يعني فعيشوا في اللذة التي أنتم فيها الى المدة التي ضربها الله لكم (فسوف تعلمون) يعني عاقبة أمركم الى ماذا تصير وهو نزول العذاب بكم قوله سبحانه وتعالى (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا) قيل الضمير في قوله لما لا يعلمون عائد الى المشركين يعني ان المشركين لا يعلمون وقيل انه عائد الى الاصنام يعني ان الاصنام لا تعلم شيأ البتة لانها جماد والجماد لا علم له ومنهم من رجح القول الاول لان نفي العلم عن الحي حقيقة وعن الجماد مجاز فكان عود الضمير الى المشركين أولى ولانه قال لما لا يعلمون فجمعهم بالواو والنون وهو جمع من يعقل ومنهم من رجح القول الثاني قال لانا اذا قلنا انه عائد الى المشركين احتجنا فيه الى اضمار فيكون المعنى ويجعلون يعني المشركين لما لا يعلمون انه إله ولا له حق نصيبا واذا قلنا انه عائد الى الاصنام لم نحتج الى هذا الاضمار لانها لا علم لها ولا فهم وقوله (مما رزقناهم) يعني ان المشركين جعلوا للاصنام نصيبا من حروثهم وانعامهم وأموالهم التي رزقهم الله وتقدم تفسيره في سورة الانعام (تالله) أقسم بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (لتسئلن عما كنتم تفترون) يعني عما كنتم تكذبون في الدنيا في قولكم ان هذه الاصنام آلهة وان لها نصيبا من أموالكم وهذا التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله وانما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء أو لدخول لفظ التأنيث في تسميتهم (سبحانه) نزه الله نفسه عن الولد والبنات (ولهم ما يشتهون) يعني ويجعلون لانفسهم ما يشتهون يعني البنين (واذا بشر أحدهم بالانثى) البشارة عبارة عن الخبر السار الذي يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن والغم يظهر أثره على الوجه وهو الكمودة التي تعلو الوجه عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا ان البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن فصح قوله واذا بشر أحدهم بالانثى

(ظل وجهه مسودا) يعني متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التي حصلت له عند هذه البشارة والمعنى أن هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الأنثى أن تنسب إليه فكيف يرضى أن ينسبها إلى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ وقوله سبحانه وتعالى (وهو كظيم) يعني أنه ظل ممتلئا غما وحزنا (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يعني أنه يختفي من ذلك القول الذي بشر به وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم توارى من القوم إلى أن يعلم ما ولد له فإن كان ولدا ابتهج وسر بذلك وظهر وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما حتى يفكر ما يصنع بها وهو قوله تعالى (أيمسكه على هون) يعني على هوان وإنما ذكر الضمير في أيمسكه لأنه عائد إلى ما بشر به في قوله وإذا بشر أحدهم (أم يدسه في التراب) يعني أم يخفي الذي بشر به في التراب والدس إخفاء الشيء في الشيء قال أهل التفسير إن مضر وخزاعة وتميما كانوا يدفنون البنات أحياء والسبب في ذلك إما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الأسر ونحوه أو طمع غير الأكفاء فيهن فكان الرجل من العرب في الجاهلية إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ويكون قد حفر لها بئرا في الصحراء فإذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها انظري إلى هذه البئر فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها في تلك البئر ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم (١) الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه بإبل إلى والد البنت يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك

وعمي الذي منع الوائدات ... فأحيا الوئيد فلم يوأد

عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائدة والموءودة في النار أخرجه أبو داود وقوله تعالى (ألا ساء ما يحكمون) يعني بئس ما يصنعون ويقضون حيث يجعلون لله الذي خلقهم البنات وهم يستنكفون منهن ويجعلون لأنفسهم البنين نظيره قوله سبحانه وتعالى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى وقيل معناه ألا ساء ما يحكمون في وأد البنات (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) يعني صفة السوء من احتياجهم إلى الولد الذكر وكراهتهم الإناث وقتلهن خوف الفقر (ولله المثل الأعلى) أي الصفة العليا المقدسة وهي أنه التوحيد وأنه المنزه عن الولد وأنه لا إله إلا هو وأن له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدي وغير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله (وهو العزيز) أي الممتنع في كبريائه وجلاله (الحكيم) يعني في جميع أفعاله قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) يعني بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم فإن قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى في آية أخرى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فجعلهم في تلك الآية ثلاثة أقسام فجعل الظالمين قسما واحدا من الثلاثة فما قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام مخصوص بتلك الآية الأخرى لأن في جنس الناس الأنبياء والصالحين ومن لا يطلق عليه اسم الظلم وقيل أراد بالناس الكفار وحدهم بدليل قوله إن الشرك لظلم عظيم وقوله (ما ترك عليها) يعني على الأرض كناية عن غير مذكور لأن الدابة لا تدب إلا على الأرض (من دابة) يعني أن الله سبحانه وتعالى لو يؤاخذ الناس بظلمهم لأهلك جميع الدواب التي على وجه

(ظل وجهه مسودا) أي صار فظل وأمسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصيرورة لأن أكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتما مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس (وهو كظيم) مملوء حنقا على المرأة (يتوارى من القوم) يستخفي منهم (من سوء ما بشر به) من أجل سوء المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر (أيمسكه على هون) أيمسك ما بشر به على هون وذل (أم يدسه في التراب) أم يئده (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق (ولله المثل الأعلى) وهو الغنى عن العالمين والنزاهة عن صفات المخلوقين (وهو العزيز) الغالب في تنفيذ ما أراد (الحكيم) في إمهال العباد (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم (ما ترك عليها) على الأرض (من دابة) قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين

(١) قوله صعصعة عم كذا بالنسخ بأيدينا والصواب جده وكذا قوله وعمي الذي الصواب وجدي الذي كما هو مقرر في كتب الأدب اهـ مصحح

عن أبي هريرة رضي الله عنه ان الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضي الله عنه كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم وعن ابن عباس رضي الله عنهما من دابة من مشرك يدب (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) أي أجل كل أحد أو وقت تقتضيه الحكمة أو القيامة (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله ما يكرهون) ما يكرهونه لانفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم ويجعلون له أرذل أموالهم ولاصنامهم أكرمها (وتصف ألسنتهم الكذب) مع ذلك أي ويقولون الكذب (أن لهم الحسنى) عند الله وهي الجنة ان كان البعث حقا كقوله ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وأن لهم الحسنى بدل من الكذب (لا جرم أن لهم النار وانهم مفرطون) مفرطون نافع مفرطون أبو جعفر فالمفتوح بمعنى مقدمون الى النار معجلون اليها من أفرطت فلانا وفرطته في طلب الماء اذا قدمته أو منسيون متروكون من أفرطت فلانا خلفي اذا خلفته ونسيته والمكسور المخفف من الافراط في المعاصي والمشدد من التفريط في الطاعات أي التقصير فيها (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) أي أرسلنا رسلا الى من تقدمك من الامم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) من الكفر والتكذيب بالرسل (فهو وليهم اليوم) أي قرينهم في الدنيا تولى اضلالهم بالغرور أو الضمير لمشركي قريش أي زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لانهم منهم أو هو على حذف المضاف أي فهو ولي أمثالهم اليوم (ولهم عذاب أليم) في القيامة (وما أنزلنا عليك الكتاب) القرآن (الا لتبين لهم) للناس (الذي اختلفوا فيه) هو البعث لانه كان فيهم من يؤمن به (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على أنهما مفعول لهما لانهما فعلا الذي أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل (لقوم يؤمنون)

الارض قال قتادة وقد فعل الله ذلك في زمن نوح عليه السلام فاهلك من كان على وجه الارض الا من كان في السفينة مع نوح عليه السلام وروى ان أبا هريرة سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئس ما قلت ان الحبارى لتموت هزلا بظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب في جحرها بذنب ابن آدم وقيل أراد بالدابة الكافر بدليل قوله ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقيل في معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء فلم يبق في الارض أحد (ولكن يؤخرهم) يعني يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) يعني الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعني لا يؤخرون ساعة من الاجل الذي جعله الله لهم ولا ينقصون عنه وقيل أراد بالاجل المسمى يوم القيامة والمعنى ولكن يؤخرهم الى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون (ويجعلون لله ما يكرهون) يعني لانفسهم وهي البنات (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) يعني ويقولون ان لهم البنين وذلك انهم قالوا لله البنات ولنا البنون وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله وقيل أراد بالحسنى الجنة والمعنى انهم مع كفرهم وقولهم الكذب يزعمون انهم على الحق وان لهم الجنة وذلك انهم قالوا ان كان محمد صادقا في البعث بعد الموت فان لنا الجنة لانا على الحق فأكذبهم الله تعالى فقال (لا جرم أن لهم النار) يعني في الآخرة لا الجنة (وانهم مفرطون) قرئ بكسر الراء مع التخفيف يعني مسرفون وقرئ بكسر الراء مع التشديد يعني مضيعون لامر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها أي منسيون في النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل متروكون وقال قتادة معجلون الى النار وقال الفراء مقدمون الى النار والفرط المتقدم الى الماء قبل القوم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض أي متقدمكم (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) يعني كما أرسلناك الى هذه الامة لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) يعني أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالقاء الوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة ان يضل أحدا أو يهدي أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم) أي ناصرهم (اليوم) ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لطاعتهم اياه (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة (وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) يعني في أمر الدين والاحكام لتبين لهم الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام (وهدى ورحمة) يعني وما أنزلنا عليك الكتاب الا بيانا وهدى ورحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم

المنتفعون به قوله سبحانه وتعالى (والله أنزل من السماء ماء) يعني المطر (فأحيا به) يعني بالماء (الارض) يعني بالنبات والزروع (بعد موتها) يعني يبسها وجدوبتها (ان في ذلك لآية) يعني دلالة واضحة على كمال قدرتنا (لقوم يسمعون) يعني سماع انصاف وتدبر وتفكر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات الله أي القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات (وان لكم في الانعام لعبرة) يعني اذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا في ذلك (نسقيكم مما في بطونه) الضمير عائد الى الانعام وكان حقه أن يقال مما في بطونها واختلف النحويون في الجواب فقيل ان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو مذكر وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو مؤنث فلهذا المعنى قال هنا مما في بطونه وقال في سورة المؤمنين مما في بطونها وهذا قول أبي عبيدة والاخفش وقال الكسائي انه رده الى ما ذكر يعني مما في بطون ما ذكرنا وقال غيره الكناية مردودة الى البعض ومعه اضمار كأنه قال نسقيكم مما في بطونه اللبن فاضمر اللبن اذ ليس لكلها لبن (من بين فرث) وهو ما في الكرش من الثفل فاذا خرج منها لا يسمى فرثا (ودم لبنا خالصا) يعني من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث قال ابن عباس اذا أكلت الدابة العلف واستقر في كرشها وطحنته كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الثفل كما هو (سائغا للشاربين) يعني هنيئا يجري في الحلق بسهولة قيل انه لم يغص أحد باللبن قط هذا قول المفسرين في معنى هذه الآية وحكى الامام فخر الدين الرازي قول الحكماء في ذلك فقال ولقائل أن يقول الدم واللبن لا يتولدان في الكرش البتة والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا وما رأى أحد في كرشها دما ولا لبنا بل الحق أن الحيوان اذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذي يحصل في الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وهو الهضم الثاني ويكون ذلك مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فاما الصفراء فتذهب الى المرارة وأما السوداء فتذهب الى الطحال وأما المائية فتذهب الى الكلية ومنها الى المثانة وأما الدم فيذهب في الاوردة وهي العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددي الرخو الابيض فيصير الدم لبنا فهذا صورة تكون اللبن في الضرع فاللبن انما يتولد من بعض أجزاء الدم والدم انما يتولد من بعض الاجزاء اللطيفة من الاشياء المأكولة الحاصلة في الكرش فاللبن تولد أولا من الفرث ثم من الدم ثانيا ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبنا خالصا من بين فرث ودم وعند تولد اللبن في الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته في حلمة الثدي ثقبا صغارا ومسام ضيقة جدا كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفا من اللبن خرج بالمص أو الحلب وما كان كثيفا احتبس في البدن وهو المراد بقوله خالصا يعني من شوائب كدورة الدم والفرث سائغا للشاربين يعني جاريا في حلوقهم سهلا لذيذا لهم يشربونه قوله عز وجل (ومن ثمرات النخيل والاعناب)

(والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون) سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكأنه لا يسمع (وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه) وبفتح النون نافع وشامي وأبو بكر قال الزجاج سقيته وأسقيته بمعنى واحد ذكر سيبويه الانعام في الاسماء المفردة الواردة على أفعال ولذا رجع الضمير اليه مفردا وأما في بطونها في سورة المؤمنين فلان معناه الجمع وهو استئناف كأنه قيل كيف العبرة فقال نسقيكم مما في بطونه (من بين فرث ودم لبنا خالصا) أي يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله قيل اذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد مسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش ثم ينحدر وفي ذلك عبرة لمن اعتبر وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) سهل المرور في الحلق ويقال لم يغص أحد باللبن قط ومن الاولى للتبعيض لان اللبن بعض ما في بطونها والثانية لابتداء الغاية وقوله (ومن ثمرات النخيل

والاعناب) يعني ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والاعناب (تتخذون
منه) الضمير في منه يرجع الى ما تقديره ولكم من ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون منه (سكرا
ورزقا حسنا) قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وابراهيم وابن أبي ليلى
والزجاج وابن قتيبة السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكرا وسكرا والرزق الحسن سائر
ما يتخذ من ثمرات النخل والاعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك فان قلت الخمر
محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل في معرض الانعام والامتنان قلت قال العلماء في الجواب
عن هذا ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر انما نزل في سورة المائدة وهي مدنية فكان نزول هذه
الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة وقيل ان الله عز وجل نبه في هذه الآية على
تحريم الخمر أيضا لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه
حسنا يدل على التحريم وروى العوفي عن ابن عباس ان السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال
بعضهم السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب اذا اشتد والمطبوخ من العصير وهو قول
الضحاك والنخعي ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الاخبار لا الاحلال
وأولى الاقاويل ان قوله تتخذون منه سكرا منسوخ سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر
ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت القول بالنسخ فيه نظر لان قوله ومن ثمرات النخيل
والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا خبر والاخبار لا يدخلها النسخ ومن زعم انها
منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت اباحة الخمر ثم ان الله تبارك وتعالى حرمها
بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة وقال أبو عبيدة في معنى الآية السكر الطعم يقال
هذا سكر لك أي طعم لك وقال غيره السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر أي سددته والتمر
والزبيب مما يسد الجوع وهذا مرجح قول أبي عبيدة ان السكر الطعم (ان في ذلك) يعني الذي
ذكر من انعامه على عباده (لآية) يعني دلالة وحجة واضحة (لقوم يعقلون) يعني ان من كان
عاقلا استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة ان لهذه الاشياء
خالقا ومدبرا قادرا على ما يريد قوله سبحانه وتعالى (وأوحى ربك الى النحل) لما ذكر الله سبحانه
وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من اخراج اللبن من بين فرث ودم
واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب ذكر في هذه الآية اخراج العسل
الذي جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة وهي النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك الى النحل
الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وفكر يستدل به على
كمال قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته وأصل
الوحي الاشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت
مجرد ويقال للكلمة الالهية التي يلقيها الله الى أنبيائه وحي والى أوليائه الهام وتسخير الطير لما
خلق له ومنه قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل يعني انه سخرها لما خلقها له وألهمها رشدها وقدر
في أنفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبني بيوتا على
شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت
مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود
فألهمها الله سبحانه وتعالى ان تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة
خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضا ان تجعل عليها أميرا كبيرا نافذا الحكم فيها وهي تطيعه

والاعناب) محذوف تقديره
ونسقيكم من ثمرات النخيل
والاعناب أي من عصيرها
وحذف لدلالة نسقيكم قبله
عليه وقوله (تتخذون منه
سكرا) بيان وكشف عن
كنه الاسقاء أو تتخذون
ومنه من تكرير الظرف
للتوكيد والضمير في منه
يرجع الى المضاف المحذوف
الذي هو العصير والسكر
الخمر سميت بالمصدر من
سكر سكرا وسكرا نحو رشد
رشدا ورشدا ثم فيه وجهان
أحدهما ان الآية سابقة
على تحريم الخمر فتكون
منسوخة والثاني انها
تجمع بين العتاب والمنة
وقيل السكر النبيذ وهو
عصير العنب والزبيب والتمر
اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه
ثم يترك حتى يشتد وهو
حلال عند أبي حنيفة وأبي
يوسف رحمهما الله الى حد
السكر ويحتجان بهذه
الآية وبقوله عليه السلام
الخمر حرام لعينها والسكر
من كل شراب وبأخبار جمة
(ورزقا حسنا) هو الخل
والرب والتمر والزبيب
وغير ذلك (ان في ذلك لآية
لقوم يعقلون وأوحى ربك
الى النحل) وألهم

ويمتثل أمره ويكون هذا الامير أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها كذا حكاه الجوهري وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضاً أن جعلت على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير أهلها من الدخول اليها وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضاً أنها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهي فكان ذلك شبيها بالوحي فلذلك قال تبارك وتعالى وأوحى ربك الى النحل والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضاً قال الزجاج يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلا لان الله سبحانه وتعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها يعني أعطاهم وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز وكذا أنثها الله تعالى فقال (أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) يعني يبنون ويسقفون وذلك أن النحل منه وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر ويأوي الى الكهوف ومنه أهلي وهو الذي يأوي الى البيوت ويربيه الناس عندهم وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الاماكن حتى تأوي اليها وقال ابن زيد أراد بالذي يعرشون الكروم (ثم كلي من كل الثمرات) يعني من بعض الثمرات لانها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل ههنا ليست للعموم (فاسلكي سبل ربك) يعني الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها وتدخلي فيها لاجل طلب الثمرات (ذللا) قيل انه نعت للسبل يعني انها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها قال مجاهد لا يتوعر عليها مكان تسلكه وقيل الذلل نعت للنحل يعني انها مذللة مسخرة لاربابها مطيعة منقادة لهم حتى أنهم ينقلونها من مكانها الى مكان آخر حيث شاؤا وأرادوا لا تستعصي عليهم (يخرج من بطونها شراب) يعني العسل (مختلف ألوانه) يعني ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل في بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وزعم الامام فخر الدين الرازي انه رأى في بعض كتب الطب أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه في بيوتها لانفسها لتتغذى به فاذا اجتمع في بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضاً فانا نشاهد ان النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها بان كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها يعني من أفواهها وقول أهل الظاهر أولى وأصح لانا نشاهد انه يوجد في طعم العسل طعم تلك الازهار التي تأكلها النحل وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضاً ويعضد هذا قول بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لا قالت فما هذه الريح التي أجد منك قال سقتني حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط والعرفط شجر الطلح وله صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة الكريهة فثبت بهذا الدليل صحة قول أهل الظاهر من المفسرين وانه يوجد في طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وطبيعة واحدة وقوله ان طبيعة العسل تقرب من طبيعة الترنجبين فيه نظر لان مزاج الترنجبين معتدل الى الحرارة وهو ألطف من السكر ومزاج العسل حار يابس في الدرجة الثانية فبينهما فرق كبير وقوله كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا فيه نظر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا

(أن اتخذي من الجبال بيوتا) هي أن المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول قال الزجاج واحد النحل نحلة كنخل ونخلة والتأنيث باعتبار هذا ومن في من الجبال (ومن الشجر ومما يعرشون) يرفعون من سقوف البيت أو ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الاماكن التي تعسل فيها للتبعيض لانها لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش والضمير في يعرشون للناس وبضم الراء شامي وأبو بكر (ثم كلي من كل الثمرات) أي ابني البيوت ثم كلي كل ثمرة تشتهيها فاذا أكلتها (فاسلكي سبل ربك) فادخلي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل أو اذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربك لاتضلين فيها (ذللا) جمع ذلول وهي حال من السبل لان الله تعالى ذللها وسهلها أو من الضمير في فاسلكي أي وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة (يخرج من بطونها شراب) يريد العسل لانه مما يشرب تلقيه من فيها (مختلف ألوانه) منه أبيض وأصفر وأحمر من الشباب والكهول والشيب أو على ألوان أغذيتها

العضو المعروف مثل بطن الانسان وغيره والله أعلم وقوله تعالى (فيه) يعني في الشراب
الذي يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود اذ الضمير
في قوله فيه شفاء للناس يرجع الى العسل وقد اختلفوا في هذا الشفاء هل هو على العموم
لكل مرض أو على الخصوص لمرض دون مرض على قولين أحدهما ان العسل فيه شفاء من
كل داء وكل مرض قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي
رواية أخرى عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع ان ابن عمر ما كانت تخرج به
قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء
للناس (ق) عن أبي سعيد الخدري قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي
استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا فسقاه ثم جاءه فقال اني سقيته
عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا فقال لقد
سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك
فسقاه فبرأ وقد اعترض بعض الملحدين ومن في قلبه مرض على هذا الحديث فقال ان الاطباء
مجمعون على ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال فنقول في الرد على هذا المعترض
الملحد الجاهل بعلم الطب ان الاسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم والهيضات وقد أجمع
الاطباء في مثل هذا على ان علاجه بان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على
الاسهال أعينت ما دامت القوة باقية فاما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض فيحتمل أن
يكون اسهال الشخص المذكور في الحديث أصابه من امتلاء أو هيضة فدواؤه بترك اسهاله على
ما هو عليه أو تقويته فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده اسهالا فزاده
عسلا الى ان فنيت المادة فوقف الاسهال ويكون الخلط الذي كان به يوافقه شرب العسل فثبت
بما ذكرناه ان أمره صلى الله عليه وسلم لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب وان
المعترض عليه جاهل لها ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الاطباء بل لو كذبوه
لكذبناهم وكفرناهم بذلك وانما ذكرنا هذا الجواب الجاري على صناعة الطب دفعا لهذا
المعترض بانه لا يحسن صناعة الطب التي اعترض بها والله أعلم وقوله صلى الله عليه وسلم صدق
الله وكذب بطن أخيك يحتمل انه صلى الله عليه وسلم علم بالوحي الالهي ان العسل الذي أمره بشربه
سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال عندهم قال صدق الله يعني فيما وعد به من ان
فيه شفاء وكذب بطن أخيك يعني باستعجالك الشفاء في أول مرة والله أعلم بمراده وأسرار رسوله
صلى الله عليه وسلم فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة
ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قلنا في الجواب عن هذا الاعتراض أيضا ان قوله فيه شفاء
للناس مع انه يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة انه خرج مخرج الاغلب وانه في الاغلب
فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس لكل داء ولكنه في الجملة دواء وان نفعه أكثر من مضرته
وقل معجون من المعاجين الا وتمامه به والاشربة المتخذة من العسل نافعة لاصحاب البلغم
والشيوخ المبرودين ومنافعه كثيرة جدا والقول الثاني انه شفاء للاوجاع التي شفاؤها فيه وهذا
قول السدي وقال مجاهد في قوله فيه شفاء للناس يعني القرآن لانه شفاء من أمراض الشرك
والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس والقول الاول أصح لان الضمير يجب أن يعود
الى أقرب المذكورات وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو أولى ان

(فيه شفاء للناس) لانه
من جملة الادوية النافعة
وقل معجون من المعاجين
لم يذكر الاطباء فيه العسل
وليس الغرض انه شفاء
لكل مريض كما ان كل
دواء كذلك وتنكيره
لتعظيم الشفاء الذي فيه
أولان فيه بعض الشفاء
لان النكرة في الاثبات
تخص وشكا رجل
استطلاق بطن أخيه فقال
عليه السلام اسقه عسلا
فجاءه وقال زاده شرا
فقال عليه السلام صدق
الله وكذب بطن أخيك
اسقه عسلا فسقاه فصح
وعن ابن مسعود رضي
الله عنه العسل شفاء من
كل داء والقرآن شفاء لما
في الصدور فعليكم
بالشفاءين القرآن والعسل
ومن بدع الروافض ان
المراد بالنحل علي وقومه
وعن بعضهم ان رجلا
قال عند المهدي انما النحل
بنو هاشم يخرج من
بطونهم العلم فقال له
رجل جعل الله طعامك
وشرابك مما يخرج من
بطونهم فضحك المهدي
وحدث به المنصور فاتخذوه
أضحوكة من أضاحيكهم

يرجع الضمير اليه لانه أقرب مذكور وقوله سبحانه وتعالى (ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) يعني فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا قوله عز وجل (والله خلقكم) يعني أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيأ (ثم يتوفاكم) يعني عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبانا واما كهولا (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) يعني أردأه وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب أولها من النشو والنماء وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية من الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين سنة الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع الانسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وفي رواية أخرى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذه الدعوات اللهم اني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات وقوله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) يعني ان الانسان يرجع الى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر وقال ابن عباس لكي يصير كالصبي الذي لا عقل له وقال ابن قتيبة معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالامور شيأ لشدة هرمه وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد ان كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على اماتته واحيائه انه قادر على نقله من العلم الى الجهل هكذا وجدته منقولا عنه ولو قال ليريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم الى الجهل انه قادر على احيائه بعد اماتته ليكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت لكان أجود وقال ابن عباس ليس هذا في المسلمين لان المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء الا كرامة عند الله وعقلا ومعرفة وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيأ وقال في قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس في قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافر ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله تعالى (ان الله عليم) يعني بما صنع بأوليائه وأعدائه (قدير) يعني على ما يريد قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) يعني ان الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر وكما فضل بعضكم على بعض في الرزق كذلك فضل بعضكم على بعض في الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله وهذا مما اقتضته الحكمة الالهية والقدرة الربانية (فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) يعني من العبيد حتى يستووا هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الاصنام شركاء لله قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل يقول هل منكم أحد يرضى ان يشركه مملوكه في جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده وقيل في معنى الآية ان الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا

(ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) في عجيب أمرها فيعلمون ان الله أودعها علما بذلك وفطنها كما أعطى أولي العقول عقولهم (والله خلقكم ثم يتوفاكم) بقبض أرواحكم من أبدانكم (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) الى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة أو ثمانون أو تسعون (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) لينسى ما يعلم أو لئلا يعلم زيادة علم على علمه (ان الله عليم) بمن يرده الى الارذل من الا كل أو الى الافناء من الاحياء (قدير) على تبديل ما يشاء كما يشاء من الاشياء (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) أي جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم (فما الذين فضلوا) في الرزق يعني الملاك (برادي) بمعطي (رزقهم على ما ملكت أيمانهم) فكان ينبغي ان تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم

(فهم فيه سواء) جملة اسمية وقعت في موضع جملة فعلية في موضع النصب لانه جواب النفي بالفاء وتقديره فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم فيستووا مع عبيدهم في الرزق وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم انتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تجعلونهم فيه شركاء ولا ترضون ذلك لانفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء (أفبنعمة الله يجحدون) وبالتاء أبو بكر فجعل ذلك من جملة جحود النعمة (والله جعل لكم من انفسكم أزواجا) أي من جنسكم (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد واختلف فيه فقيل هم الاختان على البنات وقيل أولاد الاولاد والمعنى وجعل لكم حفدة أي خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم (ورزقكم من الطيبات) أي بعضها لان كل الطيبات في الجنة وطيبات الدنيا انموذج منها (أفبالباطل يؤمنون) هو ما يعتقدونه من منفعة الاصنام وشفاعتها (وبنعمة الله) أي الاسلام (هم يكفرون) أو الباطل الشيطان والنعمة محمد صلى الله عليه وسلم أو الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا) اي الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيئا فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فان اردت المصدر نصبت به شيئا أي لا يملك أن يرزق شيئا وان أردت المرزوق كان شيئا بدلا منه أي قليلا ومن السموات والارض صلة للرزق ان كان مصدرا أي لا يرزق من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وصفة ان كان اسما لما يرزق والضمير في (ولا يستطيعون) للآلهة لانه في معنى الآلهة بعدما قال لا يملك على اللفظ والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ولا يتأتى ذلك منهم (فلا تضربوا لله الامثال) فلا تجعلوا لله مثلا فانه لا مثل له أي فلا تجعلوا له شركاء (ان الله يعلم) انه لا مثل له من الخلق

(فهم فيه) يعني في رزقه (سواء) فلا تحسبن أن الموالي يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على أيدي الموالي الى المماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى وقوله (أفبنعمة الله يجحدون) فيه انكار على المشركين حيث جحدوا نعمة وعبدوا غيره قوله عز وجل (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) يعني النساء خلق من آدم حواء زوجته وقيل جعل لكم من جنسكم أزواجا لانه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) الحفدة جمع حافد وهو المسرع في الخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قوله في الدعاء واليك نسعى ونحفد أي نسرع الى طاعتك فهذا أصله في اللغة ثم اختلفت أقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعي الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضا انهم أصهاره فهو بمعنى الاول فعلى هذا القول يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل لكم بسببهم الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فقد حفدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقيل هم أهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الاولاد وقال مقاتل والكلبي البنين هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذي يعينون الرجل على عمله وقال ابن عباس هم ولد الولد وفي رواية أخرى عنه انهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك وبالجملة فان الحفدة هم غير البنين لان الله سبحانه وتعالى قال بنين وحفدة فجعل بينهم مغايرة (ورزقكم من الطيبات) يعني النعم التي أنعم بها عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله (أفبالباطل يؤمنون) يعني بالاصنام وقيل بالشيطان يؤمنون وقيل معناه يصدقون ان لي شريكا وصاحبة وولدا وهذا استفهام انكار أي ليس لهم ذلك (وبنعمت الله هم يكفرون) يعني انهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم الى غيره وقيل معناه انهم يجحدون ما أحل الله لهم (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض) يعني الاصنام التي لا تقدر على انزال المطر الذي في السموات خزائنه ولا يقدرون على اخراج النبات الذي في الارض معدنه (شيئا) يعني لا يملك من الرزق شيئا قليلا ولا كثيرا وقيل معناه يعبدون ما لا يرزق شيئا (ولا يستطيعون) يعني ولا يقدرون على شيء يذكر لعجز الاصنام عن ايصال نفع أو دفع ضر (فلا تضربوا لله الامثال) يعني لا تشبهوا الله بخلقه فانه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفي ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق أو الرازق بالمرزوق أو القادر بالعاجز (ان الله يعلم) يعني ما أنتم عليه من ضرب الامثال

(وأنتم لا تعلمون) ذلك أو أن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك والوجه الأول ثم ضرب المثل فقال (ضرب الله مثلاً عبداً) هو بدل من مثلاً (مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً) مصدران في موضع الحال أي مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه ما شاء وقيد بالمملوك ليميزه من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً إذ هما من عباد الله وبلا يقدر على شيء ليخرج من المكاتب والمأذون فهما يقدران على التصرف ومن موصوفة أي حراً رزقناه ليطابق عبداً أو موصولة (هل يستوون) جمع الضمير لإرادة الجنس أي لا يستوي القبيلان (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) بأن الحمد والعبادة لله ثم زاد في البيان فقال (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء) الأبكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم (وهو كل على مولاه) أي ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله (أينما يوجهه لا يأت بخير) حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل) أي ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير (وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) على سيرة صالحة ودين قويم وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا

له (وأنتم لا تعلمون) خطأ ما تضربون له من الأمثال قوله تعالى (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً) لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلاً فقال تعالى مثلكم في إشراككم بالله الأوثان كمثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر لأنه لما كان محروماً من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيء وقيل إن الكافر لما رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقاً حسناً المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والإنفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سراً وجهراً في طاعة الله وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى (فهو ينفق منه سراً وجهراً) فأثابه الله الجنة على ذلك فإن قلت لم قال عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف قلت إنما ذكر المملوك ليتميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً لأنهما من عباد الله وقوله لا يقدر على شيء احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف لأنهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً (هل يستوون) ولم يقل هل يستويان يعني هل يستوي الأحرار والعبيد والمعنى كما لا يستوي هذا الفقير البخيل والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي والمؤمن الطائع وقال عطاء في قوله عبداً مملوكاً هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقاً حسناً هو أبو بكر الصديق ثم قال تعالى (الحمد لله) حمد الله نفسه لأنه المستحق لجميع المحامد لأنه المنعم المتفضل على عباده وهو الخالق الرازق لا هذه الأصنام التي عبدها هؤلاء فإنها لا تستحق الحمد لأنها جماد لا جزء لا يد لها على أحد ولا معروف فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لأنه أهل الحمد والثناء الحسن (بل أكثرهم) يعني الكفار (لا يعلمون) يعني أن الحمد لله لا لهذه الأصنام (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم) هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم والأبكم الذي لا يفهم ولا يفهم (لا يقدر على شيء) هو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل (وهو كل على مولاه) أي ثقيل على من يلي أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ وهو نقيض الحدة يقال كل السكين إذا غلظت شفرته وكل اللسان إذا غلظ فلم يقدر على النطق وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله وهو كل على مولاه أي غليظ ثقيل على مولاه (أينما يوجهه) أي حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهم (لا يأت بخير) يعني لا يأت بنجح لأنه أخرس عاجز لا يحسن ولا يفهم (هل يستوي) يعني من هذه صفته (هو) يعني صاحب هذه الصفات المذمومة (ومن يأمر بالعدل) يعني ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير (وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) يعني على سيرة صالحة ودين قويم فيجب أن يكون الآمر بالعدل

تنفع (ولله غيب السموات والأرض) أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم [illegible] أو أراد بغيب السموات والأرض
يوم القيامة على أن علمه
غائب عن أهل السموات
والأرض لم يطلع عليه أحد
منهم (وما أمر الساعة) في
قرب كونها وسرعة قيامها
(إلا كلمح البصر) كرجع
طرف وإنما ضرب به المثل
لأنه لا يعرف زمان أقل منه
(أو هو) أي الأمر (أقرب)
وليس هذا لشك المخاطب
ولكن المعنى كونوا في
كونها على هذا الاعتبار
وقيل بل هو أقرب (إن الله
على كل شيء قدير) فهو
يقدر على أن يقيم الساعة
ويبعث الخلق لأنه بعض
المقدورات ثم دل على
قدرته بما بعده فقال (والله
أخرجكم من بطون
أمهاتكم) وبكسر الألف
وفتح الميم على اتباع الكسرة
الموبا وبكسرهما حمزة
والهاء مزيدة في أمهات
للتوكيد كما زيدت في أراق
فقيل أهراق وشذت
زيادتها في الواحدة
(لا تعلمون شيئا) حال أي
غير عالمين شيئا من حق
المنعم الذي خلقكم في
البطون (وجعل لكم
السمع والأبصار والأفئدة
لعلكم تشكرون) أي وما
ركب فيكم هذه الأشياء إلا
آلات لإزالة الجهل الذي
ولدتم عليه واجتلاب العلم
والعمل به من شكر المنعم
وعبادته والقيام بحقوقه والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة لعدم السماع

عالما قادرا مستقيما في نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما
يفيض على عباده من إنعامه ويشملهم بعموم آثار رحمته وألطافه وللأصنام التي هي أموات
جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل وهي كل على عابدها لأنها تحتاج إلى كلفة
الحمل والنقل والخدمة وقيل كلا المثلين للمؤمن والكافر فالمؤمن هو الذي يأمر بالعدل وهو
على صراط مستقيم والكافر هو الأبكم الثقيل الذي لا يأتي بخير فعلى هذا القول تكون
الآية على العموم في كل مؤمن وكافر وقيل هي على الخصوص فالذي يأمر بالعدل هو
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صراط مستقيم والذي يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل
وقيل الذي يأمر بالعدل عثمان بن عفان وكان له مولى يأمره بالإسلام وذلك المولى يأمر
عثمان بالإمساك من الإنفاق في سبيل الله تعالى فهو الذي لا يأتي بخير وقيل المراد بالأبكم
الذي لا يأتي بخير أبي بن خلف والذي يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون
(ولله غيب السموات والأرض) أخبر الله عز وجل في الآية عن كمال علمه وأنه عالم بجميع
الغيوب فلا تخفى عليه خافية ولا يخفى عليه شيء منها وقيل الغيب هنا هو علم قيام الساعة وهو
قوله (وما أمر الساعة) يعني في قيامها والساعة هي الوقت الذي يقوم الناس فيه لموقف
الحساب (إلا كلمح البصر) يعني في السرعة ولمح البصر هو انطباق جفن العين وفتحه وهو
طرف العين أيضا (أو هو أقرب) يعني أن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة والله سبحانه
وتعالى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون في أسرع من لمح البصر وهو قوله (إن الله على كل شيء
قدير) فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالى مهما أراد شيئا كان أسرع ما يكون
قال الزجاج ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر ولكنه سبحانه وتعالى وصف
سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء لا يعجزه شيء قوله عز وجل (والله أخرجكم من بطون
أمهاتكم لا تعلمون شيئا) تم الكلام هنا لأن الإنسان خلق في أول الفطرة ومبدئها خاليا عن العلم
والمعرفة لا يهتدي سبيلا ثم ابتدأ فقال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) يعني أن الله
سبحانه وتعالى إنما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل إلى العلم فجعل لكم السمع لتسمعوا
به نصوص الكتاب والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم
وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته فتستدلوا بها على وحدانيته
وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته وقال ابن
عباس في هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من إخراجكم من
بطون أمهاتكم إلى أن صرتم رجالا وتعقلوا عظمة الله وقيل في معنى الآية والله خلقكم في بطون
أمهاتكم وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة وجعل لكم الحواس آلات لإزالة
الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقي
إلى ما يسعدكم به في الآخرة فإن قلت ظاهر الآية يدل على أن جعل الحواس الثلاث بعد
الإخراج من البطون وإنما خلقت هذه الحواس للإنسان من حين خلقه وهو في بطن أمه قلت
ذكر العلماء أن تقديم الإخراج وتأخير ذكر هذه الحواس لا يدل على أن خلقها كان بعد الإخراج
لأن الواو لا توجب الترتيب ولأن العرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها وأقول إنما كان الانتفاع
بهذه الحواس بعد الخروج من البطن فكأنما خلقت في ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه وإن
كانت قد خلقت قبل ذلك وقوله تعالى (لعلكم تشكرون) يعني إنما أنعم عليكم بهذه الحواس

انتستعملوها فى شكر من أنعمها عليكم (ألم يروا الى الطير مسخرات) يعنى مذللات (فى جو السماء) الجو الفضاء الواسع بين السماء والارض وهو الهواء قال كعب الاحبار ان الطير ترتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك (ما يمسكهن الا الله) يعنى فى حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها فى الهواء وفى هذا حث على الاستدلال بها على ان لها مسخرا سخرها ومذللا ذللها وممسكا أمسكها فى حال طيرانها ووقوفها فى الهواء وهو الله تعالى (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) انما خص المؤمنين بالذكر لانهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم قوله سبحانه وتعالى (والله جعل لكم من بيوتكم) يعنى التى هى من الحجر والمدر (سكنا) يعنى مسكنا تسكنونه والسكن ما سكنت اليه وفيه من الف أو بيت (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) يعنى الخيام والقباب والاخبية والفساطيط المتخذة من الادم والانطاع واعلم ان المساكن على قسمين أحدهما ما لا يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهى البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما والقسم الثانى ما يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهى الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الانعام واليه الاشارة بقوله تعالى (تستخفونها) يعنى يخف عليكم حملها (يوم ظعنكم) يعنى فى يوم سيركم ورحيلكم فى أسفاركم وفى البادية وطلب ماء أو مرعى ونحو ذلك (ويوم اقامتكم) يعنى وتخف عليكم أيضا فى اقامتكم وحضركم والمعنى لا تثقل عليكم فى الحالتين (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الكناية عائدة الى الانعام يعنى ومن أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) يعنى تتخذون أثاثا الاثاث متاع البيت الكثير وأصله من أث اذا كثر وتكاثف وقيل للمال أثاث اذا كثر قال ابن عباس أثاثا يعنى مالا وقال مجاهد متاعا وقال القتيبى الاثاث المال أجمع من الابل والغنم والعبيد والمتاع وقال غيره الاثاث هو متاع البيت من الفرش والاكسية ونحو ذلك (ومتاعا) يعنى وبلاغا وما تتمتعون به (الى حين) يعنى الى حين يبلى ذلك الاثاث وقيل الى حين الموت فان قلت أى فرق بين الاثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف والعطف يوجب المغايرة قلت من فرق قال الاثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال والمتاع ما ينتفع به فى البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظين والله أعلم (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) يعنى جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد وهى ظلال الابنية والجدران والاشجار (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد كالاسراب والغيران ونحوها وذلك لان الانسان اما أن يكون غنيا أو فقيرا فاذا سافر احتاج فى سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فأما الغنى فيستصحب معه الخيام فى سفره ليستكن فيها واليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأما الفقير فيستكن فى ظلال الاشجار والحيطان والكهوف ونحوها واليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ولان بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظلال وما يدفع شدة الحر قوية أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعانى فى معرض الامتنان عليهم بها لان النعمة عليهم فيها ظاهرة (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) يعنى وجعل لكم قمصانا وثيابا من القطن والكتان والصوف وغير ذلك تقيكم من شدة الحر قال أهل المعانى والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه

بالغيبة (ألم يروا) وبالتاء شامى وحمزة (الى الطير مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المواتية لذلك (فى جو السماء) هو الهواء المتباعد من الارض فى سمت العلو (ما يمسكهن) فى قبضهن وبسطهن ووقوفهن (الا الله) بقدرته وفيه نفى لما يصوره الوهم من خاصية القوى الطبيعية (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) بأن الخلق لا غنى به عن الخالق (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) هو فعل بمعنى مفعول أى ما يسكن اليه وينقطع اليه من بيت أو الف (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) هى قباب الادم (تستخفونها) ترونها خفيفة المحمل فى الضرب والنقض والنقل (يوم ظعنكم) بسكون العين كوفى وشامى وبفتح العين غيرهم والظعن بفتح العين (ويوم اقامتكم) قراركم فى وسكونها الارتحال منازلكم والمعنى انها خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر على ان اليوم بمعنى الوقت (ومن أصوافها) أى أصواف الضأن (وأوبارها) وأوبار الابل (وأشعارها) وأشعار المعز (أثاثا) متاع البيت (ومتاعا) وشيأ ينتفع به (الى حين) مدة من الزمان (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) كالاشجار والسقوف (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما ستر من كهف أو غار (وجعل لكم سرابيل) هى القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن (تقيكم الحر) وهى تقى البرد أيضا الا انه اكتفى بأحد الضدين ولان الوقاية من الحر أهم عندهم

(وسرابيل

لكون البرد يسير احتمالا (وسرابيل تقيكم بأسكم) ودروعا من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم في قتالكم والبأس شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد أو غيره (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أي تنظرون في نعمته

السابغة فتؤمنون به وتنقادون له (فان تولوا) أعرضوا عن الاسلام (فانما عليك البلاغ المبين) أي ولا تبعة عليك في ذلك لان الذي عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت (يعرفون نعمت الله) التي عددناها بأقوالهم فانهم يقولون انها من الله (ثم ينكرونها) بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم أو في الشدة ثم في الرخاء (وأكثرهم الكافرون) أي الجاحدون غير المعترفين أو نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادا وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم وثم يدل على أن انكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر (ويوم) انتصابه باذكر (نبعث) نحشر (من كل أمة شهيدا) نبيا يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والايمان والكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) في الاعتذار والمعنى لا حجة لهم فدل بترك الاذن على أن لا حجة لهم ولا عذر (ولا هم يستعتبون) ولا هم يسترضون أي لا يقال لهم أرضوا ربكم لان الآخرة

ليس بدار عمل ومعنى ثم انهم يمنعون أي يبتلون بعد شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم وأغلب منها وهو انهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (واذا رأى الذين ظلموا) كفروا (العذاب فلا

(وسرابيل تقيكم بأسكم) يعني الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في الحرب من السلاح والبأس الحرب يعني تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم قال عطاء الخراساني انما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتان أكثر ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر وكما قال تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد وما أنزل من الثلج أكثر ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقي من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر وقوله سبحانه وتعالى (كذلك) يعني كما أنعم عليكم بهذه النعم (يتم نعمته عليكم) يعني نعم الدنيا والدين (لعلكم تسلمون) يعني لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات الا الله تعالى (فان تولوا) يعني فان أعرضوا عن الايمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية فانما وبال ذلك عليهم لا عليك (فانما عليك البلاغ المبين) يعني ليس عليك في ذلك عتب ولا سمة تقصير انما عليك البلاغ وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى بقوله (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها) قال السدي نعمة الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هي الاسلام لانه من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه وقال مجاهد وقتادة نعمة الله ما عدد عليهم في هذه السورة من النعم يقرون بأنها من الله ثم اذا قيل لهم صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا وقال الكلبي انه لما ذكر هذه النعم قالوا هذه نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل انهم يعترفون بأن الله أنعم بهذه النعم ولكنهم لا يستعملونها في طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها (وأكثرهم الكافرون) انما قال سبحانه وتعالى وأكثرهم الكافرون مع انهم كانوا كلهم كافرين لانه كان فيهم من لم يبلغ حد التكليف فعبر بالاكثر عن البالغين وقيل أراد بالاكثر الكافرين الحاضرين المعاندين وقد كان فيهم من ليس بمعاند وان كان كافرا وقيل انه عبر بالاكثر عن الكل لانه قد يذكر الاكثر ويراد به الجميع قوله سبحانه وتعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وانكارهم لها وذكر أن أكثرهم كافرون اتبعه بذكر الوعيد لهم في الآخرة فقال تعالى ويوم نبعث من كل أمة شهيدا يعني رسولا وذلك اليوم هو يوم القيامة والمراد بالشهداء الانبياء يشهدون على أممهم بانكار نعم الله عليهم وبالكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) يعني في الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم في الكلام أصلا وقيل لا يؤذن لهم بالرجوع الى دار الدنيا فيعتذروا أو يتوبوا وقيل لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك (ولا هم يستعتبون) الاستعتاب طلب العتاب والعتبة هي الدالة والموجدة التي يجدها الانسان في نفسه على غيره والرجل انما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما في نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع الى الرضا عنه واذا لم يطلب العتاب منه دل ذلك على انه ثابت على غضبه عليه ومعنى الآية انهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم لان الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون الى الدنيا فيتوبوا أو يرجعوا ويرضوا ربهم فالاستعتاب التعرض لطلب الرضا وهذا باب منسد على الكفار في الآخرة (واذا رأى الذين ظلموا) يعني ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي (العذاب) يعني عذاب جهنم (ولا

يخفف عنهم) أي العذاب بعد الدخول (ولا هم ينظرون) يمهلون قبله (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أوثانهم التي عبدوها (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا) أي آلهتنا التي جعلناها شركاء (الذين كنا ندعو من دونك) أي نعبد (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أي أجابوهم بالتكذيب لأنها كانت جمادا لا تعرف من عبدها ويحتمل أنهم كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله عن الشرك (وألقوا) يعني الذين ظلموا (إلى الله يومئذ السلم) إلقاء السلم الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء

والاستكبار في الدنيا (وضل عنهم) وبطل عنهم (ما كانوا يفترون) من أن لله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الذين كفروا) في أنفسهم (وصدوا عن سبيل الله) وحملوا غيرهم على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) أي عذابا بكفرهم وعذابا بصدهم عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) بكونهم مفسدين الناس بالصد (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) يعني نبيهم لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم (وجئنا بك) يا محمد (شهيدا على هؤلاء) على أمتك (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) بليغا (لكل شيء) من أمور الدين أما في الأحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة أو بالإجماع أو قول الصحابة أو بالقياس لأن مرجع الكل إلى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وحثنا على الإجماع فيه بقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه رواية بقوله أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد والقياس مع أنه أمرنا به بقوله فاعتبروا يا أولي الأبصار فكانت السنة والإجماع وقول الصحابي والقياس مستندة إلى بيان الكتاب فتبين أنه كان تبيانا لكل شيء (وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ودلالة إلى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة (إن الله يأمر بالعدل) بالتسوية في الحقوق

يخفف عنهم) يعني العذاب (ولا هم ينظرون) يعني لا يؤخرون ولا يمهلون (وإذا رأى الذين أشركوا) يعني يوم القيامة (شركاءهم) يعني أصنامهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) يعني أربابا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة (فألقوا) يعني الأصنام (إليهم) يعني إلى عابديها (القول إنكم لكاذبون) يعني أن الأصنام قالت للكفار إنكم لكاذبون يعني في تسميتنا آلهة وما دعوناكم إلى عبادتنا فإن قلت الأصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام قلت لا يبعد أن الله سبحانه وتعالى لما بعثها وأعادها في الآخرة خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك والمقصود من إعادتها وبعثها أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهي في غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غما وحسرة (وألقوا) يعني المشركين (إلى الله يومئذ السلم) يعني أنهم استسلموا له وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا (وضل عنهم) يعني وزال عن المشركين (ما كانوا يفترون) يعني ما كانوا يكذبون في الدنيا في قولهم إن الأصنام تشفع لهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) يعني ضموا مع كفرهم أنهم منعوا الناس عن الدخول في الإيمان بالله ورسوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) يعني زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على كفرهم الأصلي واختلفوا في هذه الزيادة ما هي فقال عبد الله بن مسعود عقارب لها أنياب كأمثال النخل الطوال وقال سعيد ابن جبير حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفا وقال ابن عباس ومقاتل يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار وقيل إنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها وقيل يضاعف لهم العذاب ضعفا بسبب كفرهم وضعفا بسبب صدهم الناس عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) يعني أن الزيادة إنما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله وبسبب ما كانوا يفسدون مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الأنبياء قال المفسرون كل نبي شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) يعني منهم لأن كل نبي إنما بعث من قومه الذين بعث إليهم ليشهدوا عليهم وبما فعلوا من كفر وإيمان وطاعة وعصيان (وجئنا بك) يعني يا محمد (شهيدا على هؤلاء) يعني على قومك وأمتك وتم الكلام ههنا ثم قال تبارك وتعالى (ونزلنا عليك الكتاب) يعني القرآن (تبيانا لكل شيء) تبيانا اسم من البيان قال مجاهد يعني لما أمر به ولما نهى عنه وقال أهل المعاني تبيانا لكل شيء يعني من أمور الدين إما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم بين ما في القرآن من الأحكام والحدود والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات وإجماع الأمة هو أيضا أصل ومفتاح لعلوم الدين (وهدى) يعني من الضلالة (ورحمة) يعني لمن آمن به وصدقه (وبشرى للمسلمين) يعني وفيه بشرى للمسلمين من الله عز وجل قوله سبحانه وتعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) قال ابن عباس العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض وفي

روايةعنه قال العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ماتحب لنفسك ان كان مؤمنا أن تحب أن يزداد ايمانا وان كان كافرا تحب أن يكون أخاك فى الاسلام وقال فى رواية أخرى عنه العدل التوحيد والاحسان الاخلاص وأصل العدل فى اللغة المساواة فى كل شئ من غير زيادة فى شئ ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير فالعدل هو المساواة فى المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه وقيل العدل الانصاف ولا انصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان أن تحسن الى من أساء اليك وقيل يأمر بالعدل فى الافعال وبالاحسان فى الاقوال فلا يفعل الا ماهو عدل ولا يقول الا ماهو حسن (وايتاء ذى القربى) يعنى ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة الادنون والابعدون منك فيستحب أن تصلهم من فضل مارزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس يعنى الزنا وقال غيره الفحشاء ماقبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة (والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر مالا يعرف فى شريعة ولا سنة (والبغى) يعنى الكبر والظلم وقيل البغى هو التطاول على الغير على سبيل الظلم والعدوان قال بعضهم ان أعجل المعاصى البغى ولو أن جبلا بغى على آخر لدك الباغى وقال ابن عيينة فى هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر والبغى أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة فى الاقوال والافعال وذكر فى مقابلته الفحشاء وهى ماقبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو أن تعفو عمن ظلمك وتحسن الى من أساء اليك وذكر فى مقابلته المنكر وهو أن تنكر احسان من أحسن اليك وذكر ايتاء ذى القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر فى مقابلته البغى وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ثم قال تعالى (يعظكم لعلكم تذكرون) يعنى انما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه لكى تتعظوا وتتذكروا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى قال ابن مسعود ان أجمع آية فى القرآن لخير وشر هذه الآية وقال أهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فمامن شئ يحتاج اليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يؤتى أو يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل الى آخر الآية فقال له يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر قوله عز وجل (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل الاجمال ذكر فى هذه الآية بعض ذلك الاجمال على التفصيل فبدأ بالامر بالوفاء بالعهد لانه آكد الحقوق فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم نزلت فى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فأمرهم بالوفاء بهذه البيعة وقيل المراد منه كل ما يلتزمه الانسان باختياره ويدخل فيه الوعد أيضا لان الوعد من العهد وقيل العهد ههنا اليمين قال الشعبى العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء به اذا كان فيه صلاح أما اذا لم يكن فيه صلاح فلا يجب الوفاء به لقوله صلى الله عليه وسلم من حلف يمينا ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من العام

فيما بينكم وترك الظلم وايصال كل ذى حق الى حقه (والاحسان) الى من أساء اليكم أوهما الفرض والندب لان الفرض لابد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب (وايتاءذى القربى) واعطاء ذى القرابة وهو صلة الرحم (وينهى عن الفحشاء) عن الذنوب المفرطة فى القبح (والمنكر) ماتنكره العقول (والبغى) طلب التطاول بالظلم والكبر (يعظكم) حال أو مستأنف (لعلكم تذكرون) تتعظون بمواعظ الله وهذه الآية سبب اسلام عثمان بن مظعون فانه قال ما كنت أسلمت الا حياء منه عليه السلام لكثرة ما كان يعرض على الاسلام ولم يستقر الايمان فى قلبى حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الايمان فى قلبى فقرأتها على الوليد ابن المغيرة فقال والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر وقال أبو جهل ان إلهه ليأمر بمكارم الاخلاق وهى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولهذا يقرؤها كل خطيب على المنبر فى آخر كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهى (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) هى البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله

(الايمان) ايمان البيعة (بعد توكيدها) بعد توثيقها باسم الله وأ... وتوكيد تصحيحا ... والاصل الواو والهمزة بدل منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا ورقيبا لان الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه (ان الله يعلم ما تفعلون) من البر والحنث فيجازيكم به (ولا تكونوا) في نقض الايمان (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة) كالمرأة التي انقضت على غزلها بعد ان احكمته وابرمته فجعلته ١٥٦ (انكاثا) جمع نكث وهو ما ينكث فتله قيل هي ريطة وكانت حمقاء تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم) حال كانكاثا (دخلا) أحد مفعولي تتخذ أي ولا تنقضوا ايمانكم متخذيها دخلا (بينكم) أي مفسدة وخيانة (أن تكون أمة) بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش (هي أربى من أمة) هي أزيد عددا وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين هي أربى مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لأمة وأمة فاعل تكون وهي تامة وهي ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين (انما يبلوكم الله به) الضمير للمصدر أي انما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من ايمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) اذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب وفيه تحذير عن مخالفة ملة الاسلام (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) حنيفة مسلمة (ولكن يضل من يشاء) من علم منه واقع اختيار الضلالة (ويهدي من يشاء) من علم منه اختيار الهداية (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يوم القيامة فتجزون به (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) كرر النهي عن اتخاذ الايمان دخلا بينهم تأكيدا عليهم واظهارا لعظمه (فتزل قدم بعد ثبوتها) فتزل أقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها وانما وحدت القدم ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) في الدنيا

الذي نقضته السنة وقال مجاهد وقتادة نزلت في حلف أهل الجاهلية ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم كل حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) يعني تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على ان المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعني شهيدا بالوفاء بالعهد (ان الله يعلم ما تفعلون) يعني من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لنقض العهد فقال تعالى (ولا تكونوا) يعني في نقض العهد (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة) يعني من بعد ابرامه واحكامه قال الكلبي ومقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة وكانت قد اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل الاصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أو الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة الى نصف النهار فاذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن فكان هذا دأبها والمعنى ان هذه المرأة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به (انكاثا) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل أو الحبل بعد الفتل (تتخذون ايمانكم دخلا بينكم) يعني دغلا وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه (أن تكون) يعني لأن تكون (أمة هي أربى من أمة) يعني أكثر وأعلى من أمة قال مجاهد وذلك انهم كانوا يحالفون الحلفاء فاذا وجدوا قوما أكثر من أولئك وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الاكثر والمعنى انكم طلبتم العز بنقض العهد لان كانت أمة أي جماعة أكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا (انما يبلوكم الله به) يعني يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) يعني في الدنيا فيثيب الطائع المحق ويعاقب العاصي المخالف قوله سبحانه وتعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعني على ملة واحدة ودين واحد وهو دين الاسلام (ولكن يضل من يشاء) يعني بخذلانه اياه عدلا منه (ويهدي من يشاء) بتوفيقه اياه فضلا منه وذلك مما اقتضته الحكمة الالهية لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو قوله تعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يعني في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه ويعاقب المسيء باساءته أو يغفر له قوله عز وجل (ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم) يعني خديعة وفسادا بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا الى ايمانكم ويأمنوا اليكم ثم تنقضونها وانما كرر هذا المعنى تأكيدا عليهم واظهارا لعظم أمر نقض العهد قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام نهاهم عن نقض عهده لان الوعيد الذي بعده وهو قوله سبحانه وتعالى فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره انما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وشريعته وقوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) مثل يذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط في ورطة بعد سلامة تقول العرب لكل

(بما صددتم) بصدودكم (عن سبيل الله) وخروجكم من الدين أو بصدكم غيركم لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها (ولكم عذاب عظيم) في الآخرة (ولا تشتروا) ولا تستبدلوا (بعهد الله) وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) عرضا من الدنيا يسيرا كأن قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا ١٥٧ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله (إن ما عند الله) من ثواب الآخرة (هو خير لكم إن كنتم تعلمون ما عندكم) من أعراض الدنيا (ينفد وما عند الله) من خزائن رحمته (باق) لا ينفد (ولنجزين) وبالنون مكي وعاصم (الذين صبروا) على أذى المشركين ومشاق الإسلام (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون من عمل صالحا من ذكر أو أنثى) من مبهم يتناول النوعين إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم الوعد النوعين جميعا (وهو مؤمن) شرط الإيمان لأن أعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على أن العمل ليس من الإيمان (فلنحيينه حياة طيبة) أي في الدنيا لقوله (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا يعيش عيشا طيبا إن كان موسرا فظاهر وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى وأما الفاجر فأمره بالعكس إن كان معسرا فظاهر وإن كان موسرا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والإعراض عما سوى الله (فإذا قرأت القرآن) فإذا أردت قراءة القرآن (فاستعذ بالله) عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل لأنها سبب له والفاء للتعقيب إذ القراءة مسببة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور (من الشيطان) يعني إبليس (الرجيم) المطرود أو الملعون قال ابن مسعود رضي الله عنه قرأت على

واقع في بلاء بعد عافية زلت قدمه والمعنى فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها (وتذوقوا السوء) يعني العذاب (بما صددتم عن سبيل الله) يعني بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لأن من نقض العهد فقد علم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك (ولكم عذاب عظيم) يعني بنقضكم العهد (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) يعني ولا تنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بها (إن ما عند الله) يعني فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد (هو خير لكم) يعني من عاجل الدنيا (إن كنتم تعلمون) يعني فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك فقال تبارك وتعالى (ما عندكم ينفد) يعني من متاع الدنيا ولذاتها يفنى ويذهب (وما عند الله باق) يعني من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (ولنجزين الذين صبروا) يعني على الوفاء بالعهد على السراء والضراء (أجرهم) يعني ثواب صبرهم (بأحسن ما كانوا يعملون) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقوله سبحانه وتعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فإن قلت من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة الذكر والأنثى قلت هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر وأطلق كان الظاهر تناوله للذكر دون الأنثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين ليعم الوعد النوعين جميعا وجواب آخر وهو أن هذه الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتا للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص وقوله وهو مؤمن جعل الإيمان شرطا في كون العمل الصالح موجبا للثواب (فلنحيينه حياة طيبة) قال سعيد بن جبير وعطاء هي الرزق الحلال وقال مقاتل هي العيش في الطاعة وقيل هي حلاوة الطاعة وقال الحسن هي القناعة وقيل رزق يوم بيوم واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا وإن كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وإن كان غنيا لأن المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره وعرف أن الله محسن كريم متفضل لا يفعل إلا الصواب فكان المؤمن راضيا عن الله وراضيا بما قدره الله له ورزقه إياه وعرف أن له مصلحة في ذلك القدر الذي رزقه إياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر أو الجاهل بهذه الأصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبدا في حزن وتعب وعناء وحرص وكد ولا ينال من الرزق إلا ما قدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدي الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة في قوله فلنحيينه حياة طيبة هي الجنة وروى عوف عن الحسن قال لا تطيب لأحد الحياة إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة فثبت بهذا أن الحياة الطيبة لا تكون إلا في الجنة ولقوله في سياق الآية (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) لأن ذلك الجزاء إنما يكون في الجنة قوله عز وجل (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لأن

النبي صلى الله عليه وسلم لما كان غير محتاج الى الاستعاذة وقد أمر بها فغيره أولى بذلك ولما كان الشيطان ساعيا في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك فلهذا السبب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة حتى تكون مصونة من وساوس الشيطان عن جبير بن مطعم انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال عمرو ولا أدري أي صلاة هي قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود الموتة الجنون والفاء في قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر لفظ الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة واليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهري قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصلت الوساوس في قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أم لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصا فاما مذهب الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار فقد اتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ ومثله من الكلام اذا أردت أن تأكل فقل بسم الله واذا أردت أن تسافر فتأهب وأيضا فان الوسوسة انما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها ومذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها واتفق سائر الفقهاء على ان الاستعاذة سنة في الصلاة وغيرها وقد تقدمت هذه المسئلة والخلاف فيها في أول سورة الفاتحة والاستعاذة الاعتصام بالله والالتجاء اليه من شر الشيطان ووسوسته والمراد من الشيطان ابليس وقيل هو اسم جنس يطلق على جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم باقدار الله اياهم على ذلك (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك أوهم ان له قدرة على التصرف في أبدان بني آدم فأزال الله سبحانه وتعالى هذا الوهم بقوله انه ليس له سلطان يعني ليس له قدرة ولا ولاية على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال سفيان ليس له سلطان على ان يحملهم على ذنب لا يغفر (١) ويظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر بقلب الانسان كونه ضعيفا وانه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان الا بعصمة الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى (انما سلطانه على الذين يتولونه) يعني يطيعونه ويدخلون في ولايته يقال توليته اذا أطعته وتوليت عنه اذا أعرضت عنه (والذين هم به مشركون) يعني بالله وقيل الضمير في به راجع الى الشيطان والمعنى هم من أجله مشركون بالله قوله سبحانه وتعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل) وذلك ان المشركين من أهل مكة قالوا ان محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه فأنزل الله هذه الآية والمعنى واذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل في الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير ويبدل من أحكامه أي هو أعلم بجميع ذلك بما هو من مصالح عباده وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى (قالوا انما أنت مفتر) أي مختلق من عندك والمعنى اذا كان الله تعالى أعلم بما

ينزل

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لي قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام (انه ليس له) لابليس (سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه (انما سلطانه على الذين يتولونه) يتخذونه وليا ويتبعون وساوسه (والذين هم به مشركون) الضمير يعود الى ربهم أو الى الشيطان أي بسببه (واذا بدلنا آية مكان آية) تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله (والله أعلم بما ينزل) وبالتخفيف مكي وأبو عمرو (قالوا انما أنت مفتر) هو جواب اذا وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون ان محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الاشق بالاهون والاهون بالاشق

(١) قوله ويظهر من هذا اسم الاشارة راجع لما ذكره قبل قول سفيان كما يعلم من المفسر فانه لم يذكر في هذا المحل قول سفيان وذكر ما قبله وما بعده وعبارته صحيحة بخلاف ما هنا فانه يوهم رجوع اسم الاشارة لقول سفيان وهو غير ظاهر اه مصححه

(بل أكثرهم لا يعلمون) الحكمة في ذلك (قل نزله روح القدس) أي جبريل عليه السلام أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم (من ربك) من عنده وأمره بالحق حال أي نزله ملتبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا والحكمة لانه حكيم لا يفعل الا ما هو حكمة وصواب حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب (وهدى وبشرى) مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة (للمسلمين) وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصال لغيرهم (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) أرادوا به غلاما كان لحويطب قد أسلم وحسن اسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب أو هو جبر غلام رومي لعامر بن الحضرمي أو عبدان جبر ويسار كانا يقرآن التوراة والانجيل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقرآن أو سلمان الفارسي (لسان الذي يلحدون اليه) وبفتح الياء والحاء حمزة وعلي (أعجمي وهذا لسان عربي مبين) أي لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة اليه لسان أعجمي غير بين وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة ردا لقولهم وابطالا لطعنهم وهذه الجملة أعني لسان الذي يلحدون اليه أعجمي لا محل لها لانها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة ويقال ألحد القبر ولحده وهو ملحد وملحود اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان في قوله وألحد في دينه ومنه الملحد لانه أمال مذهبه عن الاديان كلها

ينزل فلما رأوهم ينسبون محمدا الى الافتراء والكذب لاجل التبديل والنسخ وانما فائدة ذلك ترجع الى مصالح العباد كما يقال ان الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه ويأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة (بل أكثرهم لا يعلمون) يعني لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ (قل) أي قل لهم يا محمد (نزله) يعني القرآن (روح القدس) يعني جبريل صلى الله عليه وسلم أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير والمعنى الروح المقدس المطهر (من ربك) يعني ان جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد (بالحق ليثبت الذين آمنوا) يعني ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى وبشرى) يعني وهو هدى وبشرى (للمسلمين) قوله عز وجل (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر) وذلك ان كفار مكة قالوا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمي مثله وليس هو من عند الله كما يزعم فأجابهم الله بقوله ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر واختلفوا في ذلك البشر من هو فقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده فكانوا يقولون انما يعلمه بلعام وقال عكرمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبني المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب فقالت قريش انما يعلمه يعيش وقال محمد بن اسحق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المروة الى غلام رومي نصراني عبد لبعض بني الحضرمي يقال له جبر وكان يقرأ الكتب وقال عبيد الله بن مسلم كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لاحدهما يسار ويكنى أبا فكيهة ويقال للآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن التوراة والانجيل بمكة فربما مر بهما النبي صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف ويستمع قال الضحاك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا آذاه الكفار يقعد اليهما فيتروح بكلامهما فقال المشركون انما يتعلم محمد منهما وقال الفراء قال المشركون انما يتعلم محمد من عائش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانيا وقد أسلم وحسن اسلامه وكان أعجميا وقيل هو عداس غلام عتبة بن ربيعة والحاصل ان الكفار اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انما يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يضيفها الى نفسه ويزعم انه وحي من الله عز وجل وهو كاذب في ذلك فأجاب الله عنه وأنزل هذه الآية تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب فقال تعالى (لسان الذي يلحدون اليه) يعني يميلون ويشيرون اليه (أعجمي) يعني هو أعجمي والاعجمي هو الذي لا يفصح في كلامه وان كان يسكن البادية ومنه سمي زياد الاعجم لانه كان في لسانه عجمة مع انه كان من العرب والعجمي منسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والاعرابي الذي يسكن البادية والعربي الذي يسكن الامصار من بلاد العرب وهو منسوب الى العرب (وهذا لسان عربي مبين) يعني بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب هو ان الذي يشيرون اليه رجل أعجمي في لسانه عجمة تمنعه من الاتيان بفصيح الكلام ومحمد صلى الله عليه وسلم جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم أنتم عنه وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة فكيف يقدر من هو أعجمي على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي يشيرون

اليه فثبت بهذا البرهان ان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي أوحاه الله اليه وليس هو من تعليم الذي يشيرون اليه ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل اليه وروي أن الرجل الذي كانوا يشيرون اليه أسلم وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعني لا يصدقون انها من عند الله (لا يهديهم الله) يعني لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة ثم أخبر الله سبحانه وتعالى ان الكفار هم المفترون فقال تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعني انما يقدم على فرية الكذب من لا يؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش انما أنت مفتر (وأولئك هم الكاذبون) يعني في قولهم انما يعلمه بشر لا محمد صلى الله عليه وسلم فان قلت قد قال تبارك وتعالى انما يفترى الكذب فما معنى قوله تعالى وأولئك هم الكاذبون والثاني هو الاول قلت قوله سبحانه وتعالى انما يفترى الكذب اخبار عن حال قولهم وقوله وأولئك هم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أي كذبت في هذا القول ومن عادتك الكذب وفي الآية دليل على ان الكذب من أفحش الذنوب الكبار لان الكاذب المفترى هو الذي لا يؤمن بآيات الله روى البغوي باسناد الثعلبي عن عبد الله بن جراد قال قلت يا رسول الله المؤمن يزني قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يسرق قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يكذب قال لا قال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله قوله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) نزلت في عمار بن ياسر وذلك ان المشركين أخذوه وأباه ياسرا وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام فأما سمية أم عمار فانها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة فماتت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين قتلا في الاسلام وأما عمار فانه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرها قال قتادة أخذ بنو المغيرة عمارا وغطوه في بئر ميمون وقالوا له اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وراءك قال شر يا رسول الله نلت منك وذكرت آلهتهم قال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالايمان فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال ان عادوا لك فعد لهم بما قلت فنزلت هذه الآية وقال مجاهد نزلت في أناس من أهل مكة آمنوا فكتب اليهم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان هاجروا الينا فانا لا نراكم منا حتى تهاجروا الينا فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين وهذا القول ضعيف لان الآية مكية وكان هذا في أول الاسلام قبل ان يؤمروا بالهجرة وقال مقاتل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها وقلبه مطمئن بالايمان ثم أسلم عامر بن الحضرمي مولى جبر وحسن اسلامه وهاجر الى المدينة والاولى أن يقال ان الآية عامة في كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصا فان قلت المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر فما معنى هذا الاستثناء في الا من أكره قلت المكره لما ظهر منه بعد الايمان ما شابه ما يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله أعلم

﴿فصل في حكم الآية﴾ قال العلماء يجب أن يكون الاكراه الذي يجوز له ان يتلفظ معه بكلمة الكفر ان يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والايلامات

(ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي القرآن (لا يهديهم الله) ماداموا مختارين الكفر (ولهم عذاب أليم) في الآخرة على كفرهم (انما يفترى الكذب) على الله (الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي انما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لانه لا يترقب عقابا عليه وهو رد لقولهم انما أنت مفتر (وأولئك) اشارة الى الذين لا يؤمنون أي وأولئك (هم الكاذبون) على الحقيقة الكاملون في الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم الكذب أو وأولئك هم الكاذبون في قولهم انما أنت مفتر ويجوز أن يكون (من كفر بالله من بعد ايمانه) شرطا مبتدأ وحذف جوابه لان جواب من شرح دال عليه كأنه قيل من كفر بالله فعليهم غضب (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) ساكن به

(ولكن من شرح بالكفر صدرا) أي طاب به نفسا واعتقده (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وان يكون بدلا من الذين لا يؤمنون بآيات الله على ان يجعل وأولئك هم الكاذبون اعتراضا بين البدل والمبدل منه والمعنى انما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ثم قال ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله وان يكون بدلا من المبتدا الذى هو أولئك أى ومن كفر بالله من بعد ايمانه هم الكاذبون أو من الخبر الذى هو الكاذبون أى وأولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه وان ينتصب على الذم روى ان ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا وكان فيهم من أكره فاجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للايمان منهم عمار وأما أبواه ياسر وسمية فقد قتلا وهما أول قتيلين فى الاسلام فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وما فعل أبو عمار أفضل لان فى الصبر على القتل اعزازا للاسلام (ذلك) اشارة الى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم (بأنهم استحبوا) آثروا (الحيوة الدنيا على الآخرة) أى بسبب ايثارهم الدنيا على الآخرة (وان الله لا يهدى القوم الكافرين) مادام وا مختارين الكفر (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلا يتدبرون ولا يصغون الى المواعظ ولا يبصرون طريق الرشاد (وأولئك هم الغافلون) أى الكاملون فى الغفلة لان الغفلة عن تدبر العواقب هى غاية الغفلة ومنتهاها (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ثم ان ربك) ثم يدل على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك (للذين هاجروا) من مكة أى انه لهم لا عليهم يعنى انه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميا منفوعا غير مضرور (من بعد ما فتنوا) بالعذاب والاكراه على الكفر فتلفظوا بما يرضيهم أى بعد ما عذبوا المؤمنين ثم أسلموا (ثم جاهدوا) المشركين بعد الهجرة (وصبروا) على الجهاد (ان ربك من

القوية مثل التحريق بالنار ونحوه وقال العلماء أول من أظهر الاسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبوه ياسر وأمه سمية فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبى طالب وأما أبو بكر فمنعه قومه وعشيرته وأخذ الآخرون وألبسوا أدراع الحديد وأجلسوا فى حر الشمس بمكة فأما بلال فكانوا يعذبونه وهو يقول أحد أحد حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم وقال خباب لقد أوقدوا لى نارا ما أطفأها الا ودك ظهرى وأجمعوا على ان من أكره على الكفر لا يجوز له ان يتلفظ بكلمة تصريحا بل يأتى بالمعاريض وبما يوهم انه كفر فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الايمان غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لان ياسرا وسمية قتلا ولم يتلفظا بكلمة الكفر ولان بلالا صبر على العذاب ولم يلم على ذلك قال العلماء من الافعال ما يتصور الاكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميتة ونحوها فان أكره بالسيف أو القتل على ان يشرب الخمر أو يأكل الميتة أو لحم الخنزير أو نحوها جاز له ذلك لقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقيل لا يجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل ومن الافعال ما لا يتصور الاكراه عليه كالزنا لان الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع انتشار الآلة فلا يتصور فيه الاكراه واختلف العلماء فى طلاق المكره فقال الشافعى رضى الله تعالى عنه وأكثر العلماء لا يقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة يقع حجة الشافعى ومن وافقه قوله سبحانه وتعالى لا اكراه فى الدين ولا يمكن ان يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره والمعنى انه لا أثر له ولا عبرة به وقوله تعالى وقلبه مطمئن بالايمان فيه دليل على ان محل الايمان هو القلب (ولكن من شرح بالكفر صدرا) يعنى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) يعنى فى الآخرة (ذلك بأنهم استحبوا الحيوة الدنيا على الآخرة) يعنى يكون ذلك الاقدام على الارتداد الى الكفر لاجل أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (وأن الله لا يهدى القوم الكافرين) يعنى لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل به (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) تقدم تفسيره (وأولئك هم الغافلون) يعنى عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) يعنى أن الانسان انما يعمل فى الدنيا ليربح فى الآخرة فاذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لانه ضيع رأس ماله وهو الايمان ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر قوله عز وجل (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) يعنى عذبوا ومنعوا من الدخول فى الاسلام فتنهم المشركون (ثم جاهدوا وصبروا) على الايمان والهجرة والجهاد (ان ربك من

بعدها) يعني من بعد الفتنة التي فتنوها (لغفور رحيم) نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة وكان أخا أبي جهل من الرضاعة وقيل كان أخاه لأمه وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد ابن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسد الثقفي فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وقال الحسن وعكرمة نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي سرح كان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فاستزله الشيطان فارتد ولحق بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجار بعثمان وكان أخاه لأمه فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه وهذا القول إنما يصح إذا قلنا إن هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات في السور المكيات والله أعلم بحقيقة ذلك قوله سبحانه وتعالى (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) يعني تخاصم وتحتج عن نفسها أي بما أسلفت من خير وشر اشتغلت بالمجادلة لا تتفرغ إلى غيرها فإن قلت النفس هي نفس واحدة وليس لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها قلت إن النفس قد يراد بها بدن الإنسان وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الأولى هي مجموع ذات الإنسان وحقيقته والنفس الثانية هي بدنه فهي عينها وذاتها أيضا والمعنى يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من الاعتذارات (وتوفى كل نفس ما عملت) يعني جزاء ما عملت في الدنيا من خير أو شر (وهم لا يظلمون) يعني لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا بل يوفون ذلك كله لا من غير زيادة ولا نقصان روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار خوفنا فقال يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك ساعات وأنت لا يهمك إلا نفسك وإن جهنم لتزفر زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم خليل الرحمن يقول يا رب لا أسألك إلا نفسي وإن تصديق ذلك فيما أنزل الله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يا رب لم تكن لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها ويقول الجسد يا رب أنت خلقتني كالخشبة ليست لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فبه نطق لساني وبه أبصرت عيناي وبه مشت رجلاي فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعد دخلا حائطا يعني بستانا فيه ثمار فالأعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يناله فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب قوله عز وجل (وضرب الله مثلا قرية) المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره وقيل هو عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة قال الإمام فخر الدين الرازي المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشيء موجودا أو لم يكن وقد يضرب بشيء موجود معين فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا ويحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها والأكثر من المفسرين على أنها مكة والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة وقال الزمخشري في كتابه الكشاف وضرب الله مثلا قرية أي جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله

الجهاد والصبر (لغفور) لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية (رحيم) لا يعذبهم على ما قالوا في حالة الإكراه (يوم تأتي) منصوب برحيم أو باذكر (كل نفس تجادل عن نفسها) وإنما أضيفت النفس إلى النفس لأنه يقال لعين الشيء وذاته نفسه وفي نقيضه غيره والنفس الجملة كما هي فالنفس الأولى هي الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء أضلونا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا الآية والله ربنا ما كنا مشركين (وتوفى كل نفس ما عملت) تعطى جزاء عملها وافيا (وهم لا يظلمون) في ذلك (وضرب الله مثلا قرية) أي جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذه الصفة وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة إنذارا من مثل عاقبتها

بهم نقمته فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت
هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها وقال الواحدي ضرب المثل بيان المشبه
والمشبه به وههنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين والآية عند عامة
المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الأمن والنعمة بتكذيبهم
النبي صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلاً قريتكم أي بين الله لها شبهاً ثم قال قرية
فيجوز أن تكون القرية بدلاً من مثلاً لأنها هي الممثل بها ويجوز أن يكون المعنى ضرب الله
مثلاً مثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرون كلهم قالوا أراد بالقرية مكة يعنون
أنه أراد مكة في غفلها بقرية صفتها ما ذكر وقال ابن الجوزي في هذه القرية قولان أحدها
أنها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الأصح والثاني أنها قرية أوسع الله على
أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع قاله الحسن وأقول هذه الآية نزلت
بالمدينة في قول مقاتل وبعض المفسرين وهو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية
بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة في أهل مكة فضربها الله مثلاً لأهل المدينة يحذرهم
أن يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف ويشهد لصحة ما قلت أن الخوف
المذكور في هذه الآية في قوله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التي
كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعثها في قول جميع المفسرين لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر
بالقتال وهو بمكة وإنما أمر بالقتال لما هاجر إلى المدينة فكان يبعث البعوث والسرايا إلى حول
مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة والله أعلم بمراده وأما تفسير قوله تعالى وضرب الله مثلاً قرية يعني
مكة (كانت آمنة) يعني ذات أمن لا يهاج أهلها ولا يغار عليهم (مطمئنة) يعني قارة بأهلها
لا يحتاجون إلى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاج إليه سائر العرب (يأتيها رزقها رغداً) يعني
واسعاً (من كل مكان) يعني يحمل إليها الرزق والميرة من البر والبحر نظيره قوله سبحانه وتعالى
يجبى إليه ثمرات كل شيء وذلك بدعوة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وهو قوله وارزق أهله من
الثمرات (فكفرت) يعني هذه القرية والمراد أهلها (بأنعم الله) جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التي
أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لا جرم أن الله تعالى
انتقم منهم فقال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) وذلك أن الله سبحانه وتعالى ابتلاهم
بالجوع سبع سنين وقطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب والميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم
ويخلط به حتى يؤكل حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم إن
رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقالوا ما هذا هبك عاديت الرجال فما بال
النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس في حمل الطعام إليهم وهم بعد
مشركون والخوف يعني خوف بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التي كان يبعثها للإغارة
وكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم فإن قلت الإذاقة
واللباس استعارتان فما وجه صحتهما والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه
صحة إيقاعها عليه وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس فيقال كساهم الله لباس الجوع أو يقال
فأذاقهم الله طعم الجوع قلت قال صاحب الكشاف أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة
لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه

(كانت آمنة) من القتل والسبي (مطمئنة) لا يزعجها خوف لأن الطمأنينة مع الأمن والانزعاج والقلق مع الخوف (يأتيها رزقها رغداً) واسعاً (من كل مكان) من كل بلد (فكفرت) أهلها (بأنعم الله) جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف

العذاب شبه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ماغشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف ثم ذكر بعده من علم المعاني والبيان مايشهد لصحة ماقال وقال الامام فخر الدين الرازي جوابه من وجوه الاول ان الاحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان أحدهما ان المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع والثاني ان ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس والحاصل انه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف الوجه الثاني ان التقدير ان الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظره لاناوذق ماعنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها • وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ماظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان الوجه الثالث أن يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى (بما كانوا يصنعون) ولم يقل بما صنعت لانه أراد أهل القرية والمعنى فعلنا بهم مافعلنا بسبب ما كانوا يصنعون وهذا مثل أهل مكة لانهم كانوا في الامن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عز وجل عليهم بالنعمة العظيمة وهي ارسال محمد صلى الله عليه وسلم اليهم وهو منهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا في ايذائه وأرادوا قتله فأخرجه الله من بينهم وأمره بالهجرة الى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم قوله سبحانه وتعالى (ولقد جاءهم) يعني أهل مكة (رسول منهم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يعرفون نسبه ويعرفونه قبل النبوة وبعدها (فكذبوه فأخذهم العذاب) يعني الجوع والخوف وقيل القتل يوم بدر والقول الاول أولى لما تقدم في الآية (وهم ظالمون) يعني كافرون (فكلوا مما رزقكم الله) في المخاطبين بهذا قولان أحدهما انهم المسلمون وهو قول جمهور المفسرين والثاني أنهم هم المشركون من أهل مكة قال الكلبي لما اشتد الجوع بأهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انك انما عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أن يحملوا الطعام اليهم حكاه الواحدي وغيره والقول الاول هو الصحيح قال ابن عباس فكلوا يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله يريد الغنائم (حلالا طيبا) يعني ان الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الامة وطيبها لهم ولم تحل لاحد قبلهم (واشكروا نعمت الله) يعني التي أنعم بها عليكم (ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) تقدم تفسير هذه الآية وأحكامها في سورة البقرة والمقصود هنا قوله تعالى (ولا تقولوا

[...] الاذاقة واللباس استعارتان والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ووجه صحة ذلك ان الاذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد ومايمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر واذاقه العذاب شبه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ماغشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف (ولقد جاءهم رسول منهم) أي محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) أي في حال التباسهم بالظلم قالوا انه القتل بالسيف يوم بدر وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه الى أهل مكة في سني القحط بطعام ففرق فيهم فقال الله لهم بعد ان أذاقهم الجوع (فكلوا مما رزقكم الله) على يدي محمد صلى الله عليه وسلم (حلالا طيبا) بدلا عما كنتم تأكلونه حراما خبيثا من الاموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) تطيعون أو ان صح زعمكم انكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لانها شفعاؤكم عنده ثم عدد عليهم محرمات الله لما ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) انما للحصر أي المحرم هذا دون البحيرة وأخواتها وباقي الآية تقدم تفسيره (ولا تقولوا

لما تصف ألسنتكم الكذب) يعني ولا تقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب (هذا حلال وهذا حرام) يعني انكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره فليس تحليلكم وتحريمكم معنى وسبب الا الكذب فقط فلا تفعلوا ذلك قال مجاهد يعني البحيرة والسائبة وقال ابن عباس يعني قولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وذلك ان العرب في الجاهلية كانوا يحلون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم وينسبون ذلك الى الله تعالى وهو قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) يعني لا تقولوا ان الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم توعد المفترين للكذب فقال سبحانه وتعالى (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) يعني لا ينجون من العذاب وقيل لا يفوزون بخير لان الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى (متاع قليل) يعني متاعهم في الدنيا متاع قليل فانه لا بقاء له (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة (وعلى الذين هادوا) يعني اليهود (حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) يعني ما سبق ذكره وبيانه في سورة الأنعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الآية (وما ظلمناهم) يعني بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعني انما حرمنا عليهم ما حرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقوله تعالى (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل عمل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي وكل ما لا ينبغي وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة لان العاقل لا يرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية فانما يصدر عنه بسبب جهله اما بجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب أو بجهله بقدر من يعصيه فثبت بهذا ان فعل السوء انما يفعل بجهالة ثم ان الله تعالى وعد من عمل سوأ بجهالة ثم تاب وأصلح العمل في المستقبل أن يتوب عليه ويرحمه وهو قوله تعالى (ثم تابوا من بعد ذلك) يعني من بعد عمل ذلك السوء (وأصلحوا) يعني أصلحوا العمل في المستقبل وقيل معنى الاصلاح الاستقامة على التوبة (ان ربك من بعدها) يعني من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه (لغفور) يعني لمن تاب وآمن (رحيم) يعني بجميع المؤمنين والتائبين قوله سبحانه وتعالى (ان ابراهيم كان أمة) حكى ابن الجوزي عن ابن الانباري انه قال هذا مثل قول العرب فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه به والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله

لما تصف ألسنتكم الكذب) هو منصوب بلا تقولوا أى ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحي أو الى القياس المستنبط منه واللام مثلها في قولك لا تقولوا لما أحل الله هو حرام وقوله (هذا حلال وهذا حرام) بدل من الكذب ولك أن تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب أى ولا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم لا لأجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان وقوله تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فاذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر واللام في (لتفتروا على الله الكذب) من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) هو خبر مبتدأ محذوف أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) في سورة الأنعام يعني وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الآية (وما ظلمناهم) بالتحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) في موضع الحال أى عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ومرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) بتكفير ما كانوا افتعلوا من الجرائم (رحيم) بتوفيق ما وثقوا بعد من العزائم (ان ابراهيم كان أمة) انه كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

وعن مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار أو كان أمة بمعنى مأموم يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير

تبارك وتعالى قال قتادة ان الملائكة وانما ادعاه جبريل وحده وانما سمى ابراهيم صلى الله عليه وسلم أمة لانه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والاخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة ومنه قول الشاعر

ليس على الله بمستنكر ● أن يجمع العالم في واحد

ثم للمفسرين في معنى هذه اللفظة أقوال أحدها قول ابن مسعود الامة معلم الخير يعني انه كان معلم الخير يأتم به أهل الدنيا الثاني قال مجاهد انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان أمة وحده ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وانما قال فيه هذه المقالة لانه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الاصنام الثالث قال قتادة ليس من أهل دين الا وهم يتولونه ويرضونه وقيل الامة فعلة بمعنى مفعول وهو الذي يؤتم به وكان ابراهيم عليه السلام اماما يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى اني جاعلك للناس اماما وقيل انه عليه السلام هو السبب الذي لاجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو من باب اطلاق المسبب على السبب وقيل انما سمي ابراهيم عليه السلام أمة لانه قام مقام أمة في عبادة الله (قانتا لله) يعني مطيعا لله وقيل هو القائم بأوامر الله (حنيفا) مسلما يعني مقيما على دين الاسلام لا يميل عنه ولا يزول وهو أول من اختتن وضحى وأقام مناسك الحج (ولم يك من المشركين) يعني أنه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره الى كبره (شاكرا لانعمه) يعني انه كان شاكرا لله على أنعمه التي أنعم بها عليه (اجتباه) أي اختاره لنبوته واصطفاه لخلته (وهداه الى صراط مستقيم) يعني هداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم (وآتيناه في الدنيا حسنة) يعني الرسالة والخلة وقيل هي لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام في جميع الامم فان الله حببه الى جميع خلقه فكل أهل الاديان يتولونه المسلمون واليهود والنصارى ومشركو العرب وغيرهم وقيل هو قول المصلي في التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل انه آتاه أولادا أبرارا على الكبر (وانه في الآخرة لمن الصالحين) يعني في أعلى مقامات الصالحين في الجنة وقيل معناه وانه في الآخرة مع الصالحين يعني الانبياء في الجنة فيكون من بمعنى مع ولما وصف الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال تعالى (ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم) يعني دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد قال أهل الاصول كان النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقال أبو جعفر الطبري أمره باتباعه في التبري من الاوثان والتدين بدين الاسلام وهو قوله (حنيفا) مسلما (وما كان من المشركين) تقدم تفسيره وقوله تعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) يعني انما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أمرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما فاعبدوه في يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئا من صنعتكم وستة أيام لصنعتكم وأعمالكم فقالوا لا نريد الا اليوم الذي فرغ الله فيه من

أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أبو عبيدة أمين هذه الامة ومعاذ أمة قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة الا المرسلون (حنيفا) مائلا عن الاديان الى ملة الاسلام (ولم يك من المشركين) نفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش لزعمهم انهم على ملة أبيهم ابراهيم وحذف النون للتشبيه بحروف اللين (شاكرا لانعمه) روي انه كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم جذاما فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافاني وابتلاكم (اجتباه) اختصه واصطفاه للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) الى ملة الاسلام (وآتيناه في الدنيا حسنة) نبوة وأموالا وأولادا أو تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه أو قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم (وانه في الآخرة لمن الصالحين) لمن أهل الجنة (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) في ثم تعظيم منزلة نبينا عليه السلام واجلال محله والايذان بان أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) أي فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه

الخلق وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضا بيوم الجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الأحد فأعطى الله عز وجل الجمعة لهذه الامة فقبلوها فبورك لهم فيها (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغدا لليهود وبعد غد للنصارى وفي رواية لمسلم نحن الآخرون الاولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة وفي رواية أخرى له قال أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون في الدنيا الاولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم قال العلماء في معنى الحديث نحن الآخرون في الزمان والوجود السابقون في الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الامة الجنة قبل سائر الامم وقوله بيد أنهم يعني غير أنهم أو الا أنهم وقوله فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال القاضي عياض الظاهر أنه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل الى اجتهادهم لاقامة شرائعهم فيه فاختلف أحبارهم في تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الامة مبينا ولم يكلهم الى اجتهادهم ففازوا بفضيلته قال يعني القاضي عياضا وقد جاء ان موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وأعلمهم بفضله فناظروه ان السبت أفضل فقيل له دعهم قال القاضي ولو كان منصوصا عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول خالفوا فيه قال الشيخ محيي الدين النووي ويمكن ان يكونوا أمروا به صريحا ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم ابداله فأبدلوه وغلطوا في ابداله قال الامام فخر الدين الرازي في قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه يعني على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم في السبت كان اختلافا على نبيهم في ذلك اليوم أي لأجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه ان اليهود اختلفوا فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لأن اليهود اتفقوا على ذلك وزاد الواحدي على هذا المقال وهذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف في السبت ان بعضهم قال هو أعظم الايام حرمة لأن الله فرغ فيه من خلق الاشياء وقال الآخرون بل الأحد أفضل لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الاشياء وهذا غلط لأن اليهود لم يكونوا فريقين في السبت وانما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان طويل قال قلت ان اليهود انما اختاروا السبت لأن أهل الملل اتفقوا على ان الله خلق الخلق في ستة أيام وبدأ بالخلق والتكوين في يوم الأحد وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك العمل في هذا اليوم فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى انما بدأ بخلق الاشياء في يوم الأحد فنحن نجعل هذا اليوم عيدا لنا وهذان الوجهان معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله أهل الاسلام عيدا قلت يوم الجمعة أفضل الايام لأن كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيدا بهذا الوجه وهو أولى ووجه آخر وهو ان الله عز وجل خلق فيه أشرف خلقه وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة أشرف الايام لهذا السبب ولأن الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الامة وادخره لهم ولم يختاروا لأنفسهم شيئا وكان ما اختاره الله

[illegible] فيما كانوا فيه يختلفون) روى أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا فى الاسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم فى السبت لان بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة فأذن الله لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازى كل واحد من الفريقين بما هو أهله (ادع الى سبيل ربك) الى الاسلام (بالحكمة) بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) وهى التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها أو بالقرآن أى ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة والحكمة المعرفة بمراتب الافعال والموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة (وجادلهم بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة فى الدين (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) سمى الفعل الاول عقوبة والعقوبة هى الثانية لازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فالثانية ليست بسيئة والمعنى ان صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه روى ان المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم فرأى النبى عليه السلام حمزة مبقور البطن فقال أما والذى أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده ولا

لهم أفضل مما اختاره غيرهم لانفسهم وقال بعض العلماء بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الاحد فى شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت ويوم الاحد بيوم الجمعة فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فكان أفضل الايام يوم الجمعة كما ان محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء وفى معنى الآية قول آخر قال قتادة الذين اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم وحرمه بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله انما جعل السبت أى وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود فأحله بعضهم فاصطادوا فيه فعصوا ومسخوا قردة وخنازير فى زمن داود عليه السلام وقد تقدمت القصة فى تفسير سورة الاعراف وبعضهم ثبت على تحريمه فلم يصطد فيه شيأ وهم الناهون والقول الاول أقرب الى الصحة وقوله تعالى (وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى فى أمر السبت يحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازى المحسن بالثواب والمسىء بالعقاب قوله عز وجل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) يعنى ادع الى دين ربك يا محمد وهو دين الاسلام بالحكمة يعنى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة يعنى وادعهم الى الله بالترغيب والترهيب وهو انه لا يخفى عليهم انك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم (وجادلهم بالتى هى أحسن) يعنى بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وقيل ان الناس خلقوا وجعلوا ثلاثة أقسام القسم الاول هم العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة يعنى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى هم أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة والقسم الثالث هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله وجادلهم بالتى هى أحسن حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه وقيل المراد بالحكمة القرآن يعنى ادعهم بالقرآن الذى هو حكمة وموعظة حسنة وقيل المراد بالحكمة النبوة أى ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين فى الدعوة وجادلهم بالتى هى أحسن أى أعرض عن أذاهم ولا تقصر فى تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) يعنى انما عليك يا محمد تبليغ ما أرسلت به اليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدى فيجازى كل عامل بعمله قوله سبحانه وتعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) نزلت هذه الآية بالمدينة فى سبب شهداء أحد وذلك ان المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون

المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى
المسلمين الا مثل به غير حنظلة بن أبي عامر الراهب وذلك أن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي
سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن أظهرنا الله عليهم لنربين على
صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على
عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند
بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تنزل في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك
النبي صلى الله عليه وسلم فقال أما انها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من أن يدخل
شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمه حمزة نظر الى شيء لم ينظر الى شيء
قط كان أوجع لقلبه منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانك ما علمت ما كنت
الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من
أفواج شتى أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك فأنزل الله عز وجل وان
عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نصبر وأمسك عما
أراد وكفر عن يمينه عن أبي بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون
رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا
لنربين عليهم قال فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به
ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فقال رجل لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم كفوا عن القوم الا أربعة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأما تفسير الآية
فقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به سمى الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة في
الكلام والمعنى ان صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فهو كقوله
وجزاء سيئة سيئة مثلها أمر الله برعاية العدل والانصاف في هذه الآية في باب استيفاء الحقوق
يعني ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم
والظلم ممنوع منه في عدل الله وشرعه ورحمته وفي الآية دليل على أن الأولى ترك استيفاء
القصاص وذلك بطريق الاشارة والرمز والتعريض بأن الترك أولى فان كان لا بد من استيفاء
القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الاشارة الى
طريق التصريح فقال تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) يعني ولئن عفوتم وتركتم استيفاء
القصاص وصبرتم كان ذلك العفو والصبر خيرا من استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين العافين
(فصل) اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا على قولين أحدهما أنها نزلت قبل
براءة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد
وهذا قول ابن عباس والضحاك فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال فلما أعز الله
الاسلام وكثر أهله أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد ونسخ هذا بقوله اقتلوا المشركين
حيث وجدتموهم الآية والقول الثاني انها محكمة وانها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن ينال
من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم وهذا قول مجاهد والشعبي والنخعي وابن سيرين والثوري قال
بعضهم الأصح انها محكمة لأن الآية واردة في تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق
وفي القصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة وهذه الأشياء لا تكون منسوخة فلا تعلق لها
بالنسخ والله أعلم قوله عز وجل (واصبر وما صبرك الا بالله) الخطاب لرسول الله صلى الله

خلاف في تحريم المثلة
لورود الاخبار بالنهي
عنها حتى بالكلب العقور
(ولئن صبرتم لهو خير
للصابرين) الضمير في لهو
يرجع الى مصدر صبرتم
والمراد بالصابرين المخاطبون
أي ولئن صبرتم
لصبركم خير لكم فوضع
الصابرين موضع الضمير
ثناء من الله عليهم لأنهم
صابرون على الشدائد ثم
قال لرسول الله صلى الله
عليه وسلم (واصبر) أنت
وعزم عليه بالصبر (وما
صبرك الا بالله) أي بتوفيقه
وتثبيته

عليه وسلم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه ان صبره بتوفيقه ومعونته (ولا تحزن عليهم) يعني على الكافرين واعراضهم عنك وقيل معنى الآية ولا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم فانهم أفضوا الى رحمة الله ورضوانه (ولا تك في ضيق مما يمكرون) يعني ولا يضيقن صدرك يا محمد بسبب مكرهم فان الله كافيك وناصرك عليهم قرئ في ضيق بفتح الضاد وكسرها فقيل هما لغتان وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة وقال أبو عبيدة الضيق بالكسر في قلة المعاش وفي المسكن وأما ما كان في القلب والصدر فانه بالفتح وقال القتيبي الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى ولا تك في أمر ضيق من مكرهم قال الامام فخر الدين الرازي هذا الكلام من المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلا فيك الا ان الفائدة في قوله ولا تك في ضيق هي ان الضيق اذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالانسان من كل جانب كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى (ان الله مع الذين اتقوا) أي اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي (والذين هم محسنون) يعني بالعفو عن الجاني وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعني ان أردت أيها الانسان ان أكون معك بالعون والفضل والرحمة فكن من المتقين المحسنين وفي هذا اشارة الى التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله قال بعض المشايخ كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وكمال الانسان ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل أن يعمل به وقيل لهرم بن حيان عند الموت أوص فقال انما الوصية في المال ولا مال لي ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الاسراء﴾

﴿فصل في نزولها﴾ قال ابن الجوزي هي مكية في قول الجماعة الا ان بعضهم يقول فيها مدني فروي عن ابن عباس انه قال هي مكية الا ثمان آيات من قوله سبحانه وتعالى وان كادوا ليفتنونك الى قوله نصيرا وهذا قول قتادة وقال مقاتل فيها من المدني وقل رب أدخلني مدخل صدق الآية وقوله تعالى ان الذين أوتوا العلم من قبله وقوله ان ربك أحاط بالناس وقوله تعالى وان كادوا ليفتنونك وقوله تعالى ولولا أن ثبتناك والتي تليها وهي مائة وعشر آيات وقيل واحدى عشرة آية وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وستون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) روى ابن الجوزي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن تفسير سبحان الله فقال تنزيه الله عن كل شيء هكذا ذكره بغير سند وقال النحويون سبحان اسم علم على التسبيح يقال سبحت الله تسبيحا فالتسبيح هو المصدر وسبحان الله علم للتسبيح وتفسير سبحان الله تنزيه الله عن كل سوء ونقيصة وأصله في اللغة التباعد فمعنى سبحان الله بعده ونزاهته عن كل ما لا ينبغي الذي أسرى يقال سرى به وأسرى به لغتان بعبده أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون ان المراد به محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف أحد من الامة في ذلك وقوله بعبده اضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم ومنه قول بعضهم

لا تدعني الا بيا عبدها ۞ فانه أشرف أسمائي

(ولا تحزن عليهم) على الكفار ان لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار فانهم وصلوا الى مطلوبهم (ولا تك في ضيق مما يمكرون) ضيق مكي والضيق تخفيف الضيق أي في أمر ضيق ويجوز أن يكونا مصدرين كالقيل والقول والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فانه لا ينفذ عليك (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أي هو ولي الذين اجتنبوا السيئات وولي العاملين بالطاعات قيل من اتقى في أفعاله وأحسن في أعماله كان الله معه في أحواله ومعيته نصرته في المأمور وعصمته في المحظور

﴿سورة بني اسرائيل مكية﴾

وهي مائة وعشر آيات بصري واحدى عشرة آية كوفي وشامي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبحان) تنزيه الله عن السوء وهو علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه بفعل مضمر متروك اظهاره تقديره أسبح الله سبحان ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ (الذي أسرى بعبده) محمد صلى الله عليه وسلم وسرى وأسرى لغتان (ليلا) نصب على الظرف وقيده بالليل والاسراء لا يكون الا بالليل للتأكيد أو ليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الاسراء وانه أسري به في بعض الليل من مكة الى الشام مسيرة أربعين ليلة

(من المسجد الحرام) قيل أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحرم كله مسجد وقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فقد قال عليه السلام بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتاني جبريل بالبراق وقد عرج بي الى السماء في تلك الليلة وكان العروج به من بيت المقدس وقد أخبر قريشا عن عيرهم وعدد جمالها وأحوالها وأخبرهم أيضا بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقي الانبياء عليهم السلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة وكان في اليقظة وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية مثله وعلى الاول الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم (الى المسجد الاقصى) هو بيت المقدس لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذي باركنا حوله) يريد بركات الدين والدنيا لانه متعبد الانبياء عليهم السلام ومهبط الوحي وهو محفوف بالانهار الجارية والاشجار المثمرة (لنريه) أي محمدا عليه السلام (من آياتنا) الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤيته السموات وما فيها من الآيات (انه هو السميع) للاقوال (البصير) بالافعال ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل أسرى ثم باركنا ثم انه هو وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة

قيل لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الدرجات العالية والرتب الرفيعة ليلة المعراج أوحى الله عز وجل اليه يا محمد بم شرفتك قال رب حيث نسبتني الى نفسك بالعبودية فأنزل الله سبحانه وتعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا فان قلت الاسراء لا يكون الا بالليل فما معنى ذكر الليل قلت أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء وانه أسرى به في بعض ليلة من مكة الى الشام مسيرة شهر أو أكثر فدل تنكير الليل على البعضية (من المسجد الحرام) قيل كان الاسراء من نفس مسجد مكة وفي حديث مالك بن صعصعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر وذكر حديث المعراج وسيأتي بكماله فيما بعد وقيل عرج به من دار أم هانئ بنت أبي طالب وهي بنت عمه أخت علي رضي الله تعالى عنه فعلى هذا أراد بالمسجد الحرام الحرم (الى المسجد الاقصى) يعني الى بيت المقدس سمي أقصى لبعده عن المسجد الحرام أو لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذي باركنا حوله) يعني بالانهار والاشجار والثمار وقيل سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي وقبلة الانبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واليه تحشر الخلق يوم القيامة فان قلت ظاهر الآية يدل على ان الاسراء كان الى بيت المقدس والاحاديث الصحيحة تدل على انه عرج به الى السماء فكيف الجمع بين الدليلين وما فائدة ذكر المسجد الاقصى فقط قلت قد كان الاسراء على ظهر البراق الى المسجد الاقصى ومنه كان عروجه الى السماء على المعراج وفائدة ذكر المسجد الاقصى فقط انه صلى الله عليه وسلم لو أخبر بصعوده الى السماء أولا لاشتد انكارهم لذلك فلما أخبر انه أسرى به الى بيت المقدس وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التي فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بعروجه الى السماء فجعل الاسراء الى المسجد الاقصى كالتوطئة لمعراجه الى السماء وقوله تعالى (لنريه من آياتنا) يعني من عجائب قدرتنا فقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الانبياء وصلى بهم ورأى الآيات العظام فان قلت لفظة من في قوله من آياتنا تقتضي التبعيض وقال في حق ابراهيم عليه السلام وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وظاهر هذا يدل على فضيلة ابراهيم عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم ولا قائل به فما وجهه قلت ملكوت السموات والارض من بعض آيات الله أيضا ولآيات الله أفضل من ذلك وأكثر والذي أراه محمدا صلى الله عليه وسلم من آياته وعجائبه تلك الليلة كان أفضل من ملكوت السموات والارض فظهر بهذا البيان فضل محمد صلى الله عليه وسلم على ابراهيم صلى الله عليه وسلم (انه هو السميع) لاقواله ودعائه (البصير) لافعاله الحافظ له في ظلمة الليل وقت اسرائه وقيل انه هو السميع لما قالت له قريش حين أخبرهم بمسراه الى بيت المقدس البصير بما ردوا عليه من التكذيب وقيل انه هو السميع لاقوال جميع خلقه البصير بأفعالهم فيجازي كل عامل بعمله وحمله على العموم أولى

﴿فصل﴾ في ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الاحكام وما قال العلماء فيه (ق) حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به قال بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعا ومنهم من قال بين النائم واليقظان اذ أتاني آت فشد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه الى هذه فقلت للجارود وهو الى جنبي ما يعني به قال

من ثغرة نحره الى شعرته وسمعته يقول من قصه الى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من
ذهب مملوءة ايمانا فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض
فقال له الجارود أهو البراق يا أبا حمزة قال أنس نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه
فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل
ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت
فاذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح
والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك
قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت اذا يحيى
وعيسى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا مرحبا بالاخ الصالح
والنبي الصالح ثم صعد بي الى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال
محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت اذا يوسف قال هذا
يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى
السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال
نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فاذا ادريس قال هذا ادريس فسلم عليه
فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة
فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا
به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فاذا هرون قال هذا هرون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا
بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال
جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قال مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما
خلصت فاذا موسى قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي
الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكي لان غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته
أكثر ممن يدخلها من أمتي ثم صعد بي الى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال
جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما
خلصت فاذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا
بالابن الصالح والنبي الصالح ثم رفعت الى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل
آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت
ما هذان يا جبريل قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي
البيت المعمور ثم أتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فأخذت اللبن فقال هي الفطرة
انت عليها وأمتك ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال
بم أمرت قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم واني
والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف
لامتك فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا
فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت
فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت
الى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال بم أمرت

قلت

قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم واني قد جربت
الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال
سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم قال فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي
وخففت عن عبادي زاد في رواية أخرى وأجزي بالحسنة عشرا وفي رواية أخرى بينا انا عند البيت
بين النائم واليقظان وفيه ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة وفيه فرفع الى البيت
المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك اذا خرجوا
لم يعودوا امرة أخرى (ق) عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست
من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء فلما
جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح قال من هذا قال هذا جبريل قيل هل معك
أحد قال نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم قال فأرسل اليه قال نعم فافتح ففتح قال فلما علونا السماء
الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل
شماله بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه
الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والاسودة التي عن شماله أهل
النار فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى قال ثم عرج بي جبريل حتى أتى
السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح قال أنس
ابن مالك فذكر انه وجد في السموات آدم وادريس وعيسى وموسى وابراهيم ولم يثبت كيف
منازلهم غير انه ذكر انه قد وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر
جبريل ورسول الله بادريس قال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال ثم مر فقلت من هذا
قال هذا ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا
قال هذا موسى قال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قلت من هذا قال
هذا عيسى ابن مريم قال ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت من
هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم ان ابن عباس وأبا حبة الانصاري كانا
يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف
الاقلام قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض الله على أمتي
خمسين صلاة قال فرجعت بذلك حتى مررت بموسى فقال موسى ماذا فرض ربك على أمتك قال
قلت فرض عليهم خمسين صلاة قال لي موسى فراجع ربك فان أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت
ربي فوضع شطرها قال فرجعت الى موسى فأخبرته قال راجع ربك فان أمتك لا تطيق ذلك قال
فراجعت ربي فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي قال فرجعت الى موسى فقال
راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي قال ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها
ألوان لا أدري ما هي قال ثم ادخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك (ق) عن
شريك بن أبي نمر انه سمع أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد
الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال
أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى
فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الانبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى

احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره الى لبته حتى فرغ
من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتي بطست من ذهب فيه تور من
ذهب محشوا ايمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعني عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الى
السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال جبريل قالوا ومن معك
قال معي محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قالوا فمرحبا به وأهلا يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل
السماء بما يريد الله به في الارض حتى يعلمهم فوجد في السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال له
جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد عليه السلام وقال مرحبا وأهلا يا بني نعم الابن أنت فاذا
هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذان النيل والفرات
عنصرهما ثم مضى به في السماء فاذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو
مسك أذفر قال ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك ثم عرج به الى السماء الثانية
فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الاولى من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد
بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا ثم عرج به الى السماء الثالثة وقالوا له مثل ما قالت الاولى
والثانية ثم عرج به الى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء الخامسة فقالوا له مثل
ذلك ثم عرج به الى السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك
كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فأوعيت منهم ادريس في الثانية وهرون في الرابعة وآخر في
الخامسة ولم أحفظ اسمه وابراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقال
موسى رب لم أظن أن يرفع علي أحد ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه الا الله حتى جاء سدرة المنتهى
ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله فيما أوحى اليه خمسين
صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد اليك
ربك قال عهد الى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال ان أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك
ربك وعنهم فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار اليه
جبريل أن نعم ان شئت فعلا به الى الجبار تعالى فقال وهو مكانه يا رب خفف عنا فان أمتي
لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع الى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى الى
ربه حتى صارت خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بني
اسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا وأبصارا
وأسماعا فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى جبريل عليه
السلام ليشير عليه فلا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال يا رب ان أمتي ضعفاء
أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد قال لبيك وسعديك قال انه
لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب قال فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون
في أم الكتاب وهي خمس عليك فرجع الى موسى فقال كيف فعلت فقال خفف عنا أعطانا بكل
حسنة عشر أمثالها قال موسى قد والله راودت بني اسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع الى
ربك فليخفف عنك أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا موسى قد والله استحييت من ربي مما
اختلفت اليه قال فاهبط باسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام هذا لفظ حديث البخاري
وأدرج مسلم حديث شريك عن أنس الموقوف عليه في حديث ثابت البناني المسند فذكر من
أول حديث شريك طرفا ثم قال وساق الحديث نحو حديث ثابت قال مسلم وقدم وأخر وزاد

ونقص وليس في حديث ثابت من هذه الالفاظ الا ما نورده على نصه أخرجه مسلم وحده وهو
حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت
بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال
فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التي يربط بها الانبياء قال ثم دخلت المسجد
فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال
جبريل عليه السلام اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت
قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم
فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال
جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه قال ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة
عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فاستفتح
جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه
ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه السلام فاذا هو قد أعطي شطر الحسن قال فرحب بي ودعا لي بخير ثم
عرج بنا الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد
قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب ودعا لي بخير قال الله تعالى
ورفعناه مكانا عليا ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل
ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب ودعا لي
بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك
قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج
بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل
وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم عليه السلام مسند ظهره الى البيت
المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى
واذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما
أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في
كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع
الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا يطيقون ذلك فاني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال
فرجعت الى ربي فقلت يارب خفف على أمتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقلت قد حط
عني خمسا قال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي
تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر
فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن
هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيأ فان عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى
موسى فاخبرته قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد
رجعت الى ربي حتى استحييت منه هذه رواية مسلم وأخرجه الترمذي مختصرا وفيه ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة أسري به ملجما مسرجا فاستصعب عليه فقال له جبريل
أبمحمد تفعل هكذا ما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا وأخرجه النسائي مختصرا
والمعنى واحد وفي آخره قال فرجعت الى ربي فسألته التخفيف فقال اني يوم خلقت السموات

والارض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك فعرفت
انها أمر الله صرى بقول حتم فلم أرجع

(فصل) قال البغوى قال بعض أهل الحديث ما وجدنا للبخارى ومسلم فى كتابيهما شيأ لا يحتمل مخرجا الا حديث شريك بن أبى نمر عن أنس وأحال الامر فيه على شريك وذلك انه ذكر فيه ان ذلك كان قبل الوحى واتفق أهل العلم على ان المعراج كان بعد الوحى بنحو من اثنتى عشرة سنة وفيه ان الجبار تبارك وتعالى دنا فتدلى وذكرت عائشة ان الذى تدلى هو جبريل عليه السلام قال البغوى وهذا الاعتراض عندى لا يصح لان هذا كان رؤيا فى النوم أراه الله ذلك قبل أن يوحى اليه بدليل آخر الحديث فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام ثم عرج به فى اليقظة بعد الوحى وقبل الهجرة بسنة تحقيقا لرؤياه التى رآها من قبل كما انه رأى فتح مكة فى المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقها سنة ثمان ونزل قوله سبحانه وتعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى فى كتابه شرح مسلم قد جاء من رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله فقدم وأخر وزاد ونقص منها قوله وذلك قبل أن يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه فان الاسراء أقل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الحربى كانت ليلة الاسراء ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهرى كان ذلك بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين وقال ابن اسحق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل قال الشيخ محيى الدين وأشبه الاقوال قول الزهرى وابن اسحق وأما قوله فى رواية شريك وهو نائم وفى الرواية الاخرى بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه اذ قد يكون ذلك حالة أول وصول الملك اليه وليس فى الحديث ما يدل على كونه نائما فى القصة كلها هذا كلام القاضى عياض وهذا الذى قاله فى رواية شريك وان أهل العلم قد أنكروها قد قاله غيره وقد ذكر البخارى رواية شريك هذه عن أنس فى كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولا قال الحافظ عبد الحق فى كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر هذه الرواية هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبى نمر عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة وقد روى حديث الاسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والائمة المشهورين كابن شهاب وثابت البنانى وقتادة يعنى عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث قال والاحاديث التى تقدمت قبل هذا هى المعول عليها

(فصل) فى شرح بعض ألفاظ حديث المعراج وما يتعلق به كانت ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة يقال كانت فى رجب ويقال فى رمضان وقد تقدم زيادة على هذا القدر فى الفصل الذى قبل هذا واختلف الناس فى الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل انما كان ذلك فى المنام والحق الذى عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة الخلف من المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد والاحاديث الصحيحة التى تقدمت تدل على صحة هذا القول لمن طالعها وبحث عنها وحكى محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن حذيفة انه قال كل ذلك كان رؤيا وانه ما فقد جسد رسول الله صلى الله

عليه وسلم وانما أسرى بروحه وحكى هذا القول عن عائشة أيضا وعن معاوية نحوه والصحيح
ما عليه جمهور العلماء من السلف والخلف والله أعلم **قوله** صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق هو
اسم الدابة التي ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته أو
لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألئه ونوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط
البراق بالحلقة الأخذ بالاحتياط في الامور وتعاطي الأسباب وان ذلك لا يقدح في التوكل اذا
كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه
اختصار والتقدير وقال لي اختر فاخترت اللبن وهو قول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة
الاسلام وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين
وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر **قوله** ثم عرج بي حتى أتى
السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استأذن وان يقول
أنا فلان ولا يقول أنا فانه مكروه وفيه ان للسماء أبوابا وبوابين وان عليها حرسا وقول بواب السماء
وقد أرسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاسراء وصعود السماء وليس مراده
الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة هذا هو الصحيح في
معناه وقيل غيره وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل
والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه
جواز مدح الانسان في وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا
أنا بابراهيم مسندا ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل
ظهره اليها وقوله ثم ذهب بي الى السدرة هكذا وقع في هذه الرواية السدرة بالالف واللام
وفي باقي الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم
الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت
بذلك لكونها ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله
واذا ثمرها كالقلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين
أو أكثر **قوله** فرجعت الى ربي قال الشيخ محيي الدين النووي معناه رجعت الى الموضع الذي
ناجيته فيه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله لم أزل أرجع بين موسى وبين ربي معناه وبين موضع
مناجاة ربي عز وجل قلت وأما الكلام على معنى الرؤية وما يتعلق بها فانه سيأتي ان شاء الله
تعالى في تفسير سورة والنجم عند قوله تعالى ثم دنا فتدلى **قوله** ففرض الله سبحانه وتعالى
على أمتي خمسين صلاة الى قوله فوضع شطرها وفي الرواية الاخرى فوضع عني عشرا وفي الاخرى
خمسا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه
التنصيف وأما رواية العشر فهي رواية شريك ورواية الخمس رواية ثابت البناني وقتادة وهما
أثبت من شريك فالمراد حط عني خمسا الى آخره ثم قال هي خمس وهن خمسون يعني خمسين
في الاجر والثواب لان الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء
قبل فعله وفي أول الحديث أنه شق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وقد شق أيضا في
صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من
الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطست من ذهب قد يتوهم متوهم انه يجوز استعمال
اناء الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهو مباح لهم استعمال

الذهب أو يكون هذا قد كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ ايمانا وحكمة فافرغها في صدري قال قلت الحكمة والايمان معان والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك قلت يحتمل انه جعل في الطست شيء يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما فسمي ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من أحسن المجاز وقوله في صفة آدم عليه السلام فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة هو جمع سواد وقد فسره في الحديث بانه نسم بنيه يعني أرواح بنيه وقد اعترض على هذا بأن أرواح المؤمنين في السماء وأرواح الكفر تحت الارض السفلى فكيف تكون في السماء والجواب عنه أنه يحتمل ان أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبي صلى الله عليه وسلم فاخبر بما رأى وقوله فاذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على سوء حال الكفار منهم وقوله في ادريس مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قد اتفق المؤرخون على ان ادريس هو أخنوخ وهو جد نوح عليهما السلام فيكون جد النبي صلى الله عليه وسلم كما ان ابراهيم جده فكان ينبغي أن يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم عليهما الصلاة والسلام فالجواب عن هذا انه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح هذا جواب القاضي عياض قال الشيخ محيي الدين ليس في الحديث ما يمنع كون ادريس أبا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان أبا لان الانبياء اخوة والمؤمنين اخوة والله أعلم

﴿فصـــل﴾ في ذكر الآيات التي ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وسياق أحاديث تتعلق بالاسراء قال البغوي روي انه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به وكان بذي طوى قال يا جبريل ان قومي لا يصدقوني قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما كانت ليلة أسري بي الى السماء أصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت ان الناس يكذبوني فروي انه صلى الله عليه وسلم قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شيء قال نعم أسري بي الليلة قال الى أين قال الى بيت المقدس قال أبو جهل ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث ولكن قال أتحدث قومك بما حدثتني به قال نعم قال أبو جهل يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فانتفضت المجالس وجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتني قال نعم أسري بي الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم قال فبقي الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجبا وارتد أناس ممن كان قد آمن به وصدقه وسعى رجل من المشركين الى أبي بكر فقال له هل لك في صاحبك يزعم انه أسري به الليلة الى بيت المقدس قال أوقد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا أوتصدقه أنه ذهب الى بيت المقدس وجاء في ليلة قبل أن يصبح قال نعم اني أصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق قال وكان في القوم من أتى المسجد الاقصى قالوا هل تستطيع ان تنعت لنا المسجد قال نعم قال فذهبت أنعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وانا انظر اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب فيه ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا هي أهم

(وآتينا موسى الكتاب)

الينا هل أتيت منها شيئاً قال ثم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعوداً لهما بذي مر فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا وهذه آية أخرى قالوا فأخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها فقال كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها وأحمالها وهيئتها ومن فيها وكانوا بالحزورة قال نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئاً وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه إذ قال قائل منهم هذه الشمس قد طلعت وقال آخر وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال فلم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت إليه فبدأني بالسلام (ق) عن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه زاد البخاري في رواية له لما كذبني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس وذكر الحديث (م) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر فإذا هو قائم يصلي في قبره عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل كذا بإصبعه فخرق به الحجر وشد به البراق أخرجه الترمذي فإن قلت كيف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف صلى بالأنبياء في بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم في السموات وسلموا عليه ورحبوا به وكيف تصح الصلاة من الأنبياء بعد الموت وهم في الدار الآخرة قلت أما صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء في بيت المقدس يحتمل أن الله سبحانه وتعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم إن الله سبحانه وتعالى أراه إياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر فيحتمل أنه كان بعد رجوعه من المعراج وأما صلاة الأنبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل أفضل منهم وقد قال الله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء فالأنبياء أحياء بعد الموت وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها الذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة فإن الله تعالى قال دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد في الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى خصهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بالحقائق قوله سبحانه وتعالى (وآتينا موسى الكتاب) يعني التوراة

(وآتينا موسى الكتاب) التوراة (وجعلناه هدى لبني إسرائيل أن لا تتخذوا) أي لا تتخذوا وبالياء أبو عمرو أي لئلا يتخذوا (من دوني وكيلا) ربا تكلون إليه أموركم (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص أو على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي أي قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلا يا ذرية من حملنا مع نوح (إنه) إن نوحا عليه السلام (كان عبدا شكورا) في السراء والضراء والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم وروي أنه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال الحمد لله وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم وآية إرشاد الأبناء إلى الاقتداء بسنة الآباء قد عرفتم حال الآباء بعناية الله فكونوا أيها الأبناء كذلك (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض) وأوحينا إليهم وحيا مقضيا أي مقطوعا مبتوتا بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة والكتاب التوراة ولتفسدن جواب قسم محذوف أو جرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال وأقسمنا لتفسدن في الأرض (مرتين) أولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس

أرمياء عليه السلام حين أنذرهم سخط الله والأخرى قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام وقصد قتل عيسى عليه السلام (ولتعلن علوا كبيرا) ولتستكبرن عن طاعة الله من قوله إن فرعون علا في الأرض والمراد به البغي والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين (فإذا جاء وعد أولاهما) أي وعد عقاب أولاهما (بعثنا عليكم) سلطنا عليكم (عبادا لنا أولي بأس شديد) أشداء في القتال يعني سنحاريب وجنوده أو بختنصر أو جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا (فجاسوا خلال الديار) ترددوا للغارة فيها قال الزجاج الجوس طلب الشيء بالاستقصاء (وكان وعدا مفعولا) وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أي الدولة والغلبة (عليهم) على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو قيل هي قتل بختنصر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم وقيل أعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) قيل اللام بمعنى على كقوله وعليها ما اكتسبت والصحيح أنها على بابها لأن اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة يعني أن الإحسان والإساءة مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم وعن علي رضي الله عنه ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها (فإذا جاء وعد الآخرة) وعد المرة الآخرة بعثناهم (ليسوءوا) أي هؤلاء (وجوهكم) وحذف لدلالة ذكره أولا عليه أي ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله سيئت وجوه الذين كفروا وليسوء شامي وحمزة وأبو بكر والضمير لله عز وجل أو للوعد أو للبعث ليسوء على

(وجعلناه) يعني الكتاب (هدى لبني إسرائيل أن لا تتخذوا) يعني وقلنا لهم لا تتخذوا (من دوني وكيلا) يعني ربا كفيلا (ذرية) يعني يا ذرية (من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) يعني أن نوحا كان كثير الشكر وذلك أنه كان إذا أكل طعاما أو شرب شرابا أو لبس ثوبا قال الحمد لله فسماه الله عبدا شكورا لذلك قوله عز وجل (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) يعني أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون وهو قوله تعالى (لتفسدن في الأرض مرتين) وقال ابن عباس وقضينا عليهم في الكتاب فإلى بمعنى على والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ واللام في لتفسدن لام القسم تقديره والله لتفسدن في الأرض يعني بالمعاصي والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس (ولتعلن) يعني ولتستكبرن ولتظلمن الناس (علوا كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما) يعني أولى المرتين قيل إفسادهم في المرة الأولى هو ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا من المحارم وقيل إفسادهم في المرة الأولى قتلهم شعياء في الشجرة وارتكابهم المعاصي (بعثنا عليكم عبادا لنا) يعني جالوت وجنوده وهو الذي قتله داود وقيل هو سنحاريب وهو من أهل نينوى وقيل هو بختنصر البابلي وهو الأصح (أولي بأس شديد) يعني ذوي بطش وقوة في الحرب (فجاسوا خلال الديار) يعني طافوا بين الديار وسطها يطلبونكم ليقتلوكم (وكان وعدا مفعولا) يعني قضاء كائنا لا محالة لا خلف فيه (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) يعني رددنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم من ذنوبكم ورجعتم عن الفساد (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) يعني أكثر عددا (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) يعني لها ثوابها أو جزاء إحسانها (وإن أسأتم فلها) يعني فعليها إساءتها (فإذا جاء وعد الآخرة) يعني المرة الآخرة من إفسادكم وهو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه إليه وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام فسلط عليهم الفرس والروم فسبوهم وقتلوهم وهو قوله تعالى (ليسوءوا وجوهكم) يعني ليحزنوكم

وقرئ بالنون أي لنسوء وجوهكم (وليدخلوا المسجد) يعني بيت المقدس ونواحيه (كما دخلوه أول مرة) يعني وقت افسادهم الاول (وليتبروا ما علوا تتبيرا) يعني وليهلكوا ما غلبوا عليه من بلاد بني اسرائيل اهلاكا (ذكر القصة في هذه الآيات) قال محمد بن اسحق كانت بنو اسرائيل فيهم الاحداث والذنوب وكان الله في ذلك متجاوزا عنهم ومحسنا اليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم ان ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله اذا ملك عليهم الملك بعث معه نبيا يسدده ويرشده ولا ينزل عليهم كتابا انما يؤمرون باتباع التوراة والاحكام التي فيها فلما ملك صديقة بعث الله معه شعياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وشعياء هو الذي بشر بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم فقال أبشري أورشليم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك بني اسرائيل وبيت المقدس زمانا فلما انقضى ملكه عظمت الاحداث فيهم وكان معه شعياء بعث الله سنحاريب ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية فاقبل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض من قرحة كانت في ساقه فجاءه شعياء النبي فقال يا ملك بني اسرائيل ان سنحاريب ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية وقد هابهم الناس وفرقوا منهم فكبر ذلك على الملك وقال يا نبي الله هل أتاك من الله وحي فيما حدث فتخبرنا به وكيف يفعل الله بنا وبسنحاريب وجنوده فقال شعياء لم يأتني وحي في ذلك فبينماهم على ذلك أوحى الله الى شعياء النبي ان ائت ملك بني اسرائيل فمره أن يوصي وصيته ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بني اسرائيل وقال ان ربك قد أوحى الي أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت فلما قال ذلك شعياء لصديقة الملك أقبل على القبلة فصلى ودعا فقال وهو يبكي ويتضرع الى الله تعالى بقلب مخلص اللهم رب الارباب واله الآلهة يا قدوس يا متقدس يا رحمن يا رحيم يا رؤف يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني اسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به من سري وعلانيتي لك فاستجاب الله له وكان عبدا صالحا فأوحى الله الى شعياء أن يخبر صديقة الملك أن ربه قد استجاب له ورحمه وأخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب فأتاه شعياء فأخبره فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجدا لله وقال الهي واله آبائي لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الاول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي فلما رفع رأسه أوحى الله الى شعياء أن قل للملك صديقة فيأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل ذلك فشفي فقال الملك لشعياء سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا فقال الله لشعياء قل له اني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وانهم سيصبحون موتى كلهم الا سنحاريب وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فلما أصبحوا جاءه صارخ فصرخ على باب المدينة يا ملك بني اسرائيل ان الله قد كفاك عدوك فاخرج فان سنحاريب ومن معه قد هلكوا فخرج الملك والتمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب في مغارة ومعه خمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فجعلوهم في الجوامع ثم أتوا بهم الملك فلما رآهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس الى العصر ثم قال لسنحاريب كيف رأيت فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون فقال سنحاريب قد أتاني خبر

(وليدخلوا المسجد) بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) ما علوا مفعول ليتبروا أي ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه أو بمعنى مدة علوهم

ربكم ونصره اياكم ورحمته التي رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشدا ولم يلقني في
الشقوة الا قلة عقلي ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم فقال الملك صديقة الحمد لله رب العالمين الذي
كفاناكم بما شاء وان ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك عليه ولكنه انما أبقاك ومن معك
لتزدادوا شقوة في الدنيا وعذابا في الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم
ولتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلك ومن معك ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد
لو قتلت ثم ان ملك بني اسرائيل أمر أمير حرسه أن يقذف في رقابهم الجوامع ففعل وطاف بهم
سبعين يوما حول بيت المقدس وايلياء وكان يرزقهم في كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم
فقال سنحاريب للملك صديقة القتل خير مما تفعل بنا فافعل ما أمرت فأمر بهم الى السجن فأوحى
الله الى شعياء النبي ان قل لملك بني اسرائيل يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم
وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم فبلغ ذلك شعياء الملك ففعل وخرج سنحاريب ومن معه
حتى قدموا بابل فلما قدم جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده فقال له كهانه وسحرته
يا ملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله الى نبيهم فلم تطعنا وهي أمة
لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنحاريب مما خوفوا بني اسرائيل ثم كفاهم الله تعالى ذلك
تذكرة وعبرة ثم ان سنحاريب لبث بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف على ملكه بختنصر ابن
ابنه فعمل بعمله وقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بني اسرائيل صديقة
فمرج أمر بني اسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضا وشعياء نبيهم معهم لا يقبلون منه
فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم في قومك حتى أوحي على لسانك فلما قام أطلق الله لسانه بالوحي
فقال يا سماء استمعي ويا أرض أنصتي فان الله يريد أن يقص شأن بني اسرائيل الذين رباهم بنعمته
واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها
فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها فلما
فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر اليه آخر
كسير فويل لهذه الامة الخاطئة الذين لا يدرون أنى جاءهم الحين ان البعير مما يذكر وطنه فينتابه
وان الحمار مما يذكر الآري الذي يشبع عليه فيراجعه وان الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه
فينتابه وان هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الحين وهم أولو الالباب والعقول ليسوا
ببقر ولا حمير واني ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل كيف ترون في أرض كانت خرابا زمانا لا عمران
فيها وكان لها رب حكيم قوي فأقبل عليها بالعمارة وكره ان تخرب أرضه وهو قوي أو يقال ضيع
وهو حكيم فأحاط عليها جدارا وشيد فيها قصرا وأنبط فيها نهرا وصفف فيها غراسا من الزيتون
والرمان والنخيل والاعناب وألوان الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه قيما ذا رأي وهمة حفيظا
قويا أمينا فلما أطلعت جاء طلعها خروبا فقالوا بئست الارض هذه نرى ان يهدم جدارها
وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خرابا مواتا
لا عمران فيها قال الله تعالى قل لهم الجدار ديني والقصر شريعتي وان النهر كتابي وان القيم نبيي
وان الغراس هم وان الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة واني قد قضيت عليهم قضاءهم
على أنفسهم وانه مثل ضربته لهم يتقربون الي بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله
ويدعون أن يتقربوا الي بالتقوى والكف عن ذبح الانفس التي حرمتها وأيديهم مخضوبة منها
وثيابهم متزملة بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم

وأجسادهم ويمنعونها ويزوقون في المساجد ويزينونها ويخربون عقولهم وأخلاقهم
ويفسدونها فأي حاجة الى تشييد البيوت ولست أسكنها وأي حاجة الى تزويق المساجد ولست
أدخلها انما أمرت برفعها لاذكر وأسبح فيها يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا
وتصدقنا فلم تزك صدقتنا ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك
لا يستجاب لنا قال الله فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأبصر
الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور
ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية الى من يحاربني ويحادني
وينتهك في محارمي أم كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم انما آجر
عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وانما هو قولهم بألسنتهم والفعل من
ذلك بعيد وانما أستجيب للداعي اللين وانما أسمع قول المستضعف المسكين وان من علامة
رضائي رضا المساكين يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي انها أقاويل منقولة وأحاديث
متواترة وتآليف مما تؤلف السحرة والكهنة وزعموا انهم لو شاؤا أن يأتوا بحديث مثله
فعلوا ولو شاؤا أن يطلعوا على علم الغيب بما توحي اليهم الشياطين اطلعوا واني قد قضيت يوم
خلقت السموات والارض قضاء أثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه أجلا مؤجلا لا بد انه
واقع فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو في أي زمان يكون وان
كانوا يقدرون على ان يأتوا بما يشاؤن فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فاني مظهره
على الدين كله ولو كره المشركون وان كانوا يقدرون على ان يؤلفوا ما يشاؤن فيؤلفوا مثل
هذه الحكمة التي أدبر بها ذلك القضاء ان كانوا صادقين واني قد قضيت يوم خلقت السماء
والارض ان أجعل النبوة في الاجراء وان اجعل الملك في الرعاء والعز في الاذلاء والقوة في
الضعفاء والغنى في الفقراء والعلم في الجهلة والحكمة في الاميين فسلهم متى هذا ومن القائم
بهذا ومن أعوان هذا الامر وأنصاره ان كانوا يعلمون واني باعث لذلك نبيا أميا ليس أعمى
من عميان ولا ضالا من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا متزين بالفحش
ولا قوال للخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره
والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه
والعدل سيرته والحق شريعته والهدى امامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد
الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد
القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء مشتتة
وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
توحيدا لي وايمانا بي واخلاصا لي يصلون قياما وقعودا وركعا وسجودا ويقاتلون في سبيلي صفوفا
وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح
والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لي في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم
ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤس الاشراف يطهرون لي الوجوه والاطراف
ويعقدون لي الثياب على الانصاف قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم رهبان بالليل
ليوث بالنهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم فلما فرغ شعيا من مقالته عدوا
عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها فادركه الشيطان فأخذ بهدبة من

ثم يقطرا هم اياه فوضعوا المنشار في وسطها فانشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها
واستخلف الله على بني اسرائيل بعد ذلك رجلا منهم يقال له ناشية بن اموص وبعث لهم ارمياء بن
حلقيا نبيا وكان من سبط هرون بن عمران وذكر ابن اسحق انه الخضر واسمه ارمياء سمي الخضر
لانه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهي تهتز خضراء فبعث الله ارمياء الى ذلك الملك ليسدده
ويرشده ثم عظمت الاحداث في بني اسرائيل وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم فاوحى الله الى
ارمياء ان ائت قومك من بني اسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمي وعرفهم
باحداثهم فقال ارمياء يا رب اني ضعيف ان لم تقوني عاجز ان لم تبلغني مخذول ان لم تنصرني قال الله
تعالى أولم تعلم ان الامور كلها تصدر عن مشيئتي وان القلوب والالسنة بيدي أقلبها كيف
شئت اني معك ولن يصل اليك شيء معي فقام ارمياء فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله عز وجل في
الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال في آخرها عن الله عز وجل
واني حلفت بعزتي لاقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولاسلطن عليهم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة
وانزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم اوحى الله الى ارمياء اني مهلك بني
اسرائيل بيافث ويافث من اهل بابل فسلط الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية ودخل
بيت المقدس بجنوده ووطئ الشام وقتل بني اسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر
جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه في بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤه ثم أمرهم
ان يجمعوا من في بلدان بيت المقدس كلهم فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني اسرائيل فاختار
منهم سبعين ألف صبي فلما خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا
معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني اسرائيل
فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فاصاب كل رجل منهم أربعة غلمان وفرق من بقي من بني
اسرائيل ثلاث فرق ثلثا أقرهم بالشام وثلثا سباهم وثلثا قتلهم وذهب بآنية بيت المقدس
وبالصبيان السبعين ألفا حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الاولى التي أنزل الله عز وجل
ببني اسرائيل بظلمهم فذلك قوله سبحانه وتعالى فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي
بأس شديد يعني بختنصر وأصحابه ثم ان بختنصر أقام في سلطانه ما شاء الله ثم رأى رؤيا عجيبة اذ
رأى شيئا أصابه فانساه الذي رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل وكانوا من ذراري
الانبياء وسألهم عنها فقالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها فقال ما أذكرها ولئن لم تخبروني بها
وبتأويلها لانزعن أكتافكم فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا اليه فاعلمهم الله بالذي
سألهم عنه فجاؤه فقالوا رأيت تمثالا قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه
من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد قال صدقتم قالوا فبينا أنت تنظر اليه وقد
أعجبك أرسل الله صخرة من السماء فدقته فهي التي أنستكها قال صدقتم فما تأويلها قالوا
تأويلها انك رأيت الملوك بعضهم كان ألين ملكا وبعضهم كان أحسن ملكا وبعضهم كان أشد
ملكا والفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل
والذهب أحسن من الفضة وأفضل ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما قبله والصخرة التي
رأيت أرسل الله من السماء فدقته نبي يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الامر اليه ثم
ان أهل بابل قالوا لبختنصر أرأيت هؤلاء الغلمان من بني اسرائيل الذين سألناك ان تعطيناهم
ففعلت فانا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا لقد رأينا نساءنا انصرفت وجوههن عنا اليهم

فاخرجهم

فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم فقال لتأتيني بهم لمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده
فليفعل فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وقالوا يا ربنا أصابنا البلاء بذنوب
غيرنا فوعدهم الله أن يحييهم فقتلوا إلا من كان منهم مع بختنصر منهم دانيال وحنانيا وعزاريا
وميشائيل ثم لما أراد الله تعالى هلاك بختنصر انبعث فقال لمن في يده من بني إسرائيل أرأيتم
هذا البيت الذي خربت والناس الذين قتلت منكم وما هذا البيت قالوا هو بيت الله وهؤلاء
أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات
والأرض ورب الخلائق كلهم يكرمهم ويعزهم فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم وسلط عليهم غيرهم
فاستكبر وتجبر وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل قال فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى
السماء العليا فأقتل من فيها وأتخذها لي ملكا فإني قد فرغت من أهل الأرض قالوا ما يقدر عليها
أحد من الخلائق قال لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم فبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى فبعث الله
عز وجل عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت أم دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى
يوجأ له رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه ليري الله
العباد قدرته ونجى الله من بقي من بني إسرائيل في يده وردهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا
على أحسن ما كانوا عليه ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم ثم إنهم
لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم من الله عهد كانت التوراة قد احترقت وكان عزير من
السبايا الذين كانوا ببابل فلما رجع إلى الشام جعل يبكي ليله ونهاره وخرج عن الناس فبينما هو
كذلك إذ جاءه رجل فقال له يا عزير ما يبكيك قال أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين
أظهرنا الذي لا يصلح دنيانا وآخرتنا غيره قال أفتحب أن يرد إليك قال نعم قال ارجع فصم وتطهر
وطهر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غدا فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد إلى المكان
الذي وعده فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء وكان ملكا بعثه الله إليه فسقاه من ذلك
الإناء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبوه حبا لم يحبوا
حبه شيئا قط ثم قبضه الله تعالى وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم
ويبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث إليهم من أنبيائهم
زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من بيت آل داود فزكريا مات وقيل قتل وقصدوا عيسى
ليقتلوه فرفعه الله من بين أظهرهم وقتلوا يحيى فلما فعلوا ذلك بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل
يقال له خردوش فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما ظهر عليهم أمر رأسا من رؤساء
جنوده يقال له بيورزاذان صاحب القتل فقال له إني قد كنت حلفت بإلهي لئن أنا ظفرت على
أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى يسيل الدم في وسط عسكري إلا أن لا أجد أحدا أقتله فأمره أن
يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ثم إن بيورزاذان دخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يقربون
فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلي فسألهم عنه فقال يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي أخبروني
خبره فقالوا هذا دم قربان لنا قربناه فلم يتقبل منا فلذلك يغلي ولقد قربنا القربان من ثمانمائة
سنة فتقبل منا إلا هذا فقال ما صدقتموني فقالوا لو كان كأول زماننا لتقبل منا ولكن قد انقطع منا
الملك والنبوة والوحي فلذلك لم يتقبل منا فذبح بيورزاذان منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين
روحا من رؤسهم فلم يهدأ الدم فأمر بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ فأمر
بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بيورزاذان أن الدم

لابيه أقال لهم يابني اسرائيل ويلكم أصدقوني واصبروا على أمر ربكم فقد طال ملككم في الارض تفعلون ما شئتم قبل ان لا أترك منكم نافخ نار من ذكر ولا أنثى الا قتلته فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر فقالوا ان هذا دم نبي كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى فلو كنا أطعناه كنا أرشد نا وكان يخبرنا عن أمركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيورزاذان ما كان اسمه قالوا يحيى بن زكريا قال الآن صدقتموني لمثل هذا ينتقم ربكم منكم فلما علم بيورزاذان انهم صدقوه خر ساجدا وقال لمن حوله أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش وخلا في بني اسرائيل ثم قال يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك ومن قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل أن لا أبقي من قومك أحدا الا قتلته فهدأ الدم باذن الله تعالى ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال آمنت بما آمنت به بنو اسرائيل وأيقنت أنه لا رب غيره وقال لبني اسرائيل ان خردوش أمرني ان أقتل منكم حتى يسيل دماؤكم وسط عسكره واني لا أستطيع أن أعصيه قالوا له افعل ما أمرت به فأمرهم فحفروا خندقا وأمرهم بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من المواشي فلم يظن خردوش الا أن ما في الخندق من دماء بني اسرائيل فلما بلغ الدم عسكره أرسل الى بيورزاذان أن ارفع عنهم القتل ثم انصرف الى بابل وقد أفنى بني اسرائيل أو كاد أن يفنيهم وهي الوقعة الاخيرة التي أنزل الله في بني اسرائيل في قوله لتفسدن في الارض مرتين فكانت الوقعة الاولى بختنصر وجنوده والاخرى خردوش وجنوده وكانت أعظم الوقعتين فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها الى الروم واليونانيين الا أن بقايا بني اسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك وكانوا في نعمة الى أن بدلوا وأحدثوا الاحداث فسلط الله عليهم ططوس بن اسبيانوس الرومي فخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة والمسكنة فليسوا في أمة الا وعليهم الصغار والجزية وبقي بيت المقدس خرابا الى خلافة عمر بن الخطاب فعمره المسلمون بأمره وقيل في سبب قتل يحيى عليه السلام ان ملك بني اسرائيل كان يكرمه ويدني مجلسه وان الملك هوي بنت امرأته وقال ابن عباس ابنة أخيه فسأل يحيى تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها وألبستها الحلي وأرسلتها الى الملك وأمرتها أن تسقيه فان هو راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله فاذا أعطاها ما سألت سألت رأس يحيى بن زكريا وان يؤتى به في طست ففعلت فلما راودها قالت لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك قال فما تسأليني قالت رأس يحيى بن زكريا في هذا الطست فقال ويحك سليني غير هذا قالت ما أريد غير هذا فلما أبت عليه بعث فأتي برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم يقول لا تحل لك فلما أصبح اذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقي عليه فرقي الدم يغلي فلا زال يغلي ويلقى عليه التراب وهو يغلي حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يرقى ويغلي وسلط الله عليهم ملك بابل فخرب بيت المقدس وقيل سبعين ألفا حتى سكن دمه قوله عز وجل (عسى ربكم أن يرحمكم) يعني يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فيرد الدولة اليكم (وان عدتم) أي الى المعصية (عدنا) أي الى العقوبة قال قتادة فعادوا فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم عليهم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي سجنا ومحبسا من الحصر الذي هو بمعنى الحبس وقيل فراشا من الحصير

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعد المرة الثانية ان تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي (وان عدتم) مرة ثالثة (عدنا) الى عقوبتكم وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الاتاوة عليهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما سلط عليهم المؤمنون الى يوم القيامة (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) محبسا يقال للحبس محصر وحصير

(ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها وهي توحيد الله والايمان برسله والعمل بطاعته أو للملة أو للطريقة (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) ويبشر حمزة وعلي (ان لهم) بان لهم (أجرا كبيرا) أي الجنة (وأن الذين) وبأن الذين (لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا) أي أعددنا قلبت تاء (لهم عذابا أليما) يعني النار والآية ترد القول بالمنزلة بين المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم والكافرين وجزاءهم ولم يذكر الفسقة (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير) أي ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده كما يدعوه لهم بالخير أو يطلب النفع ١٨٧ العاجل وان قل بالضرر الآجل وان جل (وكان الانسان عجولا) يتسرع الى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأني المتبصر أو أريد بالانسان الكافر وانه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير اذا مسته الشدة وكان الانسان عجولا يعني ان العذاب آتيه لا محالة فما هذا الاستعجال وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو النضر بن الحارث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية فأجيب فضربت عنقه صبرا وسقوط الواو من يدع في الخط على موافقة اللفظ (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) أي الليل والنهار آيتان في أنفسهما فتكون الاضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كاضافة العدد الى المعدود أي فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة او وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم نخلق له شعاعا كشعاع الشمس فترى الاشياء به رؤية بينة وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء (لتبتغوا فضلا من ربكم) لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف في معايشكم (ولتعلموا) باختلاف الجديدين (عدد السنين والحساب) يعني حساب الآجال ومواسم الاعمال ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار (وكل شيء) مما تفتقرون اليه في دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) بيناه بيانا غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لكم حجة علينا

الذي يبسط ويفترش قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) أي الى الطريقة التي هي أصوب وقيل الى الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا اله الا الله (ويبشر) يعني القرآن (المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا) يعني الجنة (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) يعني النار في الآخرة (ويدع الانسان) أي على نفسه وولده وماله (بالشر) يعني قوله عند الغضب اللهم أهلكه اللهم العنه ونحو ذلك (دعاءه بالخير) أي كدعائه ربه أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ولكن الله لا يستجيب بفضله وكرمه (وكان الانسان عجولا) أي بالدعاء على ما يكره ان يستجاب له فيه وقال ابن عباس معناه ضجرا لا صبر له على سراء ولا ضراء قوله سبحانه وتعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أي علامتين دالتين على وجود صانعنا وقدرتنا وفي معنى الآية قولان أحدهما أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار وهو أنه جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدنيا والدين أما في الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير مع كونهما متعاقبين على الدوام ففيه أقوى دليل على ان لهما مدبرا يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا فلأن مصالح العباد لا تتم الا بهما ففي الليل يحصل السكون والراحة وفي النهار يحصل التصرف في المعاش والكسب والقول الثاني أن يكون المراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر (فمحونا آية الليل) أي جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسا مظلما لا يستبان فيه شيء (وجعلنا آية النهار مبصرة) أي تبصر فيه الاشياء رؤية بينة قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعلها مع نور الشمس وحكي ان الله أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور وسأل ابن الكواء عليا عن السواد الذي في القمر فقال هو أثر المحو (لتبتغوا فضلا من ربكم) أي لتتوصلوا ببياض النهار الى استبانة أعمالكم والتصرف في معايشكم (ولتعلموا) أي باختلاف الليل والنهار (عدد السنين والحساب) أي ما تحتاجون اليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حساب الاوقات ولتعطلت الامور ولو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج ولا وقت حلول الديون المؤجلة واعلم ان الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والايام والساعات وليس بعد هذه المراتب الاربعة الا التكرار (وكل شيء فصلناه تفصيلا) يعني وكل شيء تفتقرون اليه من أمر دينكم ودنياكم فقد بيناه بيانا شافيا واضحا غير ملتبس قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان

(وكل انسان ألزمناه طائره) عمله (في عنقه) يعني ان عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل للعنق لا يفك عنه (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه) هو صفة لكتابا يلقاه شامي (منشورا) حال من يلقاه يعني غير مطوي ليمكنه قراءته أو هما صفتان للكتاب ونقول له (اقرأ كتابك) أي كتاب أعمالك ١٨٨ وكل يبعث قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك) الباء زائدة أي كفى نفسك (حسيبا) تمييز وهو بمعنى حاسب وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا أو بمعنى الكافي وضع موضع الشهيد فعدي بعلى لان الشاهد يكفي المدعي ما أهمه وانما ذكر حسيبا لانه بمنزلة الشهيد والقاضي والامير اذ الغالب أن يتولى هذه الامور الرجال فكأنه قيل كفى نفسك رجلا حسيبا أو تؤول النفس بالشخص (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) أي فله ثواب الاهتداء وعليه وبال الضلال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي كل نفس حاملة وزرا فانما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وما صح منا أن نعذب قوما عذاب استئصال في الدنيا الا بعد أن نرسل اليهم رسولا يلزمهم الحجة (واذا أردنا أن نهلك قرية) أي أهل قرية (أمرنا مترفيها) متنعميها وجبابرتها بالطاعة عن أبي عمرو والزجاج (ففسقوا فيها) أي خرجوا عن الامر كقولك أمرته فعصى أو أمرنا كثرنا دليله قراءة يعقوب آمرنا ومنه الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أي كثيرة النسل (فحق عليها القول) فوجب عليها الوعيد (فدمرناها تدميرا) فأهلكناها اهلاكا

كله

من الله تعالى على أهل الدنيا وكل ذلك تفضل منه فلا جرم قال وكل شيء فصلناه تفصيلا قوله عز وجل (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه) قال ابن عباس عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان وقيل خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به وقيل ما من مولود الا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد وقيل أراد بالطائر ما قضي عليه انه عامله وما هو صائر اليه من سعادة أو شقاوة وقيل هو من قولك طار له سهم اذا خرج يعني ألزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه والعنق في قوله في عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به وانما خص العنق من بين سائر الاعضاء لانه موضع القلائد والاطواق والغل مما يزين أو يشين فان كان عمله خيرا كان له كالقلادة أو الحلي في العنق وهو مما يزينه وان كان عمله شرا كان له كالغل في عنقه وهو مما يشينه ويخرج له يقول تبارك وتعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قيل بسطت للانسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيآته فاذا مات طويت الصحيفتان وجعلتا معه في عنقه فلا ينشران الى يوم القيامة (اقرأ كتابك) أي يقال له اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أي محاسبا قال الحسن لقد عدل عليك [1] من جعلك حسيب نفسك وقيل يقول الكافر انك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قوله سبحانه وتعالى (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) يعني ان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله وعقاب الذنب مختص بصاحبه أيضا ولا يتعدى منه الى غيره وهو قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد بل كل أحد مختص بذنبه (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لاقامة الحجة وقطعا للعذر وفيه دليل على ان ما وجب انما وجب بالسمع لا بالعقل قوله سبحانه وتعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) في معنى الآية قولان أحدهما ان المراد منه الامر بالفعل ثم ان لفظ الآية يدل على انه تعالى بماذا أمرهم فقال أكثر المفسرين معناه انه تعالى أمرهم بالاعمال الصالحة وهي الايمان والطاعة وفعل الخير والقوم خالفوا ذلك الامر وفسقوا والقول الثاني أمرنا مترفيها أي كثرنا فساقها يقال أمر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم ومنه الحديث خير المال مهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والنسل وعلى هذا قوله تعالى أمرنا ليس من الامر بالفعل والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش (ففسقوا فيها) أي خرجوا عما أمرهم الله به من الطاعة (فحق عليها القول) أي وجب عليها العذاب (فدمرناها تدميرا) أي أهلكناها اهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب (ق) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق باصبعيه الابهام والتي تليها قالت زينب قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث قوله ويل للعرب ويل

---

[1] قوله عدل عليك هكذا في الاصل الطبع وفي بعض النسخ الملكية عدل عليك وفي الخطيب عدل والله في حقك من الخ وفي الكشاف يا ابن آدم أنصفك والله من الخ اهـ مصحح

(وكم) مفعول (أهلكنا من القرون) بيان لكم (من بعد نوح) بعني عادا وثمود وغيرهم (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا) وان أخفوها في الصدور (بصيرا) وان أرخوا عليها الستور (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء) لا ما يشاء (لمن نريد) بدل من له باعادة الجار وهو بدل البعض من الكل اذ الضمير يرجع الى من أي من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد فقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقي فقد اختار غنى الآخرة فان أوتي حظا من الدنيا فبها والا فربما كان الفقر خيرا له ١٨٩ (ثم جعلنا له جهنم) في الآخرة (يصلاها) يدخلها (مذموما) ممقوتا (مدحورا) مطرودا من رحمة الله (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) هو مفعول به أو حقها من السعي وكفاءها من الأعمال الصالحة (وهو مؤمن) مصدق لله في وعده ووعيده (فأولئك كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله مثابا عليه عن بعض السلف من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا الآية فانه شرط فيها ثلاث شرائط في كون السعي مشكورا ارادة الآخرة والسعي فيما كلف والايمان الثابت (كلا) كل واحد من الفريقين والتنوين عوض عن المضاف اليه وهو منصوب بقوله (نمد هؤلاء) بدل من كلا أي نمد هؤلاء (وهؤلاء) أي من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة (من عطاء ربك) رزقه ومن تتعلق بنمد والعطاء اسم للمعطى أي نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددا للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصي جميعا على وجه التفضل (وما كان عطاء ربك محظورا) ممنوعا عن عباده وان عصوا (انظر) بعين الاعتبار (كيف فضلنا بعضهم على بعض) في المال والجاه والسعة والكمال (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) روى أن قوما من الأشراف ومن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو انما أتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني الى الاسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر

كلة تقال لمن وقع في هلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله اذا كثر الخبث أي الشر قوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون) أي المكذبة (من بعد نوح) وهم عاد وثمود وغيرهم من الأمم الخالية يخوف الله بذلك كفار قريش قال عبد الله بن أبي أوفى القرن عشرون ومائة سنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول قرن ويزيد بن معاوية في آخره وقيل القرن مائة سنة وروى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني ان النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقيل القرن ثمانون سنة وقيل أربعون (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يعني انه عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة) أي الدار العاجلة يعني الدنيا (عجلنا له فيها ما نشاء) أي من البسط أو التقتير (لمن نريد) ان نفعل به ذلك أو اهلاكه وقيل في معنى الآية عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أي القدر الذي نشاء نعجله له في الدنيا لا الذي يشاء هو ولمن نريد ان نعجل له شيأ قدرناه له وهذا ذم لمن أراد بعمله ظاهر الدنيا ومنفعتها وبيان ان من أرادها لا يدرك منها الا ما قدر له (ثم جعلنا له) أي في الآخرة (جهنم يصلاها) أي يدخلها (مذموما مدحورا) أي مطرودا مبعدا قوله سبحانه وتعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) أي عمل لها عملها (وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أي مقبولا قيل في الآية ثلاث شرائط في كون السعي مشكورا ارادة الآخرة بعمله بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور والسعي فيما كلف من الفعل والترك والايمان الصحيح الثابت وعن بعض السلف الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية قوله عز وجل (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء) أي نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (من عطاء ربك) يعني نرزقهما جميعا ثم يختلف الحال بهما في المآل (وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا عن عباده والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا اذ لاحظ للكافر في الآخرة (انظر) يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) أي في الرزق والعمل يعني طالب العاجلة وطالب الآخرة (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) يعني ان تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فان نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته في طلب الدنيا فلأن تقوى وتشتد رغبته في طلب الآخرة أولى لانها دار المقامة قوله

(لا تجعل مع الله الهاً آخر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته (فتقعد مذموماً مخذولاً) فتصير جامعاً على نفسك الذم والخذلان وقيل مشتوماً بالاهانة محروماً عن الاعانة اذ الخذلان ضد النصر والعون دليله قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر (وقضى ربك) وأمر أمراً مقطوعاً به (ألا تعبدوا الا اياه) ان مفسرة ولا تعبدوا نهي أو بأن لا تعبدوا (وبالوالدين احساناً) وأحسنوا بالوالدين احساناً أو بأن تحسنوا بالوالدين احساناً (اما يبلغن عندك الكبر) اما هي ان الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها ولذا دخلت النون المؤكدة في الفعل ولو أفردت ان لم يصح دخولها لا تقول ان تكرمن زيداً يكرمك ولكن اما تكرمنه (أحدهما) فاعل يبلغن وهو في قراءة حمزة وعلي يبلغان بدل من ألف الضمير ١٩٠ الراجع الى الوالدين (أو كلاهما) عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً (فلا تقل لهما أف) مدني وحفص أف مكي وشامي أف غيرهم وهو صوت يدل على تضجر فالكسر على أصل التقاء الساكنين والفتح للتخفيف والتنوين لارادة التنكير أي أتضجر تضجراً وتركه لقصد التعريف أي أتضجر التضجر المعلوم (ولا تنهرهما) ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهي والنهر أخوات (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولاً كريماً) جميلاً ليناً كما يقتضيه حسن الأدب أو هو أن يقول يا أبتاه يا أماه ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء ولا بأس به في غير وجوههما كما قالت عائشة رضي الله عنها نحلني أبو بكر كذا وفائدة عندك انهما اذا صارا كلا على ولدهما ولا كافل لهما غيره فهما عنده في بيته وكنفه وذلك أشق عليه فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتى الضجر لا يقول لهما اذا أضجره ما يستقذر منهما أف فضلاً عما يزيد عليه ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها (واخفض لهما جناح الذل) أي اخفض لهما جناحك كما قال واخفض جناحك للمؤمنين وأضافه الى الذل كما أضيف حاتم الى الجود والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل (من الرحمة) من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله اليهما بالأمس وقال الزجاج وألن جانبك متذللاً لهما من مبالغتك في الرحمة لهما

تعالى (لا تجعل مع الله الهاً آخر) الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل أيها الانسان مع الله الهاً آخر وهذا أولى (فتقعد مذموماً) أي من غير حمد (مخذولاً) أي بغير ناصر قوله سبحانه (وقضى ربك) أي وأمر ربك قاله ابن عباس وقيل معناه وأوجب ربك وقيل معناه الحكم والجزم وقيل ووصى ربك وحكي عن الضحاك انه قرأها ووصى ربك وقال انهم ألصقوا الواو بالصاد فصارت قافاً وهي قراءة علي وابن مسعود قال الامام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير هذا القول بعيد جداً لانه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين (ألا تعبدوا الا اياه) فيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره وهذا هو الحق لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله فكان هو المستحق للعبادة لا غيره (وبالوالدين احساناً) أي وأمر بالوالدين احساناً أي براً بهما وعطفاً عليهما واحساناً اليهما (اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) معناه أنهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر * واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر هذه الجملة كلف الانسان في حق الوالدين خمسة أشياء الاول قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) وهي كلمة تضجر وكراهية وقيل ان أصل هذه الكلمة انه اذا سقط عليك تراب أو رماد ونفخت فيه تزيله تقول أف ثم انهم توسعوا بذكر هذه الكلمة الى كل مكروه يصل اليهم والثاني قوله (ولا تنهرهما) أي تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره بمعنى فان قلت المنع من التأفيف أبلغ من المنع من الانتهار فما وجه الجمع قلت المراد من قوله ولا تقل لهما أف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليهما الثالث قوله (وقل لهما قولاً كريماً) أي حسناً جميلاً ليناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما وقيل هو يا أماه يا أبتاه وقيل لا يكنيهما وقيل هو أن يقول لهما كقول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ الرابع قوله عز وجل (واخفض لهما جناح الذل) أي ألن لهما جناحك واخضع لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحباه (من الرحمة) أي من الشفقة عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما كنت في حال

الصغر والضعف مفتقرا اليهما الخامس قوله سبحانه وتعالى (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) أي وادع الله لهما أن يرحمهما برحمته الباقية وأراد به اذا كانا مسلمين فأما اذا كانا كافرين فان الدعاء منسوخ في حقهما بقوله سبحانه وتعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وقيل يجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله الى الاسلام فاذا اهتديا فقد رحمهما وقيل في معنى هذه الآية ان الله سبحانه وتعالى بالغ في الوصية بهما حيث افتتحها بالامر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالاحسان اليهما ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تسوءهما وأن يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالامر بالدعاء لهما والترحم عليهما

﴿فصل﴾ في ذكر الاحاديث التي وردت في بر الوالدين (ق) عن أبي هريرة قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك (م) عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة (م) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزي ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد فقال أحي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد وعنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين أخرجه الترمذي مرفوعا وموقوفا قال وهو أصح عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فان شئت فضيع ذلك الباب أو احفظه أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح (م) عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الاعمال أحب الى الله تعالى قال الصلاة لوقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ربكم أعلم بما في نفوسكم) أي من بر الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير وعدم عقوقهما (ان تكونوا صالحين) أي أبرارا مطيعين قاصدين الصلاح والبر بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين أو غيرهما أو قيل فرط منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر مما يؤدي الى أذاهما ثم أبتم الى الله واستغفرتم مما فرط منكم (فانه كان للاوابين) للتوابين (غفورا) قال سعيد بن جبير في هذه الآية هو الرجل تكون منه البادرة الى أبويه لا يريد بذلك الا الخير فانه لا يؤاخذ بها وقال سعيد بن المسيب الأواب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وعنه انه الرجاع الى الخير وقال ابن عباس الأواب الرجاع الى الله فيما يحزنه وينوبه وعنه انهم المسبحون وقيل هم المصلون وقيل هم الذين يصلون صلاة الضحى يدل عليه ما روي عن زيد بن أرقم قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل قباء وهم يصلون الضحى فقال صلاة الأوابين اذا رمضت الفصال أخرجه مسلم قوله اذا رمضت الفصال يريد ارتفاع الضحى وأن تحمى الرمضاء وهو الرمل بحر الشمس فتبرك الفصال من الحر وشدة احراقه أخفافها والفصال جمع فصيل وهي أولاد الابل الصغار وقيل الأواب الذي يصلي بين المغرب والعشاء يدل عليه ما روي عن ابن عباس قال ان الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوابين قوله سبحانه وتعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل)

وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك والمراد بالخطاب غيره عليه السلام والدعاء مختص بالابوين المسلمين وقيل اذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الايمان وأن يدعو الله لهما بالهداية وعن النبي صلى الله عليه وسلم رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما وروي يفعل البار ما شاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما شاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وعنه عليه السلام اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين (ربكم أعلم بما في نفوسكم) بما في ضمائركم من قصد البر الى الوالدين ومن النشاط والكرامة في خدمتهما (ان تكونوا صالحين) قاصدين الصلاح والبر ثم فرطت منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر هنة تؤدي الى أذاهما ثم أبتم الى الله واستغفرتم منها (فانه كان للاوابين غفورا) الأواب الذي اذا أذنب بادر الى التوبة فجاز أن يكون هذا عاما لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره (وآت ذا القربى) منك (حقه) أي النفقة اذا كانوا محارم فقراء (والمسكين وابن السبيل) أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة

(ولا تبذر تبذيرا) ولا تسرف اسرافا قيل التبذير تفريق المال في غير الحق والحق فعن مجاهد لو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمة لانه لا شر من الشيطان أو هم اخوانهم وأصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف (وكان ١٩٢ الشيطان لربه كفورا) فما ينبغي أن يطاع فانه لا يدعو الا الى مثل فعله (واما تعرضن عنهم) وان أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) أي وان أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب يقال يسر الامر وعسر مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول وقيل معناه فقل لهم رزقنا الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم كان معناه قولا ذا ميسور وهو اليسر أي دعاء فيه يسر وابتغاء مفعول له أو مصدر في موضع الحال وترجوها حال (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) كل نصب على المصدر لاضافته اليه وهذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذي هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) فتصير ملوما عند الله لان المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول الفقير أعطى فلانا وحرمني ويقول الغني ما يحسن تدبير أمر المعيشة وعند نفسك اذا احتجت فندمت على ما فعلت (محسورا) منقطعا بك لا شيء عندك من حسره السفر اذا أثر فيه أثرا بليغا أو عاريا من حسر رأسه وقد غلطت مسلمة ضرتها اليهودية في انه يعني محمدا عليه السلام أجود من موسى عليه السلام فبعثت ابنها تسأله قميصه الذي عليه فدفعه

قيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أمره الله سبحانه وتعالى أن يؤتي أقاربه حقوقهم وقيل انه خطاب للكل وهو انه سبحانه وتعالى وصى بعد بر الوالدين بالقرابة أن يؤتوا حقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم وهو مذهب أبي حنيفة وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه لا تلزم النفقة الا للوالد على ولده أو ولد على والديه فحسب وقيل أراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم الكلام على المسكين وابن السبيل (ولا تبذر تبذيرا) أي لا تنفق مالك في المعصية وقيل لو أنفق الانسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما أو مدا في باطل كان مبذرا وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير حقه وقيل هو انفاق المال في العمارة على وجه السرف وقيل ان بعضهم أنفق نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) يعني أولياءهم وأصدقاءهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف وقيل أمثالهم في الشر وهذا غاية المذمة لانه لا شر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم (وكان الشيطان لربه كفورا) أي جحود النعمة فما ينبغي أن يطاع لانه يدعو الى مثل فعله قوله عز وجل (واما تعرضن عنهم) نزلت في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية والمعنى وان تعرض عن هؤلاء الذين أمرت أن تؤتيهم (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أي انتظار رزق من الله ترجوه ان يأتيك (فقل لهم قولا ميسورا) أي لينا سهلا أي عدهم وعدا جميلا لتطيب به قلوبهم وقيل هو أن يقول رزقنا الله واياكم من فضله قوله سبحانه وتعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) قال جابر أتى صبي فقال يا رسول الله ان أمي تستكسيك درعا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبي من ساعة الى ساعة يظهر كذا فعد الينا وقتا آخر فعاد الى أمه فقالت قل له ان أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال بالصلاة وانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أي لا تمسك يدك عن النفقة في الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها (ولا تبسطها) أي بالعطاء (كل البسط) أي فتعطي جميع ما عندك وقيل هذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذي هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) أي عند الله لان المسرف غير مرضي عنده وقيل ملوما عند نفسك وأصحابك أيضا يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل يلومك سائلوك على الامساك اذا لم تعطهم (محسورا) أي منقطعا لا شيء عندك تنفقه وقيل محسورا أي نادما على ما فرط منك ثم

وقد عريانا فأقيمت الصلاة فلم يخرج للصلاة فنزلت ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ذلك ليس هوان منك عليه ولا لبخل به عليك ولكن لأن بسط الأرزاق وقدرها مفوض الى الله تعالى فقال (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء) فليس البسط اليك (ويقدر) أي هو يضيق فلا لوم عليك (انه كان بعباده خبيرا) بمصالحهم فيضيقها (بصيرا) بحوائجهم فيقضيها (ولا تقتلوا أولادكم) قتلهم أولادهم وأدهم بناتهم (خشية املاق) فقر (نحن نرزقهم وإياكم) ١٩٣ نهاهم عن ذلك وضمن أرزاقهم (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) اثما عظيما يقال خطئ خطأ كاثم اثما وخطأ أو هو ضد الصواب اسم من أخطأ وقيل هو والخطأ كالحذر والحذر خطاء بالمد والكسر مكي (ولا تقربوا الزنا) القصر فيه أكثر والمد لغة وقد قرئ به وهو نهي عن دواعي الزنا كالمس والقبلة ونحوهما ولو أريد النهي عن نفس الزنا لقال ولا تزنوا (انه كان فاحشة) معصية مجاوزة حد الشرع والعقل (وساء سبيلا) وبئس طريقا طريقه (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) أي بارتكاب ما يبيح الدم (ومن قتل مظلوما) غير مرتكب ما يبيح الدم (فقد جعلنا لوليه سلطانا) تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه (فلا يسرف في القتل) الضمير للولي أي فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة أهل الجاهلية أو الاسراف المثلة والضمير للقاتل الأول فلا تسرف حمزة وعلي على خطاب الولي أو قاتل المظلوم (انه كان منصورا) الضمير للولي أي حسبه ان الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك أو للمظلوم أي الله ناصره حيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة بالثواب أو للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فانه كان منصورا بايجاب القصاص على المسرف وظاهر الآية يدل على ان القصاص يجري بين الحر والعبد وبين المسلم والذمي لأن أنفس أهل الذمة والعبيد داخلة في الآية لكونها محرمة (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يرهقه من الاضاقة بأن ذلك ليس هوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى (ان ربك يبسط) أي يوسع (الرزق لمن يشاء ويقدر) أي يقتر ويضيق وذلك لمصلحة العباد (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعني انه سبحانه وتعالى عالم بأحوال جميع عباده وما يصلحهم فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية مصالح العباد **قوله** عز وجل (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق) أي فاقة وفقر (نحن نرزقهم وإياكم) وذلك ان أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات أو أن ينكحوهن لغير أكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم وإياكم يعني ان الارزاق بيد الله فكما انه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) أي اثما كبيرا (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة) أي قبيحة زائدة على حد القبح (وساء سبيلا) أي بئس طريقا طريقه وهو أن تغصب امرأة غيرك أو أخته أو بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله تعالى قيل ان الزنا يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم **قوله** عز وجل (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة وحل القتل انما ثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهي الأسباب المرضية فقال الا بالحق أي الا باحدى ثلاث كما روي عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة أخرجاه في الصحيحين (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أي قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل سلطانه هو انه يتخير فان شاء استقاد منه وان شاء أخذ الدية وان شاء عفا (فلا يسرف في القتل) أي الولي قال ابن عباس لا يقتل غير القاتل وذلك انهم كانوا في الجاهلية اذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وقيل معناه اذا كان القتيل واحدا فلا يقتل به جماعة بل واحد بواحد وكان أهل الجاهلية اذا كان المقتول شريفا فلا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه وقيل معناه انه لا يمثل بالقاتل (انه كان منصورا) قيل الضمير راجع للمقتول ظلما يعني انه منصور في الدنيا بايجاب القود على قاتله وفي الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقيل الضمير راجع الى ولي المقتول معناه انه كان منصورا على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية وقيل في قوله فلا يسرف في القتل اراد به القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فانه ان فعل ذلك فولي القتيل منصور من قبلي عليه باستيفاء القصاص منه **قوله** سبحانه وتعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي

أحسن) بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه وتثميره (حتى يبلغ أشده) أي ثماني عشرة سنة (وأوفوا بالعهد) بأوامر الله تعالى ونواهيه (ان العهد كان مسؤلا) مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفي به أو ان صاحب العهد كان مسؤلا (وأوفوا الكيل اذا كلتم ١٩٤ وزنوا بالقسطاس) بكسر القاف حمزة وعلي وحفص وهو كل ميزان صغيرا أو كبير من موازين الدراهم وغيرها وقيل هو القرسطون أي القبان (المستقيم) المعتدل (ذلك خير) في الدنيا (وأحسن تأويلا) عاقبة وهو تفعيل من آل اذا رجع وهو ما يؤول اليه (ولا تقف ما ليس به علم) ولا تتبع ما لم تعلم أي لا تقل رأيت وما رأيت وسمعت وما سمعت وعن ابن الحنفية لا تشهد بالزور وعن ابن عباس لا ترم أحدا بما لا تعلم ولا يصح التثبت به لابطال الاجتهاد لان ذلك نوع من العلم فان علمتموهن مؤمنات وأقام الشارع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به كما في الشهادات ولنا في العمل بخبر الواحد لما ذكرنا (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) أولئك اشارة الى السمع والبصر والفؤاد لان أولئك كما يكون اشارة الى العقلاء يكون اشارة الى غيرهم كقول جرير

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الايام

وعنه في موضع الرفع بالفاعلية أي كل واحد منها كان مسؤلا عنه فمسؤل مسند الى الجار والمجرور كالمغضوب في غير المغضوب عليهم يقال للانسان لم سمعت ما لم يحل لك سماعه ولم نظرت الى ما لم يحل لك النظر اليه ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه كذا في الكشاف وفيه نظر لبعضهم لان الجار والمجرور وانما يقومان مقام الفاعل اذا تأخرا عن الفعل فاما اذا تقدما فلا (ولا تمش في الارض مرحا) هو حال أي ذا مرح (انك لن تخرق الارض) لن تجعل فيها خرقا بدوسك لها وشدة وطأتك (ولن تبلغ الجبال طولا)

أحسن) أي بالطريقة التي هي أحسن وهي تنميته وحفظه عليه (حتى يبلغ أشده) وهو بلوغ النكاح والمراد ببلوغ الاشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله والا لم ينفك عنه الحجر (وأوفوا بالعهد) أي الاتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه وقيل أراد بالعهد ما يلتزمه الانسان على نفسه (ان العهد كان مسؤلا) أي عنه وقيل مطلوبا وقيل العهد يسئل فيقال فيم نقضت كالموؤدة تسأل فيم قتلت قوله عز وجل (وأوفوا الكيل اذا كلتم) المراد منه اتمام الكيل (وزنوا بالقسطاس المستقيم) قيل هو الميزان صغيرا كان أو كبيرا من ميزان الدراهم الى ما هو أكبر منه وقيل هو القبان قيل هو رومي وقيل سرياني والاصح انه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل اي وزنوا بالعدل المستقيم واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز عنه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعيا في ابقاء الاموال على أربابها (ذلك خير وأحسن تأويلا) اي أحسن عاقبة من آل اذا رجع وهو ما يؤول اليه أمره قوله سبحانه وتعالى (ولا تقف) أي ولا تتبع (ما ليس لك به علم) أي لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم وقيل معناه لا ترم أحدا بما ليس لك به علم وقيل لا تتبعه بالحدس والظن وقيل هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الامور ويتتبعها ويتعرفها والمراد انه لا يتكلم في أحد بالظن (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) معناه يسئل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده وقيل يسئل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء فعلى هذا ترجع الاشارة في أولئك الى الاعضاء وعلى القول الاول ترجع الى أربابها عن شكل بن حميد قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله علمني تعويذا أتعوذ به قال فأخذ بيدي ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر فؤادي وشر لساني وشر قلبي وشر منيي قال حفظتها أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن غريب قوله وشر منيي يعني ماءه وذكره قوله عز وجل (ولا تمش في الارض مرحا) أي بطرا وكبرا وخيلاء (انك لن تخرق الارض) أي لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها (ولن تبلغ الجبال طولا) اى لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك والمعنى ان الانسان لا ينال بكبره وبطره شيأ كمن يريد خرق الارض ومطاولة الجبال لا يحصل على شئ وقيل ان الذي يمشي مختالا يمشي مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك عن علي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب أخرجه الترمذي في الشمائل قوله تكفأ التكفؤ التمايل في المشي الى قدام وقوله كأنما ينحط من صبب هو قريب من التكفؤ أي كأنه ينحدر من موضع عال عن أبي هريرة قال ما رأيت شيأ أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه وما رأيت أحدا أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا

بشطاً أولئك وهو تهكم بالمختال أولن تصادنيها قوة وهو حال من الفاعل أو المفعول (كل ذلك كان سيئه) كوفي وشامي على اضافة
سيئ الى ضمير كل سيئة غيرهم (عند ربك مكروها) ذكر مكروها لان السيئة في حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم
الصفات فلا اعتبار بتأنيثه الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فان قلت الخصال المذكورة بعضها سيئ وبعضها
حسن ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالاضافة أى ما كان من المذكور سيئا كان عند الله مكروها فما وجه قراءة من قرأ سيئة قلت
كل ذلك احاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة (ذلك) اشارة الى ما تقدم من قوله لا تجعل مع
الله الها آخر الى هذه الغاية (مما أوحى اليك ربك من الحكمة) مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس باسوته (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) مطرودا من الرحمة عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله الها آخر وآخرها مدحورا ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك لان التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمة وان بذ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم ثم خاطب الذين قالوا الملائكة بنات الله بقوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين) الهمزة للانكار يعني أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء
بأفضل الاولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) واتخذ أدونهم وهي البنات وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم
فالعبيد لا يؤثرون بأجود الاشياء وأصفاها ويكون أردؤها وأدونها السادات (انكم لتقولون قولا عظيما) حيث أضفتم
اليه الاولاد وهي من خواص الاجسام ثم فضلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون (ولقد صرفنا في هذا القرآن)
أى التنزيل والمراد ولقد صرفناه أى هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لانه معلوم (ليذكروا) وبالتخفيف حمزة وعلى
أى كررناه ليتعظوا (وما يزيدهم الا نفورا) عن الحق وكان الثورى اذا قرأها يقول زادنى لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا (قل

لتجهدا نفسنا وانه لغير مكترث أخرجه الترمذي قوله لغير مكترث أى شاق والا كتراث الامر
الذي يشق على الانسان (كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها) أى ما ذكر من الامور التي نهى
الله عنها فيما تقدم فان قلت كيف قيل سيئة مع قوله مكروها قلت قيل فيه تقديم وتأخير تقديره
كل ذلك كان مكروها سيئة عند ربك وقوله مكروها على التكرير لا على الصفة أى كل ذلك كان
سيئة وكان مكروها وقيل انه يرجع الى المعنى دون اللفظ لان السيئة الذنب وهو مذكر قوله
سبحانه وتعالى (ذلك) اشارة الى ما تقدم من الاوامر والنواهي في هذه الآيات (مما أوحى
اليك ربك من الحكمة) أى ان الاحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في
جميع الاديان والملل لا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة بهذا الاعتبار وقيل ان
حاصل هذه الآيات يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع البر والطاعات والاعراض عن الدنيا
والاقبال على الآخرة وذلك من الحكمة قيل ان هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه
السلام أولها ولا تجعل مع الله الها آخر قال الله سبحانه وتعالى وكتبنا له في الالواح من كل شئ
موعظة واعلم ان الله سبحانه وتعالى افتتح هذه الآيات بالامر بالتوحيد والنهي عن الشرك
وختمها به والمقصود منه التنبيه على ان كل قول وعمل يجب أن يكون فيه التوحيد لانه رأس كل
حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه شئ ثم انه سبحانه وتعالى ذكر في الآية الاولى ان الشرك
يجب ان يكون صاحبه مذموما مخذولا وقال في هذه الآية (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في
جهنم ملوما مدحورا) والفرق بين المذموم والملوم اما كونه مذموما فمعناه ان يذكر له ان الفعل
الذي أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له لم فعلت هذا الفعل القبيح وما الذي
حملك عليه وهذا هو اللوم والفرق بين المخذول والمدحور ان المخذول هو الضعيف الذي لا ناصر
له والمدحور هو المبعد المطرود عن كل خير قوله سبحانه وتعالى (أفأصفاكم ربكم) يعني أفخصكم
واختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة (بالبنين) يعني اختصكم بأفضل الاولاد
وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) لانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله مع علمهم بأن الله
سبحانه وتعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له وهذا يدل على نهاية جهل القائلين بهذا
القول (انكم لتقولون قولا عظيما) يخاطب مشركي مكة يعني باضافتهم اليه الاولاد وهي خاصة
بالاجسام ثم انهم يفضلون عليه أنفسهم حيث يجعلون له ما يكرهون لانفسهم يعني البنات قوله
سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا في هذا القرآن) يعني العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج
والاعلام والتشديد في صرفنا للتكثير والتكرير (ليذكروا) أى ليتعظوا ويعتبروا (وما
يزيدهم) أى تصريفنا وتذكيرنا (الا نفورا) أى تباعدا عن الحق (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء

(لو كان معه) مع الله (آلهة كما تقولون) وبالياء مكي وحفص (اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا) يعني لطلبوا الى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض أو لتقربوا اليه كقوله أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم

المشركين (لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا) أي لطلبوا يعني هؤلاء الآلهة (الى ذي العرش سبيلا) أي بالمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض وقيل معناه لتقربوا اليه وقيل معناه لتعرفوا اليه فضله فابتغوا ما يقربهم اليه والاول أصح ثم نزه نفسه فقال عز وجل (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) معنى وصفه بذلك المبالغة في البراءة والبعد عما يصفونه به قوله عز وجل (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) يعني الملائكة والانس والجن (وان من شيء الا يسبح بحمده) قال ابن عباس وان من شيء حي الا يسبح بحمده وقيل جميع الحيوانات والنباتات وقيل ان الشجرة تسبح والاسطوانة لا تسبح وقيل ان التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح وان الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح وان الورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح وان الماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح وان الثوب يسبح ما دام جديدا فاذا اتسخ ترك التسبيح وان الوحش والطير لتسبح اذا صاحت فاذا سكنت تركت التسبيح وقيل وان من شيء جماد أو حي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقيل كل الاشياء تسبح الله حيا كان أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل أخرجه البخاري (م) عن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت واني لأعرفه الآن (خ) عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره بشيء ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وانه يسبح وقال بعض أهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح والقول الاول أصح لما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي ان يكل علمه اليه وقوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أي لا تعلمون ولا تفهمون تسبيحهم ما عدا من يسبح بلغاتكم وألسنتكم (انه كان حليما غفورا) أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وجهلكم بالتسبيح قوله عز وجل (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به وقيل معناه مستورا عن أعين الناس فلا يرونه كما روي عن سعيد بن جبير أنه قال لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر فلم تره فقالت لأبي بكر أين صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال لها أبو بكر والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ رأسه فقال أبو بكر ما رأتك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أي أغطية (أن يفقهوه) أي لئلا يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا لئلا يسمعوه (واذا ذكرت ربك في القرآن

الوسيلة وإذا دل على أن ما بعدها وهو لابتغوا جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو (سبحانه وتعالى عما يقولون) وبالتاء حمزة وعلي (علوا) أي تعاليا والمراد البراءة من ذلك والنزاهة (كبيرا) وصف العلو بالكبر مبالغة في معنى البراءة والبعد عما وصفوه به (يسبح) وبالتاء عراقي غير أبي بكر (له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده) أي يقول سبحان الله وبحمده عن السدي قال عليه السلام ما اصطيد حوت في البحر ولا طائر يطير الا بما يضيع من تسبيح الله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لاختلاف اللغات أو لتعسر الادراك أو بسبب لتسبيح الناظر اليه والدال على الخبير كما علمه والوجه الاول (انه كان حليما) عن جهل العباد (غفورا) لذنوب المؤمنين (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) ذا ستر أو حجابا لا يرى فهو مستور (وجعلنا على قلوبهم أكنة) جمع كنان وهو الذي يستر الشيء (أن يفقهوه) كراهة أن يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) ثقلا يمنع من الاستماع (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده)

وحده) يقال وحد يحد وحدا وحدة نحو وعد يعد وعدا وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى واحدا (ولوا على أدبارهم) رجعوا على أعقابهم (نفورا) مصدر بمعنى التولية أو جمع نافر كقاعد وقعود أي يحبون أن تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا (نحن أعلم بما يستمعون به) أي نحن أعلم بالحال أو الطريقة التي يستمعون القرآن بها فالقرآن هو المستمع وهو محذوف وبه حال وبيان لما أي يستمعون القرآن هازئين لا جادين والواجب عليهم أن يستمعوه جادين (إذ يستمعون إليك) نصب بأعلم أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون (وإذ هم نجوى) وبما يتناجون به إذ هم ذو نجوى (إذ يقول الظالمون) بدل من إذ هم (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) سحر فجن (انظر كيف ضربوا ٤٧ لك الأمثال) مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أي فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع (وقالوا) أي منكرو البعث (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أي مجددا وخلقا حال أي مخلوقين (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم) أي السموات والأرض فإنها تكبر عندكم عن قبول الحياة (فسيقولون من يعيدنا قل) يعيدكم (الذي فطركم أول مرة) والمعنى أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة بعدما كنتم عظاما يابسة مع أن العظام بعض أجزاء الحي بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى الحالة الأولى ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة وهو أن تكونوا حجارة أو حديدا لكان قادرا على أن يردكم إلى حال الحياة (فسينغضون إليك رؤوسهم) فسيحركونها نحوك تعجبا واستهزاء (ويقولون متى هو) أي البعث استبعادا له ونفيا (قل عسى أن يكون قريبا) أي هو قريب وعسى للوجوب (يوم يدعوكم) إلى المحاسبة وهو يوم القيامة (فتستجيبون بحمده) أي تجيبون حامدين والباء للحال عن سعيد بن جبير ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك (وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أي لبثا قليلا أو زمانا قليلا في الدنيا أو في القبر (وقل لعبادي) وقل للمؤمنين (يقولوا) للمشركين الكلمة (التي هي أحسن) وألين ولا يخاشنوهم وهي أن يقولوا يهديكم الله

وحده) يعني إذا قلت لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن (ولوا على أدبارهم نفورا) جمع نافر (نحن أعلم بما يستمعون به) أي من الهزء بك وبالقرآن وقيل معناه نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو التكذيب (إذ يستمعون إليك) أي وأنت تقرأ القرآن (وإذ هم نجوى) أي وما يتناجون به في أمرك وقيل معناه ذوو نجوى بعضهم يقول هو مجنون وبعضهم يقول هو كاهن وبعضهم يقول ساحر أو شاعر (إذ يقول الظالمون) يعني الوليد بن المغيرة وأصحابه (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أي مطبوبا وقيل مخدوعا وقيل معناه أنه سحر فجن وقيل هو من السحر وهو الرئة ومعناه أنه بشر مثلكم يأكل ويشرب قال الشاعر

أرانا موضعين لأمر غيب * ونسحر بالطعام وبالشراب

أي نغذى بهما (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) أي الأشباه فقالوا ساحر شاعر كاهن مجنون (فضلوا) أي في جميع ذلك وحاروا (فلا يستطيعون سبيلا) أي إلى طريق الحق (وقالوا أئذا كنا عظاما) أي بعد الموت (ورفاتا) أي ترابا وقيل الرفات الأجزاء المتفتتة من كل شيء تكسر (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) وذلك أنهم استبعدوا الإعادة بعد الموت والبلى فقال الله سبحانه وتعالى ردا عليهم (قل) أي قل لهم يا محمد (كونوا حجارة) أي في الشدة (أو حديدا) أي في القوة وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز أي استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة (أو خلقا مما يكبر في صدوركم) قيل يعني السماء والأرض والجبال لأنها أعظم المخلوقات وقيل يعني به الموت لأنه لا شيء في نفس ابن آدم أكبر من الموت ومعناه لو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم (فسيقولون من يعيدنا) أي من يبعثنا بعد الموت (قل الذي فطركم) أي خلقكم (أول مرة) فمن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة (فسينغضون إليك رؤوسهم) أي يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بما تقول (ويقولون متى هو) يعني البعث والقيامة (قل عسى أن يكون قريبا) أي هو قريب (يوم يدعوكم) أي من قبوركم إلى موقف القيامة (فتستجيبون بحمده) قال ابن عباس بأمره وقيل بطاعته وقيل مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فإنهم يبعثون حامدين (وتظنون إن لبثتم) أي في الدنيا وقيل في القبور (إلا قليلا) وذلك لأن الإنسان لو مكث في الدنيا أو في القبر ألوفا من السنين عد ذلك قليلا بالنسبة إلى مدة القيامة والخلود في الآخرة وقيل إنهم يستقصرون مدة الدنيا في جنب القيامة قوله سبحانه وتعالى (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) وذلك أن المشركين كانوا يؤذون المسلمين فشكوا

ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وقل لعبادي يقولوا يعني للكفار التي هي أحسن أي لا يكافئوهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن في القتال والجهاد وقيل نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أنه شتمه بعض الكفار فأمره الله بالعفو وقيل أمر الله المؤمنين أن يقولوا أو يفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الاحسن كلمة الاخلاص لا اله الا الله (ان الشيطان ينزغ بينهم) أي يفسد ويلقي العداوة بينهم (ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) أي ظاهر العداوة قوله عز وجل (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) أي يوفقكم للايمان فتؤمنوا (أو ان يشأ يعذبكم) أي يميتكم على الشرك فتعذبوا وقيل معناه ان يشأ يرحمكم فينجكم من أهل مكة أو ان يشأ يعذبكم أي يسلطهم عليكم (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أي حفيظا وكفيلا قيل نسختها آية القتال (وربك أعلم بمن في السموات والارض) يعني أن علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الارضين والسموات يعلم حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد وقيل معناه انه عالم بأحوالهم واختلاف صورهم وأخلاقهم ومللهم وأديانهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وذلك أنه اتخذ ابراهيم خليلا وكلم موسى تكليما وقال لعيسى كن فكان وآتى سليمان ملكا لا ينبغي لاحد من بعده وآتى داود زبورا وذلك قوله تعالى (وآتينا داود زبورا) وهو كتاب أنزله الله على داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وثناء على الله تعالى وتحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام فان قلت لم خص داود في هذه الآية بالذكر دون غيره من الانبياء قلت فيه وجوه أحدها ان الله تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال تعالى وآتينا داود زبورا وذلك ان داود أعطي مع النبوة الملك فلم يذكره بالملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على ان الفضل المذكور في هذه الآية المراد به العلم لا الملك والمال الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى كتب في الزبور أن محمدا خاتم الانبياء وان أمته خير الامم فلهذا خصه بالذكر الوجه الثالث ان اليهود زعمت أن لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله وآتينا داود زبورا ومعنى الآية انكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم واعطاءه القرآن وان الله آتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الانجيل فلم يبعد أن يفضل محمدا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام قوله عز وجل (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وذلك أن الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فقال الله عز وجل قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه (فلا يملكون كشف الضر عنكم) أي الجوع والقحط (ولا تحويلا) أي الى غيركم أو تحويل الحال من العسر الى اليسر ومقصود الآية الرد على المشركين حيث قالوا ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله فنحن نعبد المقربين الى الله وهم الملائكة ثم انهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالا وصورة واشتغلوا بعبادته فاحتج الله على بطلان قولهم بهذه الآية

(ان الشيطان ينزغ بينهم) يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقة والنزغ ايقاع الشر وافساد ذات البين وقرأ طلحة ينزغ بالكسر وهما لغتان (ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة أو فسر التي هي أحسن بقوله (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) بالهداية والتوفيق (أو ان يشأ يعذبكم) بالخذلان أي يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا يقولوا لهم انكم من أهل النار وانكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر وقوله ان الشيطان ينزغ بينهم اعتراض (وما أرسلناك عليهم وكيلا) حافظا لاعمالهم وموكولا اليك أمرهم وانما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة (وربك أعلم بمن في السموات والارض) وبأحوالهم وبما يستأهل كل واحد منهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) فيه اشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله (وآتينا داود زبورا) دلالة على وجه تفضيله وانه خاتم الانبياء وان أمته خير الامم لان ذلك مكتوب في زبور داود قال الله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد وأمته ولم يعرف الزبور هنا وعرفه في قوله ولقد كتبنا في الزبور لانه كالعباس وعباس والفضل وفضل (قل ادعوا الذين زعمتم) انها آلهتكم (من دونه) من دون الله وهم الملائكة أو عيسى وعزير أو نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا (فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) أي ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب ولا أن يحولوه من واحد الى آخر

(أولئك) مبتدأ (الذين يدعون) صفة أي يدعونهم آلهة أو يعبدونهم والخبر (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) يعني أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى الله عز وجل (أيهم) بدل من واو يبتغون وأي موصولة أي يبتغي من هو (أقرب) منهم الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة (إن عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) قبل الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة (كان ذلك في الكتاب) في اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا وعن مقاتل وجدت في كتب الضحاك في تفسيرها أما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فعذابها ضروب وأما بلخ فتصيبهم هدة فتهلك أهلها وأما بدخشان فيخربها أقوام وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون وأما صاغانيان إلى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع وأما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء فيقتلون أهلها قتلا ذريعا وكذا فرغانة والشاش 199 وإسبيجاب وخوارزم وأما بخارى فهي أرض الجبابرة يموتون قحطا وجوعا وأما مرو فيغلب عليها الرمل ويهلك بها العلماء والعباد وأما هراة فيمطرون بالحيات فتأكلهم أكلا وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد وبرق وظلمة فيهلك أكثرهم وأما الري فيغلب عليها الطبرية والديلم فيقتلونهم وأما أرمينية وأذربيجان فيهلكها سنابك الخيول والجيوش والصواعق والرواجف وأما همدان فالديلم يدخلها ويخربها وأما حلوان فتمر بها ريح ساكنة وهم نيام فيمسخ أهلها قردة وخنازير ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر فويل لأهلها ولأهل دمشق وويل لأهل إفريقية وويل لأهل الرملة ولا يدخل بيت المقدس وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أياما ثم هدة تأتيهم ويموت بها العلماء وأما كرمان وأصبهان وفارس فيأتيهم عدو وصاح وصيحة تخلع القلوب وتموت الأبدان (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) استعير المنع لترك إرسال الآيات وأن الأولى مع صلتها في موضع النصب لأنها مفعول ثان لمنعنا وأن الثانية مع صلتها في موضع الرفع لأنها فاعل منعنا والتقدير وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن إحياء الموتى وغير ذلك وسنة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال والمعنى وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وعدوا العذاب المستأصل وقد حكمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح عليه السلام لأن آثار هلاكهم قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال

الآية وبين عجز آلهتهم ثم قال تعالى (أولئك الذين يدعون) أي الذين يدعون المشركون آلهة (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أي القربة والدرجة العليا قال ابن عباس هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقال عبد الله بن مسعود نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم أولئك الجن ولم يعلم الإنس بذلك فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية وقوله تعالى (أيهم أقرب) معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به وقيل أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله ويتقرب إليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة (ويرجون رحمته) أي جنته (ويخافون عذابه) وقيل معناه يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة (إن عذاب ربك كان محذورا) أي حقيقا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم من الخلائق قوله سبحانه وتعالى (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) أي بالموت والخراب (أو معذبوها عذابا شديدا) أي بالقتل وأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا وقيل الإهلاك في حق المؤمنين الإماتة وفي حق الكفار العذاب قال عبد الله بن مسعود إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها (كان ذلك في الكتاب) أي في اللوح المحفوظ (مسطورا) أي مكتوبا مثبتا عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما أكتب قال اكتب القدر وما هو كائن إلى يوم القيامة إلى الأبد أخرجه الترمذي قوله سبحانه وتعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) قال ابن عباس سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وفضة وأن ينحي الجبال عنهم

(وآتينا ثمود الناقة) باقتراحهم (مبصرة) آية بينة (فظلموا بها) فكفروا بها (وما نرسل بالآيات) ان أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها (الا تخويفا) من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له فان لم يخافوا وقع عليهم وان أراد غيرها فالمعنى وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها الا تخويفا وانذارا بعذاب الآخرة وهو معمول (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي ٢٠٠ أريناك الا فتنة للناس) واذكر اذ أوحينا اليك ان ربك أحاط بقريش علما وقدرة فكلهم في قبضته لا تبال بهم وامض لامرك وبلغ ما أرسلت به أو بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر وقل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد فجعله كأن قد كان ووجد فقال أحاط بالناس على سنته في أخباره ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر بدر وما أري في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاء (والشجرة الملعونة في القرآن) أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس فانهم حين سمعوا بقوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم جعلوها سخرية وقالوا ان محمدا يزعم ان الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول تنبت فيها الشجرة وما قدروا الله حق قدره الله اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد [illegible]

أخبر وانا أوحى الله الى رسوله صلى الله عليه وسلم ان شئت ان استأني بهم فعلت وان شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت فان لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا بل تستأني بهم فأنزل الله عز وجل وما منعنا أن نرسل بالآيات أي التي سألها كفار قومك الا أن كذب بها الاولون أي فأهلكناهم فان لم يؤمن قومك بعد ارسال الآيات أهلكناهم لان من سنتنا في الامم اذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد اتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم وقد حكمنا بامهال هذه الامة الى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا فقال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي بينة وذلك لان آثارهم هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم (فظلموا بها) أي جحدوا انها من عند الله وقيل فظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) أي وما نرسل بالآيات الا تخويفا من نزول العذاب فان لم يخافوا وقع عليهم وقيل معناه وما نرسل بالآيات بمعنى العبر والدلالات الا تخويفا أي انذارا بعذاب الآخرة ان لم يؤمنوا فان الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون قوله عز وجل (واذ قلنا لك) أي واذكر يا محمد اذ قلنا لك (ان ربك أحاط بالناس) أي ان قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته واذا كان الامر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو يمنعك ويمنعك منهم فلا تهبهم وامض لما أمرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) الاكثرون من المفسرين على ان المراد منها ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسري به الى بيت المقدس أخرجه البخاري وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم والعرب تقول رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكان فتنة للناس وازداد المخلصون ايمانا وقال قوم أسري بروحه دون بدنه وهو ضعيف وقال قوم كان له معراجان معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا منام وقيل أراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجل السير الى مكة قبل الاجل فصده المشركون فرجع الى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر انه يدخلها فتنة لبعضهم ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن ولد الحكم بن أبي العاص يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك فان اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا بالمدينة أجيب بانه لا اشكال فيه فانه لا يبعد ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة (والشجرة الملعونة في القرآن) يعني شجرة الزقوم التي وصفها

في كل شجرة ناراً فلا تحرقها فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى أن الآيات إنما نرسلها تخويفاً للعباد وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر ونحوه وبعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم ثم قال (ونخوفهم) أي بمخاوف الدنيا والآخرة (فما يزيدهم) التخويف (إلا طغياناً كبيراً) فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات وقيل الرؤيا هي الإسراء وبه تعلق من يقول كان الإسراء في المنام ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية وإنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا رأيتها استبعاداً منهم كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة كقوله فراغ إلى آلهتهم أين شركائي أو هي رؤياه أنه سيدخل مكة والفتنة الصد بالحديبية فإن قلت ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم قلت معناه والشجرة الملعون آكلها وهم الكفرة لأنه قال ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فوصفت بلعن أهلها على المجاز ولأن العرب تقول لكل طعام مكروه ضار ملعون ولأن اللعن هو الإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً) هو تمييز أو حال من الموصول والعامل فيه أأسجد على أأسجد له وهو طين أي أصله طين (قال أرأيتك هذا الذي) الكاف لا موضع لها لأنها ذكرت للخطاب تأكيداً وهذا مفعول به والمعنى

أخبرني عن هذا الذي (كرمت علي) أي فضلته لم كرمته علي وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فحذف ذلك اختصاراً لدلالة ما تقدم عليه ثم ابتدأ فقال (لئن أخرتني) وبلا ياء كوفي وشامي واللام موطئة للقسم المحذوف (إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) لأستأصلنهم بإغوائهم (إلا قليلاً) وهم المخلصون وقيل من كل ألف واحد وإنما علم الملعون ذلك بالإلهام أو لأنه رأى أنه خلق شهواني (قال اذهب) ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية ثم عقبه بذكر ما جره سوء اختياره فقال (فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم) والتقدير فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم وانتصب (جزاء موفوراً) أي موفوراً بإضمار تجزون (واستفزز) استزل أو استخف واستفزه أي استخفه والفز الخفيف (من استطعت منهم بصوتك) بالوسوسة أو بالغناء أو بالمزمار (وأجلب عليهم) أجمع وصح عليهم من الجلبة وهو الصياح (بخيلك ورجلك) بكل راكب وماش من أهل العيث فالخيل الخيالة والرجل

الله تعالى في سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه طعام ملعون والفتنة فيها أن أبا جهل قال إن ابن أبي كبشة يعني النبي صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه تنبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر وقيل إن عبد الله بن الزبعرى قال إن محمداً يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر فقال أبو جهل يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بزبد وتمر فقال يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوفكم به محمد فأرسل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر إنا جعلناها فتنة للظالمين الآيات فإن قلت أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن قلت لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن وإنما وصفت باللعن أصحابها على المجاز وقيل وصفها الله تعالى باللعن لأن اللعن الإبعاد من الرحمة وهي في أصل جهنم في أبعد مكان من الرحمة وقال ابن عباس في رواية عنه إن الشجرة الملعونة هي الكشوث الذي يلتوي على الشجر والشوك فيجففه (ونخوفهم فما يزيدهم) أي التخويف (إلا طغياناً كبيراً) أي تمرداً وعتواً عظيماً قوله سبحانه وتعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً) أي من طين وذلك أن آدم خلق من تراب الأرض من عذبها وملحها فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي (قال) يعني إبليس (أرأيتك) الكاف للمخاطب والمعنى أخبرني (هذا الذي كرمت علي) أي فضلته علي (لئن أخرتني) أي أمهلتني (إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) أي لأستأصلنهم بالإضلال وقيل معناه لأقودنهم كيف شئت وقيل لأستولين عليهم بالإغواء (إلا قليلاً) يعني المعصومين الذين استثناهم الله تعالى في قوله إن عبادي ليس لك عليهم سلطان (قال) الله تعالى (اذهب) أي امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذي هو ضد المجيء (فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم) أي جزاؤك وجزاء أتباعك (جزاء موفوراً) أي مكملاً قوله سبحانه وتعالى (واستفزز) أي استخف واستزل واستجهل وأزعج (من استطعت منهم) أي من ذرية آدم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس وقيل أراد بصوتك الغناء والمزامير واللهو واللعب (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أي اجمع عليهم مكايدك وحبائلك واحثثهم على الإغواء وقيل معناه استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم يقال إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس فكل من قاتل

أو مشى في معصية الله فهو من جند إبليس وقيل المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل
المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك (وشاركهم في الأموال والأولاد) أما المشاركة في الأموال
فكل مال أصيب من حرام أو أنفق في حرام وقيل هو الربا وقيل هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم
ويحرمونه كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأما المشاركة في الأولاد فروي عن ابن عباس
أنها الموؤدة وقيل أولاد الزنا وعن ابن عباس أيضا هي تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد
الحرث وعبد شمس ونحوه وقيل هو أن رغبوا أولادهم في الأديان الباطلة الكاذبة كاليهودية
والنصرانية والمجوسية ونحوها وقيل إن الشيطان يقعد على ذكر الرجل وقت الجماع فإذا لم
يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل وروي في بعض الأخبار أن
فيكم مغربين قيل وما المغربون قال الذين شاركت فيهم الجن وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال
إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن (وعدهم) أي منهم الجميل
في طاعتك وقيل قل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث وذلك أن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد أن
يقرر أولا أنه لا مضرة في فعلها البتة وذلك لا يمكن إلا إذا قال له لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة
بعد هذه الحياة فيقرر عند المدعو أنه لا مضرة البتة في هذه المعاصي وإذا فرغ من هذا النوع قرر
عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان في الدنيا إلا به فهذا طريق
الدعوة إلى المعصية ثم ينفره عن فعل الطاعات وهو أنه يقرر عنده أن لا جنة ولا نار ولا عقاب
ولا فائدة فيها وقيل معنى عدهم أي شفاعة الأصنام عند الله وإيثار العاجل على الآجل فإن
قلت كيف ذكر الله هذه الأشياء بصيغة الأمر والله سبحانه وتعالى يقول إن الله لا يأمر بالفحشاء
قلت هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القائل اجتهد جهدك فسترى
ما ينزل بك وقوله سبحانه وتعالى (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) أي يزين الباطل بما يظن
أنه حق واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما قال وعدهم أردفه بما هو زاجر عن قبول وعده بقوله وما
يعدهم الشيطان إلا غرورا والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى قضاء الشهوة وطلب الرياسة ونحو
ذلك ولا يدعو إلى معرفة الله تعالى ولا إلى عبادته وتلك الأشياء التي يدعو إليها خيالات لا حقيقة
لها ولا تحصل إلا بعد متاعب ومشاق عظيمة وإذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء
وينغصها الموت والهرم وغير ذلك وإذا كانت هذه الأشياء بهذه الصفة كان الترغيب فيها غرورا
(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) يعني عباده الأنبياء وأهل الفضل والصلاح لأنه لا يقدر
على إغوائهم (وكفى بربك وكيلا) أي حافظا والمعنى أنه سبحانه وتعالى لما مكن إبليس من أن يأتي
بما يقدر عليه من الوسوسة كان ذلك سببا لحصول الخوف في قلب الإنسان فقال تعالى وكفى
بربك وكيلا أي فالله سبحانه وتعالى أقدر منه وأرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان
ووساوسه ويعصمهم من إغوائه وإضلاله وفي بعض الآثار أن إبليس لما خرج إلى الأرض قال
يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط قال لا أستطيعه
إلا بك فزدني قال استفزز من استطعت منهم الآية فقال آدم يا رب سلطت إبليس علي وعلى
ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك قال لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه قال رب زدني قال الحسنة
بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال رب زدني قال التوبة معروضة ما دام الروح في الجسد قال رب
زدني فقال يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية وفي الخبر أن إبليس
قال يا رب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قراءتي قال الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال ومن

رسلي

اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب ورجلك حفص على أن فعلا بمعنى فاعل كتعب وتاعب ومعناه وجمعك الرجل وهذا لأن أقصى ما يستطاع في طلب الأمور الخيل والرجل وقيل يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال (وشاركهم في الأموال والأولاد) قال الزجاج كل معصية في مال وولد فإبليس شريكهم فيها كالربا والمكاسب المحرمة والبحيرة والسائبة والإنفاق في الفسوق والإسراف ومنع الزكاة والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام والتسمية بعبد العزى وعبد شمس (وعدهم) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (إن عبادي) الصالحين (ليس لك عليهم سلطان) يد بتبديل الإيمان ولكن بتسويل العصيان (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك أو حافظا لهم عنك والكل أمر تهديد فيعاقب به أو إهانة أي لا يخل ذلك بملكي

(ربكم الذي يزجي) يجري ويسير (لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله) يعني الربح في التجارة (انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر في البحر) أي خوف الغرق (ضل من تدعون الا اياه) ذهب عن أوهامكم كل من تدعونه في حوادثكم الا اياه وحده فانكم لا تذكرون سواه أو ضل من تدعون من الآلهة عن اغاثتكم ولكن الله وحده الذي ترجونه على الاستثناء المنقطع (فلما نجاكم الى البر أعرضتم) عن الاخلاص بعد الخلاص (وكان الانسان) أي الكافر (كفورا) للنعم (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الاعراض (أن يخسف بكم جانب البر) انتصب جانب بيخسف مفعولا به كالارض في قوله فخسفنا به وبداره الارض وبكم حال والمعنى أن يخسف جانب البر أي يقلبه وأنتم عليه والحاصل أن الجوانب كلها في قدرته سواء وله في كل جانب برا كان أو بحرا سبب من ٢٠٣ أسباب الهلاك ليس جانب البحر وحده مختصا به بل ان كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر الخسف وهو تغييب تحت التراب والغرق تغييب تحت الماء فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان (أو يرسل عليكم حاصبا) هي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني أو ان لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يصرف ذلك عنكم (أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم) أي أم أمنتم أن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم الى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بان يرسل عليكم (قاصفا من الريح) وهي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد أو هو الكاسر للفلك (فيغرقكم بما كفرتم) بكفرانكم النعمة وهو اعراضكم حين نجاكم (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) مطالبا من قوله فاتباع بالمعروف أي مطالبة والمعنى انا نفعل ما نفعل بهم ثم لا يجدوا أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثار من جهتنا وهذا نحو قوله ولا يخاف عقباها أن نخسف أو نرسل أو نعيدكم فنرسل فنغرقكم بالنون مكي وأبو عمرو (ولقد كرمنا بني آدم) بالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد والاستيلاء وتسخير الاشياء وتناول الطعام بالايدي وعن الرشيد أنه أحضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف رحمه الله فقال له جاء في تفسير جدك ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه (وحملناهم في البر) على الدواب

رسلي قال الكهنة قال أي شيء مطعمي قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال وأين مسكني قال الحمامات قال وأين مجلسي قال في الاسواق قال وما حبائلي قال النساء قال وما أذاني قال المزمار قوله سبحانه وتعالى (ربكم الذي يزجي) أي يسوق ويجري (لكم الفلك) أي السفن (في البحر لتبتغوا من فضله) أي لتطلبوا من رزقه بالارباح في التجارة وغيرها (انه كان بكم رحيما) أي حيث يسر لكم هذه المنافع والمصالح وسهلها عليكم (واذا مسكم الضر في البحر) أي الشدة وخوف الغرق في البحر (ضل من تدعون) أي ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعون في حوادثكم من الاصنام وغيرها (الا اياه) أي الا الله وحده فانكم لا تذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره لانه القادر على اغاثتكم ونجاتكم (فلما نجاكم) أي أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وشدته وأخرجكم (الى البر أعرضتم) أي عن الايمان والاخلاص والطاعة وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى (وكان الانسان كفورا) أي جحودا (أفأمنتم) أي بعد انجائكم (أن يخسف بكم جانب البر) أي نغوره والمعنى ان الجهات كلها له وفي قدرته برا كان أو بحرا بل ان كان الغرق في البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لانه تغييب تحت الثرى كما ان الغرق تغييب تحت الماء (أو يرسل عليكم حاصبا) أي يمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) أي مانعا وناصرا (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أي في البحر (تارة) أي مرة (أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح) قال ابن عباس أي عاصفا وهي الريح الشديدة وقيل هي الريح التي تقصف كل شيء من شجر وغيره (فيغرقكم بما كفرتم) أي بكفرانكم النعمة واعراضكم حين أنجيناكم (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) التبيع المطالب والمعنى انا نفعل ما نفعل بكم ثم لا تجدون لكم أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم ودركا للثار من جهتنا وقيل معناه من يتبعنا بالانكار علينا قوله سبحانه وتعالى (ولقد كرمنا بني آدم) قال ابن عباس هو أنهم يأكلون بالايدي وغير الآدمي يأكل بفيه من الارض وقال أيضا بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بتسليطهم على جميع ما في الارض وتسخيره لهم وقيل بحسن تدبيرهم أمر المعاش والمعاد وقيل بان منهم خير أمة أخرجت للناس (وحملناهم في البر) أي على الابل والخيل

(والبحر) على السفن (ورزقناهم من الطيبات) باللذيذات أو بما كسبت أيديهم (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أي على الكل كقوله وأكثرهم كاذبون قال الحسن أي كلهم وقوله وما يتبع أكثرهم إلا ظنا وذكر في الكشاف أن المراد بالأكثر الجميع وعنه عليه السلام المؤمن أكرم على الله من الملائكة وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة ففيهم عقل بلا شهوة وفي البهائم شهوة بلا عقل وفي الآدمي كلاهما فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ولأنه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه (يوم ندعوا) منصوب باذكر (كل أناس بإمامهم) الباء للحال والتقدير مختلطين بإمامهم أي بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين فيقال يا أتباع فلان يا أهل دين كذا أو كتاب كذا وقيل بكتاب أعمالهم فيقال يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر (فمن أوتي) من هؤلاء المدعوين (كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) وإنما قيل أولئك لأن من في معنى الجمع (ولا يظلمون فتيلا) ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء ولم يذكر الكفار وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله (ومن كان في هذه) الدنيا (أعمى فهو في الآخرة أعمى) كذلك (وأضل سبيلا) من في

الأعمى أي أضل طريقا والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة أما في الدنيا فلعدم

والبغال والحمير (والبحر) أي وحملناهم في البحر على السفن وهذا من مؤكدات التكريم لأن الله سبحانه وتعالى سخر لهم هذه الأشياء لينتفعوا بها ويستعينوا بها على مصالحهم (ورزقناهم من الطيبات) يعني لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلواء وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى وقيل إن جميع الأغذية إما نباتية وإما حيوانية ولا يتغذى الإنسان إلا بأطايب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) واعلم أن الله تعالى قال في أول الآية ولقد كرمنا بني آدم وفي آخرها وفضلناهم ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار والأقرب أن يقال إن الله تعالى كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية ذاتية طبيعية مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة ثم إنه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل ثم قال سبحانه وتعالى على كثير ممن خلقنا تفضيلا فظاهر الآية يدل على أنه فضل بني آدم على كثير من خلق لا على الكل فقال قوم فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة وقال الكلبي فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وأشباههم وقيل فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم فإن قلت كيف تصنع بكثير قلت يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى يلقون السمع وأكثرهم كاذبون أراد كلهم وفي الحديث عن جابر يرفعه قال لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان وقيل بالتفصيل وهو الأولى والراجح أن خواص بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر من بني آدم وهذا التفضيل إنما هو بين الملائكة والمؤمنين من بني آدم لأن الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده قوله عز وجل (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أي بنبيهم وقيل بكتابهم الذي أنزل عليهم وقيل بكتاب أعمالهم وعن ابن عباس بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إما إلى هدى وإما إلى ضلال وذلك أن كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر وقيل بمعبودهم وقيل بأمهاتهم جمع أم يعني بأمهاتهم والحكمة فيه رعاية حق عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وأن لا يفتضح أولاد الزنا (فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) فإن قلت لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أصحاب الشمال يقرءونه أيضا قلت الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على مهلكات عظيمة فيستولي عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على إقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة وأصحاب اليمين إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرءونه أحسن قراءة وأبينها (ولا يظلمون فتيلا) أي ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء (ومن كان في هذه أعمى) المراد عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى أي عن هذه النعم التي قد عددها في هذه الآيات المتقدمة (فهو في الآخرة) أي التي لم تعاين ولم تر (أعمى وأضل سبيلا) قاله ابن عباس وقيل معناه ومن كان

التفلر وامافي الآخرة فلانه لا ينضح الاهتداء اليه وقد يجوز وأن يكون الثاني بمعنى التفضيل بدليل عطف وأضل ومن ثم قرأ أبو عمرو الاول ممالا والثاني مفخما لان أفعل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلمة فلا يقبل الامالة واما الاول فلم يتعلق به شيء فكانت ألفه واقعة في الطرف فقبلت الامالة وامالهما حمزة وعلي وفخمهما الباقون ولما قالت قريش اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك نزل (وان كادوا ليفتنونك) ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والمعنى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين (عن الذي أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفتري علينا غيره) لتتقول علينا مالم نقل يعني ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيدا أو الوعيد وعدا (واذا لاتخذوك خليلا) أي ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلا ولكنت لهم ٢٠٥ وليا وخرجت من ولايتي (ولولا أن ثبتناك) ولولا تثبيتنا وعصمتنا (لقد كدت تركن اليهم) لقاربت أن تميل الى مكرهم (شيئا قليلا) ركونا قليلا وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت (اذا) لو قاربت تركن اليهم أدنى ركنة (لاذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) لاذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك كما قال يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة الآية وأصل الكلام لاذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات لان العذاب عذابان عذاب في الممات وهو عذاب القبر وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار والعذاب يوصف بالضعف كقوله فآتهم عذابا ضعفا من النار أي مضاعفا فكان أصل الكلام لاذقناك عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ثم أضيفت الصفة اضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات ويجوز أن يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا وبضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار وفي ذكر الكيدودة وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل على ان القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله ولما نزلت كان عليه السلام يقول اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) معينا يمنع عذابنا عنك (وان كادوا) أي أهل مكة (ليستفزونك) ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الارض) من أرض مكة (ليخرجوك منها

في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو في الآخرة أعمى أي أشد عمى وأضل سبيلا أي أخطأ طريقا وقيل معناه ومن كان في الدنيا كافرا ضالا فهو في الآخرة أعمى لانه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة لا تقبل توبته **قوله** سبحانه وتعالى (وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك) قيل في سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الاسود فمنعته قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدثت نفسه ما علي أن أفعل ذلك والله يعلم اني لها كاره بعد ان يدعوني أستلم الحجر وقيل طلبوا منه ان يذكر آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدثت نفسه فانزل الله هذه الآية وقال ابن عباس قدم وفد ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نبايعك على ان تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا لا نجبي في الصلاة أي لا ننحني ولا نكسر أصنامنا بايدينا وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما ان لا تكسروا أصنامكم بايديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعني اللات والعزى فاني غير ممتعكم بها قالوا يا رسول الله انا نحب ان تسمع العرب انك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا فان خشيت ان تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فانزل الله تعالى وان كادوا أي هموا وقاربوا ليفتنونك أي ليصرفونك عن الذي أوحينا اليك (لتفتري) أي لتختلق وتتقول (علينا غيره) أي ما لم نقله (واذا) أي لو فعلت ما دعوك اليه (لاتخذوك خليلا) أي والوك ووافوك وصافوك (ولولا أن ثبتناك) أي على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت تركن) أي تميل (اليهم شيئا قليلا) أي قريبا من الفعل فان قلت كان النبي صلى الله عليه وسلم معصوما فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه قلت كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزما وقد عفا الله تعالى عن حديث النفس وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين والجواب الصحيح هو ان الله سبحانه وتعالى قال ولولا ان ثبتناك وقد ثبته الله فلم يركن اليهم (اذا لاذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) أي لو فعلت ذلك لاذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) أي ناصرا يمنعك من عذابنا **قوله** سبحانه وتعالى (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) قيل هذه الآية مدنية وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم

ثم (لا يلبثون) لا يبقون (خلفك) بعدك أي بعد اخراجك خلافك كوفي شامي غير أبي بكر وهو بمعناه (الا قليلا) زمانا قليلا فان
الله مهلكهم وكان كما قال فقد اهلكوا ٢٠٦ ببدر بعد اخراجه بقليل أو معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم و

المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة وذلك حسدا فأتوه فقالوا يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء وان أرض الأنبياء الشام وهي الأرض المقدسة وكان بها ابراهيم والأنبياء عليهم السلام فان كنت نبيا مثلهم فأت الشام وانما يمنعك من الخروج اليها مخافة الروم وان الله سيمنعك من الروم ان كنت رسوله فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أميال من المدينة وفي رواية الى ذي الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه فيخرج فأنزل الله هذه الآية فالأرض هنا أرض المدينة وقيل الأرض أرض مكة والآية مكية والمعنى هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وقيل هم المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه والاستفزاز الازعاج (واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا) أي لا يبقون بعد اخراجك الا زمانا قليلا حتى يهلكوا قوله سبحانه وتعالى (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعني ان كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنة الله أن يهلكهم وأن لا يعذبهم ما دام نبيهم بينهم فاذا خرج من بين أظهرهم عذبهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أي تبديلا قوله سبحانه وتعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) روي عن ابن مسعود أنه قال الدلوك الغروب وهو قول النخعي ومقاتل والضحاك والسدي وقال ابن عباس وابن عمر وجابر هو زوال الشمس وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين ومعنى اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل اذا زالت واذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به واذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر (الى غسق الليل) أي ظهور ظلمته وقال ابن عباس بدو الليل وهذا يتناول المغرب والعشاء (وقرآن الفجر) يعني صلاة الفجر سمى الصلاة قرآنا لأنها لا تجوز الا بقرآن (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أي يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا قال الامام فخر الدين الرازي في تفسيره هذا دليل قاطع قوي على ان التغليس أفضل من التنوير لأن الانسان اذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار أما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الاسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في الآية فثبت ان قوله تعالى ان قرآن الفجر كان مشهودا دليل على ان الصلاة في أول وقتها أفضل قوله سبحانه وتعالى (ومن الليل فتهجد به) أي قم بعد نومك والتهجد لا يكون الا بعد القيام من النوم والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الأمة في الابتداء لقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا في حق الأمة بالصلوات الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بدليل قوله تعالى فاقرؤوا ما تيسر منه وبقي الوجوب ثابتا في حق النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى

ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه وقيل من أرض العرب أو من أرض المدينة (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم ونصبت نصب المصدر المؤكد أي سن الله ذلك سنة (ولا تجد لسنتنا تحويلا) تبديلا (أقم الصلاة لدلوك الشمس) لزوالها وعلى هذه الآية جامعة للصلوات الخمس أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر (الى غسق الليل) هو الظلمة وهو وقت صلاة العشاء (وقرآن الفجر) صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القراءة لكونها ركنا كما سميت ركوعا وسجودا وهو حجة على الأصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن أو سميت قرآنا لطول قراءتها وهو عطف على الصلاة (ان قرآن الفجر كان مشهودا) يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار أو يشهده الكثير من المصلين في العادة (ومن الليل) وعليك بعض الليل (فتهجد) والتهجد ترك الهجود للصلاة ويقال في النوم أيضا تهجد (به) بالقرآن

(نافلة

(نافلة لك) أي زيادة لك يريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التي فرضها الله عليك روي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن علي فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل وقيل ان الوجوب صار منسوخا في حقه كما في حق الأمة فصار قيام الليل نافلة لان الله سبحانه وتعالى قال نافلة لك ولم يقل عليك فان قلت ما معنى التخصيص اذا كان زيادة في حق المسلمين كما في حقه صلى الله عليه وسلم قلت فائدة التخصيص ان النوافل كفارات لذنوب العباد والنبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت له نافلة وزيادة في رفع الدرجات

﴿فصل﴾ في الاحاديث الواردة في قيام الليل (ق) عن المغيرة بن شعبة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا (م) عن زيد بن خالد الجهني قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة لفظ أبي داود (ق) عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن انه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان قالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على أكثر من احدى عشرة ركعة يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عيني تنامان ولا ينام قلبي (ق) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء الى الفجر احدى عشرة ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ويسجد سجدتين قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه فاذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للاقامة (خ) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين * عن عوف بن مالك الأشجعي قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة الا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب الا وقف وتعوذ ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء أخرجه أبو داود والنسائي * عن عائشة قالت قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة أخرجه الترمذي (ق) عن الأسود قال سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل قالت كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع الى فراشه فاذا أذن المؤذن وثب فان كانت به حاجة اغتسل والا توضأ وخرج عن أنس قال ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصليا الا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما الا رأيناه أخرجه النسائي زاد في رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئا ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئا وقوله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أجمع المفسرون على ان عسى من الله واجب وذلك لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا في شيء ثم حرمه كان ذلك عارا عليه والله أكرم من أن يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لانه يحمده فيه الاولون والآخرون (ق) عن أبي هريرة قال قال

(نافلة لك) عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس وضع نافلة موضع تهجدا لان التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد والمعنى أن التهجد زيادة لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك أو فريضة عليك خاصة دون غيرك لانه تطوع لهم (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) نصب على الظرف أي عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاما محمودا أو ضمن يبعثك معنى يقيمك وهو مقام الشفاعة عند الجمهور ويدل عليه الاخبار أو هو مقام يعطى فيه لواء الحمد.

[illegible] لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي فهي
نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإن من صلى علي صلاة صلى
الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو
أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة (م) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت
محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة (ق) عن
أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفي رواية
فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم
أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند
ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه
منها ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم فيذكر
خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا فيأتون إبراهيم
فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا موسى الذي كلمه
الله وأعطاه التوراة قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي
ربه منها ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول لست هناكم
ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأستأذن على ربي تعالى فيؤذن لي فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعني
ما شاء الله فيقال لي يا محمد ارفع رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد
يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجدا
فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي ارفع يا محمد رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع
رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة
قال فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي من
وجب عليه الخلود وفي رواية للبخاري ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال
وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم زاد في رواية قال النبي صلى الله عليه وسلم
يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من
قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في
قلبه من الخير ما يزن ذرة قال يزيد بن زريع في حديث شعبة ذرة وفي رواية من إيمان مكان خير
وفي حديث معبد بن هلال العنزي عن أنس في حديث الشفاعة وذكر نحوه وفيه فأقول يا رب
أمتي أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان
فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل قال فلما خرجنا من عند أنس مررنا بالحسن فسلمنا عليه
فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع فقال هيه فقلنا لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثني وهو يومئذ
جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم ثم قال ثم أعود في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له
ساجدا فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي

فيمن قال لا اله الا الله قال ليس ذلك لك أو قال ليس ذلك اليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لاخرجن منها من قال لا اله الا الله قوله وهو يومئذ جبيع أي مجتمع الذهن والرأي عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الارض ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا اشفع لنا الى ربك فيقول اني أذنبت ذنبا عظيما أهبطت به الى الارض ولكن ائتوا نوحا فيأتون نوحا فيقول اني دعوت على أهل الارض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا الى ابراهيم فيأتون ابراهيم فيقول اني كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منها كذبة الا ماحل بها عن دين الله ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول قد قتلت نفسا ولكن ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول اني عبدت من دون الله ولكن ائتوا محمدا فيأتوني فأنطلق معهم قال ابن جدعان قال أنس فكأني أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويقولون مرحبا فأخر ساجدا فيلهمني الله من الثناء والحمد فيقال لي ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود الذي قال الله سبحانه وتعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال سفيان ليس عن أنس غير هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويرحبون بي فيقولون مرحبا فأخر ساجدا فيلهمني الله من الثناء والحمد أخرجه الترمذي قوله ماحل المماحلة المخاصمة والمجادلة والمعنى انه عليه الصلاة والسلام خاصم وجادل عن دين الله بتلك الالفاظ التي صدرت منه وقوله فأقعقعها أي أحركها حركة شديدة والقعقعة حكاية أصوات الترس وغيره مما له صوت ﴿عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا أيسوا ولواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر أخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي وأنا مستشفعهم اذا حبسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي يطوف علي خدم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الارض وأول شافع وأول مشفع زاد الترمذي قال أنا أول من تنشق عنه الارض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال ان الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الاذن فبيناهم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيشفع ليقضي بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده فيه أهل الجمع كلهم (م) عن يزيد بن صهيب قال كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس قال فمررنا على المدينة فاذا جابر بن عبد الله جالس الى سارية يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت يا صاحب رسول الله ما هذا الذي تحدثونا والله يقول انك من تدخل النار فقد أخزيته وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فما هذا الذي تقولون قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فاقرأ ما قبله انه في الكفار ثم قال فهل سمعت بمقام محمد الذي يبعثه الله فيه قلت نعم قال فان مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار قال ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه قال

(وقل رب أدخلني مدخل صدق) هو مصدر أي أدخلني القبر إدخالا مرضيا على طهارة من الزلات (وأخرجني مخرج صدق) أي أخرجني منه عند البعث إخراجا مرضيا ملقى بالكرامة آمنا من الملامة دليله ذكره على أثر ذكر البعث وقيل نزلت حين أمر بالهجرة يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة أو هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرني على من خالفني أو ملكا وعزا قويا ناصرا للإسلام على الكفر مظهرا له عليه (وقل جاء الحق) الإسلام (وزهق) وذهب وهلك (الباطل) الشرك أو جاء القرآن وهلك الشيطان (إن الباطل كان زهوقا) كان مضمحلا في كل أوان (وننزل) وبالتخفيف أبو عمرو (من القرآن) من للتبيين (ما هو شفاء) من أمراض القلوب (ورحمة) وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب

للمؤمنين)

وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك قال غيره إنه قد زعم أن قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها قال يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم قال فيدخلون نهرا من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون منه كأنهم القراطيس فرجعنا فقلنا ويحكم أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا فلا والله ما خرج غير رجل واحد أو كما قال والأحاديث في الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة وروى أبو وائل عن ابن مسعود أنه قال إن الله اتخذ إبراهيم خليلا وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق عليه ثم قرأ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال يقعده على العرش وعن مجاهد مثله وعن عبد الله بن سلام قال يقعده على الكرسي قوله عز وجل (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) المراد منهما الإدخال والإخراج قال ابن عباس معناه أدخلني مدخل صدق المدينة وأخرجني مخرج صدق من مكة نزلت حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقيل معناه أخرجني من مكة آمنا من المشركين وأدخلني مكة ظاهرا عليها بالفتح وقيل أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حق النبوة مخرج صدق وقيل معناه أدخلني في طاعتك مدخل صدق وأخرجني من المناهي مخرج صدق وقيل معناه أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ولا تجعلني ممن يخرج بوجه ويدخل بوجه فإن ذا الوجهين لا يكون آمنا عند الله (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) أي حجة بينة وقيل ملكا قويا تنصرني به على من عاداني وعزا ظاهرا أقيم به دينك فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم ويجعله له وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض الآية قوله تعالى (وقل جاء الحق) يعني الإسلام والقرآن (وزهق الباطل) أي الشرك والشيطان (إن الباطل كان زهوقا) أي مضمحلا غير ثابت وذلك أن الباطل وإن كان له دولة وصولة في وقت من الأوقات فهو سريع الذهاب والزوال (ق) عن عبد الله بن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد قوله سبحانه وتعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء) من في قوله تعالى من القرآن لبيان الجنس والمعنى ننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء أي بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف فيه ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها وقيل هو شفاء للأمراض الباطنة والظاهرة وذلك (١) لأنها تنقسم إلى نوعين أحدهما الاعتقادات الباطلة والثاني الأخلاق المذمومة أما الاعتقادات الباطلة وأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه الأشياء وإبطال المذاهب الفاسدة لا جرم كان القرآن شفاء لما في القلوب من هذا النوع وأما النوع الثاني وهو الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الباطنة وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض يدل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في فاتحة الكتاب وما يدريك أنها رقية (ورحمة

(١) قوله لأنها تنقسم إلى نوعين أي الأمراض الغير الجسمانية بدليل قوله بعد وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية والعبارة في الفخر الرازي بغاية التهذيب فليراجع

(المؤمنين) وفي الحديث من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله (ولا يزيد الظالمين) الكافرين (الا خسارا) ضلالا لتكذيبهم به وكفرهم (واذا أنعمنا على الانسان) بالصحة والسعة أعرض عن ذكر الله أو أنعمنا بالقرآن أعرض (ونأى بجانبه) تأكيد للاعراض لان الاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب ان يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره أو أراد الاستكبار لان ذلك من عادة المستكبرين ناء بالامالة حمزة وبكسرهما علي (واذا مسه الشر) الفقر والمرض أو نازلة من النوازل (كان يؤسا) شديد اليأس من روح الله (قل كل) أي كل أحد (يعمل على ٢٤٤ شاكلته) على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أسد مذهبا وطريقة (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) أي من أمر يعلمه ربي الجمهور على انه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر انه من أمر الله أي مما استأثر بعلمه وعن أبي هريرة لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقد عجزت الاوائل عن ادراك ماهيته بعد انفاق الاعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على انه عن ادراك خالقه أعجز ولذا رد ما قيل في حده انه جسم دقيق هوائي في كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو جبريل عليه السلام نزل به الروح الامين على قلبك وعن الحسن القرآن دليله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ولان به حياة القلوب ومن أمر ربي أي من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر وروي أن اليهود بعثت الى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فان أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبي وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم وقيل كان السؤال عن خلق الروح يعني أهو مخلوق أم لا وقوله من أمر ربي دليل خلق الروح فكان

للمؤمنين) لما كان القرآن شفاء للامراض الباطنة والظاهرة فهو جدير بأن يكون رحمة للمؤمنين (ولا يزيد الظالمين الا خسارا) لان الظالم لا ينتفع به والمؤمن ينتفع به فكان رحمة للمؤمنين وخسارا للظالمين وقيل لان كل آية تنزل يتجدد لهم تكذيب بها فيزداد خسارهم قال قتادة لم يجالس القرآن أحد الا قام عنه بزيادة أو نقصان قضاء الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا قوله سبحانه وتعالى (واذا أنعمنا على الانسان) أي بالصحة والسعة (أعرض) أي عن ذكرنا ودعائنا (ونأى بجانبه) أي تباعد منا بنفسه وترك التقرب الينا بالدعاء وقيل معناه تكبر وتعظم (واذا مسه الشر) أي الشدة والضر (كان يؤسا) أي آيسا قنوطا وقيل معناه أنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة فاذا تأخرت الاجابة يئس فلا ينبغي للمؤمن أن يدع الدعاء ولو تأخرت الاجابة قوله عز وجل (قل كل) أي كل أحد (يعمل على شاكلته) قال ابن عباس على ناحيته وقيل الشاكلة الطريقة أي على طريقته التي جبل عليها وفيه وجه آخر وهو ان كل انسان يعمل على حسب جوهر نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه افعال جميلة وأخلاق زكية طاهرة وان كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أي أوضح طريقا وأحسن مذهبا واتباعا للحق قوله سبحانه وتعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) (ق) عن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون فقاموا اليه وفي رواية فقام اليه رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت وفي رواية فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ينتظر الوحي وعرفت أنه يوحى اليه فتأخرت حتى صعد الوحي قال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وفي رواية وما أوتوا من العلم الا قليلا قال الاعمش هكذا في قراءتنا العسيب جريد النخل وسعفه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا وقالوا ان محمدا نشأ فينا بالامانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شئ منها فليس بنبي وان أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي فاسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الاول ما كان شأنهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها ما خبره وعن الروح قال فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنى عشر يوما وقيل خمسة عشر يوما

وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون تعودنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن
رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه
السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ونزل في الفتية أم
حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب
قوله ويسألونك عن ذي القرنين ونزل في الروح ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي
واختلفوا في الذي وقع السؤال عنه فروي عن ابن عباس أنه جبريل وعن علي أنه ملك له سبعون
ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بكلها
وقال مجاهد خلق على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤوس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون
الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع
السموات والأرض ومن فيها بلقمة واحدة لفعل ذلك صورة خلقه على صورة الملائكة
وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب
الخلق إلى الله تعالى اليوم عند الحجب السبعين وأقرب الخلق إلى الله يوم القيامة وهو ممن
يشفع لأهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من
نوره وقيل الروح هو القرآن لأن الله سماه روحا ولأن به حياة القلوب وقيل هو الروح المركب
في الخلق الذي به حياة الإنسان وهو أصح الأقوال وتكلم قوم في ماهية الروح فقال بعضهم
هو الدم ألا ترى أن الإنسان إذا مات لا يموت منه شيء إلا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل
أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف يحيا به الإنسان وقيل
الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه إذا كان موجودا
يكون الإنسان موصوفا بجميع هذه الصفات وإذا خرج منه ذهب الكل وأقاويل الحكماء
والصوفية في ماهية الروح كثيرة وليس هذا موضع استقصائها وأولى الأقاويل أن يوكل علمه
إلى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة إن الله لم يطلع على الروح ملكا
مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله قل الروح من أمر ربي أي من علم ربي الذي استأثر به (وما
أوتيتم من العلم) أي من علم ربي (إلا قليلا) أي في جنب علم الله عز وجل الخطاب عام وقيل
هو خطاب لليهود فإنهم كانوا يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير فقيل لهم إن علم التوراة
قليل في جنب علم الله وقيل إن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فوصف الشيء بالقلة
مضافا إلى ما فوقه وبالكثرة مضافا إلى ما تحته وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم علم معنى الروح
ولكن لم يخبر به لأن ترك الإخبار به كان علما لنبوته والقول الأصح هو أن الله عز وجل استأثر
بعلم الروح قوله عز وجل (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) يعني القرآن معناه إنا كما منعنا علم الروح
عنك وعن غيرك إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا وبقيت
كما كنت ما تدري ما الكتاب (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) معناه لا تجد بعد الذهاب به من
يتوكل علينا باسترداده عليك وإعادته محفوظا مسطورا (إلا رحمة من ربك) معناه إلا أن
يرحمك ربك فيرده عليك وقيل هو على الاستثناء المنقطع معناه لكن رحمة من ربك تركته غير
مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا فإن قلت كيف يذهب بالقرآن
وهو كلام الله عز وجل قلت المراد منه محو ما في المصاحف وإذهاب ما في الصدور وقال عبد الله بن
مسعود اقرؤا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع

هذا جوابا (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الخطاب عام فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه فقال بل نحن وأنتم لم تؤتوا من العلم إلا قليلا وقيل هو خطاب لليهود خاصة لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فقيل لهم إن علم التوراة قليل في جنب علم الله فالقلة والكثرة من الأمور الإضافية فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله تعالى فهي قليلة ثم نبه على نعمة الوحي وعزاه بالصبر على أذى الجدال في السؤال بقوله (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) لنذهبن جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط واللام الداخلة على إن موطئة للقسم والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أي ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظا مسطورا (إلا رحمة من ربك)

ان فضله كان عليك كبيرا) أي الآن برحمة ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد ۱ ۲ أو يكون على الاستثناء المنقطع

فكيف بما في صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئا ولا يجدون ما في المصاحف شيئا ثم تفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوي حول العرش كدوي النحل فيقول الرب مالك فيقول يا رب أتلى ولا يعمل بي (ان فضله كان عليك كبيرا) أي بسبب بقاء العلم والقرآن عليك وجعلك سيد ولد آدم وختم النبيين بك واعطائك المقام المحمود قوله سبحانه وتعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) أي لا يقدرون على ذلك (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أي عونا نزلت حين قال المشركون لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله عز وجل فالقرآن معجز في النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لانه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله قوله عز وجل (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها (فأبى أكثر الناس الا كفورا) أي جحودا قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لن نؤمن لك) أي لن نصدقك (حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) لما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات أخر وبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فقالوا لن نؤمن لك روى عكرمة عن ابن عباس ان عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البختري بن هشام والاسود بن عبد المطلب وزمعة بن الاسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل ابن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن انه بدا لهم في أمره بداء وكان حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة وما بقي من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد به الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه ونعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد ان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك وقد علمت انه ليس أحد أضيق بلادا ولا أشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليجر لنا فيها الانهار كانهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان

أي ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ونزل جوابا لقول النضر لو نشاء لقلنا مثل هذا (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) معينا ولا يأتون جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جوابا للشرط كقوله يقول لا غائب مالي ولا حرم لان الشرط وقع ماضيا أي لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه لعجزوا عن الاتيان بمثله (ولقد صرفنا) رددنا وكررنا (للناس في هذا القرآن من كل مثل) من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه (فأبى أكثر الناس الا كفورا) جحودا وانما جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا لان أبى متأول بالنفي كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا ولما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه المعجزات الاخر ولزمتهم الحجة وغلبوا اقترحوا الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا) وبالتخفيف كوفي (من الارض) أي مكة (ينبوعا) عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع يفعول من نبع الماء

(أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر) والتشديد هنا مجمع عليه (الانهار خلالها) وسطها (تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) بفتح السين مدني وعاصم أي قطعا يقال أعطني كسفة من هذا الثوب وبسكون السين غيرهما جمع كسفة كسدرة وسدر يعنون ٢١٤ قوله ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) كفيلا بما تقول شاهدا بصحته والمعنى أو تأتي بالله قبيلا وبالملائكة قبيلا كقوله كنت منه ووالدي بريا أو مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر ونحوه لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا أو جماعة حالا من الملائكة (أو يكون لك بيت من زخرف) ذهب (أو ترقى في السماء) تصعد اليها (ولن نؤمن لرقيك) لاجل رقيك (حتى تنزل علينا) وبالتخفيف ابو عمرو (كتابا) أي من السماء فيه تصديقك (نقرؤه) صفة كتاب (قل) قال مكي وشامي أي قال الرسول (سبحان ربي) تعجب من اقتراحاتهم عليه (هل كنت الا بشرا رسولا) أي انا رسول كسائر الرسل بشر مثلهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات الي انما هو الى الله فما بالكم تتخيرونها علي (وما منع الناس) يعني أهل مكة ومحل (أن يؤمنوا) نصب بانه مفعول ثان لمنع (اذ جاءهم الهدى) النبي والقرآن (الا أن قالوا) فاعل منع والتقدير وما منعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) أي الا شبهة تمكنت في صدورهم وهي انكارهم أن يرسل الله البشر والهمزة في أبعث الله للانكار وما أنكروه فضيحة حكمته منكر ثم رد الله عليهم بقوله (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون) على أقدامهم كما يمشي الانس ولا يطيرون بأجنحتهم الى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا

صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به فان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه أصبر لامر الله تعالى قالوا فان لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكا يصدقك وسله أن يجعل لك جنات وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أبي أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لانفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أومن لك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض يعني أرض مكة ينبوعا أي عيونا (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) أي بستان فيه نخيل وعنب (فتفجر الانهار خلالها تفجيرا) أي تشقيقا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) أي قطعا (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) قال ابن عباس كفيلا أي يكفلون بما تقول وقيل هو جمع القبيلة أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة يشهدون لك بصحة ما تقول وقيل معناه تراهم مقابلة عيانا (أو يكون لك بيت من زخرف) أي من ذهب وأصله الزينة (أو ترقى) أي تصعد (في السماء ولن نؤمن لرقيك) أي لاجل رقيك (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أمرنا فيه باتباعك وهذا قول عبد الله بن أبي أمية (قل) أي قل يا محمد (سبحان ربي) أمره بتنزيهه وتمجيده وفيه معنى التعجب (هل كنت الا بشرا رسولا) أي كسائر الرسل لانهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات اليهم انما هو الى الله تعالى ولو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل ولكن لا ينزل الآيات على ما اقترحه البشر وما أنا الا بشر وليس ما سألتم في طوق البشر واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله تعالى عليهم سؤالهم قوله عز وجل (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) أي الوحي والمعنى وما منعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي انكارهم أن يرسل الله البشر وهو قوله تعالى (الا أن قالوا) أي جهلا منهم (أبعث الله بشرا رسولا) وذلك أن الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر وهلا بعث الله الينا ملكا فأجابهم الله بقوله (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين)

ما يجب عليهم (مطمئنين) حال أي ساكنين في الارض قارين (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد فاما الانس فانما يرسل الملك الى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وارشادهم وبشرا وملكا حالان من رسولا (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) على اني بلغت ما ارسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم شهيدا تمييز او حال (انه كان بعباده) المنذرين والمنذرين (خبيرا) عالما باحوالهم (بصيرا) بافعالهم فهو مجازيهم وهذه ء ٢ تسلية لرسول الله عليه السلام ووعيد للكفرة (ومن يهد الله فهو المهتد) وبالياء يعقوب وسهل ووافقهما أبو عمرو ومدني في الوصل أي من وفقه الله لقبول ما كان من الهدى فهو المهتدي عند الله (ومن يضلل) أي ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان (فلن تجد لهم أولياء من دونه) أي انصارا (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) أي يسحبون عليها كقوله يوم يسحبون في النار على وجوههم وقيل لرسول الله عليه السلام كيف يمشون على وجوههم قال ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (عميا وبكما وصما) كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم (مأواهم جهنم كلما خبت) طفئ لهبها (زدناهم سعيرا) توقدا (ذلك جزاؤهم بانهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا) اي ذلك العذاب بسبب انهم كذبوا بالاعادة بعد الافناء فجعل الله جزاءهم ان سلط النار على اجزائهم تأكلها ثم يعيدها لا يزالون على ذلك ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث (أولم يروا) أولم يعلموا (أن الله الذي خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم) من الانس (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) وهو الموت او القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) جحودا مع وضوح الدليل

مطمئنين) أي مستوطنين مقيمين فيها (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أي من جنسهم لان الجنس الى الجنس أميل (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) أي على اني رسوله اليكم واني قد بلغت ما ارسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم (انه كان بعباده) يعني المنذرين والمنذرين (خبيرا بصيرا) أي عالما باحوالهم فهو مجازيهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) أي يهدونهم وفيه أيضا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ان الذين حكم لهم بالايمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال ان ينقلبوا عن ذلك (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) (ق) عن أنس ان رجلا قال يا رسول الله قال الله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة قال قتادة حين بلغه بلى وعزة ربنا وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم اما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك أخرجه الترمذي الحدب كل ما ارتفع من الارض (عميا وبكما وصما) أي لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون فان قلت كيف وصفهم بانهم عمي وبكم وصم وقد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال دعوا هنالك ثبورا وقال سمعوا لها تغيظا وزفيرا فاثبت لهم الرؤية والكلام والسمع قلت فيه أوجه أحدها قال ابن عباس معناه عميا لا يبصرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون ما يسرهم الوجه الثاني قيل معناه يحشرون على ما وصفهم الله تعالى ثم تعاد اليهم هذه الاشياء الوجه الثالث قيل معناه هذا حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون فيصيرون باجمعهم عميا وبكما وصما لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون (مأواهم جهنم كلما خبت) أي سكن لهبها وقيل ضعفت وهدأت من غير ان يوجد نقصان في ايلام الكفار لان الله سبحانه وتعالى قال لا يفتر عنهم وقيل معناه أرادت ان تخبو (زدناهم سعيرا) أي وقودا وقيل معناه خبت أي نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا الى ما كانوا عليه وزيد في سعير النار لتحرقهم (ذلك جزاؤهم بانهم كفروا بآياتنا) لما ذكر الوعيد المتقدم قال ذلك جزاؤهم بما كفروا يعني ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اجابهم الله ورد عليهم بقوله (أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض) أي في عظمها وشدتها (قادر على ان يخلق مثلهم) أي في صغرهم وضعفهم (وجعل لهم أجلا) أي وقتا لعذابهم (لا ريب فيه) أي لا شك فيه انه يأتيهم قبل الموت وقيل يوم القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا)

أي جحوداً وعناداً (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي) أي خزائن نعمه ورزقه وقيل ان خزائن الله غير متناهية والمعنى لو أنكم ملكتم من النعم خزائن لا نهاية لها (إذا لأمسكتم) أي لبخلتم وحبستم (خشية الانفاق) والفقر والنفاد وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح (وكان الانسان قتورا) أي ممسكا بخيلا فان قلت قد يوجد في جنس الانسان من هو جواد كريم فكيف وصفه بالبخل قلت الاصل في الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لا بد وان يحب ما يدفع به عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه الا انه قد يجود لاسباب خارجة مثل أن يحب المدحة أو رجاء ثواب فثبت بهذا أن الاصل في الانسان البخل قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أي دلالات واضحات قال ابن عباس هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقيل عوض فلق البحر واليد السنون ونقص من الثمرات وقيل الطمس والبحر بدل السنين والنقص قيل كان الرجل منهم مع أهله في الفراش وقد صارا حجرين والمرأة قائمة تخبز وقد صارت حجرا وروي أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب القرظي عن الآيات فذكر منها الطمس فقال عمر هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فاذا فيه بيض مكسر نصفين وجوز مكسر نصفين وثوم وحمص وعدس كلها حجارة وقيل التسع آيات هي آيات الكتاب وهي الاحكام يدل عليه ما روي عن صفوان بن عسال أن يهوديا قال لصاحبه تعال حتى نسأل هذا النبي فقال الآخر لا تقل نبي فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء الى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلا يديه وقالا نشهد انك نبي قال فما يمنعكم ان تتبعوني قالوا ان داود دعا ربه ان لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف ان اتبعناك ان تقتلنا اليهود (فاسأل) يا محمد (بني اسرائيل) يجوز أن الخطاب معه والمراد غيره ويجوز أن يكون خاطبه وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم (اذ جاءهم) يعني جاء موسى الى فرعون بالرسالة من عند الله عز وجل (فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مسحورا) قال ابن عباس مخدوعا وقيل مطبوبا أي مسحورا وقيل معناه ساحرا فوضع مفعول موضع فاعل وقيل معطى علم السحر فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك (قال) موسى (لقد علمت) خطابا لفرعون قال ابن عباس علمه فرعون ولكنه عاند (ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض) يعني الآيات التسع (بصائر) أي بينات يبصر بها (واني لأظنك يا فرعون مثبورا) قال ابن عباس ملعونا وقيل هالكا وقيل مصروفا عن الخير (فأراد أن يستفزهم من

(قل لو أنتم تملكون) تقديره لو تملكون أنتم لان لو تدخل على الافعال دون الاسماء فلا بد من فعل بعدها فأضمر تملك على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل وهو الواو ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الاعراب واما ما يقتضيه علم البيان فهو ان أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وان الناس هم المختصون بالشح المتبالغ (خزائن رحمة ربي) رزقه وسائر نعمه على خلقه (اذا لامسكتم خشية الانفاق) أي لبخلتم خشية أن يفنيه الانفاق (وكان الانسان قتورا) بخيلا (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) عن ابن عباس رضي الله عنهما هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه على بني اسرائيل وعن الحسن الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور (فاسأل بني اسرائيل) فقلنا له سل بني اسرائيل أي سلهم من فرعون وقل له أرسل معي بني اسرائيل وقوله (اذ جاءهم) متعلق بالقول المحذوف أي فقلنا له سلهم حين جاءهم (فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مسحورا) سحرت فخولط عقلك (قال) أي موسى (لقد علمت) يا فرعون (ما أنزل هؤلاء) الآيات (الا رب السموات والارض) خالقهما (بصائر) حال أي بينات مكشوفات ولكنك معاند ونحوه وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما ... علمت على أي اني لست بمسحور كما وصفتني بل أنا عالم بصحة الامر وان هذه الآيات منزلها رب السموات والارض ثم قارع ظنه بظنه بقوله (واني لأظنك يا فرعون مثبورا) كأنه قال ان ظننتني مسحورا فأنا أظنك مثبورا وظني أصح من ظنك لان له أمارة ظاهرة وهي انكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها وأما ظنك فكذب بحت لان قولك مع علمك بصحة أمري اني لأظنك مسحورا قول كذب وقال الفراء مثبورا مصروفا عن الخير من قولهم ما ثبرك عن هذا أي ما منعك وصرفك (فأراد) فرعون (أن يستفزهم) يخرجهم أي موسى وقومه (من

الارض) أي أرض مصر أو ينفيهم عن ظهر الارض بالقتل والاستئصال (فأغرقناه ومن معه جميعا) فحاق به مكره بأن استفزه الله باغراقه مع قبطه (وقلنا من بعده) من بعد فرعون (لبني اسرائيل اسكنوا الارض) التي أراد فرعون ان يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) أي القيامة (جئنا بكم لفيفا) جميعا مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم وأشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وما أنزلنا القرآن الا بالحكمة وما نزل الا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية الى كل خير أو ما أنزلناه من السماء الا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول الا محفوظا بهم من تخليط الشياطين قال الراوي اشتكى محمد بن السماك فأخذنا ماءه وذهبنا به الى طبيب نصراني فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقي الثوب فقال لنا الى أين فقلنا له الى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك فقال سبحان الله تستعينون على ولي الله بعدو الله اضربوه على الارض وارجعوا الى ابن السماك وقولوا ٢١٧ له ضع يدك على موضع الوجع وقل وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ثم غاب عنا فلم نره فرجعنا الى ابن السماك فأخبرناه بذلك فوضع يده على موضع الوجع وقال ما قال الرجل وعوفي في الوقت وقال كان ذلك الخضر عليه السلام (وما أرسلناك الا مبشرا) بالجنة (ونذيرا) من النار (وقرآنا) منصوب بفعل يفسره (فرقناه) أي فصلناه أو فرقنا فيه الحق من الباطل (لتقرأه على الناس على مكث) على تؤدة وتثبت (ونزلناه تنزيلا) على حسب الحوادث (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) أي اختاروا لانفسكم النعيم المقيم أو العذاب الاليم ثم علل بقوله (ان الذين أوتوا العلم من قبله)

أي التوراة من قبل القرآن (اذا يتلى عليهم) القرآن (يخرون للاذقان سجدا) حال (ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) لقوله آمنوا به أو لا تؤمنوا أي أعرض عنهم فانهم ان لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن فان خيرا منهم وهم العلماء الذين قرؤا الكتب قد آمنوا به وصدقوه فاذا تلي عليهم خروا سجدا وسبحوا الله تعظيما لامره ولانجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد المذكور ان بمعنى انه وهي تؤكد الفعل كما ان ان تؤكد الاسم وكما أكدت ان باللام في انهم لمحضرون أكدت ان باللام في لمفعولا (ويخرون للاذقان يبكون) ومعنى الخرور للذقن السقوط على الوجه وانما خص الذقن لان أقرب الاشياء من وجهه الى الارض عند السجود الذقن يقال خر على وجهه وعلى ذقنه وخر لوجهه ولذقنه اما معنى على فظاهر واما معنى اللام فكأنه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به اذ اللام للاختصاص وكرر يخرون للاذقان لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين وخرورهم في حال كونهم باكين (ويزيدهم) القرآن (خشوعا) لين قلب ورطوبة عين

الارض) معناه أراد فرعون ان يخرج موسى وبني اسرائيل من أرض مصر (فأغرقناه ومن معه جميعا) أي أغرقنا فرعون وجنوده ونجينا موسى وقومه (وقلنا من بعده) أي من بعد هلاك فرعون (لبني اسرائيل اسكنوا الارض) يعني أرض مصر والشام (فاذا جاء وعد الآخرة) يعني القيامة (جئنا بكم لفيفا) أي جميعا الى موقف القيامة واللفيف الجمع الكثير اذا كانوا مختلفين من كل نوع فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقيل أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء قوله سبحانه وتعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) يعني انا ما أردنا بانزال القرآن الا تقرير الحق فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل معناه وما أنزلنا القرآن الا بالحق المقتضي لانزاله وما نزل الا ملتبسا بالحق لاشتماله على الهداية الى كل خير (وما أرسلناك الا مبشرا) يعني بالجنة للمطيعين (ونذيرا) أي مخوفا بالنار للعاصين قوله عز وجل (وقرآنا فرقناه) أي فصلناه وبيناه وقيل فرقنا به بين الحق والباطل وقيل معناه أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى (لتقرأه على الناس على مكث) أي على تؤدة وترسل في ثلاث وعشرين سنة (ونزلناه تنزيلا) أي على حسب الحوادث (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) فيه وعيد وتهديد (ان الذين أوتوا العلم من قبله) قيل هم مؤمنو أهل الكتاب الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسي وأبي ذر وغيرهم (اذا يتلى عليهم) يعني القرآن (يخرون للاذقان) قال ابن عباس أراد بها الوجوه (سجدا) أي يقعون على الوجوه سجدا (ويقولون سبحان ربنا) أي تعظيما لربنا لانجازه ما وعد في الكتب المنزلة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (ان كان وعد ربنا لمفعولا) أي كائنا واقعا (ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) أي خضوعا لربهم وقيل يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا اجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم أخرجه

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) لما سمعه أبو جهل يقول يا الله يا رحمن قال انه ينهانا ان نعبد الهين وهو يدعو الها آخر فنزلت وقيل ان أهل الكتاب قالوا انك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء وأو للتخيير أي سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا اما هذا واما هذا والتنوين في (أيا ما تدعوا) عوض من المضاف اليه وما زيدت للتوكيد وأيا نصب بتدعو وهو مجزوم بأي أي أي هذين الاسمين ذكرتم وسميتم (فله الأسماء الحسنى) والضمير في فله يرجع الى ذات الله تعالى والفاء لانه جواب الشرط أي أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله فله الأسماء الحسنى لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الأسماء انها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم (ولا تجهر بصلاتك) بقراءة صلاتك على حذف المضاف لانه لا يلبس اذ الجهر والمخافتة تعتقبان على الصوت لا غير والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته فاذا سمعها المشركون لغوا وسبوا فأمره بان يخفض من صوته والمعنى ولا تجهر حتى تسمع المشركين (ولا تخافت بها) حتى لا تسمع من خلفك (وابتغ بين ذلك) بين الجهر والمخافتة (سبيلا) وسطا أو معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار أو بصلاتك بدعائك (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا) كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح (ولم يكن له شريك في الملك) كما زعم المشركون (ولم يكن له ولي من الذل) أي لم يذل فيحتاج الى ناصر أو لم يوال أحدا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته (وكبره تكبيرا) وعظمه وصفه بانه أكبر من ان يكون له ولد أو شريك وعن النبي عليه السلام الآية آية العز وكان اذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية

الترمذي والنسائي وزاد النسائي في منخري مسلم أبدا الولوج الدخول والمنخر الانف عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله أخرجه الترمذي قوله عز وجل (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) قال ابن عباس تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول في سجوده يا الله يا رحمن فقال أبو جهل ان محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو الهين فأنزل الله هذه الآية ومعناه انهما اسمان لله تعالى فسموه بهذا الاسم أو بهذا الاسم (أيا ما تدعوا) ما صلة ومعناه أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم أو من جميع أسمائه (فله الأسماء الحسنى) يعني اذا حسنت أسماؤه كلها فهذان الاسمان منها ومعنى كونها حسنى انها مشتملة على معاني التقديس والتعظيم والتمجيد (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) (ق) عن ابن عباس في قوله ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة وكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلاتك أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلا زاد في رواية وابتغ بين ذلك سبيلا أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقيل نزلت الآية في الدعاء وهو قول عائشة والنخعي ومجاهد ومكحول (ق) عن عائشة ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قالت نزل ذلك في الدعاء وقيل كان أعراب من بني تميم اذا سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون بذلك فأنزل الله عز وجل ولا تجهر بصلاتك أي لا ترفع صوتك بقراءتك ودعائك ولا تخافت بها المخافتة خفض الصوت والسكوت (وابتغ) أي اطلب (بين ذلك سبيلا) أي طريقا وسطا بين الجهر والاخفاء عن أبي قتادة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لابي بكر مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك فقال اني أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلا وقال لعمر مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك فقال اني أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال اخفض قليلا أخرجه الترمذي (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بان يحمده على وحدانيته وقيل معناه الحمد لله الذي عرفني انه لم يتخذ ولدا وقيل ان كل من له ولد فهو يمسك جميع النعم لولده واذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده وقيل ان الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد (ولم يكن له شريك في الملك) والسبب في اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك لم يكن مستحقا للحمد والشكر وكذا قوله (ولم يكن له ولي من الذل) ومعناه انه لم يذل فيحتاج الى ناصر يتعزز به (وكبره تكبيرا) أي وعظمه عن أن يكون له ولد أو شريك أو ولي وقيل اذا كان منزها عن الولد والشريك والولي كان مستوجبا لجميع أنواع المحامد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما يدعى الى الجنة يوم القيامة

﴿سورة الكهف مائة وإحدى عشرة آية بصري وعشر آيات كوفي﴾ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذي أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) القرآن لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم (ولم يجعل له عوجا) أي شيأ من العوج والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان يقال في رأيه عوج وفي عصاه عوج والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من الحكمة (قيما) مستقيما وانتصابه بمضمر وتقديره جعله قيما لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر ٢١٩ التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح أو قيما على سائر الكتب مصدقا لها شاهدا بصحتها (لينذر) أنذر متعد إلى مفعولين كقوله إنا أنذرناكم عذابا قريبا فاقتصر على أحدهما وأصله لينذر الذين كفروا (بأسا) عذابا (شديدا) وإنما اقتصر على أحد مفعولي أنذر لأن المنذر به هو المسوق إليه فاقتصر عليه (من لدنه) صادرا من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم) أي بأن لهم (أجرا حسنا) أي الجنة ويبشر حمزة وعلي (ماكثين) حال من هم في لهم (فيه) في الأجر وهو الجنة (أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الأول استغناء بتقدم ذكره (ما لهم به من علم) أي بالولد أو باتخاذه يعني أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط فإن قلت اتخاذ الله ولدا في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم قلت معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه أو لأنه في نفسه محال (ولا لآبائهم) المقلدين (كبرت كلمة) نصب على التمييز وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة والضمير في كبرت يرجع إلى قولهم اتخذ الله ولدا وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها (تخرج من أفواههم) صفة لكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر

الذين يحمدون الله في السراء والضراء عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام إلى الله أربع لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الكهف﴾

وهي مكية وآياتها مائة وإحدى عشرة آية وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بإنعامه على خلقه وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي الإسلام وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لأن إنزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم (ولم يجعل له عوجا) أي لم يجعل له شيأ من العوج قط والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل معناه لم يجعله مخلوقا وروي عن ابن عباس في قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذي عوج قال غير مخلوق (قيما) أي مستقيما وقال ابن عباس عدلا وقيل قيما على الكتب كلها أي مصدقا لها وناسخا لشرائعها (لينذر بأسا شديدا) معناه لينذر الذين كفروا بأسا شديدا وهو قوله سبحانه وتعالى بعذاب بئيس (من لدنه) أي من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا) يعني الجنة (ماكثين فيه) أي مقيمين فيه (أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم) أي بالولد وباتخاذه يعني أن قولهم لم يصدر عن علم بل عن جهل مفرط فإن قلت اتخاذ الله ولدا في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم قلت انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه وقد يكون في نفسه محالا لا يستقيم تعلق العلم به (ولا لآبائهم) أي ولا لأسلافهم من قبل (كبرت) أي عظمت (كلمة تخرج من أفواههم) أي هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكأنه

(ان يقولون الا كذبا) ما يقولون ذلك الا كذبا هو صفة لمصدر محذوف اى قولا كذبا (فلعلك باخع نفسك) قاتل نفسك (على آثارهم) اى آثار الكفار شبهه واياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الاسف على توليهم برجل فارقه احبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) بالقرآن (أسفا) مفعول له اى لفرط الحزن والاسف المبالغة في الحزن والغضب (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) اى ما يصلح ان يكون زينة لها ولاهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها ثم زهده في الميل اليها بقوله (وانا لجاعلون ما عليها) من هذه الزينة (صعيدا) أرضا ملساء (جرزا) يابسا لا نبات فيها بعد ان كانت خضراء معشبة والمعنى نعيدها بعد عمارتها خرابا باماتة الحيوان وتجفيف النبات والاشجار وغير ذلك ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الارض بما خلق فوقها من الاجناس التي لا حصر لها وازالة ذلك كله كأن لم يكن قال (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم) يعني ان ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وابقاء حياتهم مدة طويلة والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم اسم كلبهم أو قريتهم أو اسم كتاب كتب في شأنهم أو اسم الجبل الذي فيه الكهف (كانوا من آياتنا عجبا) اى وكان كانوا آية عجبا من آياتنا وصفا بالمصدر أو على ذات عجب (اذ) اى اذكر (أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) اى رحمة من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من امرنا) اى الذي نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) حتى نكون بسببه راشدين مهتدين أو اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك أسدا أو يسر لنا طريق رشاد

يجري على لسانهم على سبيل التقليد (ان يقولون الا كذبا) أي ما يقولون الا كذبا قيل حقيقة الكذب انه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه وزاد بعضهم مع علم قائله انه غير مطابق وهذا القيد باطل لان الله سبحانه وتعالى وصف قولهم باثبات الولد بكونه كذبا مع ان الكثير منهم يقولون ذلك ولا يعلمون كونه باطلا فعلمنا ان كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب والكذب خلاف الصدق وقيل هو الانصراف عن الحق الى الباطل ورجل كذاب وكذوب اذا كان كثير الكذب قوله عز وجل (فلعلك باخع نفسك) أي قاتل نفسك (على آثارهم) أي من بعدهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعني القرآن (أسفا) أي حزنا وقيل غيظا (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) أي مما يصلح أن يكون زينة لها ولاهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها وقيل يعني النبات والشجر والانهار وقيل أراد به الرجال خاصة فهم زينة الارض وقيل أراد به العلماء والصلحاء وقيل جميع ما في الارض هو زينة لها فان قلت أي زينة في الحيات والعقارب والشياطين قلت زينتها كونها تدل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وقيل ان جميع ما في الارض ثلاثة معدن ونبات وحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان قيل الاولى أن لا يدخل في هذه الزينة المكلف بدليل قوله تعالى (لنبلوهم) فمن يبلو يجب أن لا يدخل في ذلك ومعنى لنبلوهم لنختبرهم (أيهم أحسن عملا) أي أصلح عملا وقيل أيهم أترك للدنيا وأزهد فيها (وانا لجاعلون ما عليها) أي من الزينة (صعيدا جرزا) يعني مثل أرض لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة والصعيد وجه الارض وقيل هو التراب والجرز الاملس اليابس الذي لا ينبت فيه شيء قوله سبحانه وتعالى (أم حسبت) أي أظننت يا محمد (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أي هم عجب من آياتنا وقيل معناه انهم ليسوا بأعجب آياتنا فان ما خلقنا من السموات والارض وما فيهن من العجائب أعجب منهم والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم ثم وضع على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة وعن ابن عباس ان الرقيم اسم الوادي الذي فيه أصحاب الكهف وقال كعب الاحبار هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذي فيه أصحاب الكهف ثم ذكر الله عز وجل قصة أصحاب الكهف فقال عز من قائل (اذ أوى الفتية الى الكهف) أي صاروا اليه وجعلوه مأواهم والفتية جمع فتى وهو الطري من الشباب (فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك واحسانك وهب لنا الهداية والنصر والامن من الاعداء (وهيئ لنا) أي أصلح لنا (من أمرنا رشدا) أي حتى نكون بسببه راشدين مهديين وقيل معناه واجعل أمرنا رشدا كله

﴿ذكر قصة أصحاب الكهف وسبب خروجهم اليه﴾

قال محمد بن اسحق ومحمد بن يسار مرج أمر أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده

وكان من قبل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها أحدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام أو يقتله فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها أفسوس استخفى منه أهل الايمان وهربوا في كل وجه فاتخذ شرطا من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم فجعل أولئك الشرط يتبعون أهل الايمان في أماكنهم ويخرجونهم الى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الاصنام فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدة في الايمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ما قطع من أجسادهم على أسوار المدينة وأبوابها فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من أشراف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا الى الله عز وجل وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا يبكون ويتضرعون الى الله عز وجل فقال لهم الشرط ما خلفكم عن أمر الملك ثم انطلقوا الى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث اليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الارض وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل مدينتكم اختاروا اما أن تذبحوا لآلهتنا واما أن أقتلكم فقال مكسلمينا وهو أكبرهم ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها أبدا له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصا أبدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع بنا ما بدا لك وقال أصحابه مثل ذلك فلما سمع الملك كلامهم أمر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم الا أني أراكم شبانا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه فترجعون الى عقولكم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا اذا قدم أن يذكرهم فأتمروا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له ينجلوس فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى اذا جاء دقيانوس أتوه فيصنع بهم ما يشاء فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا مني أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد الى الكهف قال ابن عباس فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم اسمه تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان اذا دخل المدينة لبس ثيابا رثة كثياب المساكين ثم يأخذ ورقه فينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء ثم يرجع الى أصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا ثم قدم

قوله ينجلوس هكذا في بعض النسخ وفي بعضها بخلوس وفي حياة الحيوان منجلوس اه مصحح

دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان
تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم أن
الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا وافتقدوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون
الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة فقال لهم تمليخا يا إخوتاه ارفعوا رؤوسكم واطعموا
وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع وذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا
يتحدثون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله عز وجل على آذانهم في الكهف
وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند
رؤوسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة لقد
ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أن بي غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري
ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم
قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا
فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل إلى آبائهم فأتي بهم فقال أخبروني عن أبنائكم المردة
الذين عصوني فقالوا أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة إنهم ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في
أسواق المدينة ثم انطلقوا إلى جبل يدعى ينجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدري
ما يصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى في نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم وأراد الله عز
وجل أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية
لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم
في كهفهم يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذي اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ
يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله عز وجل أرواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب
الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم إن رجلين مؤمنين في بيت
الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما أن يكتبا شأن
هؤلاء الفتية وأسماءهم وأنسابهم وأخبارهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من
نحاس ويجعلا التابوت في البنيان وقالا لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم
القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي
ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك وقال عبيد بن عمير كان
أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوي ذوائب فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب
وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وكان معهم كلب صيدهم وكان أحدهم وزير الملك
فقذف الله سبحانه وتعالى الإيمان في قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه وقال في نفسه
أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبني عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى
ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره فجلس إليه
من غير أن يظهره على أمره ثم خرج آخر فخرجوا جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم
وكل واحد يكتم إيمانه من صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشي كل
واحد سره إلى صاحبه ففعلوا ذلك فإذا هم جميعا على الإيمان وإذا الكهف في جبل عظيم قريب
منهم فقال بعضهم لبعض فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته فدخلوا الكهف ومعهم
كلب صيدهم فناموا ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم

آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في
شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان بن فلان الملك ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا ليكونن
لهؤلاء شأن ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن قال محمد بن إسحق ثم ملك أهل تلك البلاد رجل
صالح يقال له بيدروس فلما ملك بقي ملكه ثمانيا وستين سنة فتحزب الناس في ملكه فكانوا
أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح
وتضرع إلى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق
ويقولون لا حياة إلا الحياة الدنيا وإنما تبعث الأرواح دون الأجساد وجعل بيدروس الملك
يرسل إلى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة في الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى
كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق
بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى
ويبكي ويقول رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه ثم إن الله
سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف
ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب
لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله سبحانه
وتعالى في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه ذلك الكهف وكان اسمه أولياس أن يهدم
ذلك البنيان الذي على فم الكهف ويبني به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك
الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله
تعالى عن الناس بالرعب فلما فتح باب الكهف أذن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محيي
الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم
فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من
ليلتهم ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كما كانوا يصلون لا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه
وإنهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا
صاحب نفقتهم أنبئنا ما قال الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم قد
رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا
بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل
ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا افتقدتم في المدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا
للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله
فلا تكفروا بعد إيمانكم إذ دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال
لنا بها وما الذي يذكر فيها عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما فأتنا به
وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ
الثياب التي كان يتنكر بها وأخذ ورقا من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس
وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب
الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا أن
يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى
تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لأهل الإيمان إذ كان أمر

الايمان ظاهر افيها فلما رآها تعجب وجعل ينظر اليها يمينا وشمالا ثم ترك ذلك الباب ومضى الى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل اليه ان المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى أشخاصا كثيرة محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعرى ماهذا أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة فى هذه المدينة ويستخفون بها واليوم ظاهرة لعلى نائم حالم ثم يرى انه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى فى أسواقها فسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده ذلك تعجبا ورأى انه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران المدينة وهو يقول فى نفسه والله ما أدرى ماهذا أما عشية أمس فليس كان على الارض من يذكر عيسى بن مريم الا قتل وأما اليوم فأسمع كل انسان يذكر عيسى بن مريم لا يخاف ثم قال فى نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقى فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يافتى فقال اسمها افسوس فقال فى نفسه لعل بى مسا أو أمرا أذهب عقلى والله يحق لى ان أسرع الخروج قبل أن يصيبنى فيها شر فأهلك فمضى الى الذين يبيعون الطعام فأخرج لهم الورق التى كانت معه وأعطاها رجلا منهم وقال له بعنى بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل ونظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلا آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض ان هذا أصاب كنزا خبيئا فى الارض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثون فيه فرق فرقا شديدا وخاف وجعل يرعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل الناس يأتونه ويتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد الخوف منهم أفضلوا على قد أخذتم ورقى فأمسكوها واما طعامكم فلا حاجة لى به فقالوا له يافتى من أنت وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم تفعل نأت بك الى السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال والله قد وقعت فى كل شئ كنت أحذر منه فقالوا له يافتى انك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت وجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم وخاف حتى لم يحر اليهم شيئا فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه فى عنقه وجعلوا يسحبونه فى سكك المدينة حتى سمع به من فيها وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ماهذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه بها قط وما نعرفه وجعل تمليخا لا يدرى ما يقول لهم وكان متيقنا ان أباه واخوته بالمدينة وانه من عظماء أهلها وانهم سيأتونه اذا سمعوا به فيخلصوه ثم كان حيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم اذا أخذوه وانطلقوا به الى رئيس المدينة ومدبريها الذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما اريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه انما ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وهو يبكى والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض أفرغ على اليوم صبرا وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار وجعل يقول فى نفسه فرقوا بينى وبين اخوتى ياليتهم يعلمون مالقيت وياليتهم يأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فانا قد كنا تواثقنا على الايمان بالله وأن لا نشرك به أحدا أبدا ولا نفترق فى حياة ولا موت فلما انتهى الى الرجلين الصالحين اريوس

وطنطيوس

وطنطيوس ورأى انه لم يذهب الى دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء وأخذ اريوس وطنطيوس
الورق ونظرا اليها وعجبا منها وقالا أين الكنز الذي وجدت يافتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن
هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم فقال له
أحدهما من أنت فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة فقيل له ومن أبوك ومن
يعرفك بها فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب
لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا
رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكي ينفلت منكم فقال له
أحدهما ونظر اليه نظرا شديدا أتظن انا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة
وضربها ولهذه الورق أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب أتظن انك تأفكنا وتسخر بنا ونحن
شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من
هذا الضرب درهم ولا دينار واني لاظنني سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف
بهذا الكنز الذي وجدته فقال لهم تمليخا أخبروني عما أسألكم عنه فان أنتم فعلتم صدقتكم عما عندي
فقالوا له سل لا نكتمك شيأ قال فما فعل الملك دقيانوس فقالا ما نعرف على وجه الارض من اسمه
دقيانوس ولم يكن الا ملك هلك في الزمان الاول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال
تمليخا اني اذا لحيران وما يصدقني أحد من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين واحد وان الملك
أكرهنا على عبادة الاصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فأتينا الى الكهف الذي
في جبل بنجلوس فنمنا فيه فلما انتبهنا خرجت لاشتري لاصحابي طعاما وأتجسس الاخبار فاذا
انا معكم كما ترون فانطلقوا معي الى الكهف أريكم أصحابي فلما سمع اريوس قول تمليخا قال ياقوم لعل
هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم على يدي هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا
أصحابه فانطلق اريوس وطنطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب
الكهف لينظروا اليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم
عن القدر الذي كان يأتي فيه ظنوا انه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون
ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا انهم رسل الجبار دقيانوس بعث
بهم اليهم ليؤتى بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا
انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظر نا حتى نأتيه فبينما هم يقولون
ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذ هم باريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف فسبقهم تمليخا
ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا انهم
كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث
وليعلموا أن الساعة لا ريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا اريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما
بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء أهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم
فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما مكسلمينا ومحسلمينا وتمليخا ومرطونس
وكشطونس وبيرونس وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من
ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف
فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر بهم فلما قرؤه عجبوا
وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية تدلهم على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله

(فضربنا على آذانهم في الكهف) أي ضربنا عليها حجابا من النوم يعني أنمناهم انامة ثقيلة لا تنبههم فيها الاصوات

وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس وأصحابه سجودا لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأخبرهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس وأصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر الى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا بالبعث وذلك ان فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ ثلثمائة سنة وأكثر فلما أتى الملك الخبر رجع عقله اليه وذهب همه وقال أحمدك اللهم رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت علي ورحمتني ولم تطفئ النور الذي جعلته لآبائي وللعبد الصالح بيدروس الملك ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم وخر ساجدا على وجهه وقام بيدروس الملك قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله ويحمدونه ثم قال الفتية لبيدروس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ هم رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم فقام الملك اليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في منامه فقالوا انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ولم يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة وقيل ان تمليخا حمل الى الملك الصالح فقال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع ان فتية قد فقدوا في الزمان الاول وأن أسماءهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا باللوح ونظر في أسمائهم فاذا اسمه مكتوب وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابي فلما سمع الملك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم فانهم ان رأوكم معي أرعبتموهم فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا اليهم فذلك قوله عز وجل اذ أوى الفتية الى الكهف أي صاروا الى الكهف واسمه خيرم فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة أي هداية في الدين وهيئ لنا أي يسر لنا من أمرنا رشدا أي ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا وقال ابن عباس أي مخرجا من الغار في سلامة قوله سبحانه وتعالى (فضربنا على آذانهم) أي ألقينا عليهم النوم وقيل منعنا نفوذ الاصوات الى مسامعهم فان النائم اذا سمع الصوت ينتبه (في الكهف سنين عددا) أي أنمناهم سنين كثيرة فان العدد يدل على الكثرة (ثم بعثناهم) أي من نومهم (لنعلم) أي علم مشاهدة وذلك ان الله عز وجل لم يزل عالما وانما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا (أي الحزبين) أي الطائفتين (أحصى لما لبثوا أمدا) أي أحفظ لما مكثوا في كهفهم نياما وذلك ان أهل المدينة تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أي نقرأ عليك خبر

نعتك المفعول الذي هو الحجاب (سنين عددا) ذوات عدد فهو صفة لسنين قال الزجاج أي تعد عددا لكثرتها لان القليل يعلم مقداره من غير عدد فاذا كثر عد فاما دراهم معدودة فهي على القلة لانهم كانوا يعدون القليل ويزنون الكثير (ثم بعثناهم) أيقظناهم من النوم (لنعلم أي الحزبين) الطائفتين منهم في مدة لبثهم لانهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك وذلك قوله قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم (أحصى لما لبثوا أمدا) غاية وأحصى فعل ماض وأمدا ظرف لاحصى أو مفعول له والفعل الماضي خبر المبتدأ وهو أي والمبتدأ مع خبره سد مسد مفعولي نعلم والمعنى أيهم ضبط أمدا لاوقات لبثهم وأحاط علما بأمد لبثهم ومن قال أحصى أفعل من الاحصاء وهو العد فقد زل لان بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس وانما قال لنعلم مع أنه تعالى لم يزل عالما بذلك لان المراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا وليكون لطفا لمؤمني زمانهم وآية بينة لكفاره أو المراد لنعلم اختلافهما موجودا كما علمناه قبل وجوده (نحن نقص عليك نباهم بالحق) بالصدق

اصحاب

(انهم فتية) جمع فتى والفتوة بذل الندى وكف الاذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم وقيل الفتى من لا
يدعي قبل الفعل ولا يزكي نفسه بعد الفعل (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) يقينا وكانوا من خواص دقيانوس وقد قذف الله
في قلوبهم الايمان وخاف بعضهم بعضا وقالوا ليخل اثنان اثنان منا فيظهر كل واحد منهما ما يضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على
الايمان (وربطنا على قلوبهم) وقويناها بالصبر على هجران الاوطان والفرار بالدين الى بعض الغيران وجسرناهم على
القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام (اذ قاموا) بين يدي الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة
الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) مفتخرين (لن ندعو من دونه الها) ولئن سميناهم آلهة (لقد قلنا اذا شططا)
قولا ذا شطط وهو الافراط في الظلم والابعاد فيه من شط يشط ويشط اذا بعد (هؤلاء) مبتدأ (قومنا) عطف بيان (اتخذوا من
دونه آلهة) خبر وهو اخبار في معنى الانكار (لولا يأتون عليهم) هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف (بسلطان بين) بحجة
ظاهرة وهو تبكيت لان الاتيان بالسلطان على عبادة الاوثان محال (فمن أظلم ممن ٢٢٧ افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك
اليه (واذ اعتزلتموهم) خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم (وما يعبدون) نصب عطف على الضمير أي واذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم (الا الله) استثناء متصل لانهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه غيره كأهل مكة أو منقطع أي واذ اعتزلتم الكفار والاصنام التي يعبدونها من دون الله أو هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية انهم لم يعبدوا غير الله (فأووا الى الكهف) صيروا اليه أو اجعلوا الكهف مأواكم (ينشر لكم ربكم من رحمته) من رزقه (ويهيئ لكم من أمركم
مرفقا) مرفقا مدني وشامي وهو ما يرتفق به أي ينتفع وانما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم
أو أخبرهم به نبي في عصرهم (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) بتخفيف الزاي كوفي تزور شامي تزاور غيرهم وأصله تتزاور فخفف
بادغام التاء في الزاي أو حذفها والكل من الزور وهو الميل ومنه زاره اذا مال اليه والزور الميل عن الصدق (عن كهفهم)
أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم (ذات اليمين) جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين (واذا غربت تقرضهم) تقطعهم
أي تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم في فجوة منه) في متسع من الكهف والمعنى انهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم
الشمس في طلوعها ولا غروبها مع انهم في مكان واسع منفتح معرض لاصابة الشمس لولا ان الله يحجبها عنهم وقيل منفتح من
غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار (ذلك من آيات الله) أي ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس
وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله يعني ان ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل
باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقناة أبدا ومعنى ذلك من آيات الله ان شأنهم وحديثهم من آيات الله

أصحاب الكهف بالحق أي بالصدق (انهم فتية) أي شبان (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أي
ايمانا وبصيرة (وربطنا على قلوبهم) أي شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور
الايمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش وفروا
بدينهم الى الكهف (اذ قاموا) يعني بين يدي دقيانوس الجبار حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام
(فقالوا) أي الفتية (ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها) انما قالوا ذلك لان
قومهم كانوا يعبدون الاصنام (لقد قلنا اذا شططا) قال ابن عباس يعني جورا وقيل كذبا يعني ان
دعونا غير الله (هؤلاء قومنا) يعني أهل بلدهم (اتخذوا من دونه) أي من دون الله (آلهة) يعني
أصناما يعبدونها (لولا) أي هلا (يأتون عليهم) أي على عبادة الاصنام (بسلطان بين) أي بحجة
واضحة وفيه تبكيت لان الاتيان بحجة على عبادة الاصنام محال (فمن أظلم ممن افترى على الله
كذبا) أي وزعم أن له شريكا أو ولدا ثم قال بعضهم لبعض (واذ اعتزلتموهم) يعني قومكم (وما
يعبدون الا الله) وذلك أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الاصنام والمعنى واذ اعتزلتموهم
وجميع ما يعبدون الا الله فانكم لم تعتزلوا عبادته (فأووا الى الكهف) أي الجؤوا اليه (ينشر لكم)
أي يبسط لكم (ربكم من رحمته ويهيئ) أي يسهل (لكم من أمركم مرفقا) أي ما يعود اليه يسركم
ورفقكم قوله سبحانه وتعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) أي تميل وتعدل (عن كهفهم ذات
اليمين) أي جانب اليمين (واذا غربت تقرضهم) أي تتركهم وتعدل عنهم ذات الشمال (وهم في
فجوة منه) أي متسع من الكهف (ذلك من آيات الله) أي من عجائب صنعه ودلالات قدرته
وذلك ان ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل ان باب
الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقناة أبدا لا تقع الشمس عليهم عند الطلوع ولا عند
الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها ولكن اختار الله لهم مضجعا في متسع ينالهم فيه برد

(من يهد الله فهو المهتد) مثل ما عرف سبحانه وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم فأرشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية (ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أي من أضله فلا هادي له (وتحسبهم) بفتح السين شامي وحمزة وعاصم غير الأعشى وهو خطاب لكل أحد (أيقاظا) جمع يقظ (وهم رقود) نيام قيل عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قيل لهم تقلبتان في السنة وقيل تقلبة واحدة في يوم عاشوراء (وكلبهم باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية لان اسم الفاعل

لا يعمل اذا كان في معنى المضي (بالوصيد) بالفناء أو بالعتبة (لو اطلعت عليهم) لو أشرفت عليهم فنظرت اليهم (لوليت منهم) لأعرضت عنهم وهربت منهم (فرارا) منصوب على المصدر لان معنى وليت منهم فررت منهم (ولملئت منهم) وبتشديد اللام حجازي للمبالغة (رعبا) تمييز وبضم العين شامي وعلي وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة أو لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم وعن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال أريد أن أدخل فقال ابن عباس رضي الله عنهما لقد قيل لمن هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فدخلت جماعة بأمره فأحرقتهم ريح (وكذلك بعثناهم) وكما أنمناهم تلك النومة كذلك أيقظناهم اظهارا للقدرة على الانامة والبعث جميعا (ليتساءلوا بينهم) ليسأل بعضهم بعضا ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقينا ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قال قائل منهم) رئيسهم (كم لبثتم) كم مدة لبثكم (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) جواب مبني على غالب الظن وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) انكار عليهم من بعضهم كأنهم قد علموا بالأدلة أو بالهام أن المدة متطاولة وان مقدارها لا يعلمه الا الله وروي أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم في يومهم فلما نظروا الى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما على ان الصحيح ان عددهم سبعة لانه قد قال في الآية قال قائل منهم كم لبثتم وهذا واحد وقالوا في جوابه لبثنا يوما أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة

الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه وعلى هذا القول يكون معنى قوله ذلك من آيات الله أي أن شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) يعني مثل أصحاب الكهف وفيه ثناء عليهم (ومن يضلل) أي ومن يضلله الله ولم يرشده (فلن تجد له وليا) أي معينا (مرشدا) أي يرشده قوله سبحانه وتعالى (وتحسبهم) خطاب لكل أحد (أيقاظا) أي منتبهين لان أعينهم مفتحة (وهم رقود) أي نيام (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قال ابن عباس كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب الى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم قيل كانوا يقلبون في يوم عاشوراء وقيل كان لهم في السنة تقلبتان (وكلبهم باسط ذراعيه) قال ابن عباس كان كلبا أغر وعنه أنه كان فوق القلطي ودون الكردي والقلطي كلب صيني وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب الى الحمرة وقال ابن عباس كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل صهبان قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعام (بالوصيد) أي بفناء الكهف وقيل عتبة الباب وكان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما قيل كان يقلب مع أصحابه فاذا انقلبوا ذات اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها واذا انقلبوا ذات الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها (لو اطلعت عليهم) يا محمد (لوليت منهم فرارا) وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) أي خوفا من وحشة المكان وقيل لان أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا اشعار وقيل ان الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد قال ابن عباس غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك فقيل له لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم قوله سبحانه وتعالى (وكذلك بعثناهم) يعني كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان بعثناهم من النومة التي تشبه الموت (ليتساءلوا بينهم) أي ليسأل بعضهم بعضا (قال قائل منهم) وهو رئيسهم وكبيرهم مكسلمينا (كم لبثتم) أي في نومكم وذلك أنهم استنكروا طول نومهم وقيل انهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك (قالوا لبثنا يوما) ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقي منها بقية فقالوا (أو بعض يوم) فلما نظروا الى طول شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقيل ان مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال دعوا الاختلاف ربكم

(فابعثوا أحدكم) كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه فخذوا في شيء آخر مما يهمكم فابعثوا أحدكم أي يمليخا (بورقكم) هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة وبسكون الراء أبو عمرو وحمزة وأبو بكر (هذه إلى المدينة) هي طرسوس وحملهم الورق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات وعن بعض العلماء أنه كان شديد الحنين إلى بيت الله ويقول ما لهذا السفر إلا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر أيها) أي أهلها فحذف كما في واسأل القرية وأي مبتدأ وخبره (أزكى) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طعاما) تمييز (فليأتكم برزق منه وليتلطف) وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور بنا من غير قصد منه فسمي ذلك إشعارا منه بهم لأنه سبب فيه والضمير في (إنهم) راجع إلى الأهل المقدر في أيها (إن يظهروا عليكم) يطلعوا عليكم (يرجموكم) يقتلوكم أخبث القتلة (أو يعيدوكم في ملتهم) بالإكراه والعود بمعنى الصيرورة كثير في كلامهم (ولن تفلحوا إذا أبدا) إذا يدل على الشرط أي ولن تفلحوا إن دخلتم في دينهم أبدا (وكذلك أعثرنا عليهم) وكما أنمناهم وبعثناهم ٢٢٩ لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم (ليعلموا) أي الذين أطلعناهم على حالهم (أن وعد الله) وهو البعث (حق) كائن لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث (وأن الساعة لا ريب فيها) فإنهم يستدلون بأمرهم على صحة البعث (إذ يتنازعون) متعلق بأعثرنا أي أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان (بينهم أمرهم) أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول تبعث الأرواح دون الأجساد وبعضهم يقول تبعث الأجساد مع الأرواح ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت (فقالوا) حين توفى الله أصحاب الكهف (ابنوا عليهم بنيانا) أي على باب كهفهم لئلا يتطرق الناس إلى تربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم أو من كلام الله عز وجل ردا لقول الخائضين في حديثهم (قال الذين غلبوا على أمرهم) من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم (لنتخذن عليهم) على باب الكهف (مسجدا) يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم روي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها وممن شدد في ذلك دقيانوس فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال ما تريدون مني إني أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به فم الكهف ليتخذه

أعلم بما لبثتم (فابعثوا أحدكم) يعني تمليخا (بورقكم) هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة (هذه إلى المدينة) قيل هي طرسوس وكان اسمها في الزمن الأول قبل الإسلام أفسوس (فلينظر أيها أزكى طعاما) أي أحل طعاما وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا تكون من ذبح من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم وقيل أطيب طعاما وأجوده وقيل أكثر طعاما وأرخصه (فليأتكم برزق منه) أي قوت وطعام تأكلونه (وليتلطف) أي وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتمان (ولا يشعرن) أي ولا يعلمن (بكم أحدا) أي من الناس (إنهم إن يظهروا عليكم) أي يعلموا بمكانكم (يرجموكم) قيل معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم وكان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل وقيل يضربوكم (أو يعيدوكم في ملتهم) أي الكفر (ولن تفلحوا إذا أبدا) أي إن عدتم إليه قوله عز وجل (وكذلك أعثرنا عليهم) أي أطلعنا الناس عليهم (ليعلموا أن وعد الله حق) يعني قوم بيدروس الذين أنكروا البعث (وأن الساعة لا ريب فيها) أي لا شك فيها أنها آتية (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) قال ابن عباس في البنيان فقال المسلمون نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس لأنهم على ديننا وقال المشركون نبني عليهم بنيانا لأنهم على ملتنا وقيل كان تنازعهم في البعث فقال المسلمون يبعث الأجساد والأرواح وقال قوم تبعث الأرواح فأراهم الله آية وأن البعث للأرواح والأجساد وقيل تنازعوا في مدة لبثهم وقيل في عددهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم) يعني بيدروس وأصحابه (لنتخذن عليهم مسجدا) قوله سبحانه وتعالى

مختفين فلما وصل الى المدينة من بعثوه لابتياع الطعام واخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والانس ثم رجعوا الى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) الضمير في سيقولون لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين وأهل الكتاب سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فأخر الجواب الى أن يوحى اليه فيهم فنزلت اخبارا بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم وان المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم وروى ان السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن علي رضي الله عنه هم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشليثا ومشلينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشادنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم افسوس واسم كلبهم قطمير والسين الاستقبال وان دخل في الاول دون الآخرين فهما داخلان في حكم السين كقولك قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا أو أريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ثلاثة خبر مبتدأ محذوف أي هم ثلاثة وكذلك خمسة وسبعة ورابعهم كلبهم جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم رجما بالغيب رميا بالخبر الخفي واتيانا به كقوله ويقذفون بالغيب أي يأتون به أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب لانهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في قولك جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها أمر ثابت مستقر وهذه الواو هي التي آذنت بان الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم دليله ان الله تعالى أتبع القولين الاولين قوله رجما بالغيب وأتبع القول الثالث قوله (قل ربي أعلم بعدتهم) أي قل ربي أعلم بعدتهم وقد أخبركم بها بقوله سبعة وثامنهم كلبهم (ما يعلمهم الا قليل) قال ابن عباس رضي الله عنهما انا من ذلك القليل وقيل الا قليل من أهل الكتاب والضمير في سيقولون على هذا لاهل الكتاب خاصة أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك الا في قليل منهم وأكثرهم على ظن وتخمين (فلا تمار فيهم) فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف (الا مراء ظاهرا) الا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله اليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) روى أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف عندهم فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم (ويقولون) أي وقال العاقب وكان نسطوريا (خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون) وقال المسلمون (سبعة وثامنهم كلبهم) فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل صلى الله عليه وسلم بعدما حكى قول النصارى أولا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى رجما بالغيب أي ظنا من غير تبين ولم يقل ذلك في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى وأن يكون قول المسلمين مخالفا لقول النصارى في كونه رجما بالغيب وظنا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) هذا هو الحق لان العلم بتفاصيل العوالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون الا لله تعالى أو من أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم (٢) مكسلمينا ويمليخا ومرطونس وبينونس وساريونس ودرنواس وكشفيططونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير (فلا تمار فيهم) أي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم (الا مراء ظاهرا) أي الا بظاهر ما قصصنا عليك من عددهم ولا تزد عليه

(٢) قوله مكسلمينا الخ وقع اختلاف كبير في أسمائهم وذكر في القاموس في ذلك ثلاثة أقوال فليراجع

لهم أو يشهد من الناس ليظهر صدقك (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) ولا تسأل أحدا منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيأ فترده عليه وتزيف ما عنده ولا سؤال مسترشد لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم (ولا تقولن لشئ) لأجل شئ تعزم عليه (إني فاعل ذلك) الشئ (غدا) أي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (إلا أن يشاء الله) أن تقوله بأن يأذن لك فيه أو ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أي إلا بمشيئته وهو في موضع الحال أي إلا ملتبسا بمشيئة الله قائلا إن شاء الله وقال الزجاج معناه ولا تقولن إني أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى لأن قول القائل أنا أفعل ذلك إن شاء الله معناه لا أفعله إلا بمشيئة الله وهذا نهي تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه فقال ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه (واذكر ربك) ٢٣١ أي مشيئة ربك وقل إن شاء الله (إذا نسيت) إذا فرط منك نسيان لذلك والمعنى إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر عن الحسن ما دام في مجلس الذكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولو بعد سنة وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء فأما الاستثناء المغير حكما فلا يصح إلا متصلا وحكي أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضي الله عنهما في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له أبو حنيفة هذا يرجع عليك إنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده أو معناه واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار وإذا نسيت كلمة الاستثناء تشديدا في البعث على الاهتمام بها أو صل صلاة نسيتها إذا ذكرتها أو إذا نسيت شيأ فاذكره ليذكرك المنسي (وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) يعني إذا نسيت شيأ فاذكر ربك عند نسيانه بأن تقول عسى ربي أن يهديني لشئ آخر بدل هذا المنسي أقرب منه رشدا وأدنى خيرا ومنفعة أي يهدين أن ترن أو يؤنبن أن ذ على مكي في الحالين ووافقه أبو عمرو ومدني في الوصل (ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين) يريد لبثهم فيه أحياء مضروبا على آذانهم هذه المدة وهو بيان لما أجمل في قوله فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا وسنين عطف بيان لثلثمائة ثلثمائة سنين بالإضافة حمزة وعلي على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله بالأخسرين أعمالا (وازدادوا تسعا) أي تسع سنين لدلالة ما قبله عليه وتسعا مفعول به لأن زاد تقتضي مفعولين فازداد يقتضي مفعولا واحدا (قل الله أعلم بما لبثوا) أي هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق

(ولا تستفت فيهم) أي في أصحاب الكهف (منهم) أي من أهل الكتاب (أحدا) أي لا ترجع إلى قول أحد منهم بعد أن أخبرناك قصتهم قوله سبحانه وتعالى (ولا تقولن لشئ إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) يعني إذا عزمت على فعل شئ غدا فقل إن شاء الله ولا تقله بغير استثناء وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي أياما ثم نزلت هذه الآية وقد تقدمت القصة في سورة بني إسرائيل (واذكر ربك إذا نسيت) قال ابن عباس معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وإن كان بعد سنة وجوزه الحسن ما دام في المجلس وجوزه بعضهم إذا قرب الزمان فإن بعد لم يصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلا بالاستثناء وقيل في معنى الآية واذكر ربك إذا غضبت قال وهب مكتوب في التوراة والإنجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب وقيل الآية في الصلاة يدل عليه ما روي عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها قال تعالى أقم الصلاة لذكري متفق عليه زاد مسلم أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها (وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) أي يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد وقيل إن الله سبحانه وتعالى أمره أن يذكره إذا نسي شيأ ويسأله أن يذكره أو يهديه لما هو خير له من أن يذكر ما نسي وقيل إن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل حيث آتاه من علم غيب المرسلين وقصصهم ما هو أوضح وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف وقيل هذا شئ أمره الله أن يقوله مع قوله إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسي الإنسان قوله إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول مع قوله إن شاء الله عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا قوله عز وجل (ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) قيل هذا خبر عن قول أهل الكتاب ولو كان خبرا من الله عن قدر لبثهم لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه ولكن الله رد قولهم بقوله (قل الله أعلم بما لبثوا) والأصح أنه إخبار من الله

ما أخبرك به وهو حكاية لكلام أهل الكتاب وقل الله أعلم رد عليهم والجمهور على أن هذا اخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم
لبثوا في كهفهم كذا المدة (له غيب السموات والارض) ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السموات والارض وخفي فيها

تعالى عن قدر لبثهم في الكهف ويكون معنى قوله قل الله أعلم بما لبثوا يعني ان نازعوك في مدة
لبثهم في الكهف فقل أنت الله أعلم بما لبثوا أي هو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل ان أهل
الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه
وسلم ثلثمائة وتسع سنين فرد الله عليهم بذلك وقال قل الله أعلم بما لبثوا يعني بعد قبض أرواحهم
الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله فان قلت لم قال سنين ولم يقل سنة قلت قيل لما نزل قوله سبحانه
وتعالى ولبثوا في كهفهم ثلثمائة فقالوا أياما أو شهورا أو سنين فنزلت سنين على وفق قولهم وقيل
هو تفسير لما أجمل في قوله فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا وازدادوا تسعا وقيل
قالت نصارى نجران اما الثلثمائة فقد عرفناها وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت قل الله أعلم بما
لبثوا وقيل ان عند أهل الكتاب لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله سبحانه وتعالى ذكر ثلثمائة سنة
وتسع سنين قمرية والتفاوت بين القمرية والشمسية في كل مائة سنة ثلاث سنين فتكون الثلثمائة
الشمسية ثلثمائة وتسع سنين قمرية (له غيب السموات والارض) يعني انه سبحانه وتعالى لا يخفى
عليه شيء من أحوال أهلها فانه العالم وحده به فكيف يخفى عليه حال أصحاب أهل الكهف
(أبصر به وأسمع) معناه ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه بكل مسموع لا يغيب عن سمعه وبصره
شيء يدرك البواطن كما يدرك الظواهر والقريب والبعيد والمحجوب وغيره لا يخفى عليه خافية
(ما لهم) أي ما لأهل السموات والارض (من دونه) أي من دون الله (من ولي) أي ناصر (ولا
يشرك في حكمه أحدا) قيل معناه لا يشرك الله في علم غيبه أحدا وقيل في قضائه قوله سبحانه
وتعالى (واتل) أي واقرأ يا محمد (ما أوحي اليك من كتاب ربك) يعني القرآن واتبع ما فيه واعمل
به (لا مبدل لكلماته) أي لا مغير للقرآن ولا يقدر أحد على التطرق اليه بتغيير أو [illegible]
قلت موجب هذا أن لا يتطرق النسخ اليه قلت النسخ في الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ
ثابت في وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وقيل معناه لا مغير
لما أوعد الله بكلماته أهل معاصيه (ولن تجد من دونه) أي من دون الله ان لم تتبع القرآن
(ملتحدا) أي ملجأ وحرزا تعدل اليه قوله عز وجل (واصبر نفسك) الآية نزلت في عيينة بن حصن
الفزاري أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان وعليه
شملة صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبي صلى الله عليه وسلم أما
يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها ان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك
الا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا فأنزل الله عز وجل واصبر نفسك أي احبس
يا محمد نفسك (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) يعني طرفي النهار (يريدون وجهه) أي
يريدون وجه الله لا يريدون عرض الدنيا وقيل نزلت في أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل
فقراء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجعون الى تجارة ولا الى زرع ولا ضرع
يصلون صلاة وينتظرون أخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي
جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم (ولا تعد) أي لا تصرف ولا تتجاوز (عيناك عنهم
الى غيرهم (تريد زينة الحياة الدنيا) أي تطلب مجالسة الاغنياء والاشراف وصحبة أهل الدنيا

من أحوال أهلها (أبصر به وأسمع) أي وأسمع به والمعنى ما أبصره بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع (ما لهم) لأهل السموات والارض (من دونه من ولي) من متول لامورهم (ولا يشرك في حكمه) في قضائه (أحدا) منهم ولا تشرك على النهي شامي كانوا يقولون له ائت بقرآن غير هذا أو بدله فقيل له (واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك) أي من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل فانه (لا مبدل لكلماته) أي لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها انما يقدر على ذلك هو وحده (ولن تجد من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه ان هممت بذلك ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالي وهم صهيب وعمار وخباب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) واحبسها معهم وثبتها (بالغداة والعشي) دائبين على الدعاء في كل وقت أو
بالغداة لطلب التوفيق والتيسير والعشي لطلب عفو التقصير أو هي صلاة الفجر والعصر وبالغدوة شامي ولا
(يريدون وجهه) رضا الله (ولا تعد عيناك عنهم) ولا تجاوزهم الى غيرهم اذا جاوزه وعدي بعن لتضمن عدا معنى نبا في قولك نبت به
عينه وفائدة التضمين اعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من اعطاء معنى فذ (تريد زينة الحياة الدنيا) في موضع الحال

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أي جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا يعني عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) أي في طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) ضياعا ضيع أمره وعطل أيامه وقيل ندما وقيل سرفا وباطلا وقيل مخالفا للحق (وقل الحق من ربكم) أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا من ربكم الحق وإليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس إلي من ذلك شيء (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله اعملوا ما شئتم وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم أي لست بطارد المؤمنين لهواكم فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا فإن كفرتم فقد أعد لكم ربكم نارا وإن آمنتم فلكم ما وصف الله لأهل طاعته وعن ابن عباس في معنى الآية من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر (إنا أعتدنا) أي هيأنا من العتاد وهو العدة (للظالمين) أي الكافرين (نارا أحاط بهم سرادقها) السرادق الحجرة التي تطيف بالفساطيط عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة أخرجه الترمذي قال ابن عباس هو حائط من نار وقيل هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة وقيل هو دخان يحيط بالكفار (وإن يستغيثوا) أي من شدة العطش (يغاثوا بماء كالمهل) قال ابن عباس هو ماء غليظ مثل دردي الزيت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله سبحانه وتعالى بماء كالمهل قال كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه منه أخرجه الترمذي وقال رشدين أحد رواة الحديث قد تكلم فيه من قبل حفظه الفروة جلدة الوجه وقيل المهل الدم والقيح وقيل هو الرصاص والصفر المذاب (يشوي الوجوه) أي ينضج الوجوه من حره (بئس الشراب) أي ذلك الذي يغاثون به (وساءت) أي النار (مرتفقا) قال ابن عباس رضي الله عنهما منزلا وقيل مجتمعا وأصل المرتفق المتكأ وإنما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا متكأ قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعا بل نجازيهم بأعمالهم الصالحة وقيل إن قوله إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا كلام معترض وتقديره إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك لهم جنات عدن) أي دار إقامة سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها (تجري من تحتهم الأنهار) وذلك لأن أفضل المساكن ما كان يجري فيه الماء (يحلون فيها من أساور من ذهب) قيل يحلى كل إنسان منهم ثلاثة أساور سوار من ذهب لهذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا أساور من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) هو الديباج الرقيق (وإستبرق) هو الديباج الصفيق الغليظ وقيل السندس المنسوج بالذهب (متكئين) خص الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك (فيها) أي في الجنة

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر وهو دليل لنا على أنه تعالى خالق أفعال العباد (واتبع هواه وكان أمره فرطا) مجاوزا عن الحق (وقل الحق من ربكم) أي الإسلام أو القرآن والحق خبر مبتدإ محذوف أي هو (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أي جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك وجيء بلفظ الأمر والتخيير لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه ٢٣٣ مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال (إنا أعتدنا) هيأنا (للظالمين) للكافرين فقيد بالسياق كما ترك حقيقة الأمر والتخيير بالسياق وهو قوله إنا أعتدنا للظالمين (نارا أحاط بهم سرادقها) شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهي الحجرة التي تكون حول الفسطاط أو هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار أو هو حائط من نار يطيف بهم (وإن يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) هو دردي الزيت أو ما أذيب من جواهر الأرض وفيه تهكم بهم (يشوي الوجوه) إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته (بئس الشراب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ من المرفق وهذا لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا وإلا فلا ارتفاق لأهل النار وبين جزاء من اختار الإيمان فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن) كلام مستأنف بيان للأجر المبهم ولك أن تجعل إنا لا نضيع وأولئك خبرين معا والمراد من أحسن منهم عملا كقولك السمن منوان بدرهم ولأن من أحسن عملا والذين آمنوا وعملوا الصالحات ينتظمهما معنى واحد فأقام من أحسن مقام الضمير (تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور) من للابتداء وتنكير أساور وهي جمع أسورة التي هي جمع سوار لإبهام أمرها في الحسن (من ذهب) من للتبيين (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) ما رق من الديباج (وإستبرق) ما غلظ منه أي يجمعون بين النوعين (متكئين فيها

(على الأرائك) خص الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم (نعم الثواب) الجنة (وحسنت) الجنة والأرائك (مرتفقا) متكأ (واضرب لهم مثلا رجلين) مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس وهو والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران في والصافات في قوله قال قائل منهم إني كان لي قرين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فجعلاها شطرين فاشترى الكافر أرضا بألف دينار فقال المؤمن اللهم إن أخي اشترى أرضا بألف دينار وأنا أشتري منك أرضا ٢٣٤ في الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه دارا بألف فقال اللهم إني أشتري منك دارا في الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال اللهم إني جعلت ألفا صداقا للحور ثم اشترى أخوه خدما ومتاعا بألف دينار فقال اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله (جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) بساتين من كروم (وحففناهما بنخل) وجعلنا النخل محيطا بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة يقال حفوه إذا طافوا به وحففته بهم أي جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا (وجعلنا بينهما زرعا) جعلناها أرضا جامعة للأقوات والفواكه ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق (كلتا الجنتين آتت) أفرد حملا على اللفظ لأن كلتا مفرد ولو قيل آتتا المؤمن على المعنى لجاز (أكلها) ثمرها (ولم تظلم منه) ولم تنقص من أكلها (شيئا وفجرنا خلالهما نهرا) وسطهما ... وفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو النهر الجاري فيها (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثره أي كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما فكان وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء عاصم وبضم الثاء وسكون الميم أبو عمرو وبضمهما غيرهما (فقال) له صاحبه

(على الأرائك) جمع أريكة وهي السرر في الحجال ولما وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأشياء قال (نعم الثواب) أي نعم الجزاء (وحسنت) أي الجنات (مرتفقا) أي مقرا ومجلسا والمراد بقوله وحسنت مرتفقا مقابلة ما تقدم ذكره من قوله سبحانه وتعالى وساءت مرتفقا قوله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين) قيل نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم وهما أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل وكان مؤمنا وأخوه الأسود بن عبد الأسد وكان كافرا وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه وسلمان وأصحابه وشبههما برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس وقيل تمليخا والآخر كافر واسمه قطروس وهما اللذان وصفهما الله سبحانه وتعالى في سورة والصافات وكانت قصتهما على ما ذكره عطاء الخراساني قال كان رجلان شريكان لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار وإني قد اشتريت منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار وإني اشتريت منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم إن صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم إني أشتري منك خدما ومتاعا بألف دينار في الجنة فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في خدمه وحشمه فقام إليه فنظر إليه صاحبه فعرفه فقال فلان قال نعم قال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وإنك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيئا فطرده فقضي لهما فتوفيا فنزل فيهما قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين وروي أنه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أمواله فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين (جعلنا لأحدهما جنتين) أي بستانين (من أعناب وحففناهما) أي أطفناهما من جوانبهما (بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أي وجعلنا بين النخل والأعناب الزرع وقيل بينهما أي بين الجنتين حتى لم يكن بين الجنتين خراب بغير زرع (كلتا الجنتين آتت) أي أعطت كل واحدة من الجنتين (أكلها) أي ثمرها تاما (ولم تظلم منه شيئا) أي ولم تنقص منه شيئا (وفجرنا خلالهما نهرا) أي شققنا وسطهما نهرا (وكان له) أي لصاحب البستان (ثمر) قرئ بالفتح جمع ثمرة وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما (فقال) يعني صاحب البستان (لصاحبه) يعني

وهو يحاوره) يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع يعني قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أنصارا وحشما وأولادا ذكورا لأنهم ينفرون معه دون الإناث (ودخل جنته) إحدى جنتيه أو سماها جنة لاتصال الحائط وجنتين للنهر الجاري بينهما (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بالكفر (قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا) أي أن تهلك هذه الجنة شك في بيدودة جنته لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك (وما أظن الساعة قائمة) كائنة (ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض كما زعم صاحبه ليجدن في الآخرة خيرا من جنته في الدنيا ادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده منقلبا تمييز أي مرجعا وعاقبة (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب) أي خلق أصلك لأن خلق أصله سبب في خلقه وكان خلقه خلقا له (ثم من نطفة) أي خلقك من نطفة (ثم سواك رجلا) عدلك وكملك إنسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعله كافرا بالله لشكه في البعث (لكنا) بالألف في الوصل شامي والباقون بغير ألف وبالألف في الوقف اتفاق وأصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فأدغمت الأولى في الثانية بعد أن سكنت (هو الله ربي) هو ضمير الشأن والشأن الله ربي والجملة خبر أنا والراجع منها إليه ياء الضمير وهو استدراك لقوله أكفرت قال لأخيه أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرا حاضر وفيه حذف أي أقول هو الله بدليل عطف (ولا أشرك بربي أحدا ولولا) وهلا (إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله) ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ما شاء الله أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى أي شيء شاء الله كان والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر ما شاء الله اعترافا بأنها وكل ما فيها إنما حصل بمشيئة الله وأن أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها (لا قوة إلا بالله) إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده من قرأ (إن ترن أنا أقل منك مالا) بنصب أقل فقد جعل أنا فصلا ومن رفع وهو الكسائي جعله مبتدأ وأقل خبره والجملة مفعولا ثانيا لترن وفي قوله (وولدا) نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله وأعز نفرا (فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك) في الدنيا أو في العقبى (ويرسل عليها حسبانا) عذابا (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) أرضا بيضاء يزلق عليها لاملاسها (أو يصبح ماؤها غورا) غائرا أي ذاهبا في الأرض (فلن تستطيع له طلبا) فلا يتأتى منك طلبه فضلا عن الوجود والمعنى إن ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بساتينك (وأحيط

المؤمن (وهو يحاوره) أي يخاطبه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أي عشيرة ورهطا وقيل خدما وحشما (ودخل جنته) يعني الكافر أخذ بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه إياها (وهو ظالم لنفسه) أي بكفره (قال ما أظن أن تبيد) أي تهلك (هذه) يعني جنته (أبدا) وذلك أنه راقه حسنها وغرته زهرتها فتوهم أنها لا تفنى أبدا وأنكر البعث فقال (وما أظن الساعة قائمة) أي كائنة (ولئن رددت إلى ربي) فإن قلت كيف قال ولئن رددت إلى ربي وهو منكر للبعث قلت معناه ولئن رددت إلى ربي على ما تزعم من أن الساعة آتية (لأجدن خيرا منها منقلبا) أي يعطيني هناك خيرا منها لأنه لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها (قال له صاحبه) يعني المؤمن (وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب) أي خلق أصلك من تراب لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقا له (ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أي عدلك بشرا سويا وكملك إنسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال (لكنا هو الله ربي) مجازه لكن أنا هو الله ربي (ولا أشرك بربي أحدا ولولا) أي هلا (إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله) والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها ما شاء الله اعترافا بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله تعالى وفضله وأن أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء تركها خرابا (لا قوة إلا بالله) أي وقلت لا قوة إلا بالله إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونة الله وتأييده ولا أقدر على حفظ مالي ودفع شيء عنه إلا بالله روي عن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى من ماله شيئا يعجبه أو دخل حائطا من حيطانه قال ما شاء الله لا قوة إلا بالله الحائط البستان (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أي لأجل ذلك تكبرت علي وتعظمت (فعسى ربي) أي فلعل ربي (أن يؤتين) أي يعطيني (خيرا من جنتك) يعني في الآخرة (ويرسل عليها) أي على جنتك (حسبانا) قال ابن عباس نارا وقيل مرامي (من السماء) وهي الصواعق فتهلكها (فتصبح صعيدا زلقا) أي أرضا جرداء ملساء لا نبات فيها وقيل تزلق فيها الأقدام وقيل رملا هائلا (أو يصبح ماؤها غورا) غائرا ذاهبا لا تناله الأيدي ولا الدلاء (فلن تستطيع له طلبا) يعني إن طلبته لم تجده (وأحيط

بثمره) هو عبارة عن اهلاكه وأصله من أحاط به العدو لانه اذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل اهلاك (فأصبح) أي الكافر (يقلب كفيه) يضرب احداهما على الاخرى ندما وتحسرا وانما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما كني عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد ولانه في معنى الندم عدي تعديته بعلى كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أي في عمارتها (وهي خاوية على عروشها) يعني ان كرومها المعروشة سقطت عروشها على الارض وسقطت فوقها الكروم (ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) تذكر موعظة أخيه فعلم انه أتي من جهة كفره وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمني ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندما على ما كان منه ودخولا في الايمان (ولم تكن له فئة ينصرونه) يقدرون على نصرته (من دون الله) أي هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره الا انه لم ينصره لحكمة (وما كان منتصرا) وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله (هنالك الولاية لله الحق) بسكون الياء والولاية بكسر الواو حمزة وعلي فهي بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك والمعنى هنالك أي في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقريرا لقوله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله أو هنالك السلطان والملك لله لا يغلب أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعني أن قوله يا ليتني لم أشرك بربي أحدا كلمة ألجئ اليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها أو هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم يعني انه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله عسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء ويعضده قوله (هو خير ثوابا وخير عقبا) أي لأوليائه أو هنالك اشارة الى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم (الحق) بالرفع أبو عمرو وعلي صفة للولاية أو خبر مبتدأ محذوف أي هي الحق أو هو الحق وغيرهما بالجر صفة لله (عقبا) بسكون القاف عاصم وحمزة وبضمها غيرهما وفي الشواذ عقبى على وزن فعلى وكلها بمعنى العاقبة (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) أي هو كماء أنزلناه (فاختلط به نبات الارض) فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا أو أثر في النبات الماء فاختلط به حتى روي (فأصبح هشيما) يابسا متكسرا الواحدة هشيمة (تذروه الرياح) تنسفه وتطيره الريح حمزة وعلي (وكان الله على كل شيء) من الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والافناء بحال النبات يكون أخضر ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) لا زاد القبر وعدة العقبى (والباقيات الصالحات) أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للانسان أبد

بثمره) يعني أحاط العذاب بثمر جنته وذلك ان الله تعالى أرسل عليها من السماء نارا فأهلكتها وغار ماؤها (فأصبح) يعني صاحبها الكافر (يقلب كفيه) يصفق بكف على كف ويقلب كفيه ظهر البطن تأسفا وتلهفا (على ما أنفق فيها) المعنى فأصبح يندم على ما أنفق في عمارتها (وهي خاوية على عروشها) أي ساقطة سقوفها وقيل ان كرومها المعرشة سقطت عروشها على الارض (ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) يعني أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم انه أتي من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا (ولم تكن له فئة) أي جماعة (ينصرونه من دون الله) أي يمنعونه من عذاب الله (وما كان منتصرا) أي ممتنعا لا يقدر على الانتصار لنفسه وقيل معناه لا يقدر على رد ما ذهب منه قوله سبحانه وتعالى (هنالك الولاية) قرئ بكسر الواو يعني السلطان في القيامة (لله الحق) وقرئ بفتحها من الموالاة والنصر يعني انهم يتولونه يومئذ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون من دونه في الدنيا (هو خير ثوابا) أي أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب (وخير عقبا) يعني عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير اثابة وعاقبة قوله عز وجل (واضرب لهم) أي اضرب يا محمد لقومك (مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) يعني المطر (فاختلط به نبات الارض) أي خرج منه كل لون وزهرة (فأصبح) أي عن قريب (هشيما) قال ابن عباس يابسا (تذروه الرياح) قال ابن عباس تفرقه وقيل تديره وقيل تنسفه (وكان الله على كل شيء مقتدرا) أي قادرا قوله سبحانه وتعالى (المال والبنون) يعني التي يفتخر بها عيينة وأصحابه الاغنياء (زينة الحياة الدنيا) يعني ليست من زاد الآخرة قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه المال والبنون حرث الدنيا والاعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام (والباقيات الصالحات) قال ابن عباس هي قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الي مما طلعت عليه الشمس عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن

الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (خير عند ربك ثوابا) جزاء (وخير أملا) لانه وعد صادق وأكثر الآمال كاذبة يعني ان صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيبه في الآخرة (ويوم) ٢٣٧ واذكر يوم (نسير الجبال) تسير الجبال مكي وشامي وأبو عمرو أي تسير في الجو أو يذهب بها بأن تجعل هباء منثورا منبثا (وترى الارض بارزة) ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال والاشجار (وحشرناهم) أي الموتى (فلم نغادر منهم أحدا) أي فلم نترك غادره أي تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ما غادره السيل (وعرضوا على ربك صفا) مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما ترى كل واحد لا يحجب أحد أحدا شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان (لقد جئتمونا) اي قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر يجوز ان يكون عامل النصب في يوم نسير (كما خلقناكم أول مرة) اى لقد بعثناكم كما أنشأناكم أول مرة أو جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولا وانما قال وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى للدلالة على حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) وقتا لانجاز ما وعدتم على ألسنة الانبياء من البعث والنشور أو مكانا وعدا للمحاسبة (ووضع الكتاب) اى صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) خائفين (مما فيه) من الذنوب (ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) اى لا يترك شيأ من المعاصي (الا أحصاها)

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال استكثروا من قول الباقيات الصالحات قيل وما هن يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قلت يا رسول الله وما رياض الجنة قال المساجد قلت وما الرتع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أخرجه الترمذي وقال حديث غريب عن سعيد بن المسيب ان الباقيات الصالحات هي قول العبد الله أكبر وسبحان الله ولا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله أخرجه مالك في الموطأ موقوفا عليه وعن ابن عباس ان الباقيات الصالحات الصلوات الخمس وعنه أنها الاعمال الصالحة (خير عند ربك ثوابا) أي جزاء (وخير أملا) أي ما يأمله الانسان قوله سبحانه وتعالى (ويوم نسير الجبال) أي نذهب بها وذلك أن تجعل هباء منثورا كما يسير السحاب (وترى الارض بارزة) أي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا بناء وقيل هو بروز ما في بطنها من الموتى وغيرهم فيصير باطن الارض ظاهرها (وحشرناهم) يعني جميعا الى موقف الحساب (فلم نغادر منهم أحدا) أي لم نترك منهم أحدا (وعرضوا على ربك صفا) أي صفا صفا وفوجا فوجا لا أنهم صف واحد وقيل قياما وقيل كل أمة وزمرة صف ثم يقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) يعني أحياء وقيل حفاة عراة غرلا (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) يعني القيامة يقول ذلك لمنكري البعث (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين الا ان أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لي انهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم زاد في رواية فأقول سحقا سحقا قوله غرلا أي قلفا والغرلة القلفة التي تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا أي بعدا قال بعض العلماء ان المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة بعده (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الامر أشد من أن يهمهم ذلك زاد النسائي في رواية له لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه قوله عز وجل (ووضع الكتاب) يعني صحائف أعمال العباد توضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم وقيل توضع بين يدي الله تعالى (فترى المجرمين مشفقين) أي خائفين (مما فيه) يعني من الاعمال السيئة (ويقولون) يعني اذا رأوها (يا ويلتنا) اي يا هلاكنا وكل من وقع في هلكة دعا بالويل (مال هذا الكتاب لا يغادر) أي لا يترك (صغيرة ولا كبيرة) أي من ذنوبنا (الا أحصاها) أي عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمس والقبلة والكبيرة الزنا عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا في بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فأنضجوا خبزهم وان محقرات الذنوب

الموبقات المحقرات الشيء الصغير التافه وقوله الموبقات أي مهلكات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أي
مكتوبا مثبتا في كتابهم (ولا يظلم ربك أحدا) أي لا ينقص ثواب أحد عمل خيرا ولا يؤاخذ أحدا
بجرم لم يعمله * عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الناس
يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير
الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله أخرجه الترمذي وقال لا يصح هذا الحديث من
قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى قوله سبحانه
وتعالى (وإذ قلنا) أي واذكر يا محمد إذ قلنا (للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من
الجن) قال ابن عباس كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وقال الحسن
كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس وكونه من الملائكة
لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وتعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وذلك أن قريشا
قالت الملائكة بنات الله فهذا يدل على أن الملائكة تسمى جنا ويعضده اللغة لأن الجن مأخوذ من
الاجتنان وهو الستر وعلى هذا تدخل الملائكة فيه فكل الملائكة جن لاستتارهم وليس
كل جن ملائكة ووجه كونه من الملائكة أن الله سبحانه وتعالى استثناه من الملائكة
والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل ويصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه
من قال إنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة قوله كان من الجن والجن جنس مخالف للملائكة
وقوله أفتتخذونه وذريته فأثبت له ذرية والملائكة لا ذرية لهم وأجيب عن الاستثناء أنه استثناء
منقطع وهو مشهور في كلام العرب قال الله سبحانه وتعالى وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء
مما تعبدون إلا الذي فطرني وقال تعالى لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما قيل إنه كان من الملائكة
فلما خالف الأمر مسخ وغير وطرد ولعن وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعة
ربه (أفتتخذونه) يعني يا بني آدم أفتتخذون إبليس (وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) يعني
أعداء روى مجاهد عن الشعبي قال إني لقاعد يوما إذ أقبل رجل فقال أخبرني هل لإبليس زوجة
قلت إن ذلك العرس ما شهدته ثم ذكرت قول الله عز وجل أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني
فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم قيل يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل إنه
يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية
إبليس لاقيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو
صاحب الأسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع وبتر وهو صاحب المصائب يزين
خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل
وعجيزة المرأة ومطوس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلا
وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحسن
موضعه وإذا أكل ولم يسم أكل معه قال الأعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم
فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر فأقول داسم داسم أعوذ بالله منه وروى أبي
ابن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس
الماء أخرجه الترمذي (م) عن عثمان بن أبي العاص قال قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال
بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له
خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني

حصرها وضبطها (ووجدوا
ما عملوا حاضرا) في الصحف
عتيدا أو جزاء ما عملوا (ولا
يظلم ربك أحدا) فيكتب
عليه ما لم يعمل أو يزيد في
عقابه أو يعذبه بغير جرم
(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم) سجود تحية أو
سجود انقياد (فسجدوا
إلا إبليس كان من الجن)
هو مستأنف كأن قائلا
قال ما له لم يسجد فقيل كان
من الجن (ففسق عن أمر
ربه) خرج عما أمره ربه
به من السجود وهو دليل
على أنه كان مأمورا بالسجود
مع الملائكة (أفتتخذونه
وذريته) الهمزة للإنكار
والتعجيب كأنه قيل أعقيب
ما وجد منه تتخذونه
وذريته (أولياء من
دوني) وتستبدلونهم
بي ومن ذريته لاقيس
موسوس الصلاة والأعور
صاحب الزنا وبتر صاحب
المصائب ومطوس صاحب
الأراجيف وداسم يدخل
ويأكل مع من لم يسم الله
تعالى (وهم لكم عدو)
أعداء

(بئس للظالمين بدلا) بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله (ما أشهدتهم) اى ابليس وذريته (خلق السموات والارض) يعني انكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة وانما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الالهية فنفى مشاركتهم في الالهية بقوله ما أشهدتهم خلق السموات والارض لاعتضد بهم في خلقها أو أشاورهم فيه اى تفردت بخلق الاشياء فأفردوني في العبادة (ولا خلق أنفسهم) اى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله ولا تقتلوا أنفسكم (وما كنت متخذ المضلين) اى وما كنت متخذهم (عضدا) اى أعوانا فوضع المضلين موضع الضمير ذما لهم بالاضلال فاذا لم يكونوا عضدا لي في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة (ويوم يقول) الله للكفار وبالنون حمزة (نادوا) ادعوا بصوت عال (شركائي الذين زعمتم) انهم فيكم شركائي ليمنعوكم من عذابي وأراد الجن وأضاف الشركاء اليه على زعمهم توبيخا لهم (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا) مهلكا من وبق يبق وبوقا اذا هلك أو مصدرا كالموعد أى وجعلنا بينهم واديا من أودية جهنم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعا أو الملائكة وعزيرا وعيسى والموبق البرزخ البعيد اى وجعلنا بينهم أمدا بعيدا لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار فظنوا) فأيقنوا (أنهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها (ولم يجدوا عنها) عن النار (مصرفا) معدلا (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل) يحتاجون اليه (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) تمييز اى أكثر الاشياء التي يتأتى منها الجدل ان فصلتها واحدا بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل يعني ان جدل الانسان أكثر من جدل كل شيء (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) أي سببه وهو الكتاب والرسول (ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الاولين أو يأتيهم العذاب) ان الاولى نصب والثانية رفع وقبلها مضاف محذوف تقديره وما منع الناس الايمان والاستغفار الا انتظار ان تأتيهم سنة الاولين وهي الاهلاك أو انتظار ان يأتيهم العذاب اى عذاب الآخرة (قبلا) كوفي اى أنواعا جمع قبيل الباقون قبلا أى عيانا

(م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال الاعمش أراه قال فيلتزمه وقوله (بئس للظالمين بدلا) يعني بئس ما استبدلوا طاعة ابليس وذريته بعبادة ربهم وطاعته قوله سبحانه وتعالى (ما أشهدتهم) اى ما أحضرتهم يعني ابليس وذريته وقيل الكفار وقيل الملائكة (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) والمعنى ما أشهدتهم خلقها فاستعين بهم على خلقها او أشاورهم فيها (وما كنت متخذ المضلين) يعني الشياطين الذين يضلون الناس (عضدا) يعني أنصارا وأعوانا قوله عز وجل (ويوم يقول نادوا) يعني يقول الله تعالى يوم القيامة نادوا (شركائي) يعني الاصنام (الذين زعمتم) يعني انهم شركائي (فدعوهم) أى فاستغاثوا بهم (فلم يستجيبوا لهم) أى فلم يجيبوهم ولم ينصروهم (وجعلنا بينهم) يعني بين الاصنام وعبدتها وقيل بين أهل الهدى وبين أهل الضلال (موبقا) يعني مهلكا قال ابن عباس هو واد في النار وقيل نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل كل حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك (ورأى المجرمون) أى المشركون (النار فظنوا) أى أيقنوا (انهم مواقعوها) أى داخلوها وواقعون فيها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى معدلا لانها احاطت بهم من كل جانب وقيل لان الملائكة تسوقهم اليها قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا) أى بينا (في هذا القرآن للناس من كل مثل) اى ليتذكروا ويتعظوا (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) أى خصومة في الباطل قال ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله في القرآن وقيل أراد به أبي بن خلف وقيل أراد به جميع الكفار وقيل الآية على العموم وهو الاصح (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال الا تصليان فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الي شيئا ثم سمعه يقول وهو مول يضرب فخذه بيده وكان الانسان أكثر شيء جدلا قوله عز وجل (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) يعني القرآن وأحكام الاسلام والبيان من الله تعالى وقيل انه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويستغفروا ربهم) والمعنى انه لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والاعذار زائلة فلم يقدموا على الايمان والاستغفار (الا أن تأتيهم سنة الاولين) يعني سنتنا في اهلاك الاولين ان لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال (أو يأتيهم العذاب قبلا) قال ابن

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) بوقف عليه ويبتدأ بما بعده (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم للرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحو ذلك (ليدحضوا به الحق) ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة (واتخذوا آياتي) القرآن (وما أنذروا) ما موصولة والراجع من الصلة محذوف أي وما أنذروه من العقاب أو مصدرية أي وإنذارهم (هزوا) موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة حمزة وبإبدال الهمزة واوا حفص وبضم الزاي والهمزة غيرهما (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) بالقرآن ولذلك رجع الضمير إليها مذكرا في قوله أن يفقهوه (فأعرض عنها) فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر (ونسي ما قدمت يداه) عاقبة ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي غير متفكر فيها ولا ناظر في أن المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم ٢٤٠ مطبوع على قلوبهم بقوله (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان وهو الغطاء (أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) ثقلا عن استماع الحق وجمع بعد الإفراد حملا على لفظ من ومعناه (وإن تدعهم) يا محمد (إلى الهدى) إلى الإيمان (فلن يهتدوا) فلا يكون منهم اهتداء البتة (إذا) جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سببا في انتفائه وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله ما لي لا أدعوهم حرصا على إسلامهم فقيل وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا (أبدا) مدة التكليف كلها (وربك الغفور) البليغ المغفرة (ذو الرحمة) الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أي ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلا مع فرط عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بل لهم موعد) وهو يوم بدر [illegible] (لن يجدوا من دونه موئلا) منجا ولا ملجأ يقال وأل إذا نجا ووأل إليه إذا لجأ إليه (وتلك) مبتدأ (القرى) صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس والخبر (أهلكناهم) أو تلك القرى نصب بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم والمراد قوم نوح وعاد وثمود (لما ظلموا) مثل ظلم أهل مكة (وجعلنا لمهلكهم موعدا) وضربنا لإهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الإهلاك ووقته وبفتح الميم وكسر اللام حفص وبفتحهما أبو بكر أي لوقت هلاكهم أو لهلاكهم والموعد وقت أو مصدر (وإذ) واذكر إذ (قال موسى لفتاه) هو يوشع بن نون وإنما قيل فتاه لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم

عباس أي عيانا من المقابلة وقيل فجأة قوله سبحانه وتعالى (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) أي بالثواب على الطاعة (ومنذرين) بالعقاب لمن عصى (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم أبعث الله بشرا رسولا وقولهم للرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا وشبه ذلك (ليدحضوا) أي ليبطلوا (به الحق) ويزيلوه (واتخذوا آياتي وما أنذروا) وبه خوفوا يعني القرآن (هزوا) [illegible] وهو القرآن استهزاء قوله عز وجل (ومن أظلم ممن ذكر) أي وعظ (بآيات ربه فأعرض عنها) أي تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها (ونسي ما قدمت يداه) أي ما عمل من المعاصي من قبل (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أي أغطية (أن يفقهوه) يريد لئلا يفهموه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا وصمما (وإن تدعهم) يا محمد (إلى الهدى) أي الدين (فلن يهتدوا إذا أبدا) وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون (وربك الغفور) أي البالغ المغفرة (ذو الرحمة) أي الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم) أي يعاقب الكفار (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أي في الدنيا (بل لهم موعد) يعني البعث والحساب (لن يجدوا من دونه موئلا) أي ملجأ (وتلك القرى) يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم (أهلكناهم لما ظلموا) أي كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي أجلا لإهلاكهم قوله سبحانه وتعالى (وإذ قال موسى لفتاه) الآيات أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران من سبط لاوي بن يعقوب صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الأحبار أنه موسى بن ميشا من أولاد يوسف بن يعقوب وكان قد تنبأ قبل موسى بن عمران والقول الأول أصح بدليل أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر في كتابه العزيز موسى إلا أراد به صاحب التوراة فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ولو أراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بها وتزول الشبهة فلما لم يميزه علمنا أنه موسى بن عمران صاحب التوراة وأما فتاه فالأصح أنه يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته وقيل إنه أخو يوشع وقيل إن فتاه يعني عبده يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي (ق) عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن موسى عليه السلام قام

خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله
سبحانه وتعالى إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ
معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق
وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما فاضطرب الحوت في
المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء
فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما
حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى
النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال له فتاه أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت
الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال فكان للحوت سربا
ولموسى ولفتاه عجبا فقال موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا قال رجعا يقصان آثارهما
حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب أبيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى
بأرضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال
إنك لن تستطيع معي صبرا يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله
علمكه الله لا أعلمه فقال موسى ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا فقال له الخضر فإن
اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم
سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا السفينة لم يفجأ موسى
إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى
سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال
لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت
الأولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له
الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من
السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر
رأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم
أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا قال وهذه أشد من الأولى قال إن سألتك عن شيء بعدها
فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن
يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض أي مائلا فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال
موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك
سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لوددت
أنه صبر حتى يقص علينا من أخبارهما قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم
ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وفي
رواية عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قام موسى عليه السلام فذكر الناس
يوما حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال أي رسول الله هل في الأرض
أحد أعلم منك قال لا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى فقال بلى قال أي رب وأين هو قال
بمجمع البحرين قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح وفي رواية تزود حوتا مالحا فإنه حيث
يفقد الحوت زاد في رواية وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي

(لا أبرح) لا أزال أسير فحذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه أما الأول فلأنها كانت حال سفر وأما الثاني فلأن قوله (حتى أبلغ مجمع البحرين) غاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له فلا بد أن يكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحر فارس والروم وسمي خضرا لأنه أينما يصلي يخضر ما حوله (أو أمضي حقبا) أو أسير زمانا طويلا قيل ثمانون سنة روي أنه لما ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بني اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه أي عبادك أحب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال فأي 242 عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان في عبادك من هو أعلم مني فدلني عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يا رب كيف لي به قال تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع في البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر فأتيا الصخرة فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال وأنى بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا (فلما بلغا مجمع بينهما) مجمع البحرين (نسيا حوتهما) أي نسي أحدهما وهو يوشع لأنه كان صاحب الزاد دليله فاني نسيت الحوت وهو كقولهم نسوا زادهم وانما ينساه متعهد الزاد قيل كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا فيه ليلة على شاطئ عين الحياة ونام موسى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت في الماء (فاتخذ سبيله في البحر) أي اتخذ طريقا له من البر الى البحر (سربا) نصب على المصدر أي سرب فيه سربا يعني دخل فيه واستتر (فلما جاوزا) مجمع البحرين ثم نزلا وقد سارا ما شاء الله (قال) موسى (لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك (قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) هي موضع الموعد (فاني نسيت الحوت) ثم اعتذر فقال (وما أنسانيه) وبدل منه (الا الشيطان) بالقاء الخواطر في القلب (أن أذكره) بدل من الهاء في أنسانيه أي وما أنساني ذكره الا الشيطان (واتخذ سبيله في البحر عجبا) وهو أن أثره بقي الى حيث سار

فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ورجعنا الى التفسير قوله سبحانه وتعالى (لا أبرح) أي لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) قيل أراد بحر فارس والروم مما يلي المشرق وقيل طنجة وقيل افريقية (أو أمضي حقبا) يعني أو أسير دهرا طويلا والحقب ثمانون سنة فحمل خبزا وسمكة مالحة في المكتل وهو الزنبيل الذي يسع خمسة عشر صاعا ومضيا حتى انتهيا الى الصخرة التي عند مجمع البحرين وعندها عين تسمى عين الحياة لا تصيب شيئا الا حيي فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت في المكتل وعاشت ودخلت في البحر (فلما بلغا) يعني موسى وفتاه (مجمع بينهما) أي بين البحرين (نسيا) أي تركا (حوتهما) وانما كان الحوت مع يوشع بن نون وهو الذي نسيه وانما أضاف النسيان اليهما لأنهما تزوداه لسفرهما وقيل المراد من قوله نسيا حوتهما أي نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب (فاتخذ) أي الحوت (سبيله في البحر سربا) أي مسلكا وروى أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فاذا هو بالخضر قال ابن عباس جعل الحوت لا يمس شيئا من البحر الا يبس حتى صار صخرة وقد روينا أنهما لما انتهيا الى الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى اذا كانا من الغد وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاوزا) يعني ذلك الموضع وهو مجمع البحرين (قال) يعني موسى (لفتاه آتنا غداءنا) أي طعامنا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أي تعبا وشدة وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعدما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع في طلبه (قال) يعني يوشع (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) وهي صخرة كانت بالموضع الموعود (فاني نسيت الحوت) أي تركته وفقدته وذلك أن يوشع حين رأى من الحوت ذلك قام ليدرك موسى فيخبره فنسي أن يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم قال (وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره) أي وما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت الا الشيطان قيل المراد من النسيان شغل قلب الانسان بوساوس الشيطان التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد الذكر لأن ذلك لا يصح الا من قبل الله تعالى (واتخذ سبيله في البحر عجبا) قيل هذا من قول يوشع بن نون يعني وقع الحوت في البحر فاتخذ سبيله

(قال ذلك ما كنا نبغ) نطلب وبالياء مكي وافقه أبو عمرو وعلي ومدني في الوصل وبغير ياء فيهما غيرهم اتباعا لخط المصحف وذلك اشارة الى اتخاذه سبيلا أي ذلك الذي كنا نطلب لان ذهاب الحوت كان علما على لقاء الخضر عليه السلام (فارتدا على آثارهما) فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه (قصصا) يقصان قصصا أي يتبعان آثارهما اتباعا قال الزجاج القصص اتباع الاثر (فوجدا عبدا من عبادنا) أي الخضر راقدا تحت ثوب أو جالسا في البحر (آتيناه رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة أو العلم أو طول الحياة (وعلمناه من لدنا علما) يعني الاخبار بالغيوب وقيل العلم اللدني ما حصل للعبد بطريق الالهام (قال له موسى هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا) اي علما ذا رشد أرشد به في ديني رشدا أبو عمرو وهما لغتان كالبخل والبخل وفيه دليل على انه لا ينبغي لاحد ان يترك طلب العلم وان كان قد بلغ نهايته وان يتواضع لمن هو أعلم منه (قال انك لن تستطيع معي) وبفتح الياء حفص وكذا ما بعده في هذه السورة (صبرا) اي عن الانكار والسؤال (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) تمييز نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد وعلل ذلك بانه يتولى امورا هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك ان لا يشمئز اذا رأى ذلك فكيف اذا كان نبيا (قال ستجدني ان شاء الله صابرا) من الصابرين عن الانكار والاعتراض (ولا أعصي لك أمرا) في محل النصب عطف على صابرا أي ستجدني صابرا وغير عاص أو هو عطف على ستجدني ولا محل له (قال فان اتبعتني فلا تسألني) بفتح اللام وتشديد النون مدني وشامي وبسكون اللام وتخفيف النون غيرهما والياء ثابتة فيهما اجماعا (عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) أي فمن شرط اتباعك لي انك اذا رأيت مني شيئا وقد علمت انه صحيح الا انه خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك ان لا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك وهذا من أدب المتعلم مع العالم أو المتبوع مع التابع (فانطلقا

فيه مسلكا وروي في الخبر كان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا وقيل اي شيء أعجب من حوت يؤكل منه دهرا ثم صار حيا بعدما أكل بعضه قوله عز وجل (قال) يعني موسى (ذلك ما كنا نبغ) أي نطلب (فارتدا على آثارهما قصصا) أي رجعا يقصان الذي جاءا منه ويتبعانه (فوجدا عبدا من عبادنا) قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذي ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء في التواريخ انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب له سمي به لانه جلس على فروة بيضاء فاخضرت (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما سمي خضرا لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله وروينا ان موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وأنى بارضك السلام قال أنا موسى أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ومعنى مسجى بثوب أي مغطى بثوب وقوله وأنى بارضك السلام معناه من أين بارضك التي أنت فيها الآن السلام وروي انه لقيه على طنفسة خضراء على جانب البحر فذلك قوله سبحانه وتعالى فوجدا عبدا من عبادنا (آتيناه رحمة) أي نعمة (من عندنا وعلمناه من لدنا علما) أي علم الباطن الهاما ولم يكن الخضر نبيا عند أكثر أهل العلم فان قلت ظاهر هذه الآيات يدل على ان الخضر كان أعلى شأنا من موسى وكان موسى يظهر التواضع له والتأدب معه قلت لا يخلو اما أن يكون الخضر من بني اسرائيل أو من غيرهم فان كان من بني اسرائيل فهو من أمة موسى ولا جائز ان يكون أحد الامة أفضل من نبيها وأعلى شأنا منه وان كان من غير بني اسرائيل فقد قال الله تعالى لبني اسرائيل واني فضلتكم على العالمين أي على عالمي زمانكم (قال له موسى هل أتبعك) معناه جئت لاتبعك واتبعك (على أن تعلمن مما علمت رشدا) أي صوابا وقيل علما ترشدني به وفي بعض الاخبار قال الخضر لموسى كفى بالتوراة علما وبني اسرائيل شغلا فقال له موسى ان الله أمرني بهذا الغيبة (قال) الخضر لموسى (انك لن تستطيع معي صبرا) وانما قال ذلك لانه علم انه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للانبياء الصبر مع المنكرات ثم بين عذره في ترك الصبر فقال (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أي علما (قال) موسى (ستجدني ان شاء الله صابرا) انما استثنى لانه لم يثق من نفسه بالصبر (ولا أعصي لك أمرا) أي لا أخالفك فيما تأمرني به (قال فان اتبعتني) أي فان صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه ثم شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألني عن شيء) أي عما أعمله مما تنكره ولا تعترض عليه (حتى أحدث لك منه ذكرا) معناه حتى أبتدئ بذكره فأبين لك شأنه قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا) أي يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص وأمروهما بالخروج فقال

حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركباها قال أهلها هما من اللصوص وقال صاحب السفينة أرى وجوه الأنبياء فحملوهما بغير نول فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ثم (قال أخرقتها لتغرق أهلها) ليغرق حمزة وعلي من غرق (لقد جئت شيئا إمرا) أتيت شيئا عظيما من أمر الأمر إذا عظم (قال) أي الخضر (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا) فلما رأى موسى أن الخرق لا يدخله الماء ولم يغرق من السفينة ٢٤٤ (قال لا تؤاخذني بما نسيت) بالذي نسيته أو بشيء نسيته أو بنسياني أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي أو أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة (ولا ترهقني من أمري عسرا) رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه أي ولا تغشني عسرا من أمري وهو اتباعه إياه أي ولا تعسر علي متابعتك ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) قيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه ثم ذبحه بالسكين وإنما قال فقتله بالفاء وقال خرقها بغير فاء لأن خرقها جعل جزاء الشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه والجزاء (قال أقتلت نفسا) وإنما خولف بينهما لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام (زكية) زاكية حجازي وأبو عمرو وهي الطاهرة من الذنوب إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت أو لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث (بغير نفس) أي لم تقتل نفسا فيقتص منها وعن ابن يقول عباس رضي الله تعالى عنهما أن نجدة الحروري كتب إليه كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب إليه إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل (لقد جئت شيئا نكرا) وبضم الكاف مدني وشامي ويعقوب وأبو بكر وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة وقيل معناه جئت شيئا أنكر من الأول لأن الخرق يمكن تداركه بالسد ولا يمكن تدارك القتل (قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) زاد لك هنا لأن النكير فيه أكثر (قال إن سألتك عن شيء بعدها) بعد هذه الكرة أو المسألة (فلا تصاحبني

صاحب السفينة ما هم بلصوص ولكن أرى وجوه الأنبياء وروينا عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول أي بغير عوض ولا عطاء فلما لججوا في البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة فذلك قوله تعالى (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال) يعني موسى له (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا) أي أتيت شيئا عظيما منكرا روي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق (قال) العالم وهو الخضر (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال) يعني موسى (لا تؤاخذني بما نسيت) قال ابن عباس إنه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيئا آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وقال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقني) أي لا تغشني (من أمري عسرا) والمعنى لا تعسر علي متابعتك ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة وقيل لا تكلفني مشقة ولا تضيق علي أمري (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاما ظريفا وضيء الوجه كان وجهه يتوقد حسنا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين وروي أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وفيه وأشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروي أنه رضخ رأسه بحجر وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله قال ابن عباس كان غلاما لم يبلغ الحنث ولم يكن نبي الله موسى يقول أقتلت نفسا زاكية إلا وهو صبي لم يبلغ الحنث وقيل كان رجلا وقيل كان اسمه حيسور وقيل كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه وقيل كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه (ق) عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا لفظ مسلم (قال) يعني موسى (أقتلت نفسا زاكية) أي لم تذنب قط وقرئ زكية وهي التي أذنبت ثم تابت (بغير نفس) أي لم تقتل نفسا يجب عليها القتل (لقد جئت شيئا نكرا) أي منكرا فظيعا وقيل النكر أعظم من الإمر لأنه حقيقة الهلاك وفي خرق السفينة خوف الهلاك وقيل الإمر أعظم لأن فيه تغريق جمع كثير وقيل معناه لقد جئت شيئا أنكر من الأول لأن ذاك كان خرقا يمكن تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه (قال) يعني الخضر (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) قيل زاد في هذه الآية قوله لك لأنه نقض العهد مرتين وقيل إن هذه اللفظة توكيد للتوبيخ فعند هذا (قال) موسى (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) قيل إن يوشع كان

قد بلغت من لدني عذرا) أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق ولدني بتخفيف النون مدني وأبو بكر (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) هي انطاكية أو الابلة وهي أبعد أرض الله من السماء (استطعما أهلها) استضافا (فأبوا أن يضيفوهما) ضيفه أنزله وجعله ضيفه قال عليه السلام كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التي تبخل بالقرى (فوجدا فيها) في القرية (جدارا) طوله مائة ذراع (يريد أن ينقض) يكاد يسقط استعيرت الارادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك (فأقامه) بيده أو مسحه بيده فقام واستوى أو نقضه وبناه كانت الحال حال اضطرار وافتقار الى المطعم وقد لجأتهما الحاجة الى آخر كسب المرء وهو المسألة فلم يجدا مواسيا فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة ان (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) اى لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفع به الضرورة لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وادغام الذال بصري وباظهارها مكي وبتشديد التاء وفتح الخاء واظهار الذال حفص وبتشديد التاء وفتح الخاء وادغام الذال في التاء غيرهم والتاء في تخذ أصل كما في تبع واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الاخذ في شيء (قال هذا فراق بيني وبينك) هذا اشارة الى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض سبب الفراق والاصل هذا فراق بيني وبينك وقد قرئ به أضيف المصدر الى الظرف كما يضاف الى المفعول به (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون في البحر (فأردت أن أعيبها) أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) امامهم أو خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره فأعلم الله به الخضر وهو جلندى (يأخذ كل سفينة غصبا) أي يأخذ كل سفينة صالحة لا عيب فيها غصبا وان كانت معيبة تركها وهو مصدر أو مفعول له فان قلت قوله فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب قلت المراد به التأخير وانما قدم للعناية

يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه قال موسى ان سألتك عن شيء بعدها هذه المرة فلا تصاحبني أي فارقني ولا تصاحبني (قد بلغت من لدني عذرا) قال ابن عباس اى قد أعذرت فيما بيني وبينك وقيل معناه اتضح لك العذر في مفارقتي والمعنى انه مدحه بهذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة (ق) عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا انه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فلو صبر لرأى العجب قوله ذمامة هو بالذال المعجمة أي حياء واشفاق من الذم واللوم فقال ذممته ذمامة يعني لتمه ملامة ويشهد له قول الخضر هذا فراق بيني وبينك قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس يعني انطاكية وقيل الابلة وهي أبعد الارض من السماء وقيل هي بلدة بالاندلس (استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما وروي انهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فلم يضيفوهما وعن أبي هريرة قال أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعا لنسائهم ولعن رجالهم وعن قتادة قال شر القرى التي لا تضيف الضيف (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يسقط وهذا من مجاز الكلام لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول داري تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير لها النظر كما استعير للجدار الارادة (فأقامه) أي سواه وفي حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده هكذا فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه (قال) يعني موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) يعني على اصلاح الجدار جعلا والمعنى انك قد علمت انا جياع وان أهل القرية لم يطعمونا فلو اتخذت على عملك أجرا (قال) يعني الخضر (هذا فراق بيني وبينك) يعني هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل هذا الانكار على ترك أخذ الاجر هو المفرق بيننا (سأنبئك) أي سوف أخبرك (بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) وقيل ان موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني فقال الخضر (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر أي يؤجرونها ويكتسبون بها وفيه دليل على ان المسكين وان كان يملك شيأ لا يزول عنه اسم المسكنة اذا لم يقم ما يملكه بكفايته وان حال الفقير في الفقر والحاجة أشد من حال المسكين لان الله سبحانه وتعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (فأردت أن أعيبها) اى أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) اى امامهم وقيل خلفهم وكان رجوعهم في طريقهم عليه والاول أصح (يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صالحة فخرقتها وعيبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه

(وأما الغلام) وكان اسمه الحسين (فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شراً وبلاء أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وهو من كلام الخضر وإنما خشي الخضر ٢٤٦ منه ذلك لأنه تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وإن كان من قول الله تعالى فمعنى فخشينا فعلمنا أن عاش لصيرهما الكفر والديه (فأردنا أن يبدلهما ربهما) يبدلهما ربهما مدني وأبو عمرو (خيراً منه زكاة) طهارة ونقاء من الذنوب (وأقرب رحماً) رحمة وعطفاً وزكاة ورحماً تمييز روي أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبياً أو سبعين نبياً أو أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما رحماً شامي وهما لغتان (وأما الجدار فكان لغلامين) أصرم وصريم (يتيمين في المدينة) هي القرية المذكورة (وكان تحته كنز لهما) أي لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله أو مال مدفون من ذهب وفضة أو صحف فيها علم والأول أظهر وعن قتادة أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا (وكان أبوهما) قيل جدهما السابع (صالحاً) اعتبر به وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله مال الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبي وجدي خير منه (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أي الحلم

الجلندي الأزدي وكان كافراً وقيل كان اسمه هدد بن بدد وروي أن الخضر انتهى إلى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها فإذا جاوز أصلحوها وانتفعوا بها قوله عز وجل (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا) أي علمنا والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه وقيل معناه فعلمنا (أن يرهقهما) أي يغشيهما وقيل يكلفهما (طغياناً وكفراً) قيل معناه فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما) الإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه (خيراً منه زكاة) أي صلاحاً وتقوى وقيل هو في مقابلة قوله تعالى أقتلت نفساً زكية فقال الخضر أردنا أن يرزقهما الله خيراً منه زكاة (وأقرب رحماً) أي ويكون البدل منه أقرب عطفاً وبرة بأبويه أن يرحمهما ويشفق عليهما قيل أبدلهما جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم وقيل ولدت سبعين نبياً وقيل أبدلهما غلاماً مسلماً وقيل إن الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب قوله سبحانه وتعالى (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة) قيل كان اسمهما أصرم وصريم (وكان تحته كنز لهما) روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان الكنز ذهباً وفضة أخرجه الترمذي وقيل كان الكنز صحفاً فيها علم وقال ابن عباس كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجباً لمن أيقن بالقدر كيف ينصب عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل عجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه وقيل الكنز إذا أطلق يراد به المال ومع التقييد يراد به غيره يقال عنده فلان كنز علم وكان هذا اللوح جامعاً لهما (وكان أبوهما صالحاً) قيل إن اسمه كاشح وكان من الأتقياء قال ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم وقال سعيد بن المسيب إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أي يدركا شدتهما وقوتهما وهو البلوغ وقيل ثماني عشرة سنة فإن قلت كيف قال في الأول فأردت وفي الثاني فأردنا وفي الثالثة فأراد ربك وما وجه كل واحد من هذه الألفاظ قلت إنه لما ذكر العيب أضافه إلى نفسه على سبيل الأدب مع الله تعالى فقال فأردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الباطن وعلوم الحكمة وأنه لم يقدم على مثل هذا القتل إلا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية المصالح في مال اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله سبحانه وتعالى لأن حفظ الأبناء وصلاح أحوالهم لرعاية حق الآباء ليس إلا لله سبحانه وتعالى

(ويستخرجا كنزهما رحمة) مفعول له أو مصدر منصوب بأراد ربك لأنه في معنى رحمهما (من ربك وما فعلته) أي ما فعلت ما رأيت (عن أمري) عن اجتهادي وإنما فعلته بأمر الله والهاء تعود إلى الكل أو إلى الجدار (ذلك) أي الأجوبة الثلاثة (تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) حذف التاء تخفيفا وقد زل أقدام أقوام من الضلال في تفضيل الولي على النبي وهو كفر جلي حيث قالوا أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولي والجواب أن الخضر نبي وإن لم يكن كما زعم البعض فهذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام على أن أهل الكتاب يقولون إن موسى هذا ليس موسى بن عمران إنما هو موسى بن ٢٤٧ ماثان ومن الضلال أن يكون الولي وليا بإتيانه بالنبي ثم يكون النبي دون الولي ولا غضاضة في طلب موسى العلم لأن الزيادة في العلم مطلوبة وإنما ذكر أولا فأردت لأنه إفساد في الظاهر وهو فعله وثانيا فأراد ربك لأنه إنعام محض وغير مقدور البشر وثالثا فأردنا لأنه إفساد من حيث الفعل إنعام من حيث التبديل وقال الزجاج معنى فأردنا فأراد الله عز وجل ومثله في القرآن كثير (ويسألونك) أي اليهود على جهة الامتحان أو أبو جهل وأشياعه (عن ذي القرنين) هو الإسكندر الذي ملك الدنيا قيل ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبختنصر وكان بعد نمرود وقيل كان عبدا صالحا ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل نبيا وقيل ملكا من الملائكة وعن علي رضي الله عنه أنه قال ليس بملك ولا نبي ولكن كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمي ذا القرنين وفيكم مثله أراد نفسه قيل كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى وقال عليه السلام سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا يعني جانبيها شرقها وغربها وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان أو انقرض في وقته قرنان من الناس أو لأنه ملك الروم وفارس أو الترك والروم أو كان لتاجه قرنان أو على رأسه ما يشبه القرنين أو كان كريم الطرفين أبا وأما أو كان من الروم

فلأجل ذلك أسنده إلى الله تعالى (ويستخرجا كنزهما) يعني إذا بلغا وعقلا وقويا (رحمة من ربك) أي نعمة من ربك (وما فعلته عن أمري) أي باختياري ورأيي بل فعلته بأمر الله وإلهامه إياي لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أحوالهم لا يكون إلا بالنص وأمر الله تعالى واستدل بعضهم بقوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري على أن الخضر كان نبيا لأن هذا يدل على الوحي وذلك للأنبياء والصحيح أنه ولي لله وليس بنبي وأجيب عن قوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري أنه إلهام من الله سبحانه وتعالى له بذلك وهذه درجة الأولياء وقيل معناه إنما فعلت هذه الأفعال لغرض أن تظهر رحمة الله لأنها بأسرها ترجع إلى معنى واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أي لم تطق أن تصبر عليه روي أن موسى عليه السلام لما أراد أن يفارق الخضر قال أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلب العلم لتعمل به واختلف العلماء في أن الخضر أحي أم ميت فقيل إنه حي وهو قول الأكثرين من العلماء وهو متفق عليه عند مشايخ الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة والحكايات في رؤيته والاجتماع به ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاواه هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة هذا آخر كلامه وقيل إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان السبب في حياة الخضر فيما حكي أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكرا لله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق فرجع وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله سبحانه وتعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعدما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده وقوله عز وجل (ويسألونك عن ذي القرنين) قيل اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الإسكندر بن فيلفوس كذا صح الرومي وكان ولد عجوز ليس لها ولد غيره ونقل الإمام فخر الدين في تفسيره عن أبي الريحان البيروني المنجم في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أنه من حمير واسمه أبو كرب سمي بن عمير بن أفريقيس الحميري وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول

قد كان ذو القرنين جدي مسلما * ملكا علا في الأرض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب ملك من كريم مرشد
فرأى مآب الشمس عند غروبها * في عين ذي خلب وثأط حرمد

(قل سأتلو عليكم منه) من ذي القرنين (ذكرا إنا مكنا له في الارض) بسطنا له فيها مكانة واعتلاء (وآتيناه من كل شيء) أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه (سببا) طريقا موصلا إليه (فأتبع سببا) والسبب ما يتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة فأراد بلوغ المغرب فأتبع سببا يوصله اليه حتى بلغ وكذلك أراد المشرق فأتبع سببا وأراد بلوغ السدين فأتبع سببا فأتبع ثم أتبع كوفي وشامي الباقون بوصل الالف وتشديد التاء عن الاصمعي أتبع لحق واتبع اقتفى وان لم يلحق (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أي منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع قال صلى الله عليه وسلم به أمره انه وجد في الكتب ان أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد فجعل يسير في طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين (وجدها تغرب في عين حمئة) ذات حمأة من حمئت البئر اذا صارت فيها الحمأة حامية شامي وكوفي غير حفص بمعنى حارة وعن أبي ذر كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب في عين حمئة وكان ابن عباس رضي الله عنهما عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأها فقال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة والحمئة ما فيه ماء وحمأة فوافق قول ابن عباس رضي الله عنهما ولا تنافي فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا (ووجد عندها) عند تلك العين (قوما) عراة من الثياب لباسهم جلود الصيد وطعامهم ما لفظ البحر وكانوا كفارا

قوله فرأى مآب الشمس أي ذهاب الشمس وقوله في عين ذي خلب أي حمأة والثأط الحمأة أيضا والجمع ثأط والحرمد الطين الاسود وقيل سمي ذا القرنين لانه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك فارس والروم وقيل لانه دخل النور والظلمة وقيل لانه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني الشمس وقيل لانه كان له ذؤابتان حسنتان وقيل كان له قرنان تواريهما العمامة وروي عن علي انه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الايمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الايسر فمات فأحياه الله واختلفوا في نبوته فقيل كان نبيا ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى قلنا يا ذا القرنين وخطاب الله لا يكون الا مع الانبياء وقيل لم يكن نبيا قال أبو الطفيل سئل علي عن ذي القرنين أكان نبيا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا أحب الله فأحبه الله وناصح الله فناصحه الله وروي ان عمر سمع رجلا يقول لآخر يا ذا القرنين فقال تسميتم بأسماء الانبياء فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة والاصح الذي عليه الاكثرون انه كان ملكا صالحا عادلا وانه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وأجابوه وهداه والقدر المعمور من الارض وذلك انه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن دانت له ملوك ثم مضى الى ملوك المغرب وقهرهم ومضى حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم رجع الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس وقرب فيه القربان ثم انعطف الى أرمينية وباب الابواب وبنى السد ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر واستولى على ممالك الفرس ثم مضى الى الهند والصين وغزا الامم البعيدة ثم رجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل الى حيث هو مدفون وقيل ان عمره كان ألفا وثلاثين سنة ومثل هذا الملك البسيط الذي هو على خلاف العادات وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الارض وذلك قوله سبحانه وتعالى ويسألونك عن ذي القرنين (قل سأتلو عليكم منه ذكرا) أي خبرا يتضمن ذكره قوله سبحانه وتعالى (انا مكنا له في الارض) أي وطأنا له والتمكين تمهيد الاسباب قال علي سخر الله له السحاب فحمل عليه ومد له في الاسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير في الارض وذلل له طريقها (وآتيناه من كل شيء) مما يحتاج اليه الخلق وكل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الاعداء (سببا) أي علما يتسبب به الى كل ما يريد ويسير به في أقطار الارض وقيل بلاغا الى حيث أراد وقيل قربنا له أقطار الارض (فأتبع سببا) أي سلك طريقا (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) أي ذات حمأة وهي الطينة السوداء وقرئ حامية أي حارة وسأل معاوية كعبا كيف تجد في التوراة تغرب الشمس وأين تغرب قال نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين وقيل يجوز أن يكون معنى في عين حمئة أي عندها عين حمئة أو في رأي العين وذلك انه بلغ موضعا من المغرب لم يبق بعده شيء من العمران فوجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة كما أن راكب البحر يرى ان الشمس كأنها تغيب في البحر (ووجد عندها قوما) أي عند العين أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب يقال انها جابرس وتسمى بالسريانية جرجيسا يسكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا